الثورة الإسلامية فى إيران

الأسباب و المقدمات

صادق زيبا كلام

المشروع القومي للترجمة

729

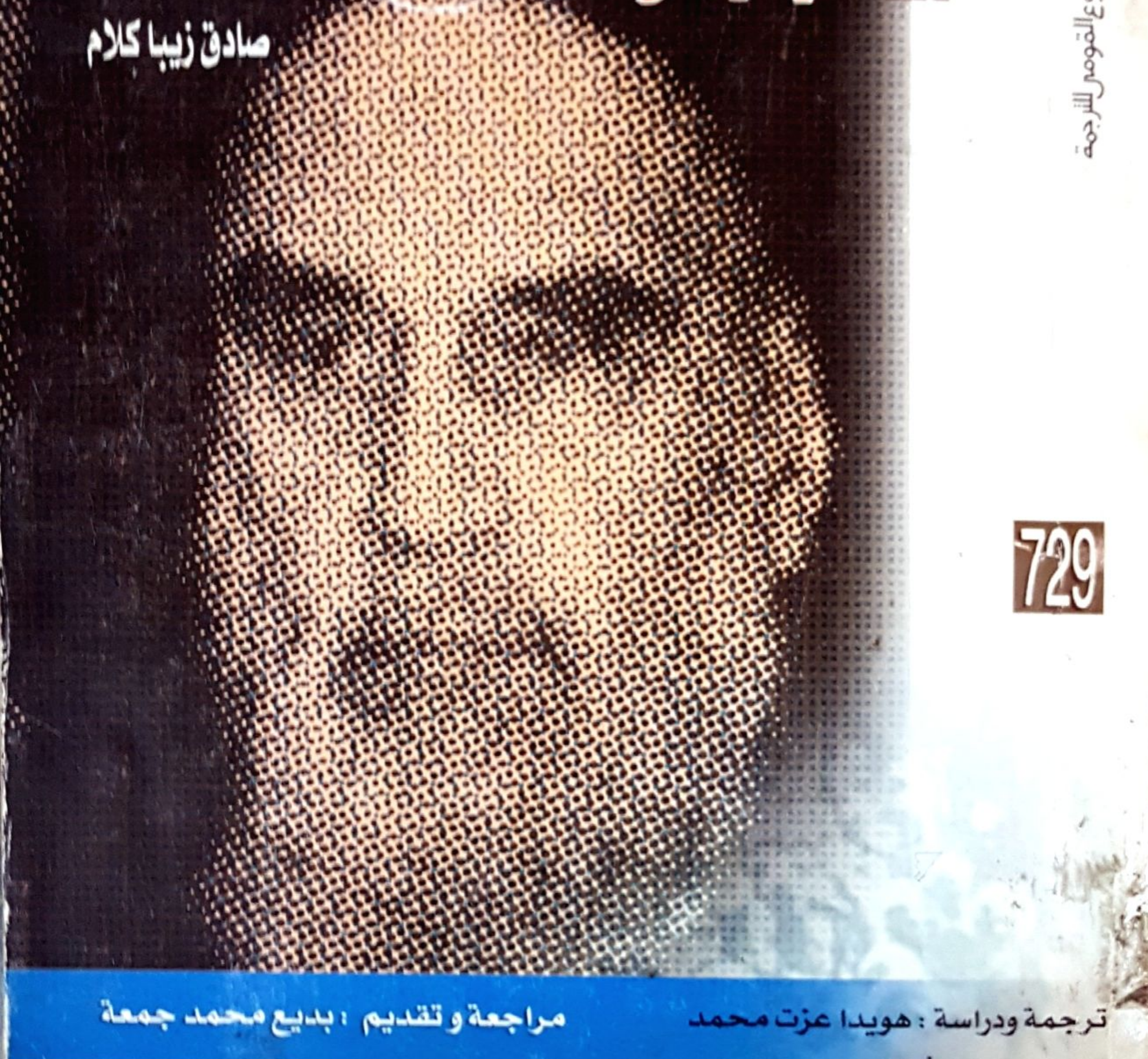

ترجمة ودراسة : هويدا عزت محمد

مراجعة و تقديم : بديع محمد جمعة

المشروع القومى للترجمة

إشراف : جابر عصفور

- العدد : ٧٢٩
- الثورة الإسلامية فى إيران : الأسباب والمقدمات
- صادق زيبا كلام
- هويدا عزت محمد
- بديع محمد جمعة
- الطبعة الأولى : ٢٠٠٤

هذه ترجمة كتاب :

مقدمة بر انقلاب اسلامى

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمجلس الأعلى للثقافة

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo

Tel. : 7352396 **Fax :** 7358084

تهدف إصدارات المشروع القومى للترجمة إلى تقديم مختلف الاتجاهات والمذاهب الفكرية للقارئ العربى وتعريفه بها ، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المجلس الأعلى للثقافة .

المحتويات

– تقديم المراجع	7
– تمهيد المترجمة	9
– أولاً : تقديم الترجمة العربية	13
– ثانيًا : الترجمة العربية للكتاب	55
– مقدمة الكاتب	57
الفصل الأول : لمَ قامت الثورة الإسلامية ؟	97
الفصل الثانى : نهاية عصر السراب	193
الفصل الثالث : كيف بدأت الأزمة ؟	209
الفصل الرابع : كارتر ، وحقوق الإنسان وإيران	237
الفصل الخامس : الانفتاح السياسى	271
الفصل السادس : أنماط المعارضين مع بداية الثورة	297
هوامش المترجم	373
ثبت بأسماء المصادر والمراجع	407

تقــديم المراجع

تعتبر الثورة الإسلامية فى إيران من أهم الأحداث العالمية التى حدثت فى الربع الأخير من القرن العشرين الميلادى ، وبخاصة فى منطقة الشرق الأوسط ، وإذا كانت الباحثة قد عنيت بدراسة هذا الحدث العظيم ، فإنها لم تكن تقصد سرد أحداث الثورة أو التأريخ لها ، وإنما كان القصد فى المقام الأول محاولة اكتشاف الأسباب الكامنة وراء هذا الحدث الإيرانى الكبير ، وقد وجدت الباحثة ضالتها فى كتاب من أهم الكتب المحايدة فى معالجة هذا الأمر ، ألا وهو كتاب "مقدمة برانقلاب إسلامى" أى "مقدمة للثورة الإسلامية" تأليف الأستاذ الدكتور صادق زيبا كلام ، والذى حاول قدر الطاقة أن يقدم إجابة علمية جادة بعيدة عن الإفراط أو التفريط حول هذه الأسباب التى فجرت الثورة الإسلامية وأسقطت عرش الطاووس الشاهنشاهى ، وأقامت حكومة إسلامية شيعية ، كانت ومازالت موضع اهتمام جميع المؤرخين العالميين ، وكذلك كبار الساسة فى العالم شرقه وغربه .

وقد تمثلت هذه الأسباب المفجرة للثورة فى فساد الشاه وساسته ؛ مما أدى إلى العديد من الأخطاء فى الداخل والخارج، وكذلك الإخفاق فى محاولات التنمية الاقتصادية وهيمنة المؤسسات الأمنية وبخاصة الساواك على جميع مناحى الحياة فى إيران ، مما خلق جوا من التوتر والترقب، وتطلع الإيرانيون للخلاص من هذا الكابوس الكامن فوق صدورهم والذى تزامن مع تزايد النفوذ الأجنبى فى إيران ، وأعاد إلى الأذهان شبح الامتيازات الأجنبية التى سبق أن عانى منها الشعب الإيرانى خلال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين .

كل هـذا أدى إلى كثرة الحركات الثورية المناهضة للشاه وأعوانه فى الداخل أو الخارج ، ولما كانت طبيعة الشعب الإيرانى ملتزما بدينه ملتفاً حول زعمائه الروحانيين ،

فإن تيار الإصلاح الدينى بقيادة آية الله الخمينى تقدم المسيرة ، والتفت معظم التيارات المناوئة حوله .

وهنا تفجرت الثورة وسقط محمد رضا شاه ، ولكن سرعان ماتخلص التيار الدينى من كل التيارات اليسارية أو اليمينية ، ولم يعد فى الساحة السياسية إلا التيار الدينى بكل توجهاته حتى اليوم .

ومما يحمد للباحثة أنها أجادت ترجمة الكتاب إلى اللغة العربية ، مما يعد إضافة جيدة للمكتبة العربية ، وللمهتمين بهذا الحدث التاريخى الضخم ، كما أجادت الباحثة التمهيد للموضوع موضحة بعض أبعاده الخافية على القارىء العربى ، وأجادت كذلك فى الدراسة الموفقة التى ألحقتها بالترجمة ، والتى تعد بحق إضافة أخرى إلى ما قدمه المؤلف فى كتابه .

وهكذا جاءت الترجمة والدراسة غاية فى التوفيق ، وهذا ما عهدناه من الباحثة الجادة الدكتورة هويدا عزت ، والتى أرجو لها كل تقدم وازدهار .

والله الموفق

أ . د/ بديع محمد جمعة

تمهيد المترجمة

شهد القرن العشرون أحداثًا جسامًا على المستوى العالمى ينبغى على المرء الوقوف عند بعضها بالدراسة والتحليل لأسباب عدة ؛ إما لعظم الحدث ذاته (كالحربين العالميتين الأولى والثانية) ، أو لعدم توقعه أو التنبؤ به (كقيام الثورة الإسلامية فى إيران وانهيار الاتحاد السوفيتى السابق) ، أو لوقوع المرء أحيانًا فى الحيرة والدهشة عند محاولة فهم المبررات الحقيقية له أو استنباط نتائجه (كالحروب المتتالية على الشعوب الإسلامية من قبل الولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها فى بعض المناطق بعينها بذريعة تحقيق أمن المنطقة واستقرارها ، أو تحت مسمى محاربة الإرهاب العالمى) . وهكذا نرى أن ثمة أحداثًا جديرة بحق بالوقوف عندها ، لكنها كما نرى أيضًا تقع خارج نطاق حديثنا ؛ لذا ، ومن منطلق إيمانى بأن قيام الثورة الإسلامية فى إيران يعد ضمن هذه الأحداث المهمة على المستويين العالمى والإقليمى ، فقد عكفت على قراءة ماتيسر لى من مؤلفات تتعلق بالعوامل التى أدت إلى ظهورها ، ومؤلفات أخرى تتعلق بكيفية تطور هذه العوامل وتصاعدها ، حتى أفضى الأمر فى النهاية إلى إعلان الجمهورية الإسلامية فى إيران ١٩٧٩م ، وكذلك بعض المؤلفات التى تناولت تطور الأحداث بعد إعلان النظام الإسلامى وأثره على كافة المستويات السياسية ، والاجتماعية ، والأدبية . بيد أن السمة الغالبة على معظم هذه المؤلفات – سواء المدون منها باللغة العربية أو باللغة الفارسية – هى رسم أو تصوير الثورة الإسلامية على نحو قد يتعدى حدود الواقعية ليصل إلى حد الإفراط والمبالغة ، خاصة فى تحديد دور طبقة رجال الدين – وفى مقدمتهم الزعيم الدينى آية الله الخمينى – التى أخذت على عاتقها العبء الأكبر فى الإطاحة بالنظام الشاهنشاهى السابق وإعلان الحكومة الإسلامية فى إيران .

واستمر بى الحال على هذا النحو إلى أن وقع بين يدىَّ أحد المؤلفات الفارسية ـ وهو ما ترجمته بين أيدينا الآن - حيث لفت انتباهى ، بل واجتذبنى بشدة لثلاثة عوامل أساسية ، أولها : أن مؤلف الكتاب - د . صادق زيبا كلام الأستاذ بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة طهران - حرص خلال عرضه لأسباب الثورة الإسلامية على أن يلزم جانب الواقعية دون أدنى تحيز أو تعصب لطبقة دون أخرى أو لطائفة دون غيرها ، وقد حالفه التوفيق فى هذا العرض بإيراده النظريات المختلفة فى كل قضية يطرحها ، حيث عرض علينا الاتجاهات والرؤى المتباينة داخل إيران أو خارجها ، ليخرج إلينا فى النهاية بفكرة واضحة يتقبلها العقل والمنطق ويستقيم بها سير الأحداث ، ثم يذكر لنا المبررات التى دعته إلى طرح غيرها من النظريات جانبًا .

ثانيًا : خروج الكتاب من إطار الصورة المألوفة لكتب الثورة . حيث خلع الكاتب عن الثورة ثوبها الدينى الصرف ، وألبسها ثوبًا سياسيًا ، واقتصاديًا واجتماعيًا . بمعنى أن الكاتب قد حرص على استنباط البواعث الحقيقية والدوافع الرئيسية التى أدت إلى تضافر قوى الشعب المختلفة فى آن واحد للوقوف ضد النظام السابق ، وإعلان راية العصيان والتمرد عليه ، رغم الازدهار الاقتصادى الملموس الذى حققه هذا النظام فى العشرين عامًا الأخيرة له .

ثالثًا : التفسير الذى قدمه الكاتب حول أسباب بروز طبقة رجال الدين فى تلك الآونة دون غيرها ، والاتجاه نحو مذهبية الثورة ، رغم وجود العديد من الاتجاهات الوطنية واليسارية بين قوى المعارضة الأخرى فى حلبة الصراع السياسى آنذاك .

هذا ويتألف الكتاب من ستة فصول تقع فى ثلاثمائة وخمس صفحات ، وتشغل المقدمة خمسًا وأربعين صفحة ، يرد فيها الكاتب على الانتقادات الموجهة إلى الكتاب ، ومن أهمها : إخراج الثورة من هويتها الإسلامية ، وتحجيم دور الزعيم الدينى آية الله الخمينى فى أحداث الثورة ، وتقديم الكاتب نظام الشاه على أنه كان يتمتع بنوع من الاستقلالية عن الغرب وخاصة أمريكا ، ودفاعه عن برامج الشاه الاقتصادية ، وإنكاره تأييد واشنطن للشاه حتى لحظاته الأخيرة. ثم يأتى الفصل الأول تحت عنوان "لِمَ قامت الثورة الإسلامية؟" وهو فى الحقيقة أكثر الفصول تفصيلاً ، يتضمن النظريات المطروحة حول أسباب الثورة ، كنظرية "افتراض التآمر"، و "التحديث السريع للمجتمع الإيرانى"،

و "التخبط الاقتصادى للنظام" ، و "الأصولية الإسلامية" . وفى نهاية الفصل يعرض الكاتب رؤيته حول أسباب الثورة الإسلامية.

والفصل الثانى تحت عنوان "نهاية عصر السراب"، يسعى فيه الكاتب إلى توضيح كيفية خطأ الشاه ومتحديه الغربيين -خاصة الأمريكيين - فى تقييم موقفه ومكانة نظامه ، وهذا التقييم الخاطىء كان له دور هام فى الأحداث والتطورات التى وقعت فى أوائل عام ١٩٧٧م ، حيث لم يتمكن الشاه ولامتحدوه من إدراك كنه هذه التطورات وطبيعتها أو إيجاد الحل تجاه ماأطلق عليه آنذاك "أزمة إيران" .

والفصل الثالث تحت عنوان "كيف بدأت الأزمة؟" ، يطرح الكاتب من خلاله الأحداث التى وقعت فى أعقاب فوز الديمقراطيين فى انتخابات الرئاسة الأمريكية عام ١٩٧٦م، ودخول "چيمى كارتر" البيت الأبيض ، وذلك فى إطار العلاقات الخاصة بين طهران وواشنطن فى عهد محمد رضا شاه . كما استعرض الأبعاد المختلفة التى أثرت بشكل مباشر على هذه العلاقات .

والفصل الرابع تحت عنوان "كارتر ، وحقوق الإنسان وإيران" ، يعرض فيه الكاتب ردود أفعال طهران إزاء السياسات الجديدة للحكومة الأمريكية التى تمثلت فى محورين أساسيين ، هما : موضوع حقوق الإنسان والحد من تصدير الأسلحة .

أما الفصل الخامس فهو تحت عنوان "الانفتاح السياسى" ، ويدور الحديث فيه حول الإجراءات التى قام بها نظام الشاه فيما يتعلق بتغيير وضع المعتقلين السياسيين، وإطلاق سراح العديد منهم ، والسماح للمنظمات الدولية المهتمة بحقوق الإنسان بالسفر إلى إيران وزيارة السجناء ومشاهدة أحوالهم عن كثب ، وإيجاد نوع من الحرية للمطبوعات والاجتماعات والسماح بطرح الانتقادات وتبادل الآراء .

وأخيراً يأتى الفصل السادس تحت عنوان "أنماط المعارضين مع بداية الثورة" ، يدور الحديث من خلاله تفصيلياً حول الجماعات والعناصر المناهضة لنظام الشاه فى الداخل والخارج ، مع ذكر ماهية كل منها ومعتقداتها والمسيرات التى قامت بها والنتائج المترتبة على ذلك .

وفى النهاية يحدونى الأمل فى أن تكون هذه الترجمة والدراسة المصاحبة لها وسيلة جيدة فى يد القارىء المصرى والعربى للتعرف على رؤية ذلك الباحث الإيرانى الجاد حول العوامل التى أفضت إلى قيام الثورة الإسلامية فى إيران ، وأتمنى من الله العلى القدير أن يوفقنى فى نقل هذه الرؤية بالشكل الذى ينبغى .

د . هويدا عزت محمد

القاهرة - ٢٠٠٣ م

أولاً

تقديم الترجمة العربية لكتاب

" مقدمة بر انقلاب اسلامى "

للدكتور صادق زيبا كلام

إعداد

دكتورة هويدا عزت محمد

قبل أن نخوض فى الحديث عن الأحداث والأسباب والعناصر التى ساهمت فى قيام ثورة إيران الإسلامية ، حرىٌ بنا فى البداية أن نتناول مفهوم الثورة الإسلامية ، التى استمدت منها ثورة إيران مقوماتها ، وجعلتها عنوانًا لها .

فمفهوم الثورة بشكل عام ، وكما هو متعارف عليه فى العلوم السياسية ، هو : "تغيير شامل وأساسى لنظام بالٍ ، يشمل هذا التغيير كافة المجالات السياسية ، والاجتماعية ، والاقتصادية ، وغالبًا مايواكب هذا التغيير العنف والدمار وإراقة الدماء"[1] .

أما مفهوم الثورة من الرؤية الإسلامية ، فهو نوع من الجهاد الباطنى تقوم به طائفة لله وفى سبيل الله ضد طائفة أخرى كافرة تصد عن طريق الله ، ويتضح ذلك فى قوله تعالى : ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ ﴾[2].

هذا الجهاد يتم دومًا لصالح فئة المستضعفين المظلومين ، ويستمد جذوره من العقيدة والإيمان بالله ، ويستند إلى حركة الأتقياء والصالحين الرائدة ، وثورة الشعب . وهذه الأركان الثلاثة (الإيمان بالله ، والحركة الرائدة ، وثورة الشعب) هى التى شكلت أيديولوچية الثورة الإسلامية ، وهى التى حظيت بنفوذ عميق بين أفراد الشعب الإيرانى ، باعتبار أن الدين الإسلامى هو دين الأغلبية فى المدن والقرى يعتنقه الغنى والفقير[3] ، لذا اكتسبت هذه الأيديولوچية مكان الصدارة دون غيرها من الأيديولوچيات المطروحة على الساحة آنذاك والتى تمثلت فى اتجاهين ، هما : "الوطنية" و "الماركسية" . وعلى الرغم من أن الأيديولوچية الوطنية قد اجتذبت إليها عددًا لابأس به من المثقفين ، والطلاب والمنتمين إلى الطبقات المتوسطة فى المدن ، ووضحت ملامحها جليًا فى إحداث الثورة الدستورية (١٩٠٦م) ، وحركة تأميم النفط (١٩٥١م) ، بيد أنها لم تتمكن من الحفاظ على مكانتها أو إيجاد قاعدة شعبية عريضة لها ؛ لأنها تعنى فى أبسط تعريفاتها : "اتحاد جماعة من الناس فى حدود جغرافية بعينها ، تجمعهم صفات

مشتركة فى العنصر ، والتاريخ ، واللغة ، والثقافة ، والعادات والتقاليد ، ويشكلون قوة واحدة ، ويطلقون على الآخرين أجانب أو أعداء يعرضون مصالحهم للخطر".[٤] وهذا النموذج قد اقتبس من المجتمع الغربى الليبرالى ، والمعايير التى كانت له لاتتفق والسمات الخاصة بالمجتمع الإيرانى ، الذى يتحدث غالبية أفراده اللغة الفارسية ، لكننا نجد من بينهم الإيرانيين والعرب والأتراك والمغول ، وعليه فهم لاينتمون إلى عنصر واحد .

أما الأيديولوچية الماركسية ، فعلى الرغم من الجهود التى قامت بها من خلال الأحزاب السياسية المعارضة للشاه (كما سنرى من بعد) ، إلا أنها أخفقت فى النهاية بسبب ماهيتها الإلحادية وارتباطها بموسكو ، واعتبرت إحدى الحيل السياسية الجديدة لروسيا السوڤيتية داخل إيران .

وعليه خلت الساحة للأيديولوچية الإسلامية التى تمكنت بالفعل من مواكبة الأحداث المتلاحقة ، فى ظل عقيدة الشعب وإيمانه ورفضه إقامة أى نوع من العلاقات بينه وبين النظام الديكتاتورى الظالم .

وتجسدت الحركة الرائدة للأتقياء والصالحين فى زعامة رجال الدين الذين اكتسبوا مكانة اجتماعية خاصة داخل المجتمع الإيرانى ، وكانوا يرون أن أسباب تخلف الإيرانيين يكمن فى انعدام القيم الثقافية الإسلامية بينهم . ولاريب أن الزعيم الدينى آية الله الخمينى قائد الثورة الإسلامية قد قدم النموذج الأمثل للزعامة لما اتسم به من صدق وصلابة وحماسة وحمية على الإسلام ، فأعاد إلى الإيرانيين هويتهم الإسلامية المفقودة ، وفرض الإسلام كقوة مستقلة فى مواجهة قوى الاستكبار .

أما فيما يتعلق بثورة الشعب ، فنجد أن إحدى خصائص ثورة إيران الإسلامية هو قيام الشعب كافة على قلب رجل واحد ، بحركة ذات هدف واحد ، تحت قيادة زعيم واحد . وقد احتوت هذه الثورة جميع العناصر وكافة الطبقات ، وانضم السنة والشيعة معًا فى خندق واحد مؤيدين سحق النظام الحاكم وإقامة نظام إسلامى . فقد روى أحد أهالى كردستان – وهو سنى المذهب – انطباعه عن الثورة ، قائلاً : "صحيح أننا سُنة ، لكننا قبل كل شىء مسلمون ، لا ، نحن قبل أى شىء إيرانيون ، نرغب فى رحيل الشاه ، يحيا الخمينى ، الموت للشاه"[٥] .

وكانت الشعارات التى يحملها المتظاهرون السنة فى كردستان هى نفسها الشعارات التى يحملها نظراؤهم الشيعة فى طهران ومشهد وغيرها من المدن الإيرانية .

هذه هى سمات الثورة الإسلامية التى اتضحت معالمها إبان ثورة إيران الإسلامية ، لكن ثمة عوامل مذهبية كان لها تأثيرها العميق على الثورة ، إذا ما تغاضينا عن ذكرها ، لما استطعنا أن نفهم طبيعة ماحدث فى إيران ، ولما استطعنا أيضًا أن نرد على الاستفسارات التى طرحها الكاتب حول كيفية احتواء التيار الإسلامى فى إيران لجميع التيارات الأخرى الموجودة فى الساحة السياسية ، وتوجيهها نحو الهدف الذى يريد ، بينما لم يحدث ذلك فى أى بلد إسلامى آخر رغم توفر نفس الظروف والملابسات التى توفرت لثورة إيران الإسلامية (المصدر، ص١١٠) .

ولاشك أن المنبع الحقيقى الذى استمدت منه ثورة إيران مقوماتها ، وما كان له أثر كبير فى إشعالها هو الفكر الثقافى الشيعى الذى قدم تفسيرات خاصة فيما يتعلق بمجابهة الظلم والشهادة (نفس الصفحة) ، فعن التصدى للظلم ، يقول د . على شريعتى : "إن الإسلام كثورة هو أيديولوچية إلهية جاءت لتحرر الطبقة المحكومة من ظلم الطبقة الحاكمة ، ولتهدم القيم اللا أخلاقية للطبقة الحاكمة"(٦) .

أما الشهادة ، فكانت السلاح الوحيد لدى الشيعة على طول تاريخهم فى مقابل كل القوة والغلبة والسيطرة التى كانت عند أعدائهم . فالحرب الشيعية على طول التاريخ حرب غير متكافئة ، بل هى نوع من الإقدام على الشهادة ، وإلا فهل يمكن أن نسمى موقعة كربلاء حربًا بين جيش الحسين (اثنين وسبعين رجلاً) ، وجيش يزيد (عدة آلاف) ؟! فالشهادة فى المفهوم الشيعى هى السبيل الوحيد للبقاء والدوام ، وهى التى دفعت جماهير الشعب خلال أحداث تلك الشهور الدامية للتصدى لدبابات الجيش ومصفحاته وأسلحته بصدور عارية (٧) .

أما فيما يتعلق بالاستقلال المادى الذى تميز به رجال الدين الشيعة عن نظرائهم السنة (المصدر، ص ١١٠ ، ١١١) فمرده فريضة الخمس ، وهى إحدى عقائد الشيعة التى منحت القوة لرجال الدين فى إيران ، فيرى الشيعة أنه حق فرضه الله تعالى لآل محمد (رضوان الله عليهم) تطبيقًا لما ورد فى الآية الكريمة: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ﴾(٨). وتدفع إلى الإمام إن كان ظاهرًا ،

أو إلى نائبه (المجتهد العادل) إن كان غائبًا لينفقه على الضعفاء والمساكين وغير ذلك من الوجوه الشرعية . وكان هذا الخمس يقدم فى إيران لرجال الحوزات العلمية من آيات الله العظام .

فضلاً عن ذلك كان رجال الدين فى إيران يحصلون على عوائد الوقف الخاص والعام مما أدى إلى منحهم قوة اقتصادية هائلة ، وإمكانية مستقلة إلى حد كبير عن الشاه وعن الحكومة ، وهذا الاستقلال المادى بعيداً عن الشاه وحكومته، جعلهم يقومون بدورهم السياسى والدينى دون خشية .

وعلى الرغم من افتقاد ثورة إيران بعض مقومات الثورات الأخرى كالجيش والتشكيلات المنظمة ، إلا أنها امتلكت شبكة اتصالات هائلة لم تتوفر لدى غيرها ، تمثلت فى المساجد (المصدر ، ص١٢٢) حيث أعاد إليها الخمينى حالة الحركة ودورها الرائد فى اتخاذ القرار وتحديد المصير كما كان الحال فى صدر الإسلام ، وقد لعبت المساجد دوراً هامًا فى أحداث الثورة ، حيث خطب رجال الدين فى المحراب وفوق المنبر لبيان الفكر السياسى الإسلامى ، ونشر أهداف الثورة ، وفضح مظالم النظام والآثار الوخيمة للنفوذ الأجنبى، كما قامت المساجد بدور الوسيط بين القيادة والأهالى . وقد أشار روبرت جراهام إلى دور المساجد فى النضال ، قائلاً : "إن المساجد جزء لايتجزء من حياة الأهالى والسوق ... وحينما يبدى رجال الدين معارضتهم إزاء سياسات الحكومة تتخذ آراؤهم طابع الشرعية وتصبح موضع اهتمام الأهالى حتى فى ظل أصعب الظروف . من ناحية أخرى ، فإن شبكة اتصالات رجال الدين ونظام المسجد قد هيأ لهم المجال للاتصال الجيد بكافة طبقات الشعب " (٩) .

وقد حرص الخمينى على تأكيد دور المسجد السياسى والمدنى ، يقول : "..... لقد انطلقت المعارك من المسجد ، وتم تدبير شئون الممالك الإسلامية فى المسجد ... كان المسجد فى عهد رسول الله (ﷺ) والخلفاء هو المركز السياسى للإسلام ، وكان الحديث فى خطبة الجمعة يدور حول كافة شئون المسلمين السياسية ، والحربية والمدنية "(١٠) .

وكان يؤكد دومًا على ضرورة التواجد النشط فى المساجد ، ويحذر من خطر انفصال الثورة عن المساجد فى قوله : "لاتخافوا من طائرات العدو ، بل خافوا من إخلاء المساجد"[١١] .

ولم يقلّ دور الحوزات العلمية عن دور المساجد فى إيران ، فكانت عبارة عن مؤسسة دينية مستقلة ، ولايعنى ذلك أنها كانت للسلطة بالمرصاد فى كل الأحوال ، أو أنها غاصت فى العمل السياسى حتى آذانها ، لكن وجودها المتميز والسمات التى حافظت عليها منذ نشأتها جعلتها قادرة على إفراز قيادات سياسية تستقطب الجماهير خارجها من ناحية ، وتربى قيادات جديدة تدفع بها إلى الساحة من ناحية أخرى . وما تمتعت به الحوزات من استقلال مادى تام مكن علماءها من اتخاذ موقف محدد تجاه أى نوع من الخلل يبدر عن النظام الحاكم. وحينما اشتعلت نار الثورة بزعامة الخمينى، أيدتها الحوزة وأكدت على مرجعية زعيمها ، وقامت بإصدار البيانات المتتالية بما يدعم النضال ويساهم فى انضمام مزيد من القوى إلى الثورة[١٢] .

وعن مكانة الحوزات العلمية واستقلالها المادى وريادتها فى التصدى لعوامل الاستعمار ، يحدثنا الخمينى فى قوله : "يجب على أمة الإسلام أن تعلم أن الخدمات التى قدمها علماء الدين إلى الدول الإسلامية على مدى التاريخ لاتعد ولاتحصى . وفى هذا العصر الأخير ، كان نجاة الدولة من السقوط الحتمى مرهونًا بمرجع ذلك العصر (ميرزا الشيرازى) وهمة العلماء. إن الحوزات العلمية وعلماءها الأعلام يسعون دومًا للحفاظ على استقلال الممالك الإسلامية وسيادتها ، وما قامت به الحوزات للحفاظ على أمن الدولة واستقرارها لم تقم بعشره الحكومات القوية ولا التشكيلات العسكرية ، ورغم ذلك لم تكلف الدولة أية نفقات . كما كانت الحوزات دومًا موضع أنظار الأجانب وعملائهم ، كثيرًا ماسعوا لهدم هذا الخندق العتيد كى يضمنوا الاستمرار فى تطاولهم وسلوكهم المخزى "[١٣] .

وإذا ما نحينا الجانب المذهبى جانبًا ، نجد العديد من الاستفسارات وعلامات الاستفهام وربما الاندهاش يحيط بثورة إيران الإسلامية . فذلك النظام الشاهنشاهى القوى بجيشه وبجهازه الأمنى ، المتمتع بتأييد القوى الأجنبية – وبخاصة أمريكا – ودعمها ، الساعى لإحداث حركة التنمية والتحديث فى شتى المجالات الاجتماعية ،

والاقتصادية والسياسية ، نجده قد تهاوى وسلم أمام تلك الفئة التى أطلق عليها "حفنة من الرجعيين المتشددين" وترك لهم الساحة . وكان لزامًا علينا أن نتلمس الأسباب والعوامل التى ساهمت فى هذا السقوط السريع ، والتى تمثلت فى مجموعتين ، الأولى: تتعلق بمجموع العوامل الداخلية . والأخرى : تتعلق بالعوامل الخارجية .

أولاً ، العوامل الداخلية

تهيأ المجتمع الإيرانى للثورة ضد محمد رضا شاه لعدة عوامل داخلية تعلقت بالأوضاع السياسية ، والاقتصادية والاجتماعية على النحو التالى :

١ - الأوضاع السياسية :

حينما تتسع الفجوة بين القوة السياسية وطبقات المجتمع يقوم ذلك المجتمع بثورة، وهذا ما حدث فى إيران إبان حكم محمد رضا شاه ، ففى عهده ، قلما وجدنا القوة السياسية تحظى بالقبول الاجتماعى أو بالقاعدة الشعبية . وتعتبر فترة الأربعة عشر عامًا الأولى لحكمه (١٩٤١ - ١٩٥٥م) من أكثر الفترات توترًا فى حياة إيران السياسية ، حيث وقعت تحت احتلال قوات الحلفاء ، وكان الشاه يدين بالولاء لهم لمساندتهم إياه للوصول إلى أريكة الحكم[١٤] .

وفى هذه الفترة ظهرت على الساحة السياسية فى إيران مجموعة من الأحزاب السياسية ، منها على سبيل المثال لا الحصر : "همراهان" ، "آزادى" ، "ميهن پرستان" ، "آرادهء ملى" ، "مليون إيران" ، "توده" ، "زحمتكشان ملت إيران" ، "دموكرات آذربايجان" ، "فدائيان إسلام" و "دموكرات"[١٥] .

ولكى يحكم الشاه قبضته ، قام بتشكيل أحزاب شبه عسكرية ، وبث عناصرها داخل الجيش والمجتمع ، منها : حزب "سوسياليزم ملى كارگران إيران"[١٦] واختصاره "سومكا" برئاسة داود منشى زاده ، وحزب " آريا"[١٧] ، وهو متفرع عن الحزب السابق وتولى رئاسته الفريق حسن أرفع[١٨] .

وكانت بعض هذه الأحزاب تدين بالولاء للقوى الأجنبية (أمريكا، وانجلترا، وألمانيا والاتحاد السوفيتي) . والبعض الآخر يعمل تحت عباءة الشاه ، وسرعان ما أفل نجمها ولم يتبق على الساحة سوى حزب "توده" الشيوعي . لذا حث رئيس الوزراء - د . منوچهر إقبال - ووزير البلاط - أسد الله علم - الشاه في عام ١٩٦٠م على تأسيس حزبين سياسيين، فكان تشكيل حزب "مردم" (الشعب) و "مليون" (الوطنيون) ، وأسندت رئاسة الحزب الأول إلى إقبال ، والحزب الثاني إلى علم ، إلا أن الشاه لم يكن ليسمح بتفعيل دور الحزبين ، ولم يسمح لهما بترشيح أعضاء المجلس النيابي دون موافقة جهازه الأمني - الساواك - وعندما حاول بعض قادة حزب "مردم" الخروج عن الإطار المرسوم له تم طردهم[١٩] .

وفي عام ١٩٦٠م رغب الشاه في توحيد الأحزاب في حزب واحد هو حزب "رستاخيز" - النهضة - ولم يكن يعني ذلك مشاركة تلك الأحزاب في النشاط السياسي تحت لواء الحزب الجديد بقدر ماكان يعني وقف نشاط المعارض منها ودمج الموالي له في حزب واحد . وتكون الحزب من جناحين ، هما : الجناح التقدمي برئاسة عبد المجيد مجيدي ، والجناح الليبرالي برئاسة هوشنج الأنصاري . وسعى كل منهما لتحقيق أكبر قدر من المكاسب لصالحه مما أثار سخط الجماهير والشاه ، فشكل لجنة لدراسة قضايا إيران لمعالجة أوضاع الحزب المتردية ، فتقدمت اللجنة باقتراح تشكيل جناح ثالث كي يدفع إلى حدوث تغييرات في المحيط السياسي ويحرك النشاط الحزبي من جديد[٢٠] .

وأعلن الشاه في أحد أحاديثه التليفزيونية أن على شعب إيران أن ينضم لعضوية هذا الحزب ، ومن يعارض ذلك عليه الخروج من إيران[٢١] . وعلى الفور أعلن الخميني فتواه بتحريم المشاركة في الحزب لأنه يتعارض والإسلام ومصالح شعب إيران ، وبمخالفته للدستور وللموازين الدولية ، ولكن تم فرضه بأمر ملكي، وأرغم أفراد الشعب على الانضمام إليه كي يتفادوا مصيرهم المحتوم[٢٢] .

وعلى أثر فتوى الخميني ، ونظراً للشعور بعدم مصداقية الحزب في تفعيل النشاط السياسي ، بدأت بعض الشخصيات السياسية البارزة تنسلخ عنه ، وتعيد إنشاء أحزاب كانت موجودة من قبل .

وازدادت سياسة الشاه تجاه معارضيه حدة، مما جعل البعض يتحدث صراحة من هذا الموقف، وانتقده أحد نواب المعارضة – أشتياني زاده – في المجلس، قائلاً: "إذا كنا قد رضينا بالنظام الملكي فليس ذلك من أجل شخص صاحب الجلالة محمد رضا بهلوي.. لقد علم الشاه أن حكم إيران يجب أن يكون لنا وحدنا ... وإن فهم صاحب الجلالة أن بقاءه على عرشه رهن بالتزامه لأحكام الدستور. إننا نحن الذين نمثل مصالح الأمة، ونحن المسئولون عن توجيه مستقبلها، لذلك فإن الإمبراطور – وهو غير مسئول – يجب أن يمتنع عن التدخل في شئون السياسة" (٣٢).

كما أرسلت الجمعية الإيرانية للدفاع عن الحريات رسالة إلى الشاه حول نفس المضمون، تحذره فيها من مغبة عدم الاعتراف بالمعارضة، وجاء فيها: "لا تعتقد يا صاحب الجلالة أن عدم السماح بقيام أي نوع من المعارضة سيدفع الشعب الإيراني كله للقيام بثورة شاملة".

كما بعث رجال الدين المثقفين برسالة مماثلة إلى الشاه عن طريق الجنرال ناصر مقدم الذي ألح على الشاه أن يقدم تنازلاً ملموساً يقنع الرأي العام ويرضيه، كالسماح بحرية تكوين الأحزاب، وإجراء انتخابات حرة، وتطهير جهاز السافاك وأجهزة الدولة من عناصر الفساد، وهو ما لم يلق آذاناً صاغية (٣٣).

ولم يكتف الشاه بعدم تفعيل النشاط السياسي داخل المجتمع من خلال الأحزاب المتنافسة، بل كان يتبع سياسة أخرى ضد وسائل الإعلام الحكومية بعينه، ولم يكن يسمح لأي مسئول بالبقاء في مكتبه بعد انتهاء مواعيد العمل الرسمية، وفرض الرقابة على المطبوعات، بحيث لم يجرؤ شخص على نقد الشاه أو أحد المقربين منه. وحدث في عام ١٩٧٦ أن قامت صحيفة "نهضت" – أي النهضة – بنشر بعض المقالات والصور الكاريكاتيرية التي تتناول الشاه وزوجته ثم زادت أشرف وبعض أعضاء العائلة الملكية بالنقد، واتهمتهم بالفساد والاختلاس وقيامهم ببعض الأعمال اللاأخلاقية. فكان مصير المسئول عن الصحيفة – كريم بوشهري – الاعتقال ثم الموت جوعاً داخل السجن (٣٤).

ومن الممكن والطبيعى أن يستوعب المرء عمليات الاعتقال والاغتيال من قبل النظام الحاكم تجاه معارضيه ، أما أن يتم ذلك من قبل الشاه تجاه أشد المقربين إليه ، فهو أمر يفوق التصور . لكن هذا ماتم بالفعل ، حينما استشعر الشاه خطراً يهدده من قبل أخيه على رضا پهلوى بسبب تقرب الأخير من بعض جنرالات الجيش ، واستمالته عدد كبير من الضباط ، وتصرفه فى بعض الأمور السياسية دون مشورة الشاه ، بل والتعرض له بالنقد فى بعض الأحيان ، وهذا ماأوغر صدر الشاه ضده ، فدبر له حادث سقوط الطائرة فى ٣٠ أكتوبر سنة ١٩٥٤م وكانت متجهة به من جرجان إلى طهران . ويؤكد رفيع منصور زاده - رئيس جهاز الساواك - هذه الواقعة من خلال حديث هاتفى سجلته وكالة المخابرات الأمريكية .C. I. A دار بين الشاه وابنته ، وكانت تحدثه بطريقة غير لائقة ، وبدرت منها عبارة: توقاتل هستى (أنت قاتل) (٢٦) .

ولكى يقضى الشاه على كل صوت ينهض لمعارضته أسس جهاز الساواك(٢٧) فى عام ١٩٥٦م . وساهم فى إنشائه خبراء من وكالة المخابرات الأمريكية .C. I. A ، وجهاز المخابرات الإسرائيلى (الموساد) . وتغلغل أعضاؤه فى دواوين الحكومة والسفارات الأجنبية فى الداخل ، والسفارات الإيرانية فى الخارج ، والجامعات ، والمصانع ، والفنادق وبين الطلاب والجاليات الإيرانية فى الخارج . وانقسم إلى تسع وحدات تختص بشئون الأفراد ، والسجون ، والتنسيق مع أجهزة التجسس الخارجية ، والتعاون مع المخابرات العسكرية والمباحث ، والقمع المحلى ، ومكافحة الإرهاب ، والرقابة على المطبوعات والسوق والأجانب. وكانت ميزانيته تقدر بـ ٣١٠ مليون دولار تزداد كل عام بمقدار ٤٠ ٪ (٢٨) .

وبفضل الساواك زادت عمليات الاعتقال والتعذيب تجاه المعارضة ، وابتعاد الشاه عن تلك الطائفة، واعتماده على كل ما يبث من خلال أجهزته الإعلامية ورجاله المقربين ، جعله فى منأى عن الواقع الحقيقى للمجتمع الذى يعيش فيه ، وبمرور الوقت أصبح الجهاز الذى أنشأه للحفاظ على نظامه هو المطرقة التى هدمت كيان هذا النظام ، وصارت المطالبة بالكف عن أعمال التعذيب ، وإطلاق سراح المعتقلين السياسيين ، ومشاركة الشعب السياسية ، وعدم اضطهاد المعارضة ، ومنح الحريات للمطبوعات والاجتماعات ، وإقامة انتخابات حرة ، وتحقق الأمن السياسى والاجتماعى ، كل هذا

صار من المطالب الأولى والبواعث الأصلية لثورة الشعب قبل مطالبته بإقامة نظام إسلامى (المصدر، ص٣٨) .

وقد حاول النظام إضفاء روح الديمقراطية على الساحة السياسية ، فأصدر رئيس الوزراء أسد الله علم فى الثانى من بهمن عام ١٣٤١ ش (سبتمبر ١٩٦١م) قرارًا فى غيبة مجلسى الشيوخ والنواب ينص على تعديل اللائحة الخاصة بالجمعيات المحلية . وكانت اللائحة القديمة تنص على أن يكون المرشحون لانتخابات المجالس المحلية من الرجال المسلمين ، وأن يتم القسم على القرآن الكريم عند الترشيح (٢٩) .

أما اللائحة الجديدة فتنص على إلغاء شرط القسم على القرآن الكريم على أن يحل محله القسم على أى كتاب سماوى ، وإلغاء شرط قصر الترشيح ؛ على المسلمين ، كما تم منح النساء حق الترشيح وحق التصويت فى انتخابات المجالس المحلية (٣٠) .

ولاريب أن علاقات الشاه الوطيدة بإسرائيل ومحاولاته استرضاء أمريكا - فى تلك الآونة - هو الدافع وراء إلغاء شرط الإسلام من الترشيح كى يفسح المجال للعناصر البهائية للتدخل فى شئون الدولة بشكل قانونى ، إلا أن علماء الدين فى قم وطهران ، وفى مقدمتهم آية الله الخمينى لم يسمحوا للشاه بإجراء هذا التعديل ، وأبرق الخمينى على الفور إلى رئيس الوزراء يحذره من مغبة معارضة الدستور ، وينذره من العواقب الوخيمة وراء الإعراض عن القرآن الكريم وأحكام العلماء الكرام ، وفيما يلى نص البرقية :

"...... إن علماء قم والنجف الأشرف وسائر البلاد ينبهونك إلى أن هذا القرار غير القانونى الذى قمت به يخالف الشريعة الإسلامية والدستور ، وإذا كنت تتوهم أنك تضع القرآن الكريم على قدم المساواة مع الأوستا والإنجيل وبعض الكتب الضالة ، وتتخيل أنك تستطيع الإطاحة به رسميًا لإحياء العبادات القديمة ، فأنت بعيد عن الصواب . إذا كنت تتخيل أنك بهذا التعديل الخاطىء المخالف للدستور سوف تضعف أساس الدستور الذى فيه ضمان استقلال المملكة ، وأنك ستفتح الباب على مصراعيه لأعداء الدين وإيران ، فأنت بعيد عن الصواب إننى أسديك النصح كى تعود إلى الله وتخضع لأحكام الدستور حتى لاتعرض المملكة للهلاك ، وعندئذ لن يكف علماء الإسلام عن إبداء رأيهم صراحة تجاه هذه الإجراءات" (٣١) .

وكان هذا الحدث بمثابة الإعلان الحقيقى للمواجهة الحاسمة بين النظام ورجال الدين ، كما كان البداية الحقيقية لظهور آية الله الخمينى فى زعامة الثورة الشعبية ضد إجراءات الحكومة التى تتنافى والدستور وتلحق الأذى بمشاعر المسلمين . واستمرت الثورة الشعبية يقودها رجال الدين ضد تعديل اللائحة قرابة الخمسين يومًا ، قام الشاه خلالها بتهديد رجال الدين وبدأت أبواق دعايته فى حملتها الإعلامية ضدهم، وصرح أسد الله علم بأن الحكومة لن تتراجع عن موقفها ، فأعلن الخمينى أن شعب إيران المسلم لن يلتزم الصمت إزاء هذا الخطر، وحذر نواب مجلسى الشيوخ والشورى من مغبة إبداء أى نوع من الموافقة على تعديل اللائحة المقترح ، وتوعدهم بأن الشعب والعلماء سيقطعون أيدى من تطاول على أساس الإسلام ونواميس المسلمين[٣٢] .

وإزاء هذا الإصرار من قبل العلماء والشعب بدأت الحكومة تتراجع ، وأعلن رئيس الوزراء أن هذه القوانين غير ممكنة التنفيذ ، واحتفل الأهالى بانتصارهم ، وأصبحت قم منذ ذلك الحين هى النواة الأصلية للثورة التى تولى دور الزعامة فيها الإمام الخمينى ليبدأ فى طرح النضال السياسى على الساحة الإيرانية .

هذا وقد دأب النظام خلال الحركات المناهضة له (بداية من الحركة الوطنية عام ١٩٥٢م ، وانقلاب مصدق عام ١٩٥٣م ، وثورة ١٥ خرداد عام ١٩٦٣ م ، ونشاط المعارضة فى الأعوام التالية) على التعرض للأهالى بقذائف الشرطة ، والاعتقال ، واستخدام التعذيب ، والنفى خارج البلاد ، وأتبع ذلك ردود فعل واسعة النطاق على المستويين المحلى والعالمى . ففى الداخل قامت المحافل الدينية والوطنية والسوق والجامعات والمدارس العليا بإصدار البيانات والمنشورات المناهضة للنظام ، منها على سبيل المثال منشور فى ثلاث وخمسين صفحة بقلم الكاتب والصحفى الشهير د. على أصغر حاج سيد جوادى الذى صدر عام ١٩٧٥م ، ويشير فيه إلى انتشار الفساد فى أركان المملكة، وإلى تعايش الحكومة السلمى مع عناصر ذلك الفساد، وتفشى الرشوة فى الإدارات المختلفة، والبطالة، والتعدى على الحقوق الاجتماعية للأفراد، ولجوء النظام لاستخدام الشرطة فى قمع مظاهرات الأهالى وحملات الاعتقال الموسعة ، واعتبر الكاتب أن الشاه وحكومته هما المسئولان عن هذا الوضع المتردى فى الدولة[٣٣] .

وعلى المستوى الدولى ، أدانت منظمة العفو الدولية بلندن فى تقرير لها فى أوائل عام ١٩٧٥م مايقوم به نظام إيران من نقض لمبادىء حقوق الإنسان تجاه معارضيه والمعتقلين السياسيين . كما اتهمت جمعية الحقوق الدولية بچنيف حكومة إيران باستخدامها شتى أنواع التعذيب ضد السجناء السياسيين . وتناولت الصحف العالمية مثل التايم فى عددها الصادر فى ١٦ أغسطس سنة ١٩٧٦م وصحيفة لوموند الفرنسية فى عددها رقم ٩٨٥٣ سنة ١٩٧٦م أعمال النظام الإيرانى المنافية لأبسط مبادىء حقوق الإنسان وأعربت عن قلق المنظمات العالمية لحقوق الإنسان تجاه الأوضاع فى إيران (٣٤) .

وفى أواخر عام ١٩٧٦م أعلن تسعة وعشرون شخصاً من رجال السياسة والدين والحقوق تأسيسهم للجمعية الإيرانية للدفاع عن الحريات وحقوق الإنسان ، وأبرقوا إلى منظمة الأمم المتحدة لتقديم العون لهم وحث النظام على منح الحرية والديمقراطية فى إيران ، كما أشاروا إلى ماورد فى تقارير المسئولين الدوليين لمنظمات : العفو الدولية ، والجمعية الدولية للحقوق والاتحاد العالمى لحقوق الإنسان ، وجميعها قائم على التأكيد على نقض حقوق الإنسان وانعدام الحريات فى إيران . وفيما يلى بعض ماورد فى رسالة الجمعية حول السلبيات الموجودة داخل المجتمع الإيرانى كما وردت فى التقارير المذكورة :

١ - انعدام حرية العقيدة والفكر والبيان والاجتماعات والمطبوعات .

٢ - الاعتقال غير القانونى لآلاف النساء والرجال والشيوخ والشباب حتى لمن لم يبلغ منهم السن القانونى .

٣ - استخدام كافة أنواع التعذيب الجسدى والنفسى ، والذى يفضى فى كثير من الأحيان إلى الموت أو بتر عضو من أعضاء الجسد .

٤ - محاكمة المتهمين السياسيين فى محاكم عسكرية بوساطة الضباط وتحت الإشراف المباشر للشاه .

٥ - إدانة المتهمين السياسيين (وهم من رجال الدين والعلم والأدب والفن) فى المحاكم العسكرية بالإعدام أو بالحبس المؤبد ، استناداً على اعترافات تم تسجيلها باستخدام العنف والتعذيب .

٦ – امتناع المسئولين عن قبول مظالم المتهمين السياسيين .

٧ – المذابح التى تتم تجاه الطلاب فى المنازل والجامعات والشوارع بيد مسئولى الشرطة سراً وعلانية دون التأكد من صحة مانسب إليهم .

٨ – حبس المعارضين دون تحديد تهمهم وحرمانهم من الزيارة .

٩ – الامتناع عن إطلاق سراح عدد من السجناء الذين انتهت مدة أحكامهم .

١٠ – الرقابة الشديدة على المكاتبات والمكالمات .

١١ – تعطيل العديد من المراكز الدينية عن العمل ، واعتقال بعض مراجع التقليد والشخصيات الدينية .

١٢ – استقرار النظام السياسى تحت مظلة حزب واحد ، وحصر الأحزاب والجمعيات السياسية فى حزب رستاخيز الذى أسس بأمر السلطة الحاكمة .

١٣ – انعدام المشاركة الشعبية فى انتخابات المجلسين والمجالس المحلية ، ودفع الأصوات عنوة لتأييد الشاه والحكومة .

١٤ – النقض الصريح للدستور فيما يتعلق بمبدأ عدم فصل القوى الثلاث (التشريعية ، والقضائية والتنفيذية) وانحصارها فى شخص الحاكم (٣٥) .

ومع ازدياد حدة الضغوط الداخلية والنقد المتزايد من قبل المحافل الدولية فيما يتعلق بسياسة النظام فى إيران، ومع تولى الديمقراطيين كرسى الحكم فى أمريكا وطرح الرئيس الأمريكى چيمى كارتر مبدأ الحفاظ على حقوق الإنسان ، بدأ الشاه يعيد حساباته ، ويرى ضرورة ملحة فى منح مزيد من الحريات ، فعزم على الحد من الضغوط السياسية والاجتماعية وأمر بتحجيم دور الرقابة على المطبوعات ، وتشكيل لجان للتحقيق فى شكاوى الأهالى . كما سمح بمحاكمة السجناء السياسيين فى محاكم مدنية وبصورة علنية ، وأطلق سراح العديد منهم. إلا أن هذه التصاريح وتلك الإجراءات كانت للاستهلاك المحلى ولتهدئة الرأى العام فى الداخل والخارج إزاء نظامه ، أو كما يقول الكاتب لم تزد عن كونها ألفاظاً مبهمة لم يتم تحديد إطار لها ، أو أنها

أكلشيهات كان يستخدمها النظام ويرددها فى أبواق دعايته لجذب مزيد من التأييد .
(المصدر، ص٢٦٠) .

٢ - الأوضاع الاقتصادية :

قام محمد رضا شاه ببعض الإجراءات لتثبيت نظامه وقمع الحركة الوطنية المناهضة له، ولم يتم ذلك من خلال بطش جهازه الأمنى (السافاك) أو من خلال القبضة الحديدية للجيش فقط ، إنما تم أيضاً بتحقيق بعض المطالب التى كانت تطرحها الجبهة الوطنية الموالية للدكتور مصدق ، ولأن الشاه كان يعتقد أن هذه الإصلاحات ضرورية للمحافظة على الجبهة الداخلية ، ولضمان ولاء الشعب له ، وحرصاً على أن تتماشى سياسته الداخلية مع السياسة الإصلاحية التى كان يطرحها الرئيس الأمريكى چون كيندى ، بدأ يضع خططاً للتنمية سباعية وخماسية ، وفى عام ١٩٦٢ م بدأ فى تطبيق ماأطلق عليه الثورة البيضاء - انقلاب سفيد - وهى ماأطلق عليها من بعد "ثورة الشاه والشعب" لتتماشى مع الفلسفة التى أعلنها لها، حيث أوردها ضمن دعايته تحت شعار: مقاومة الخوانين والإقطاعيين" . وقدم الشاه برنامجه الإصلاحى للاستفتاء ، وكان يشتمل على تسعة بنود ثم بلغت تسعة عشر بنداً ، منها : إلغاء النظام الإقطاعى ، والتصديق على قانون الإصلاح الزراعى ، والتصديق على قانون تأميم الغابات ، ومشاركة العمال فى أرباح المصانع والوحدات الإنتاجية ، وتعديل قانون الانتخابات ، ومنح المرأة كامل حقوقها السياسية والاجتماعية ، وإنشاء كتائب للتعليم الإلزامى ومحو أمية الريف ، وإنشاء دور للعدل للفصل فى الخلافات والقضايا الخاصة بالفلاحين وسكان الريف ، وتشكيل كتائب الصحة لنشر الوعى الصحى ، وتشكيل كتائب التعمير للإسهام فى تطوير الحركة العمرانية ودفعها خاصة فى الريف وتأميم مصادر المياه السطحية والجوفية وحظر الإفراط فيها (٣٦) .

وتوهم الشاه أن الأمور ستسير وفق مراده بذلك البرنامج المقترح ، وأنه سيتمكن من احتواء الشعب كافة ، واستمالة جانب العمال والفلاحين بعد أن أحكم قبضته على الجيش والسافاك .

وانخدع الوطنيون بإصلاحات الشاه وتجاوبوا مع برنامجه الإصلاحى رافعين شعار "نعم للإصلاح ، لا للديكتاتورية" . واعتبر الشيوعيون ثورته البيضاء ثورة فى

طريق الرقى والتطوير وتغيير النظام الإقطاعى إلى نظام صناعى رأسمالى . بينما اختلف رد الفعل لدى علماء قم بزعامة الخمينى ، حيث انتابهم الشك فى نوايا الشاه ، وتم النقاش وتبادل الرسائل بينهم وبين الشاه ، وبلغ الأمر أن هدد فى لقائه مع أحد رجال الدين - آية الله كما لوند - بأنه سيقوم بإصلاحاته تحت أى ظرف ، حتى وإن أدى الأمر إلى إراقة الدماء وتدمير المساجد(٣٧) .

وانتهى علماء قم إلى إعلان موقفهم المعارض للاستفتاء ، وأصدر الخمينى فتواه بتحريم المشاركة فيه (٣٨) . أعقب ذلك إغلاق أسواق طهران وقيام الأهالى بالمظاهرات ، فاضطر الشاه إلى التوجه بنفسه إلى قم للتباحث مع رجال الدين ، إلا أن الخمينى عارض بشدة استقبال رجال الدين له ، وحرم على الأهالى الخروج من ديارهم يوم قدوم الشاه ، فاشتاط الأخير غضباً وعزم على المضى قدماً لإتمام إجراءات الاستفتاء . وفى ٢٦ يناير ١٩٦٢م دفع بعربات جيشه لتجمع الأهالى من البيوت والشوارع للتصويت لصالح ثورته البيضاء ، وعلى الفور بدأ الخمينى هجومه على الشاه وحكومته الفاسدة ، مؤكداً عدم شرعية الاستفتاء ، واتهم الشاه بالسعى لتحقيق المصالح الأمريكية والصهيونية (٣٩) .

والحقيقة أن الشاه لم يكن ينظر إلى طبقة رجال الدين حتى ذلك الحين على أنها قد تعرض عرشه للخطر ، واعتبر معارضتهم له بسبب برامجه الإصلاحية ، فوصفهم بالإقطاعيين وأصدر الأوامر لجنده بإخماد تلك الأصوات التى ارتفعت تندد بنظامه وسياسته . وفى ٢٢ مارس ١٩٦٣م اندفع جند الشاه نحو المدرسة الفيضية بقم حيث كان الخمينى يلقى دروسه على آلاف الطلاب والمشاركين فى الاحتفال بذكرى استشهاد الإمام جعفر الصادق ، وكانت مذبحة عامة ، وهرع الأهالى إلى بيوتهم وأصدر الخمينى فتواه بتحريم التقية ، وضرورة إظهار الحقائق أمام أعداء الإسلام لصيانة كرامة الإسلام (٤٠) .

ولما زاد قلق الشاه من معارضة طبقة رجال الدين له بدأ دعاياته المكثفة وحربه النفسية ضدها ، وأعلن فى أجهزة الإعلام ، أن جميع معارضيه من قبل الشعب وعلماء الدين إقطاعيون ، ولإرهاب جانب المعارضة قام بإصدار الأوامر بالقبض على عدد من

طلاب العلوم الدينية وإرسالهم إلى التجنيد ، كما زاد جو الاختناق مع نشر قواته الأمنية والعسكرية فى الضواحى والطرقات للتصدى للمظاهرات واعتقال الأهالى(٤١).

ومع حلول شهر المحرم من عام ١٣٨٣هـ - ١٩٦٣م عمت المظاهرات طهران وامتدت إلى الجامعة وارتفعت الشعارات تنادى بحياة الخمينى وسقوط الشاه ، وفى منتصف ليلة الثانى عشر من محرم (٥خرداد ١٣٤٢ش - ٥ يونيه ١٩٦٣م) تم القبض على الخمينى ونقل إلى أحد سجون معسكر "عشرت آباد"، وما أن ذاع هذا النبأ حتى اشتعلت المظاهرات فى طهران ، ولم يجد الشاه بدًا من إصدار أوامره بإطلاق النيران على المتظاهرين، ونزلت الدبابات والمدرعات تحاصر المتظاهرين فى الجامعة والأسواق، واستمرت المذابح ضد الأهالى وقتل خلالها مايقرب من خمسة عشر ألف شخص، وتمت حملة اعتقالات موسعة . تبع ذلك قيام جند الشاه بمذابح ضد أهالى قم وشيراز ومشهد وتبريز وتم إعلان الحكومة العسكرية . وذاعت أنباء مذابح طهران والمدن واعتقال زعيم الثورة فى كافة الأرجاء على المستوى المحلى والعالمى ، ونشرت بيانات من قبل بعض الشخصيات السياسية والعلمية والدينية اعتراضًا على اعتقال الخمينى(٤٢). ونتيجة لضغوط الرأى العام فى الداخل والخارج أُطلق سراح الخمينى ، ونُقل تحت الحراسة إلى منزله فى محلة "قيطرية" بطهران ، وظل محاصرًا فيه حتى عودته إلى قم فى أوائل عام ١٩٦٤م .

وعزم الشاه على الاستمرار فى ثورته بغية القضاء على الإقطاع ، وأصبح الفلاح مالكًا لأرضه ، وملَّك العمال نسبة من أرباح المصانع التى يعملون بها ، وأحدث توسعًا كبيرًا فى مجال التعليم والصناعة . على الرغم من ذلك ، ثمة سلبيات تضمنتها الثورة البيضاء ، فقد قضى الشاه بالفعل على طبقة الإقطاعيين، لكنه أحل محلها طبقة من السماسرة العالميين الذين قاموا بتحويل اقتصاد إيران من زراعى مستقر إلى طفيلى استهلاكى ، وقامت الحكومة بتأسيس بعض المزارع التعاونية وإتاحة الفرصة على نطاق واسع لرأس المال الأجنبى لتقديم الميكنة الزراعية الحديثة ، وقامت بتدمير وسائل الزراعة التقليدية التى تعتمد على نظام القنوات المغطاة ، وقام النظام بتقديم الدعم للوارد من المحاصيل الزراعية مع عدم دعم أسعار الإنتاج ، كما تم تدمير العديد من القرى لإقامة مراكز زراعية متطورة ، إلا أنها كانت كالنقش على الماء(٤٣). ولم يكن

الإنتاج الزراعي يساهم في الدخل القومي الإيراني بأكثر من ١٥٪ بعد أن طغى تأثير الثروة النفطية، خاصة بعد إلغاء الشاه اتفاقه مع اتحاد الشركات النفطية الغربية (الكونسورتيوم) وسعيه لتأسيس منظمة الأوبك عام ١٩٧١م، وجهوده في رفع قيمة النفط[٤٤]، وما تبع ذلك من زيادة العائد من الثروة النفطية الضخمة التي كانت تصل إلى ستة ملايين برميل يومياً، وكانت تدر عائداً بلغ ٢٣ بليون دولار سنوياً. وأدت زيادة عائدات النفط إلى إتاحة المجال أمام استيراد البضائع الاستهلاكية وزيادة نسبتها في الواردات، حيث ارتفعت من ١٢,٨٪ عام١٩٧٢ إلى ١٧,٢٪ عام ١٩٧٧م، ويشير الفرق في النسبة إلى السياسة التي كانت تتبعها الدولة لضمان التنوع الاستهلاكي وإضفاء الرخاء المعيشي على حياة الشعب[٤٥].

وأتبع دعوة الشاه في تحديث إيران القضاء على السوق الإيراني التقليدي من ناحية، وتمركز الصناعة بحيث حل الإقطاع الصناعي محل الإقطاع الزراعي من ناحية أخرى، كما حلت شركات أجنبية محل الشركات الإيرانية[٤٦]. وبدا واضحاً أن الصناعة في إيران ليست سوى جهاز اجتذاب للموارد نحو الخارج، إذ لم يتم فيها بناء اقتصاد يهدف إلى التخفيف من الاحتياج إلى الخارج، بل بُني الاقتصاد على أساس زيادة هذه الاحتياجات.

وإذا كان د. صادق زيبا يرى أن مشروعات الشاه الاقتصادية لم تحقق المرجو منها بسبب ارتباط الاقتصاد بالحكومة وعوامل الضعف والركود والبيروقراطية (المصدر، ص١٦)، فيمكننا أن نضيف أيضاً عاملين آخرين حالا دون النمو الاقتصادي في إيران. أولهما: أن سياسة الشاه في التحديث قد استندت على الدعاية الواسعة عن طريق أجهزة الإعلام المحلية والعالمية، كما اهتمت بنشر الثقافة الغربية وإدخال التكنولوجيا الحديثة دون دراسة جيدة حول كيفية الاستفادة منها لتطوير المجتمع الإيراني بشكل واقعي. ترتب على ذلك وضع جميع إمكانيات الدولة للإنفاق على الدعاية الواهمة للشاه وتحويل إيران إلى سوق رائجة لبضائع الغرب.

والآخر: أن جزءاً من الزيادة الضخمة في عائد النفط كان يوجه لشراء أسهم الشركات والمصانع الخاسرة في أوروبا وأمريكا، وجزءاً آخر كان يوجه لشراء المنتجات

الزراعية كالقمح ، والأرز ، والبصل ، والبطاطس ، والبرتقال والبيض من أمريكا ، وتايلاند ، وباكستان ، والهند ، وجنوب أفريقيا وإسرائيل(٤٧). أما الجزء الأكبر فكان يوجه لتحقيق طموحات الشاه فى تسليح إيران بأحدث ما توصلت إليه تكنولوجيا الصناعة العسكرية . وكان ثلث ميزانية الدولة تقريبًا ينفق على الجيش وقوات الأمن(٤٨). لذا لم تسفر خطط الشاه إلا عن زيادة معدل التضخم وظهور الفساد إلى حد جعله يلجأ إلى التهديد باستخدام القوة العسكرية لحل المشاكل الاقتصادية المتنامية، وأعلن الحرب ضد من أطلق عليهم "إقطاعى الصناعة" ، واعتقل بعض أصحاب رأس المال ، ووضع المحال والمغازات تحت المراقبة للسيطرة على الأسعار ، وزج بما يقرب من ثمانية آلاف من التجار فى السجون ممأدى إلى تفاقم الشعور بالاستياء من قبل الأهالى تجاه النظام وسياسته ، وزاد التحام مجتمع السوق بطبقة العلماء المناهضين للنظام وازدادت الرغبة أكثر من ذى قبل فى المقاومة .

٣ – الأوضاع الاجتماعية :

عادة ماتنشأ القوة الاجتماعية عن طريق إرادة مجموعة من الأفراد تعيش فى منطقة ما على أساس مجموعة من القيم والمصالح المشتركة ، قد تكون هذه القيم المشتركة ذات طابع مادى ، وقد تكون ذات طابع معنوى ، لكن من المؤكد أن المجتمع الذى يستند على القيم المادية فقط يفتقر الترابط والقدرة الدفاعية إزاء الخطر المحتمل(٤٩).

ومنطقة إيران من المناطق التى تتسم بأهمية استراتيجية خاصة(٥٠) ، وكان ذلك داعيًا للإغارة عليها على مدى التاريخ من قبل شعوب مختلفة كالرومان ، والعرب المسلمين ، والمغول ، والسامانيين والسلاجقة وغيرهم ، لذا تعرف الإيرانيون عن كثب على أقوام وشعوب متباينة ، جمعتهم بهم علاقات طيبة أحيانًا ، وأحيانًا أخرى علاقات عداء . أدت هذه العلاقات إلى اكتساب الإيرانيين بعض العادات والأفكار والثقافات التى توارثت من جيل إلى آخر، وكانت السمة الغالبة لهم الارتباط الشديد بالقومية الإيرانية .

وما حدث من تطورات على مدى القرنين الأخيرين فى بلدان العالم الإسلامى ومنطقة الشرق الأوسط ، استتبعه هجوم سياسى وثقافى وعسكرى غربى على المنطقة

أثر بدوره على الشعب الإيرانى . فقد نحت طائفة كبيرة من المجتمع - خاصة طبقة الفقراء فى المدن والقرى - نفسها بعيداً عن النشاط السياسى والاجتماعى حينما استشعرت خطراً يهدد مبادئها وعقائدها ، واختارت العزلة واللجوء إلى الدين ومراعاة مبدأ التقية، وفى المقابل نجد طائفة أخرى ممن نالت حقها فى التعليم لم تتمكن من الانزواء بعيداً ، ورأت من الضرورى المشاركة بشكل فعال إزاء الأحداث الجارية فى المجتمع . وقد أبدت هذه الطائفة نوعين من ردود الأفعال ، تمثلا فى ظهور اتجاهين :

الاتجاه الأول : ينتمى إليه المثقفون والدارسون فى الخارج الذين تأثروا بمشاهداتهم داخل المجتمعات الغربية ، ورأوا أن حل مشكلات مجتمعهم فى تحررهم من قيمهم الثقافية والدينية ، وإيجاد مجتمع جديد يستند على قاعدة المعايير الغربية الحديثة . وانقسم هذه الاتجاه بدوره إلى تيارين ، أولهما : التيار الليبرالى الوطنى المتأثر بالثورة الفرنسية . والآخر : التيار اليسارى الماركسى المتأثر بثورة روسيا .

أما الاتجاه الثانى : يضم طبقة رجال الدين وكانوا على ثلاث طوائف ، هى:

الطائفة الأولى : تمثل الجناح التقليدى المحافظ ، وتؤيد النظام الملكى والدستور ، بينما تعارض ديكتاتورية الشاه ونظامه المستبد ، وترى فى برامج الشاه الإصلاحية وحرية المرأة مايتنافى ومبادىء الشريعة الإسلامية ، وكان كل من آية الله محلاتى وخوانسارى من المنتمين إليها .

الطائفة الثانية : تمثل الجناح الديمقراطى الراديكالى ، وكانت تؤيد الحركة الوطنية بقيادة د . مصدق وتعارض ثورة الشاه والشعب ، ويمثلها كل من آية الله سيد رضا زنجانى وآية الله سيد محمود طالقانى .

الطائفة الثالثة والأخيرة : تمثل الجناح الثورى المعادى للسلطة المطالب بإيجاد نظام إسلامى وكان تحت زعامة الخمينى[٥١].

وكانت جميعها ترى أن أسباب تخلف المجتمع الإيرانى يكمن فى انعدام القيم والثقافة الإسلامية ، وكان الصراع الأساسى بينها وبين الشاه هو صراع بين التقليد

والتحديث . فمن وجهة نظرهم أن كل ما قام به الشاه من إصلاحات إنما هو تهديد لسلطتهم وانتهاكٌ لقدسيتهم واستقلالهم .

وقد عرض الكاتب باستفاضة مجموع التيارات المعارضة التى ظهرت على ساحة النضال السياسى فى إيران قبل عام ١٩٦٣م ، والمتمثلة فى : جماعة تقى أرانى (النواة الأصلية لحزب توده) ، وحزب توده ، والحركة الوطنية (جنبش ملى)، والحركة الوطنية الثانية والثالثة، وحركة تحرير إيران (جنبش آزادى إيران). ويرى الكاتب أن الموالين لتقى أرانى وحزب توده قد تواروا بعد أحداث انقلاب مصدق عام ١٩٥٣م ؛ لما أبدته الزعامة من خور عزم واستسلام فى مواجهة الانقلاب ، وهذا ما أفضى إلى فقد شعبيتهم . كذلك كانت حملة الاعتقالات الموسعة التى تعرض لها أعضاء حزب توده ، وفرار الزعماء إلى الخارج ، وتسلل عملاء الساواك داخل تشكيلات الحزب وكذلك تغيير سياسة الشاه تجاه الاتحاد السوفيتى فى فترة الستينيات لإيجاد نوع من التوازن فى سياسة إيران الخارجية مع القوى العظمى مما أدى إلى ضعف هذه الجبهة وانهيارها (المصدر، ص ٢٤١ ، ص٢٤٢) .

والواقع أن نشاط الحزب وإن كان قد توقف فى إيران بعد عودة الشاه من روما فى أعقاب انقلاب مصدق ، وكذلك بعد انتهاء فترة الحرب الباردة بين إيران والاتحاد السوفيتى ، إلا أنه بدأ يزاول نشاطه ضد نظام الشاه فى ألمانيا الشرقية ، حيث أنشأ إذاعة پيك إيران (رسول إيران) وصداى ملى إيران (صوت إيران الوطنى) وبث من خلالهما آراءه وأفكاره المناهضة لنظام الشاه (٥٢).

إلا أن الشاه كان حريصاً على تتبع الحزب ومطاردته والحد من نشاطه ، فسعى لتحسين العلاقات مع ألمانيا الشرقية بعقد الاتفاقيات التجارية وبيع البترول وتبادل الوفود الرسمية (٥٣). فاضطر الحزب إلى نقل نشاطه إلى بلغاريا إلا أن الشاه سلك نفس المسلك السابق مع الحكومة البلغارية فتخلت عن مساندة الحزب حفاظاً على مصالحها مع إيران .

وعندما قامت الثورة الإسلامية عاد الحزب من جديد إلى دائرة الضوء ، وأصبح زعيمه الجديد كيانورى فى بداية عهد الخمينى من الشخصيات البارزة التى تعترف

الثورة بحزبه وبالصحيفة الناطقة بلسانه (مردم) (٥٤). أما عن الحركة الوطنية الأولى والثانية والثالثة وحركة تحرير إيران فقد أرجع الكاتب إخفاقها لافتقادها الاستراتيجية المناسبة والبرنامج المحدد فى النضال ، وكثرة الخلافات الداخلية ، وانعدام وجود القاعدة الشعبية لها بين مجتمع السوق ومجتمع رجال الدين ، وفى النهاية، بسبب الضربة التى وجهت إليها فى أعقاب انقلاب مصدق عام ١٩٥٣م وثورة ١٥ خرداد ١٣٤٢ش (١٩٦٣م) (المصدر، ص٢٤٣: ص ٢٤٦) .

أما عن تيارات المعارضة الأخرى التى ظهرت على ساحة النضال السياسى فيما بعد عام ١٩٦٣م فقد حصرها الكاتب فى :

جماعة جزنى وظريفى ، وجماعة حميد أشرف وعلى أكبر صفائى ، وجماعة پرويز پويان ، وجماعة فدائى الشعب (فدائيان خلق) ، والمجالس الائتلافية (هيئتهاى مؤتلفة)، وحزب الشعوب الإسلامية (حزب ملل إسلامى)، وجبهة تحرير شعب إيران (جبهة آزاد يبخش مردم إيران) وجماعة مجاهدى الشعب (مجاهدان خلق) (المصدر، ص ٢٤٨:٢٥٨) .

وقد اتجهت إلى المقاومة المسلحة ونمت بداخلها الازدواجية الإسلامية والماركسية. ويرى الكاتب أن الأسباب التى دفعت هذه التيارات للجوء إلى الحل العسكرى تتمثل فى ظهور بعض الحركات التحررية فى الخارج (كثورة كوبا) والمذابح الوحشية التى قام بها نظام الشاه ، مستخدماً قواته الأمنية والعسكرية لإخماد حركة الأهالى فى أعقاب ثورة ١٥ خرداد ١٣٤٢ش (١٩٦٣م) (المصدر، ص٢٤٧).

ويمكننا أن نضيف إلى العاملين السابقين عاملاً آخر وهو دعم بعض الدول العظمى (كإنجلترا والاتحاد السوڤيتى السابق) لتيارات المعارضة فى استخدام الحل العسكرى وذلك بهدف الحد من تنامى التيار الإسلامى من جهة ، ومن جهة أخرى للعمل على إيجاد القلاقل لنظام الشاه وأمريكا الداعمة له ، الساعية إلى إخراج إنجلترا من منطقة الخليج للاستحواذ على خيراته ، الرافضة لأى نوع من التقارب بين الشاه والسوڤيت نظراً لتعارض هذا التقارب مع مصالحها الاستراتيجية فى المنطقة(٥٥).

أما عن اتجاه الجماعات الإسلامية إلى الماركسية فيرى الكاتب أن اعتقال الآلاف من كلا التيارين الإسلامي والماركسي بداية من عام ١٩٧١م والزج بهم في السجون قد أوجد نوعًا من التلاحم بينهم، وهو ما أطلق عليه "الاتحاد الاستراتيجي" (المصدر، ص ٢٦٩)، لكن سرعان ما مني هـذا الاتحـاد بالفشـل الذريع خاصـة بعـد الهزيمة الساحقة التي لحقت بالقوى الماركسية في أعقاب حادث سياهكل ، الذي وصفه الكاتب بأنه نقطة تحول في تاريخ النضال ضد النظام وأشاد بنجاحه فكريًا رغم فشله عسكريًا (المصدر، ص ٢٥١ ، ص٢٥٣).

والواقع أن هذا الحادث قد جلب معه بعض السلبيات ، فالهزيمة التي مُني بها الفدائيون عند هجومهم على مخفر قوات الحرس في "سياهكل" في ٨ فبراير عام ١٩٧١م (١٩ بهمن ١٣٤٩ش) ، والطريقة التي تصدى بها النظام لقمع هذه الحركة والقضاء على أعضائها ، جعلت الكثيرين يتغاضون عن التفكير ثانية في أسلوب المقاومة المسلحة ضد النظام . كما أن قيام القرويين في تلك المنطقة بالقبض على الفدائيين وتسليمهم للشرطة خلق نوعًا من الوفاق بينهم وبين مسئولي النظام ، واعتبر موقفهم هذا نوعًا من التأييد للشاه . كما نجح الشاه بعد هذا الحادث من خلال أبواق دعاياته في التشهير بأفراد المقاومة ، ووصفهم بأنهم حفنة من اللصوص ، المخربين ، الملحدين ، عملاء حزب توده ، عملاء منظمة التحرير الفلسطينيين وأعداء لثورة الشاه والشعب ، واستعرض قوة جهازه الأمني الذي لايقهر أمام أية منظمة فدائية مسلحة قد تظهر في جهة ما داخل الدولة . وهذا ماأدى إلى تملك اليأس من المعارضة ، وأبدى بعضهم ندمه على سلوكه السابق ، وأعلنوا تأييدهم للنظام ، ومن هؤلاء : پرويزنيك خواه ، وقورش لاشائي ، وپارسانزاد وأحمد صبوري (٥٦).

وحقيقة الأمر أن تغيير نمط المقاومة ، وقيام الفدائيين والمجاهدين ببعض العمليات المسلحة سواء في منطقة "سياهكل" ، أو القيام ببعض العمليات الأخرى التي تمثلت في تفجير القنابل في الأماكن العامة، واغتيال بعض العناصر المهمة، والسطو على البنوك ، ومهاجمة مخافر الشرطة قد أثر سلبيًا على صورة النظام في الخارج ، وأبطل مفهوم "جزيرة الثبات" حول إيران ، وجعل "ثورة الشاه والشعب" موضع شك واستفسار .

والذى عاق دون استمرارية حركة المقاومة المسلحة هو افتقاد تلك المنظمات للزعامة الجيدة ، واختلاف الآراء بين أفرادها عند اتخاذ القرار، وعدم وجود أيديولوچية محددة واضحة المعالم مما أدى إلى وقوعها فى الفرقة والانقسام. فضلاً عن افتقاد هذه المنظمات لأهم عامل لإنجاح عملياتها المسلحة ألا وهو تأمين القاعدة الشعبية لها . فعدم وجود علاقة مباشرة أو اتصال مباشر بينها وبين الأهالى عجل بنهايتها ، بل جعل الكثيرين ينظرون إليها على أنهم مجموعة من اللصوص أو خلايا إرهابية .

وإذا كان الشاه قد بدأ فى تصفية جبهة المعارضين لنظامه فى أعقاب انقلاب مصدق عام ١٩٥٣م ، إلا أن طبقة الدارسين الإيرانيين فى الخارج سعت فى تلك الآونة فى تشكيل الاتحادات والجمعيات الإسلامية المناهضة لنظام الشاه فى كل من فرنسا وألمانيا الغربية وأوروبا وأمريكا ، وجميعهم كانوا يؤيدون الزعامة الدينية والسياسية للخمينى ، وساهموا إلى حد كبير فى رفع النقاب عن ديكتاتورية الشاه وجرائم جهازه الأمنى أمام الرأى العام العالمى(٥٧) .

وبعيداً عن الطوائف المناهضة للشاه ونظامه بمختلف ميولها ، نجد فى الاتجاه الآخر أن استراتيچية التنمية الاقتصادية ، أو سياسة التحديث التى نادى بها الشاه ، لم تحدث التطور الاقتصادى والاجتماعى المنشود ، ولم تصبح إيران إحدى القوى العظمى الخمس على مستوى العالم كما كان يدعى الشاه ، بل أثرت هذه السياسة سلبًا على المجتمع الإيرانى .

فقد كان الاهتمام بالتكنولوچيا الغربية المتطورة محدوداً للغاية ، بينما ارتفع معدل استيراد الأسلحة والمعدات العسكرية بشكل كبير ، وكان النفط هو السلعة الوحيدة فى الصادرات التى تؤمن نفقات التسليح ، ومع زيادة العائد من إنتاج النفط – حيث تجاوز الـ ٢٠ مليار دولار فى عام ١٩٧٦ م بعد أن كان ٥٠٠مليون دولار فى عام ١٩٦٢م – ارتفعت واردات إيران لأكثر من ٣ مليار دولار فى عام ١٩٧٢م و٨,٤ مليار دولار فى عام ١٩٧٧م بعد أن كانت ٥٦٠مليون دولار فى عام ١٩٦٢م . كذلك أدى تنامى معدل العائد من النفط إلى سقوط أسهم الصادرات الإيرانية غير النفطية ، حيث بلغت صادرات إيران من السلع الزراعية والصناعية – وهى على مشارف المدنية العظمى كما يدعى الشاه – أقل من ٢٪ من مجموع الصادرات (٥٨) .

وبدلاً من قيام الحكومة بتأمين النقد الأجنبى لديها عن طريق تصدير السلع المحلية (كالقطن ، والفاكهة والياميش) كانت تلجأ إلى تأمين احتياجاتها من السلع الغذائية من الخارج فى مقابل إنشاء صناعات لاجدوى منها ، والتوسع فى إنشاء المدن الحديثة لتغيير نمط الحياة فى المدن . ومع تدهور أمر الزراعة ، اندفع القرويون إلى المدن على أمل العثور على عمل مناسب ، وعمل معظمهم فى أعمال البناء ، لكن سرعان ما انتشرت البطالة بينهم مع انخفاض دخل النفط فى أوائل عام ١٩٧٦م والحد من تنفيذ العديد من الأعمال الإنشائية . وبمعاناة هذه الفئة من البطالة والفقر والتشريد ، صارت النواة الأصلية للمقاومة الشعبية ، وأصبح البعض منهم وسيلة اتصال جيدة بين المناضلين فى المدن ونظرائهم فى القرى [٥٩].

أضف إلى ذلك أن طبقة الحرفيين وصغار التجار والعمال لم يتمكنوا من الاستفادة من برنامج التنمية الاجتماعية (كالتأمين الصحى ، والتأمين ضد البطالة والمشاركة فى أرباح الشركات والمصانع) نظرًا لعدم تطابق الشروط عليهم . لذا عانت هذه الفئة من آفة الفقر والفاقة . وفى المقابل كان أفراد الأسرة المالكة والمقربون منهم يزدادون ثراء بمشاركتهم فى أسهم العديد من الشركات المحلية ، أو لقيامهم بدور الوسيط بين الشركات المحلية ونظيراتها الأجنبية . وقد أشار الخمينى فى إحدى رسائله إلى رئيس الوزراء عباس هويدا إلى سوء أحوال الرعية ومعاناة شعب إيران فى قوله :

"...... مما يوجب الأسف أن النغمة غير الموزونة لإصلاحاتكم لم تتعد حدود الدعاية فى الصحف والإذاعة وبعض المقالات التى غصت بالمبالغة ، بينما يزداد الشعب فقرًا والسوق انهيارًا والتجار اضطرابًا . وكان نتاج هذه الضجة الإعلامية أن آل السوق إلى الأجانب وعانى الشعب من آفة الفقر والتخلف تحت مسمى الرقى ..... إنكم تقيمون فى قصور فخمة وتنفقون عليها ملايين الطومانات التى تسلبونها من جيوب هذا الشعب البائس، ولاتبالون بفقره وجوعه وانهيار سوقه وبطالة شبابه وتدهور زراعته"[٦٠].

وعلى ذلك نجد أن التنمية قد ضلت الطريق إلى الاستخدام الأمثل للموارد، وكان الخطأ الذى وقع فيه الشاه هو اتجاه نظامه إلى الاستفادة من كثافة رأس المال ، وليس

من كافة اليد العاملة في تأسيس المشروعات الاقتصادية ، مما أدى إلى غياب العدالة الاجتماعية.

وكان التمايز في الطبقات الاجتماعية والبطالة المتنامية ، وتوسيع الفجوة بين الطبقة المرفهة وطبقات المجتمع الأخرى من عوامل الاستياء الاجتماعي التي مهدت إلى الثورة.

ثانياً : العوامل الخارجية :

تتبلور مجموعة العوامل الخارجية التي ساهمت في قيام ثورة إيران الإسلامية في طبيعة العلاقات السياسية التي جمعت بين إيران والولايات المتحدة الأمريكية على مدى سبعة وثلاثين عاماً (من ١٩٤٢ - ١٩٧٩م) شكلت فترة حكم محمد رضا شاه لإيران وفترات رئاسة كل من ترومان ، أيزنهاور، جون كنيدي ، ليندون جونسون ، ريتشارد نيكسون ، جيرالد فورد وجيمي كارتر لأمريكا ، فحظيت إيران باهتمام خاص من قبل الإدارة الأمريكية لأسباب عديدة ، من أهمها:

أولاً : إن الحدود المشتركة بين إيران والاتحاد السوفيتي السابق والتي تبلغ ٢٢٠٠ كم ، جعلت من إيران أهم حلقة في الحزام الأمني الذي وضعته أمريكا حول مناطق نفوذ الاتحاد السوفيتي للحد من توسع الشيوعية وللحيلولة دون وصول القوات البحرية السوفيتية إلى مياه الخليج الفارسي.

ثانياً : الثروة النفطية التي تزخر بها إيران ، والتي لم يكتشف منها سوى نسبة الخمس ٢٠٪ ، بالإضافة إلى الثروات المعدنية الأخرى.

ثالثاً : تعد إيران همزة الوصل التي تربط منطقة الشرق الأوسط بأمريكا وأوروبا الغربية واليابان لنقل الثروات النفطية وذلك عن طريق مضيق هرمز ، لذا كان لزاماً على أمريكا والغرب تأمين هذا المضيق ومساندة نظام الشاه لكي لا تقع في أحضان الشيوعية ويسد طريق تصدير النفط إليهم ويسبب الانفصال الغربي عن مصالحه[1].

وتعد الفترة المواكبة لقيام الحرب العالمية الثانية (٣٩ : ١٩٤٥م) هى بداية تغلغل النفوذ الأمريكى فى إيران ، حينما قامت القوات الأمريكية بنقل المعونات العسكرية إلى الاتحاد السوفيتى عبر الأراضى الإيرانية . ومع انتهاء الحرب وانتصار الحلفاء ، لم يعد هناك مبرر لتواجد القوات الأمريكية فى إيران ، إلا أن القوات الأمريكية رفضت مغادرة إيران بذريعة مواجهة خطر السوفيت المحتمل، وعملت الإدارة الأمريكية على تقوية البنية العسكرية لدول المنطقة ومن بينها إيران ، وتم إبرام اتفاقية بين الجانبين الإيرانى والأمريكى فى ٢٧ نوفمبر عام ١٩٤٣م ولمدة عامين ، تتعهد فيها أمريكا بإعداد قوات الحرس الإيرانى ، والتزمت إيران بعدم استقدام استشاريين أمنيين أو عسكريين من أية دولة أخرى(٦٢) .

وفى ٦ أكتوبر عام ١٩٤٧م تم عقد اتفاقية أخرى لإرسال وفد استشارى أمريكى إلى إيران لرفع مستوى أداء الجيش ، وكانت مدتها عامين ويتم تجديد العمل بها وفقًا لرغبة الحكومة الإيرانية ، ولأمريكا حق إنهاء العمل بها وقتما شاءت . وبعد إتمام الاتفاقية ، وافقت أمريكا على طلب تقدمت به الحكومة الإيرانية لاقتراض مبلغ ١٠ مليون دولار أمريكى لشراء معدات عسكرية (٦٣) .

وبعد توقيع معاهدة حلف شمال الأطلنطى فى ٤ أبريل عام ١٩٤٩م ، وتخلى بريطانيا عن تعهداتها العسكرية والدفاعية فى منطقة الشرق الأدنى والخليج الفارسى نظرًا لما كانت تعانيه من مشاكل اقتصادية بعد انتهاء الحرب ، صارت إيران موضع اهتمام أمريكا أكثر من ذى قبل ، واستلزم ذلك إبرام مزيد من المعاهدات والاتفاقيات العسكرية بين الجانبين . وفى شهر نوفمبر من عام ١٩٤٩م دعى الرئيس الأمريكى ترومان الشاه لزيارة أمريكا ، واستقبل خلال هذه الزيارة بحفاوة بالغة من قبل المحافل السياسية والصحفية التى وصفته بأنه أحد الملوك الديمقراطيين المصلحين . إلا أن الإدارة الأمريكية فى واشنطن سرعان ماتنبهت إلى مفاضلة الشاه للتعاون العسكرى عن التعاون الاقتصادى ؛ لذا كان الساسة الأمريكيون يوجهون نظره دومًا إلى ضرورة الاهتمام بالمشاريع الاقتصادية والاعتماد على دخل النفط بدلاً من الاعتماد على المعونات الأمريكية ، فى محاولة لإقناعه بأن السبيل الوحيد للحيلولة دون نشوب الحرب ليس فى تأسيس جيش قوى ، بل فى إعداد بنية اقتصادية واجتماعية صحيحة(٦٤) .

وفى شهر مايو من عام ١٩٥٠م تم إبرام اتفاقية التعاون فى مجال الدفاع المشترك بين إيران والولايات المتحدة الأمريكية ، يحق لأمريكا تجديد العمل بها أو إنهائها، وتتعهد إيران بإمداد أمريكا بالمواد الخام اللازمة، وإعفاء البضائع الأمريكية من الجمارك ، وعدم حصولها على معونات من دول أخرى دون موافقة أمريكا(٦٥) .

وبمقتضى الاتفاقية السابقة بدأ تدفق الأسلحة والمعدات العسكرية الأمريكية إلى إيران .

ومع بداية الحرب ضد كوريا فى ٢٦ يونيو عام ١٩٥١م تحولت استراتيجية التعاون السياسى والاقتصادى للولايات المتحدة الأمريكية مع الدول الصديقة إلى استراتيجية دفاعية عسكرية ، ووافق الكونجرس الأمريكى فى أكتوبر من عام ١٩٥١م على قانون الأمن المشترك ، يتم بمقتضاه إهداء المعونات العسكرية الأمريكية إلى الدول الصديقة ، وعلى الدول الراغبة فى هذه المعونات التعهد بما يلى :

١ - السعى لحفظ السلام العالمى والتفاهم الدولى .

٢ - الالتزام بالتعهدات العسكرية وتنفيذها ، وفقًا لما ورد فى الاتفاقيات الثنائية بينها وبين أمريكا .

٣ - القيام بالإجراءات اللازمة لتقوية القوة الدفاعية فى الدولة الحاصلة على المعونة .

٤ - الاستفادة من المعونة المهداة بشكل عملى ومؤثر (٦٦) .

وكانت إيران إحدى الدول المستفيدة من المعونات الأمريكية فى تلك الفترة ، وانهالت عليها المساعدات الاقتصادية والعسكرية الأمريكية إلى أن تولى د . محمد مصدق رئاسة الوزراء ، فأطلع الحكومة الأمريكية خلال رسالة له فى ٤ يناير ١٩٥٢م بأنه لايميل إلى حماية الغرب لإيران ، واعتبر الشروط المقترحة من قبل الكونجرس الأمريكى بشأن المعونات الأمريكية تنقض حياد إيران. وبناء على هذا الموقف توقف الدعم العسكرى الأمريكى لإيران ، كما توقف برنامج التدريب العسكرى لضباط الجيش الإيرانى ، ودارت مباحثات بين الجانبين بشأن تجديد العمل باتفاقية اللجنة

الاستشارية الأمريكية وإرسال المعونات العسكرية ، وفى ٢٦ أبريل من عام ١٩٥٢م وافق د . مصدق على قبول المعونات الأمريكية شريطة أن تتطابق ومبادىء منظمة الأمم المتحدة (٦٧) .

وعلى هذا النحو صارت إيران هى الدولة الوحيدة – من بين أربعين دولة مستفيدة من المعونات العسكرية الأمريكية فى إطار قانون الأمن المشترك – التى لم تخنع لشروط واشنطن السالفة الذكر .

ولما كانت شخصية د . مصدق لم تحظ بالقبول لدى كل من الحكومتين الأمريكية والبريطانية نظراً لدوره فى عملية تأميم البترول ، ومواقفه إزاء التدخل الأجنبى فى إيران ، فقد سعت كل من بريطانيا وأمريكا للإطاحة بحكومته وتدعيم نظام الشاه . وانهالت بعد ذلك المعونات الاقتصادية والعسكرية الأمريكية إلى إيران بما يماثل أربعة أضعاف ما كان فى السابق ، وارتكزت سياسة واشنطن حيال إيران فى الفترة من ١٩٥٤م وحتى سقوط الشاه عام ١٩٧٩م على محورين أساسيين ، هما :

١ – تدعيم العلاقات مع النظام الإيرانى، ومساندة الشاه والعمل على منحه مزيداً من القوة التى تمكنه من اعتلاء قمة هرم القوة فى المنطقة ، وتمثل ذلك فى المساهمة فى تأسيس جهاز الساواك الأمنى .

٢ – دعم القوات المسلحة الإيرانية وتزويدها بالأسلحة الحديثة والاستشاريين ؛ لذا زاد معدل المعونات العسكرية إلى إيران خلال الأعوام من ٥٤ : ١٩٦١م ليبلغ نصف المجموع العام للمعونات الأمريكية إلى الدول الأخرى ، وجميعها كانت منحاً لاترد . كما زاد عدد الضباط الإيرانيين الدارسين فى الجامعات والمدارس العسكرية بالولايات المتحدة الأمريكية(٦٨) .

وفى غضون عام ١٩٦١م بدأت بعض الأحداث تطرح نفسها على الساحة السياسية الدولية، لتضفى طابعاً مميزاً على العلاقات الإيرانية الأمريكية فى تلك الآونة. فمن جهة ، أعلنت بريطانيا عن نواياها فى سحب قواتها العسكرية عام ١٩٧١م من قواعدها فى منطقة شرق السويس والخليج الفارسى ؛ نظراً للمشاكل المالية التى كانت تواجهها .

وتحينت أمريكا الفرصة ، وعملت على إرساء تواجدها السياسى والعسكرى فى منطقة الشرق الأوسط ، وزادت من تعاونها مع الدول والإمارات المطلة على الخليج الفارسى ، ومع إيران بصفة خاصة (٦٩) .

من جهة أخرى ، بعد انسحاب بريطانيا من المنطقة ، توجهت بعض الدول العربية الراديكالية (مثل مصر وسوريا والجزائر والعراق) إلى تأسيس اتحاد سياسى يناهض رؤساء الدول الأخرى الموالية لأمريكا ، وتزعم هذه الحركة الزعيم المصرى الراحل جمال عبد الناصر ؛ لذا سعى الشاه لتحديث معداته العسكرية تحسبًا لاحتمالات الخطر ، فاستبدل طائرات F. 16 بطائرات F. 4, F. 5, F. 14 ، كما استبدل الدبابات من طراز M. 47 بدبابات طراز M. 60, M. 48، وزود القوات البحرية بالبارجات الحديثة ، ووجه بطياريه إلى الولايات المتحدة الأمريكية للتدريب على الأساليب الحديثة فى التعامل مع الطائرات المتطورة . بالإضافة إلى ذلك أنشأ مؤسسات عسكرية تعليمية داخل إيران، تولى الضباط والاستشاريون الأمريكيون عمليات التعليم والتدريب بها(٧٠).

والحقيقة أن أمريكا لم تكن تسمح لنظام الشاه أن يصبح بمثل هذه القوة التسليحية إلا لتحقيق أغراض خاصة . فانسحاب بريطانيا من منطقة الخليج كان يعرض أمن دول المنطقة وإماراتها للخطر . كما أن هزيمة العرب من إسرائيل فى يونيو ١٩٦٧م ، ووصول حزب البعث العراقى إلى الحكم ، ونشاط الماركسيين والعناصر الراديكالية فى بعض المناطق مما أوجد نوعًا جديداً من التوتر فى المنطقة. ونظراً لرغبة أمريكا فى الحفاظ على أمن الخليج ، ومع الأخذ فى الاعتبار تجربتها فى ڤيتنام وعزمها على الامتناع عن القتال العسكرى خارج الولايات المتحدة الأمريكية ثانية ؛ لذا رأت الإدارة الأمريكية تدعيم نظام الشاه عسكرياً كى يتولى مهمة الدفاع عن المصالح الاستراتيجية الأمريكية فى المنطقة من جهة . ومن جهة أخرى تضمن سوقًا رائجًا لها يساهم فى تعديل قيمة العجز فى الميزانية التجارية لأمريكا ، ويهيئ المجال لتحسين الأوضاع الاقتصادية الراكدة فى الولايات المتحدة الأمريكية ، وكانت الزيادة فى قيمة النفط هى الدعامة الأساسية التى أدت إلى الارتفاع الهائل فى حجم واردات إيران من السلع الأمريكية .

أما فيما يتعلق بالشاه فنجده يسعى فى اتجاه آخر أيضًا لتدعيم مكانته فى المنطقة ، وقام بعدة إجراءات للعمل على تحسين العلاقات مع دول الجوار وإزالة الخلافات القائمة ، منها على سبيل المثال قيامه بدور الوسيط بين أفغانستان وباكستان فى المباحثات التى تمت فيما بين عامى ٦٢ - ١٩٦٣م ، وتغاضيه عن مطالبة إيران بأحقيتها فى البحرين ، كما قام بزيارة المملكة العربية السعودية فى غضون عام ١٩٦٨م ، وأعاد علاقاته مع مصر عام ١٩٧١م ، ودعم علاقة إيران بباكستان والهند وأفغانستان . وبذلك كثف جهوده على المستوى الدولى دون أن يلتفت إلى مشاكله على المستوى الداخلى ، وجعل جل اهتمامه على التسليح وتخزين المعدات العسكرية ، حتى ارتفع معدل شراء الأسلحة إلى ٥٢٤ مليون دولار أمريكى فى عام ١٩٧٢م ، وتضاعف هذا المبلغ إلى سبعة أضعاف فى عام ١٩٧٤م حيث بلغ ٣/٩١ مليار دولار أمريكى ، واستلزم وجود هذا الكم الهائل من الأسلحة المتطورة وجود الاستشاريين الأمريكيين فى إيران للقيام بتدريب الضباط الإيرانيين عليها ، ووجهت وزارة الدفاع الأمريكية (البنتاجون) ، ومصانع إنتاج الأسلحة الأمريكية بالاستشاريين موضع حاجة إيران حتى بلغ عددهم حوالى ٢٤٠٠٠ استشارى فى عام ١٩٧٦م ، وبلغ معدل شراء الأسلحة فى الأعوام العشرة الأخيرة من حكم الشاه ١٧ مليار دولار أمريكى(٧١) .

وأدى هذا الوضع إلى استياء طبقة رجال الدين ، وفى مقدمتهم زعيم الثورة الإسلامية الإمام الخمينى الذى نقد سياسة الشاه نحو التسليح ، وتساءل فى حيرة عن الأهداف الحقيقية وراء هذه السياسة ، وعن المستفيد الأول منها ، يقول:

"..... لا أعلم ماهو الهدف من وراء شراء هذا الكم الهائل من الأسلحة؟! هل من أجل طرد المستعمرين وأعوانهم ؟ أليس الشاه نفسه من المنتمين إليهم ؟ أليست إيران قاعدة عسكرية لهم ؟ أليست لهم اليد الطولى فى كافة الإدارات العسكرية والسياسية والاقتصادية فى الدولة ؟ هل تتم هذه السياسة وفقًا لمخططات أمريكية للعمل على إضعاف البنية الاقتصادية للدول ، وإفناء ثروات شعوبها عن طريق استنزاف أموالها فى شراء المعدات الحربية؟ إن شعب إيران البائس المحروم من معظم احتياجاته الضرورية كيف له أن يقوم بشراء هذا الكم الهائل من الأسلحة بمثل هذا المبلغ الخرافى ؟!"(٧٢) .

ولم يقتصر الاستياء داخل إيران فقط ، فعلى الصعيد الدولى ظهرت عدة جبهات ضد الشاه من جراء سياسته تلك ، يقول روبرت جراهام :

"..... بتوسع الشاه فى تكوين ترسانته العسكرية استعدى جانب السعوديين وسائر دول الجوار . وبتدخله فى شئون دول المنطقة هيأ أسباب استياء الكرملين . وبإصراره على شراء كافة احتياجاته العسكرية من أمريكا، وفشله فى إحداث التوازن فى المعاملات غير العسكرية ساهم فى سخط الدول الأوروبية . وتصويره كملك مستبد فى الأجهزة الإعلامية العالمية حث الرأى العام الأمريكى ضده . فضلاً عن ذلك، شعر المجتمع اليهودى بالقلق الشديد إزاء قوته العسكرية"(٧٣) .

إلا أن الرياح لاتأتى دومًا بما تشتهيه السفن . فشعور الشاه بقوته العسكرية، أدى إلى نفوره من مسئولى وكالة المخابرات الأمريكية (C . I . A) فى إيران ، وتوقف عن مدهم بالمعلومات المخابراتية اللازمة لهم ، سواء فيما يتعلق بإيران ، أو بالجواسيس الأجانب ، خاصة الموالين إلى وكالة المخابرات السوفيتية (K . G . B) كى ينفرد جهاز الساواك بالعمل ، وينسب إليه أى توفيق دون غيره(٧٤) .

فضلاً عن ذلك ، بدأ عدم الوفاق فى وجهات النظر بين الحكومتين الإيرانية والأمريكية يبدو جليًا . فإصرار الشاه على زيادة عدد الجيش وإفراطه فى استيراد المعدات العسكرية كان يقابله رغبة الطرف الآخر فى تقليل عدد الجيش إلى الثلث ، والتركيز بشكل أكثر على برنامج التطوير الاقتصادى وإيجاد هيكل سياسى أكثر حرية وديمقراطية (٧٥) . هذه الدوافع حثت الكونجرس الأمريكى فى غضون عام ١٩٧٤م على مناقشة قانون للحد من المعونات الخارجية ، ووقف جميع المعاملات العسكرية إلى منطقة الشرق الأوسط لمدة ستة أشهر أو إلغائها تمامًا . وسعى بعض المسئولين فى وزارة الدفاع الأمريكية للحد من إرسال الأسلحة إلى إيران على وجه الخصوص(٧٦) .

ومع قدوم الديمقراطيين برئاسة چيمى كارتر إلى البيت الأبيض رُفع شعار جديد ينادى بضرورة مراعاة مبدأ حقوق الإنسان وعدم التدخل فى شئون الشعوب الأخرى والحد من بيع الأسلحة . ومعنى ذلك أن السياسة الجديدة للإدارة الأمريكية لن تقوم

ثانية بمساندة أى نظام ديكتاتورى ، وكانت هذه السياسة داعياً لقلق الشاه من الإدارة الأمريكية تحسباً لعدم تلبيتها مطالبه الخاصة بالأسلحة أو تخليها عن مساندته إذا ما وقع أى عدوان على إيران (المصدر، ص ١٨٩) .

غير أن أمريكا رأت أن تحجيم النظام الديكتاتورى فى إيران قد يؤدى إلى وهن النظام الحاكم المؤيد لها المحافظ على مصالحها ، وعليه تم استثناء إيران التى أصبحت حالة خاصة فى سياسة أمريكا الخارجية (المصدر، ص٨٥ ، ١٦٩) .

وقام الشاه بزيارة واشنطن فى ١٥،١٦ نوفمبر عام ١٩٧٧م بناءً على دعوة الرئيس الأمريكى چيمى كارتر ، وتركزت المباحثات بينهما حول :

١- الاستمرار فى مساندة الشاه وتدعيم حكمه ضد مناوئيه وخصومه منوط بتنفيذ تعهداته السابقة للحفاظ على استمرارية العلاقات الخاصة بين البلدين.

٢ - تعهد الشاه باتخاذ موقف معتدل فيما يتعلق بتحديد سعر النفط خلال مؤتمر الأوبك المزمع عقده فى ديسمبر من نفس العام .

٣ - تلبية احتياجات إيران من الأسلحة والمعدات العسكرية .

٤ - العلاقات بين العرب وإسرائيل ، ونفوذ الاتحاد السوڤيتى فى أثيوبيا والصومال[٧٧] .

وبذلك أغمضت الإدارة الأمريكية أعينها عن سياستها الجديدة بخصوص إيران ، فيما يتعلق بمسألة حقوق الإنسان والحد من بيع الأسلحة والدعم الاقتصادى للدول ذات النظم الديكتاتورية . ورغم الانتقادات الموجهة إلى نظام الشاه من قبل المنظمات الدولية لحقوق الإنسان ، يلاحظ معدل الزيادة فى الصادرات الأمريكية إلى إيران عن أى وقت مضى ، حيث بلغ ٣/٦ مليار دولار أمريكى ، كما تم توقيع معاهدة بين البلدين لإنشاء خمسة مفاعلات نووية فى إيران ، وبلغت قيمة الأسلحة التى زودت بها إيران فى الأعوام الأولى من حكم الرئيس الأمريكى چيمى كارتر حوالى ٢/٤ مليار دولار أمريكى[٧٨].

ومع تنامى القوة العسكرية للشاه تبدلت إيران إلى قوة عسكرية عظمى يخشى بأسها فى المنطقة ، قوة وصفها "فردهاليدى" بأنها مثيرة للفزع[٧٩] . ولاشك أن مثل

هذا الانطباع الذى تكون عن الشاه فى الغرب كان بتأثير الدعاية الإعلامية وتصاريحه للصحفيين الغربيين ، فنجده على سبيل المثال يقول فى أحد تصاريحه:

"نحن أقوياء للغاية من الناحية العسكرية ، ورغم عدم امتلاكنا القنبلة الذرية أشعر أننا سوف نبدى قدراً كبيراً من المقاومة إذا ما نشبت الحرب العالمية الثالثة"(٨٠) .

واستمر الاستياء العام داخل إيران من تغلغل النفوذ العسكرى الأمريكى ، وأعربت الجماعات الثورية عن استيائها وفى مقدمتها الهيئة الدينية (جامعة روحانيت إيران) ، فأصدرت منشوراً فى ١٠ أبريل عام ١٩٧٨م يتألف من أربعة عشر بنداً يحدد أهداف الثورة ، وكانت المطالبة بإلغاء جميع المعاهدات الاقتصادية والعسكرية مع الكتلتين الغربية والشرقية ، وإلغاء القواعد العسكرية الأمريكية ، وطرد المستشارين العسكريين الأمريكيين ضمن بنود هذا البيان(٨١).

وصارت العلاقات مع أمريكا أحد محاور ثورة الشعب ، خاصة مع وصول بيانات الإمام عبر شرائط الكاسيت لحث الأهالى على رفض النفوذ الأمريكى والإطاحة بنظام الشاه الموالى لأمريكا ، وتنامت الحركة الشعبية ، وازدادت حركة النشاط الطلابى فى الجامعات وعم الاعتصام والإضراب معظم المصالح والإدارات الحكومية ، إلى أن وقع حادث سينما ركس بمدينة عبادان فى ١٩ أغسطس من عام ١٩٧٨م ، حيث تم حرق السينما على روادها البالغ عددهم ستمائة شخص ، وأعلن معارضو النظام عن ضلوع جهاز الساواك فى الحادث بهدف قتل بعض المجاهدين اللاجئين إلى السينما . بينما وجهت الحكومة أصابع الاتهام إلى الثوار الإسلاميين المتعصبين ، إلا أن ملابسات الحادث كانت تؤكد ضلوع الحكومة نفسها فى هذا الأمر ، حيث أكد شهود العيان أن أبواب السينما كانت مغلقة من الخارج بعد اشتعال النيران ، وأن المواد المحرقة كانت موزعة بإتقان ، كما أن سيارات الإطفاء قد تأخرت عن الوصول بعد الإبلاغ عن الحادث بساعتين ، وتباطأ قسم الشرطة – الذى يقع على بعد ثلاثمائة ياردة من مكان الحادث – فى إرسال المحققين(٨٢).

وبعد الحادث ، تهيأ المجال أكثر من ذى قبل للثورة، ولم يجد الشاه حلاً للأزمة سوى إقالته لحكومة آموز گار وتعيين جعفر شريف إمامى رئيساً للوزراء فى حكومة

المصالحة الوطنية "آشتى ملتى" ، وعلى الرغم مما أبداه رئيس الوزراء الجديد من مبادرات تهدف إلى اجتذاب طبقة رجال الدين ، مثل إصداره الأوامر بإغلاق الملاهى والنوادى الليلية، وإعادة التقويم الهجرى الشمسى، ومباحثاته مع السيد "شر يعتمدارى" فى قم للقضاء على سوء التفاهم القائم بين النظام ورجال الدين ومحاولاته أيضاً لعودة الخمينى من منفاه. (٨٣) ، إلا أنها جميعاً باءت بالفشل واستمرت المسيرات الشعبية اعتراضاً على النظام ، وبدأت الحكومة فى اتخاذ إجراءات مضادة انتهت إلى سفك الدماء وإقامة المذابح وإعلان الحكومة العسكرية ، لكن الشعب لم يرضخ وتمت مسيرات عيد الفطر فى طهران وغيرها من المدن فى الرابع من سبتمبر عام ١٩٧٨م واستمرت لمدة أربعة أيام انتهت بمذبحة يوم الجمعة السوداء (جمعة سياه) ، وكانت من أكبر الأخطاء التى ارتكبها نظام الشاه حيث لم تترك مجالاً للمصالحة بين الحكومة والشعب ، وعندما بلغت أصداؤها المجتمع الدولى زاد استياء الرأى العام العالمى من الشاه ومن مؤيديه من الساسة الأمريكيين ، وأعلن الخمينى عبر شرائط الكاسيت وجوب القيام بثورة عامة ، والقيام أيضاً بحركة إضراب موسعة على مستوى كافة المصالح والشركات والوحدات الحيوية مما كان له أثره الشديد على الاقتصاد القومى ، واضطر الشاه لأن يعلن على شعبه ضرورة التماسك والحفاظ على المصالح الوطنية ، كما أعلن عن حكومته المؤقتة برئاسة المارشال أزهارى الذى قام بتنفيذ برنامج محاربة الفساد، وقبض على ثلاثمائة شخصية كانت تشغل المناصب العليا وفى مقدمتهم رئيس الوزراء السابق عباس هويدا ، إلا أن الأهالى لم ينخدعوا بهذه الإجراءات الظاهرية واستمرت حركة الإضراب لتشمل جميع المؤسسات الحكومية بقطاعيها الخاص والعام، وسارت الأوضاع من سيء إلى أسوأ حتى انتهت إلى أحداث تاسوعاء وعاشوراء (١٠ ، ١١ ديسمبر ١٩٧٨م) ، التى كانت استفتاءً حقيقيًا يدين نظام الشاه ويؤكد على زعامة الخمينى (٨٤).

أثناء ذلك لم يتورع النظام عن ارتكاب المذابح الوحشية ضد الأهالى . وكان الأمل الوحيد والأخير لدى الشاه فى تشكيل حكومة ائتلافية برئاسة شاهپور بختيار الذى اقترح مغادرة الشاه إيران حتى تستقر الأمور ، وبدأ فى تشكيل وزارته فى ٦ يناير عام ١٩٧٩م .

ومع احتدام الأزمة كان الشاه يشعر بتخلى أصدقائه الأمريكيين عنه ، بل اعتبرهم هم الساعون لتنحيته عن الحكم ؛ ومرد ذلك ما كان يراه من ازدواجية فى الرأى من قبل الإدارة الأمريكية . فجناح برچينسكى - مستشار الأمن القومى - يؤيد استخدام العنف تجاه الثوار ، بينما يؤيد جناح سايروس ڤانس - وزير الخارجية - أسلوب التعامل السلمى ومحاولات الإصلاح (المصدر، ص ٢٢) . ورغم تأكيد د . صادق زيبا كلام على عدم ضلوع أمريكا فى قلب نظام الحكم فى إيران (المصدر، ص١٨)، إلا أن الأمر كان عكس ذلك على أرض الواقع . فقد أدركت المخابرات المركزية الأمريكية أفول نجم الشاه لعدة أسباب ، منها إصابة الشاه بمرض السرطان وسفره إلى الخارج فى رحلات علاجية ، واستياء طوائف الشعب كافة من نظامه ورغبتها فى التغيير . لذا أيقن المسئولون الأمريكيون أن المسألة تعتمد على الوقت وأنه فى طريقه إلى الزوال لا محالة . وعليه بدأ التفكير فى البديل الذى يحقق لهم إمكانية تجميع الفصائل الوطنية الثائرة فى البلاد تحت لواء واحد ويضمن الولاء لهم ، وتوهموا أن هذا البديل هو التيار الدينى الذى يستطيع تحريك مشاعر الشارع الإيرانى بصوت رجال الدين، وفى الوقت نفسه يعد حصنًا منيعًا أمام المد الشيوعى ، وإلا لكان من السهولة بمكان مساندة الشاه بشكل أكثر فاعلية والحيلولة دون تصاعد الأزمة ومنع الخمينى من دخول إيران بطرق عدة . إلا أن الشاه كان فى ذلك الوقت ورقة غير رابحة استنفذ الغرض منها ولابد من إيجاد البديل .

وعلى أية حال ، فقد رحل الشاه عن إيران فى ١٦ يناير عام ١٩٧٩ م . وأعلنت الهيئة الدينية انتفاء الشرعية عنه ، وخلعه من الحكم وإقرار النظام الإسلامى الجمهورى ، وعدم الاعتراف بحكومته . ومع عودة الخمينى فى أول فبراير عام ١٩٧٩ م أعلن تعيين مهدى بازرگان رئيسًا للحكومة الإسلامية المؤقتة ، للإشراف على الاستفتاء الذى سيمهد لإعلان الجمهورية الإسلامية فى إيران .

وعلى هذا النحو سقط النظام الشاهنشاهى ، وكان هذا السقوط هو النتيجة الحتمية لنظام دأب على ممارسة الضغوط السياسية ، والقيام بحملات الاعتقال الموسعة ، راج خلاله الفساد والرشوة ، اعتمد على القوة العسكرية فى تعامله مع

الأهالى ، خنع للقوى الأجنبية (أمريكا) وساهم فى بسط نفوذها ، افتقد للقاعدة الشعبية المؤيدة له ، سعى لرفاهية الأقلية الحاكمة بينما ازداد الشعب فقرًا وحرمانًا ، ساهم فى استياء الغالبية العظمى من أفراد المجتمع بعدم اكتراثه بقيم هذا المجتمع وعاداته وتقاليده وعقائده الدينية، مثل هذا النظام كان لابد وأن يهيئ الأجواء لتحقيق حركة ثورية تسقط شرعيته وتحل نظامًا آخر محله ، على أمل الخلاص والحرية والديمقراطية والعدالة الاجتماعية .

الهوامش

(١) عباس على عميد زنجانى : انقلاب إسلامى وريشه هاى آن ، كتاب طوبى ، چاپ دوازدهم ، تهران ١٣٧٧ ش ، ص ١٠ .

(٢) سورة آل عمران ، آية ١٣ .

(٣) يشكل المسلمون نسبة ٩٨٪ من تعداد المجتمع الإيرانى .

(٤) منوچهر محمدى (دكتر) : تحليلى برانقلاب إسلامى ، انتشارات أمير كبير ، تهران ١٣٧٧ش، ص ١٢٢ .

(٥) كلر برير ، پير بلانشه : إيران ، انقلاب به نام خدا ، ترجمة قاسم صنعوى ، انتشارات سحاب ، ١٣٥٨ ش ، ص ٢٦٠ .

(٦) إبراهيم الدسوقى شتا (دكتور) : الثورة الإيرانية ، الجذور - الأيديولوچية ، الزهراء للإعلام العربى ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٨م ، ص ٢٠ ، نقلاً عن يادوياد أوران ، ص ١٧.

(٧) المرجع السابق ، ص ٣٨ .

(٨) سورة الأنفال ، آية ٤١ .

(٩) Robert Graham : Iran The Illusion of Power, St. Martin's Press, New York, 1980, P. 218.

(١٠) صحيفة نور ، مجموعة رهمنودهاى إمام خمينى با مقدمة أز جناب أقاى سيد على خامن أى ، انتشارات سهامى، بهمن ١٣٦١هـ.ش، ج١، ص١١٩ .

(١١) عباس على عميد زنجانى : انقلاب إسلامى وريشه هاى آن ، ص ٢٢ .

(١٢) المرجع السابق ، ص ٢٤ ، ص ٢٥ .

(١٣) صحيفة نور ، ج ١، ص١٧٧ .

(١٤) انظر ، هامش المترجم رقم [٢١] .

(١٥) أى : المتحدون، الحرية ، الوطنيون ، الإرادة الوطنية ، وطنيو إيران ، التكتل ، مكافحو شعب إيران ، آذربايجان الديمقراطى ، فدائيو الإسلام والديمقراطى .

پيتر آورى : تاريخ معاصر إيران آز تأسيس سلسلة پهلوى تاكودتاى مرداد ١٣٣٢ش ، ترجمة محمد رفيعى مهر آبادى، جلد دوم ، چاپ دوم ، طبع طهران ، ص ٢٢٧ وما بعدها .

(١٦) حزب عمال إيران الاشتراكى الوطنى .

(١٧) أى : الآريون.

(١٨) حسين فردوست : ظهور وسقوط سلطنت پهلوى، انتشارات اطلاعات ، تهران ١٣٤٧ ش ، ج١ ، ص ١٤٠، ١٤١ .

(١٩) إبراهيم اليزدى : بررسى أوضاع كنونى إيران ، نشر مجموعة ١٧ ، شهر يور - بهمن ١٣٥٧ ش ، ص ٤٧ .

(٢٠) محمد السعيد عبد المؤمن (دكتور) : مسألة الثورة الإيرانية، الطبعة الأولى، عام ١٩٨١م، ص ٣٩ ، ص ٤٢ .

(٢١) حميد أنصارى : حديث بيدارى ، نگاهى به زند گينامه آرمانى ، ، علمى وسياسى إمام خمينى از تولد تارحلت ، مؤسسه‌ء تنظيم ونشر آثار إمام خمينى ، چاپ هفتم ، ١٣٧٨ ش ، ص ٩١ .

(٢٢) صحيفة نور، [مجموعة رهنمودها إمام خمينى بامقدمة أز آقاى سيد على خامنه آى، انتشارات سهامى بهمن ١٣٦١ش] ، ج١ ، ص ٢١١ .

(٢٣) محمد حسنين هيكل : إيران فوق بركان ، القاهرة ١٩٥١ ، ص ١٠٣ .

(٢٤) أحمد مهابة: إيران بين التاج والعمامة، دار الحرية للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، ١٩٨٩م ، ص ٢٩٦ .

(٢٥) خاطرات منصور رفيع زاده، آخرون، رئيس سابق ساواك در أمريكا، ترجمة وحيد أيمن ، بعنوان "شاهد از شاه تا دخالتهاى آشكار أمريكا درإيران ، چاپ أول ، تهران ١٣٧٧ش، ص ١٩٥،ص ١٩٨ .

(٢٦) المرجع السابق ، ص ٢٠٢ .

(٢٧) اختصار "سازمان اطلاعات وأمنيت كشور" أى : منظمة المخابرات وأمن الدولة .

(٢٨) أحمد مهابة : إيران بين التاج والعمامة ، ص ٧٢ ، ص ٨٢ .

(٢٩) انظر البند الحادى عشر من الدستور والبندين التسعين والحادى والتسعين من المتمم له ، رسالة دكتوراه للباحثة تحت عنوان "تاريخ الحكم النيابى لإيران ، جامعة عين شمس ١٩٩٦م ، ص٣٢١ ، ص ٣٢٩ .

(٣٠) حميد أنصارى : حديث بيدارى ، ص ٣٨ .

(٣١) صحيفة نور ، ج١ ، ص ١٥ .

(٣٢) المرجع السابق ، ص ٣٣ .

(٣٣) للاطلاع على متن الرسالة ، انظر "نامه ها" لعلى أصغر حاج سيد جوادى ، انتشارات تندر، چاپ دوم ، ١٣٥٧ ش ، ص ١ : ص ٥٣ .

(٣٤) غلام رضا نجاتى : تاريخ سياسى بيست وپنج سالة إيران ، انتشارات رسا ، چاپ چهارم ، تهران ١٣٧٣ ش ، جلد دوم ، ص ١٧ .

(٣٥) المرجع السابق ، ص ٢٨ ، ص ٢٩ .

(٣٦) غلام رضا نجاتى : تاريخ بيست وپنج سالة إيران ، ج١ ، ص ٢٢١ .

(٣٧) حميد أنصارى : حديث بيدارى ، ص ٤٢ .

(٣٨) صحيفة نور ، ج١ ، ص ٢٣ .

(٣٩) المرجع السابق ، ص ٢٧ .

(٤٠) المرجع السابق ، ص ٣٩ . والتقية: هي إحدى عقائد الشيعة ، كانت شعارا لآل البيت (رضى الله عنهم)؛ دفعاً للضرر عنهم وعن أتباعهم وحقناً لدمائهم . ويتم بمقتضاها أن يتكتم الإنسان ويتقى إذا ما شعر بالخطر على نفسه أو على ماله بسبب نشر معتقداته أو التظاهر بها .

(٤١) عباس على عميد زنجانى : انقلاب إسلامى وريشه هاى آن ، ص ٢٢٦ .

(٤٢) سيد حميد روحانى : نهضت إمام خمينى ، انتشارات واحد فرهنگى بنياد شهيد ، خرداد ١٣٦٤ش ، جلد أول ، ص ٥٣٣ .

(٤٣) أبو الحسن بنى صدر : إيران غربة السياسة والثروة ، الترجمة العربية لدار الكلمة ، بيروت ١٩٧٩م ، ص ١٢٦ .

(٤٤) غلام رضا نجاتى : تاريخ بيست وپنج سالة إيران ، ج١ ، ص ٣٥٤ .

(٤٥) على رشيدى (دكتور) : التنمية الصناعية فى إيران ، مقال فى فصلية إيران والعرب ، العدد الأول ، السنة الأولى ، بيروت ٢٠٠٢م ، ص ١٢٨ .

(٤٦) إبراهيم الدسوقى شتا (دكتور) : الثورة الإيرانية ، الصراع ، الملحمة ، النصر، الزهراء للإعلام العربى ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٨٦م ، ص ٦٢ .

(٤٧) عباس على عميد زنجانى : انقلاب إسلامى وريشه هاى آن ، ص ٣٢٤ .

(٤٨) حسين فردوست : ظهور وسقوط سلطنت پهلوى ، ج١ ، ص ٢٢١ . وسوف يرد الحديث تفصيلياً عن طموح الشاه الشديد فيما يتعلق بتسليح إيران عند تناولنا العلاقات الإيرانية الأمريكية فى عهد الشاه ، ومدى تأثيرها فى تطور الأحداث المؤدية إلى الثورة الإسلامية .

(٤٩) منوچهر محمدى : تحليلى برانقلاب إسلامى ، ص ٨٦ .

(٥٠) انظر ، هامش المترجم رقم [٢٥] .

(٥١) غلام رضا نجاتى : تاريخ بيست وپنج سالة إيران ، ج١ ، ص ٢١٧ ، ص٢١٨ .

(٥٢) سيد جلال مدنى : تاريخ معاصر إيران ، جلد أول، تهران ١٣٦١هـ.ش، ص٣٣١ .

(٥٣) انظر ، العلاقات الإيرانية الألمانية وأثرها على الأدب الفارسى فى القرن العشرين للباحثة ، المكتب العربى لتوزيع المطبوعات ، القاهرة ١٩٩٨م ، ص ٦٢ : ص ٦٧ .

(٥٤) إبراهيم الدسوقى شتا : الثورة الإيرانية ، الصراع ، الملحمة ، النصر ، ص ٣٠ .

(٥٥) سيد حميد روحانى : نهضت إمام خمينى ، ج٣ ، ص ٢٨٣ ، ص٢٨٤ .

(٥٦) المرجع السابق ، ص ٣١٣ .

(٥٧) انظر ، مقدمة برانقلاب إسلامى للدكتور صادق زيبا كلام ص ٢٩١ : ص ٣٠٣ .

(٥٨) غلام رضا نجاتى : تاريخ بيست وپنج سالة إيران ، ج١ ، ص ٣٤٦ .

(٥٩) منوچهر محمدى : تحليلى برانقلاب إسلامى ، ص ٩٤ .

(٦٠) صحيفة نور ، ج١ ، ص ١٣٢ ، ص ١٣٣ .

(٦١) حسين فردوست : ظهور وسقوط سلطنت پهلوى ، ج١ ، ص ٥٣٠ ، ص ٥٣١ .

(٦٢) غلام رضا نجاتى : تاريخ بيست وپنج سالة إيران ، ج١ ، ص ٥٠٩ .

(٦٣) المرجع السابق ، ص ٥١٠ .

(٦٤) Barry Rubin: Paved with good intention, the American Experience and Iran, Penguin books, 1987, pp. 41-42 .

(٦٥) غلام رضا نجاني : تاريخ بيست وپنج .... ، ج١ ، ص ٥١٣ .

(٦٦) إبراهيم سنجر (دكتر): نفوذ أمريكا درإيران ، انتشارات خوشه ، تهران ١٣٦٨ ش ص ٩٠ ، ص١١١ .

(٦٧) المرجع السابق ، ص ١١٠ .

(٦٨) غلام رضا نجاتي : تاريخ بيست وپنج ... ، ج١ ، ص ٥١٧ .

(٦٩) حميد أنصاري : حديث بيداري ، ص ٣٦ .

(٧٠) غلام رضا نجاني : تاريخ بيست وپنج ...، ج١ ، ص ٥١٩ .

(٧١) المرجع السابق ، ص ٥٢٠ .

(٧٢) صحيفة نور ، ج ١ ، ص ٢٠٢ .

(٧٣) انظر ، انقلاب إسلامي وريشه هاى آن لعباس على زنجاني، ص ٣٢٠ ، نقلاً عن ما هنامة بررسي مطبوعات جهان ، وزارت فرهنگ وإرشاد إسلامي ، مرداد ١٣٦٣ش ، ص٢٠ ،ص٢١ .

(٧٤) خاطرات رفيع منصور زاده ، ص ٣٥٥ ، ص٣٥٦ .

(٧٥) جان . دى . أستمپل : درون انقلاب إسلامي ، ص ١٠٠ .

(٧٦) Barry Rubin : paved with good intention.., p. 170 .

(٧٧) Syrus vance: Hard choises, Critical years in American Policy, Simon and Schuster, New York, 1983, pp. 318-321.

(٧٨) منوچهر محمدى : تحليلي برانقلاب إسلامي ، ص ١٣٨ .

(٧٩) عباس على زنجاني : انقلاب إسلامي وريشه هاى آن ، ص ٣١٩ ، نقلاً عن ماهنامة بررسي مطبوعات جهان ، ص ١٥ .

(٨٠) المرجع السابق ، ص ٣٢٠ ، نقلاً عن مصاحبة باتاريخ سازان جهان ، نوشته أوريانا فالاچي ، ترجمة بيدار نريمان ، ص ١١ .

(٨١) إبراهيم الدسوقي شتا (دكتور) : الثورة الإيرانية ، الصراع ...ص٢٦٤ .

(٨٢) جان .دى . أستمپل : درون انقلاب إسلامي ، ص ١٦١ .

(٨٣) حميد أنصاري : حديث بيداري ، ص ٩٧ ، ص ٩٨ .

(٨٤) جان . دى . أستمپل : درون انقلاب إسلامي، ص ٢١٢ .

ثانيًا

الترجمة العربية لكتاب

مقدمة بر انقلاب إسلامى

مقدمة الكاتب :

انقضى مايقرب من الأربعة أعوام منذ طبع الكتاب للمرة الأولى وحتى الآن، وخلال تلك الفترة ، وُجهت إلى الكتاب بعض الانتقادات أثناء قيامى بتدريسه فى قاعات الدرس الخاص بى . وفى الاتجاه الآخر نال كذلك حظه من المدح والثناء . وسوف أتغاضى عن الإطراء ، وأعرض بعض الانتقادات التى وجهت إليه:

* كان الانتقاد الأول: والأهم الذى وجه إلى الكتاب ، أنه يسعى لإخراج الثورة من هويتها الإسلامية أو الدينية ، ويقدمها على أنها حدث سياسى صرف .

* والانتقاد الثانى: هو أن الكتاب لم يقم بالشكل الذى ينبغى بإبراز الدور الدينى والقيادى للإمام فى الثورة . واكتفى بإشارات مقتضبة إلى دوره فى تكوين الثورة.

* والانتقاد الثالث: هو إشارة الكتاب إلى درجة من الاستقلال السياسى لنظام الشاه ، كما أنه قدم سياسات الشاه وبرامجه فى بعض المواضع وكأنها كانت مستقلة استقلالاً تاما عن الغرب وخاصة أمريكا .

* والانتقاد الرابع: هو أن الكتاب فضلاً عن أنه لم يقم بنقد برامج الشاه الاقتصادية بالقدر الكافى ، قام فى بعض المواضع بالدفاع عنها حتى أنه ادعى ارتفاع مستوى المعيشة للشعب خلال السنوات الأخيرة لحكم الشاه .

* أما الانتقاد الخامس : والذى يعد فى الوقت نفسه من أشد الانتقادات التى وجهت إلى الكتاب ، أنه لم يقر بنظرية تأييد الأمريكان للشاه حتى اللحظات الأخيرة لحكمه ، بل أنه أنكر مسئولية واشنطن ودورها المباشر فى المذابح التى استهدفت الشعب خلال عهد الثورة .

بالإضافة إلى ما سبق ، يجدر بنا الإشارة إلى نقد آخر ، وهذا النقد يبدر عن إناس يتبعون فكرة «افتراض التآمر» بخصوص الثورة الإسلامية ، ومشكلة هؤلاء أو نقدهم هو عدم إشارة الكتاب إلى الأحداث الخفية للثورة ، والاتصالات والمباحثات

مع المسئولين الأمريكان ، وكذلك تبادل الآراء والوعود والقرارات غير المعلنة ، وأن الكتاب ينظر إلى الثورة وكأن مثل هذه الأحداث والمواقف وقعت دون تدخل أجنبي أو أنها لم تحدث من الأصل .

وللرد على هذه الانتقادات يجب القول إننا إذا ما قمنا بالرد عليها وعرضها وتجزئتها وتحليلها واحداً تلو الآخر ، لاستلزم منا ذلك كتاباً آخر فى حجم كتاب «مقدمات الثورة الإسلامية» . ويجب القول إن أول ما يتعلق بجميع هذه الانتقادات هو مسألة «الأسلوب الإعلامى» . بمعنى أن أصل الانتقادات لا يقع على الكتاب فى المقام الأول ، بل على أسلوب أو فكر المنتقدين.

المشكلة ليست فى نوع عرض وتحليل الكتاب واستخلاص نتائجه ، بل فى رؤية المنتقدين وآرائهم تجاه نظام الشاه من ناحية ، والثورة الإسلامية من ناحية أخرى .

فنحن قد افترضنا مجموعة من المفاهيم على أنها أصول ثابتة ، سواء فيما يتعلق بنظام الشاه أو بالثورة الإسلامية ، والنتيجة هى أنه حينما يقع كتاب بين أيدينا لا يدور فى إطار هذه الأصول ، ويعرض صورة أخرى للثورة ولنظام الشاه ، فنحن نواجه مشكلة مع هذا الكتاب ومع ما يحتويه من موضوعات ، ونشعر أن الكتاب قد نقض هذه الأصول المسلم بها ، أو أنه لم يهتم بها ولم يولها القدر الكافى من العناية . وأشير فى هذا المقام إلى بعض هذه «الأصول الثابتة» ، فمنها على سبيل المثال : أن الشاه إحدى قطع الشطرنج المتحركة ، مكلف ، أداة بلا إرادة فى يد أصدقائه الأجانب وخاصة الأمريكان ، وعليه فإن كل ما يقوم به هو أو نظامه أو ما لا يقوم به كان بأوامر مباشرة من المسئولين فى واشنطن . ونتيجة هذا الوهم أنه بدلاً من إدراك الأسباب والبواعث الحقيقية لتصرفات الشاه السابق وسياسته ، والبحث فى بواعث قراراته ، نسير فى خط مستقيم وراء سراب لقوالب محددة من قبل ؛ لكى نوضح أن اتخاذ تلك السياسة كان لصالح أمريكا .

فلو قام الشاه بإصلاحات زراعية ، ونصَّب «على أمينى» فى رئاسة الحكومة، ومنح الحرية أو لم يمنحها ، وأوجد نظام التعدد الحزبى أو سار على نظام حزب «رستاخيز» وما إلى ذلك ، نقول : إن غايته من هذا تأمين مصالح الغرب وأمريكا .

وعلى الأقل فما يمكن أن يوجه من انتقاد هو أن كثيرًا من قرارات الشاه لم تكن فقط غير متجانسة ومتناسقة مع بعضها البعض ، بل إنها كانت متناقضة أيضًا . وعلى سبيل المثال ، حينما يعين شخصية مستقلة ، نزيهة ، ذات خبرة قديمة مثل د. على أمينى فى رئاسة الحكومة ، يكون هذا القرار بأمر واشنطن . وبعد أربعة عشر شهرًا عندما يتنحى أمينى عن منصبه ، فيكون ذلك أيضًا بأمر الأمريكان . ورئيس الوزراء التالى كان هو أيضًا بأمر الأمريكان على الرغم من أنه كان فى الاتجاه المضاد تمامًا لأمينى ، حيث كان مطيعًا للشاه إلى أقصى حد !

لو كانت هذه القرارات المتناقضة تمت حقا بأمر الأمريكان (كما نعتقد) ، فعلى الأقل يجب أن تتبعها نتيجة لصالح الأمريكان فى إيران .

والحقيقة أنهم لم يكونوا على فهم جيد أو علم واسع بأى سياسة كان يجب أن تتبع ، وكانوا يغيرون قراراتهم تباعًا .

على سبيل المثال ، حينما انخفضت قيمة النفط وبلغ سعره ما يقرب من ٨/٧ دولارًا أو أقل ، كنا نعد ذلك بأمر الأمريكان . ومنذ أوائل عام ١٣٥٠هـ.ش (١٩٧١م) حيث تنامت قيمة النفط أربعة أضعاف ، وبلغ سعر البرميل أكثر من ثلاثين دولارًا ، نعتبر هذا أيضًا بأمر الأمريكان . دون أن نأخذ فى الاعتبار أية أهمية لقرارات الشاه بخصوص النفط ، فسواء كان يبيعه بثمن باهظ أو زهيد ، ففى جميع الأحوال هو منفذٌ فقط لأوامر أصدقائه .

وكانت سياسة الشاه مع أوروبا الشرقية أيضًا تقع فى مثل هذا التناقض ، فحينما كانت علاقة نظام الشاه مع دول الكتلة الشرقية فاترة وسيئة ، كانت هذه السياسة بأمر من أمريكا . وفى أواسط عام ١٣٤٠ هـ .ش (١٩٦١م) حينما توطدت علاقات طهران بشكل لافت للأنظار مع الدول الشيوعية ، لم نستطع أن نقول – وفقًا للقاعدة – إنها لم تكن بناءً على أوامر أصدقائه .

وإذا ما قام الشاه باستعمال سياسة القمع إزاء معارضيه ، يكون ذلك بناءً على أوامر أمريكا وأصدقائه ، وإذا ما قام باستعمال سياسة «الفضاء المفتوح» والحوار ، نقول – وفقًا للقاعدة – إن ذلك كان بناءً على أوامر أصدقائه .

وبمثل هذه النظرة تجاه نظام الشاه ، يتضح - كرهًا أو طوعًا - أن الثورة الإسلامية أخرجت رأسها من مكان «افتراض التآمر» . لعل مؤيدى «افتراض التآمر» يقولون عكس ذلك فيما يتعلق بمواجهة نظام الشاه للثورة الإسلامية . إن أساس استدلالهم يبدأ من قبل هذا الغرض الأساسى ، فهم يعتقدون أن الشاه لو تناول شربة ماء ، لكان ذلك بناءً على رغبة أمريكا وإذنها ، وبالطبع حينما يصلون إلى تطورات أحداث الثورة فيما بين عامى ١٣٥٦ - ١٣٥٧ هـ.ش (١٩٧٧ - ١٩٧٨م) يستمرون فى نفس الاستدلال ، أى أنهم يعتقدون أن الشاه مثلما كان يقوم فى الماضى بأى عمل أو أية سياسة وفقًا لأوامر واشنطن ، فإن هذا يحدث أيضًا فى عهد الثورة .

وفى هذه الفترة أيضًا فإن كل عمل قام به كان بناءً على رغبة أمريكا ، أو أمرها ، بعبارة أخرى، لو أن الشاه منح الحريات فى عام ١٣٥٦هـ.ش (١٩٧٧م) ، وأوجد نظام الفضاء السياسى المفتوح، وإذا ما أطلق سراح آلاف المعتقلين السياسيين خلال عدة أشهر، وإذا ماأوقف أعمال التعذيب والتنكيل، وإذا ما تمكن مئات، بل آلاف، بل عشرات الآلاف من التظاهر فى شوارع طهران وغيرها من المدن الكبرى، وإذا ما منح الحرية للمطبوعات وغير ذلك ، هل من الممكن أن يتم كل ذلك دون موافقة واشنطن ؟!

إن الشاه حكم سبعة وثلاثين عامًا ، فكيف يتسنى له أن يحكم خلال تلك الفترة بأوامر كل من أمريكا وإنجلترا ، ثم يتحول دفعة واحدة فى العام الأخير لحكمه لتصير كل سياساته الهامة وقراراته الخاصة بتحديد المصير نابعة من ذاته دون أن يكون للأجانب أو للأصدقاء أى دور فيها ؟!

وكيف كانت تتم الإصلاحات فى المجال الزراعى ، وإخماد ثورة ١٥ خرداد، وتنصيب د. على أمينى على الحكومة، وإلغاء حق القضاء القنصلى ، والثورة البيضاء ، وتشكيل الجمعيات المحلية ، ونظام التعدد الحزبى أو الحزب الواحد، ومشاركة العمال فى أرباح المصانع ، وارتفاع أو انخفاض سعر البترول ، ومنح النساء حق التصويت فى الانتخابات ، وإنشاء جيش مدرب ومجهز وكذلك قوات حرس الحدود ...؟ كل هذا تم بأمر الأمريكان أو لتحقيق مصالحهم!! ولكن دفعة واحدة وبشكل مفاجئ قام فى عام ١٣٥٦ - ١٣٥٧هـ.ش (١٩٧٧ - ١٩٧٨م) بتنفيذ تلك السياسات الاستراتيجية المصيرية بمفرده وبشكل مستقر دون إشارة من أمريكاوواشنطن !!

من وجهة نظر مؤيدى «افتراض التآمر» حول الثورة الإسلامية ، كيف يمكننا قبول فكرة أن الشاه الذى كان يتناول الماء بموافقة واشنطن والتنسيق معها ، يقوم دفعة واحدة بمنح الحريات وإحداث نظام الفضاء السياسى المفتوح ، ويطلق سراح المعتقلين السياسيين بالجماعات، ويتحدث عن حرية التعبير وحرية المطبوعات وحرية الاجتماعات، دون أن يكون لواشنطن أى تدخل ؟! كيف يمكن أن يتم كل شىء فى المملكة خلال نصف قرن بإشارة من إنجلترا أو أمريكا أو على الأقل لتحقيق مصالحهما ، ثم تحدث فجوة كبيرة دفعة واحدة، وتتأجج الثورة الإسلامية بشكل منفرد دون علاقة بالأجانب؟!

والحقيقة إن قبول هذا الرأى بأن الشاه لم يكن أكثر من قطعة شطرنج فى يد الأمريكان ، لا إرادة له ، يؤدى إلى مزيد من الوهم وافتراض فكرة التآمر إزاء أحداث عامى ١٣٥٦ - ١٣٥٧هـ .ش (١٩٧٧ - ١٩٧٨م) بشكل غير قابل للاجتناب . إن هذا الاعتقاد الخاطئ الذى يقول بأن الشاه أو الأسرة البهلوية لم يكونوا أكثر من قطع للشطرنج بلا إرادة هو للأسف من الأسس الواهية التى يقوم عليها تاريخنا السياسى المعاصر ، وقلما يوجد كتاب أو تحليل أو رسالة أو مقال يمكن ألا يظهر فيها هذا الاعتقاد الخاطئ بصور مختلفة ، سواء فيما يتعلق برضا شاه أو بخليفته . حقيقة أن محمد رضا شاه اعتلى السلطة فى شهريور عام ١٣٢٠هـ . ش (١٩٤٢م) بموافقة الحلفاء (أمريكا، والاتحاد السوفيتى السابق وإنجلترا) ، وحقيقة أيضًا أن الشاه السابق كان يخطئ بحماية إنجلترا فى الفترة من ١٣٢٠ : ١٣٣٢هـ .ش (١٩٤٢ : ١٩٥٤م) ، وحقيقة كذلك أن الشاه عاد ثانية لأريكة الحكم بفضل تدخل إنجلترا وواشنطن المباشر وتأييدهما له خلال أحداث انقلاب ٢٨ مرداد ١٣٣٢هـ.ش (١٩٥٤م)، وفى النهاية كان حقيقة أيضًا أن الشاه كانت تربطه علاقات وطيدة مع أمريكا من غداة انقلاب ٢٨ مرداد حتى صباح الاثنين ٢٢ بهمن من عام ١٣٥٧ هـ .ش (١٩٧٨م) ، كل هذا حقيقى ، ولكن ما هو غير حقيقى، هذا الاعتقاد الخاطئ الذى يقول : إن الشاه قام بكل ما قام به بإذن واشنطن ولندن .

إن الشاه كان قريبًا من الغرب وخاصة أمريكا ، بل كان قريبًا جدًا ، لكن الجزء الأعظم مما كان يقوم به كان بإرادته وبناءً على قراراته . وما من شك أن الأمريكان كانوا يطلبون منه فى بعض المواضع إعمال هذه السياسة أو تنفيذ ذلك القرار ،

أو يعربون عن ميلهم لأحد هذه القرارات . ولكن ثمة حقيقة أخرى وهى أن بعض هذه السياسات أو تلك القرارات لم تكن على هوى واشنطن ، ومثال ذلك اقتراب الشاه من أوروبا الشرقية ، وبسط علاقاته مع الدول الشيوعية ، وإصراره على شراء الأسلحة ، ودوره داخل منظمة الأوبك لرفع ثمن النفط فى أوائل عام ١٣٥٠هـ .ش (١٩٧١م) ، وإصراره على إتمام الإصلاحات والتوسع السياسى . فضلاً عن ذلك ، وعلى أرض الواقع ، نجد أن كثيرًا من قرارات الشاه وسياساته لم يكن لها أى علاقة بالأمريكان ، فلم تكن كل قرارات الشاه فى واقع الحال مرتبطة بشكل ما بتحقيق مصالح الأمريكان على مستوى العالم أو على مستوى المنطقة ، فكثير من قراراته لم تكن تمثل شيئًا لواشنطن ، ولم تكن تلفت أنظارهم لا بالسلب ولا بالإيجاب .

وحقيقة الحال أنه منذ أواسط الأربعينيات (أى الستينيات بالتقويم الميلادى) ومع الزيادة التدريجية فى دخل إيران من النفط ، كان يبدو استقلال الشاه يومًا بعد يو[م] تجاه أمريكا . وإذا كان الشاه قد شعر بالضعف فى بعض الأحيان ، خاصة فى العشرينيات (أى الأربعينيات بالتقويم الميلادى) أو فى الأعوام التالية لانقلاب ٢٨ مرداد وكان اعتماده أكثر على واشنطن ولندن، إلا أنه فى الأربعينيات (أى الستينيات بالتقوي[م] الميلادى) شعر بإحساس الزعيم القوى المقتدر الذى لا تمس حاجته لإرضاء أمري[كا] أو تأييدها . وفى العشرة أعوام الأخيرة لحكم الشاه شعر أنه شريك للأمريكان عل[ى] قدم المساواة أكثر من شعوره بأنه عميل أو منقاد لأوامر واشنطن .

وفى الواقع أن أمريكا كانت ترى ذلك أيضًا فى الشاه ، وقلما كانت تنظر إل[يه] على أنه مكلف أو عميل . ويشير «ويليام سوليفان» آخر سفير أمريكى فى إير[ان] (١٣٥٦ : ١٣٥٨ هـ .ش - ١٩٧٧ : ١٩٧٩م) فى خواطره إلى أن أول ما جذب انتبا[هه] عند بدء دخوله طهران هو عدم وجود أية علاقة أو اتصال مباشر لمسئولى السفا[رة] السياسيين أو المخابرات مع القوى المعارضة لنظام الشاه ، ويقول:

"حينما استفسرت عن سبب ذلك ، قالوا لى : إن الشاه لا يوافق على وجود نوع من العلاقات بين السفارة وبين معارضى نظامه قط ، لذا ، ونظرًا لحساسية ظلت السفارة لوقت طويل تتجنب إيجاد أى نوع من الاتصال أو العلاقات مع الق[وى] المعارضة لنظامه"(١).

ولا ريب أنه فى عهد الثورة ، وبخاصة من النصف الثانى من عام ١٣٥٧هـ .ش (١٩٧٨م) كان الوضع الجسدى والروحى والنفسى للشاه فى حالة استثنائية ، وكان اقترابه أكثر للندن وواشنطن ، وكان عمق الأزمة من جهة ، ومن جهة أخرى وحدة الشاه (لفقده أفراد كانوا موضع ثقته ، من أمثال : أمير أسد الله علم ود. منوچهر) ، واستخدامه المفرط للأدوية المسكنة والمخدرة لعلاج آلام السرطان الذى دخل فى مراحل متطورة ، وقدوم أشخاص جدد غير معروفين تمامًا إلى البيت الأبيض ، حيث شكلت الحكومة الأمريكية من قبل الديمقراطيين فى أواخر عام ١٣٥٥هـ .ش (١٩٧٦م) وهم أشخاص لم يكن للشاه معرفة بهم من قبل، بل إنه لم يكن فى إمكانه منحهم ثقته ، كل ذلك كان سببًا فى أن يكون الشاه غير قادر على اتخاذ القرار ، ومجموع هذه العوامل أفضى إلى فقدانه إرادته وقدرته على اتخاذ القرار بشكل ملموس فى الشهور التى انتهت ببهمن عام ١٣٥٧ هـ. ش (١٩٧٨م) ، وقلما كان يبدى ميله للبقاء فى الحكم أو إحكام سلطانه ، وكان يبدى ميله أكثر للأمريكان مستفسراً منهم عما يجب القيام به وعن سبل الحل . لكن هذه الفترة كانت فترة استثنائية ، ولا يجب أن تسوقنا إلى نتيجة خاطئة وهى أن الشاه كان مرتبطاً بأمريكا على هذا النحو خلال فترة حكمه كلها .

والمشكلة التى أثارها كتاب «مقدمات الثورة الإسلامية» أنه أسقط هذا الاعتقاد من الاعتبار ، لكنه بحث فى الخطأ الشائع فيما يتعلق بعلاقة الشاه وواشنطن ، وبدلاً من ترديده هذا الوهم الخاطئ ، سعى دوماً كى يوضح ماهية الأسباب والبواعث لدى الشاه فى اتخاذه هذه القرارات وإعماله تلك السياسات.

كما يُلاحظ أن كثيراً من الانتقادات الموجهة للكتاب تعود فى الغالب إلى نوعية النظرة تجاه نظام الشاه ، فلو قلنا فرضًا بالنظرة الشائعة وهى أن الشاه كان قطعة شطرنج فى يد أمريكا بشكل تام ، فعندئذ يكون الانتقاد الموجه للكتاب هو: لم يصف الشاه بدرجة من الاستقلال فى الرأى والفعل ؟ لكن الجزء الرئيسى من اهتمام الكتاب وهدفه كان لنفى وجهة النظر الشائعة تلك . فضلاً عن ذلك ، وكما شاهدنا ، أن نتيجة الاعتقاد بأن الشاه كان قطعة شطرنج ، تفضى بنا بشكل لا يقبل الاجتناب إلى قبول فكرة «افتراض التآمر» فيما يتعلق بسقوط نظامه ، ووجهة نظر كتاب «مقدمات الثورة الإسلامية» فيما يتعلق بنظام الشاه هى أنه كان يتمتع بقدر من الاستقلالية .

وكلما اقتربنا من السنوات الأخيرة لحكمه نجده قد أصبح أكثر قوة ، لذا زاد استقلاله عن إنجلترا وأمريكا . وعليه فإن قراراته – على الأقل فى العشرة أعوام الأخيرة لحكمه – كانت مستلهمة بشكل أكثر من ميوله وإرادته وبواعثه ، وقد توافق بعضها ميول واشنطن ولندن ، وقد تفقد بعضها تأييدهما ، وفى جميع الأحوال كان القرار نابعًا من ذاته .

وكان الوضع كذلك فى المجال الاقتصادى ، فإن ما افترضنا فكرة تلجيم الشاه ، فإن قراراته وسياساته الاقتصادية تتم بالطبع أيضًا بأوامر من الغرب ولتأمين مصالحهم ، ولما كانت مصالح الغرب تتعارض مع مصالح إيران القومية ، فعليه كان لزامًا أن تكون جميع قرارات الشاه وسياساته الاقتصادية التنموية تعد من الخيانة ، بسبب إهدارها مصالح شعب إيران ، أو لأنها لم تكن تحمل فى طياتها سوى الأذى والضرر لاقتصاد الدولة القومى .

بيد أن الكتاب يعارض هذه النظرية ، ويرى أن قرارات الشاه وبرامجه الاقتصادية التنموية – كالمجالات الأخرى – كانت نتاج إرادته ، وكان صائبًا فى بعضها وغير صائب فى البعض الآخر .

وأفضل دليل على ذلك استمرار العديد من برامج نظام الشاه وخططه فيما بعد الثورة الإسلامية . فضلاً عن ذلك ، فقد سعى الشاه فى برامجه الاقتصادية التوسعية (خاصة فى برنامجه الأخير ١٣٥٢ – ١٣٥٧هـ .ش – ١٩٧٣ – ١٩٧٨م) لمضاعفة دخل إيران من النفط بما يعادل أربعة أضعاف ، كما قام بمجهودات جادة فى مجال الصناعة المرتبطة بالنفط ، ولتحقيق هذا الإنجاز أقدم على تنفيذ مشروعات ضخمة ، مثل الصناعات البتروكيميائية ، صناعة الفولاذ، النحاس ، الألومنيوم ، السيارات ، إنشاء شركات زراعية وصناعية كبرى كى يتمكن الدخل النقدى من صادرات هذه البضائع من تعويض العائد من البترول .

وهذه الحقائق لا يمكن إنكارها أو الادعاء بأن الشاه كان يقوم بها من أجل الاقتراب من القوى العظمى والدول الغربية ، أو لتأمين مصالح الاستكبار العالمى والاستعمار والإمبريالية ، وهذا فى الحقيقة ما هو إلا متابعة لسلسلة من الأوهام وافتراض نظرية التآمر الخداعة .

وما من شك فى أن بعض هذه البرامج تمكنت من تحقيق الغاية منها ، وخطت خطوات واسعة لتطوير اقتصاد إيران . لكن استدلال الكتاب هو أن هذه البرامج لم تتمكن من تحقيق الغاية المنشودة إلى حد كبير ، وأهم أسباب ذلك هو ارتباط اقتصاد إيران فى عهد الشاه بالحكومة ، مع الأخذ فى الاعتبار عوامل الضعف والركود والمشكلات الجسام التى كانت تواجهها اقتصاديات الحكومة ، فقد تبع ذلك أن قيدت التشكيلات الحكومية العديدة أيدى وأقدام اقتصاد الدولة وكبلتها بأطواق حديدية، وكانت تحول دون نموه وتطوره . فانتشار البيروقراطية وتضخمها ، وكثرة أجهزة العرض والرقابة ، والمراكز المختلفة والمتعددة لاتخاذ القرار ، وزيادة الفساد وتفشى الرشوة ، والحاجة إلى أخذ الموافقة أو الحصول على إجازة وتأييد المراجع والأجهزة الحكومية المختلفة حتى فى صغائر الأمور ، كل هذا أفضى إلى عدم استطاعة نظام الشاه لأن يصل عمليا إلى أهدافه على الرغم من صحة العديد من أهداف التنمية الاقتصادية لهذا النظام .

ورغم أن نظام الشاه كان يدعى أن ثمة معجزة اقتصادية قد حدثت فى إيران فى الخمسة عشر عامًا الأخيرة لحكم الشاه ، معجزة تفوق ما بلغه الاقتصاد الألمانى واليابانى والإيطالى من تقدم بعد الحرب العالمية الثانية ، لكن كثرة القيود والهيمنة لم تمكن نظام الشاه من أن يتقدم حتى للحد الذى بلغته المكسيك وماليزيا وأندونيسيا فى تلك الفترة، فما بالك بألمانيا واليابان !

ولو أن الكتاب قد ذكر أنه على الرغم من هذا كله ، فإن مستوى معيشة الأفراد فى السنوات الأخيرة لحكم الشاه كان فى تنامٍ، وقد ذكر شواهده لإثبات ذلك، كما ذكر أدلة هذا التطور ، ولم يكن السبب وراء ذلك التطور – كما يدعى نظام الشاه – هو معجزة اقتصادية ، بل كان بسبب تضاعف دخل إيران من النفط فى الخمسة عشر عامًا الأخيرة لحكم الشاه أربعين مرة ، حيث ارتفع من ١/٢ مليار دولار فى أوائل الأربعينيات (١٣٤٠هـ .ش – ١٩٦١م) إلى ٢٠ مليار دولار فى أواسط الخمسينيات (١٣٥٠هـ .ش – ١٩٧١م) .

والانتقاد الآخر المتعلق بأمريكا ودورها فى الثورة يستند على أن كتاب «مقدمات الثورة الإسلامية» قد سعى لتقليص دور أمريكا فى الحيلولة دون انتصار الثورة وسحق الأهالى وأحيانًا كان ينكر ذلك الدور .

وللإجابة عن هذا الانتقاد يجدر بنا القول بأن السبب فى هذا يرجع أيضًا إلى أسلوب العرض السابق، بمعنى أننا افترضنا مجموعة من المفاهيم ، وجعلنا ننظر بعين الريبة والشك إلى كل مقال أو تحليل لم يأت فى إطار ما افترضناه من مفاهيم . فعندما نواجه أفكارًا لا تتوافق مع افتراضاتنا ، نرفضها على الفور ونعلن تشككنا حولها بدلاً من أن ندقق فى احتمال أن تكون المشكلة فى افتراضاتنا نحن .

فقد افترضنا فيما يتعلق بأمريكا ودورها فى الثورة مجموعة من المفاهيم دون أن يكون لها أصل أو أساس من الصحة . وفى مقدمة هذه المفاهيم ما يقال عن دور الأمريكان فى إحداث الثورة والعمل على انتصارها ، وهذا ما يُطرح فى إطار افتراض التآمر . وعلى أساس هذا الافتراض فإن «الأمريكان هم فى الأصل الباعث على قلب نظام الشاه» ، «وهم الذين أجبروا الشاه على التنحى عن السلطة» ، «طعنوه بخنجر من وراء ظهره» ، «لم يقوموابحمايته ، ولم يتركوا شخصًا آخر يقدم له الحماية» ، إنهم حتى لم يسمحوا له بالقيام بإجراءات من أجل إنقاذ حكومته .

وثمة مجموعة أخرى من المفاهيم تتعارض مع هذه النظرية ، وعلى أساس هذه النظرية (وهى رائجة داخل الدولة ويتم الإعلان عنها من قبل الحكومة) ، نجد بعض المفاهيم ، مثل : «كانوا يؤيدون الشاه ويحمونه حتى اللحظات الأخيرة » ، «كانوا يصدرون الأوامر له للقيام بالمذابح» ، «كانوا يشجعون الشاه على المقاومة»، «كانوا يحثون جند الشاه على القيام بانقلاب عسكرى للإطاحة بزعماء الثورة وسحقهم» . وبعد نجاح الثورة لم يتوانوا عن القيام بأى مسعى لمقاومتها والإطاحة بها ، ومن أمثلة ذلك : «طرح قيام الحرب بين إيران والعراق»، و«إصدار الأوامر للعراق بالهجوم على إيرن» ، و«طرح فكرة القيام بانقلاب عسكرى»، و« الهجوم العسكرى على إيران فى عمليات طبس الشؤم» . [٢]

وكتاب «مقدمات الثورة الإسلامية» لا يرى صحة لأى من وجهتى النظر السابقتين، بسبب ما كان لأمريكا من وضع خاص فى إيران بعد الثورة . فالصدق والزيف ، والحق والباطل ، والوهم والحقيقة ، مفاهيم اختلطت جميعها حول أمريكا ودورها فى عهد الثورة وما تلاه .

والمسألة الهامة أن هذا الأمر يوجد كذلك لدى بعض الأمريكان ، ففى أمريكا ، حينما تقع أيضًا بعض الأحداث ، يقوم البعض - إما لتحقيق مآربهم أو لفقدان المعلومات لديهم - بإعداد مادة خطيرة حول الثورة والجمهورية الإيرانية الإسلامية . فكل حادث ، أو عمل إرهابى ، أو انفجار ، أو عملية اختطاف ، أو احتجاز رهائن ، ينسبونه على الفور إلى إيران ، ونحن كذلك اختلقنا تصوراً عن أمريكا امتزج فيه الوهم بالحقيقة . فقد نسبنا تهمًا عديدة إليها ، وطالبنا بالعقاب والانتقام ، دون أن يكون معلومًا لدينا أى ميزان استخدمته عقولنا لإصدار هذا الحكم ، وما هو ميزان الحقيقة !

لقد تخيلنا تصوراً عن أمريكا وكأنها لا تقوم بعمل فى هذه الدنيا إلا لكى تطرح من خلاله الخطط ضد إيران الإسلامية . وقد أشرت بشكل تفصيلى فى موضع آخر إلى أسباب وجود ظاهرة «كراهية أمريكا» وبواعث ذلك، ولم وكيف بدأت هذه الظاهرة ، ومتى دخلت الميدان السياسى للثورة [٢] .

وأكتفى فى هذا الموضع بالحديث مختصراً ، وأقول :

كما أن العديد من التصورات الأمريكية المبالغ فيها فيما يتعلق بإيران الإسلامية لا تتفق والواقع ، كذلك فإن العديد من الادعاءات والظنون لدينا فيما يتعلق بأمريكا ليس لها أدنى أساس من الصحة . من أمثلة ذلك ، الاعتقاد السائد بأن الأمريكان كانوا يحمون الشاه ونظامه حتى اللحظات الأخيرة ، أو أنهم كانوا يصدرون له الأوامر بالقيام بالمذابح . والحقيقة تتنافى مع ذلك ، وهناك ثلاثة فصول من الكتاب توضح خطأ هذا الاعتقاد . فنحن أولاً قد افترضنا: أنه توجد - وجوداً فعليًا - سياسة تحت مسمى «القمع» فى عهد الثورة ، وأن الأوامر صدرت إلى القوات العسكرية والشرطية للقيام بمذابح ضد الشعب للحد من المظاهرات والمسيرات . أما الأمر الثانى الذى افترضناه:

هو أن هذه الأوامر صدرت من قبل الأمريكان . والأمر الثالث لافتراضنا : هو أن هذه السياسة قد تم العمل بها حتى صباح يوم ٢٢ من شهر بهمن .

وهذا نموذج من الافتراضات الخاطئة والتى لا أساس لها من الصحة ، وما من شك أن مثل هذه السياسة لو كانت موجودة بالفعل على أرض الواقع لتوقفت الثورة أساساً فى مراحلها الأولى .

ولا شك أن ثمة أحداث وقعت فى بعض المدن فى السابع عشر من شهر شهريور وغيره ، لكن لم يكن لأى منها سياسة منسجمة دقيقة تفضى إلى المذابح والحد من التظاهر ثانية فى الشوارع . فكانت جميعها نتاج قرارات فردية للزعماء المحليين دون أن يكون لها خطة مطروحة من قبل . ويمكن إدراك عدم التخطيط لهذه المذابح عندما نجد الناس يقومون بالمظاهرات ثانية غداة يوم المذابح دون أن توجه إليهم رصاصة واحدة ، فغداة يوم المذابح كانت المظاهرات تسير بالملايين فى أمان تام ، وتكتفى القوات العسكرية والشرطية بالمشاهدة فقط ، ولكن لمَ حدث هذا ؟ ولمَ لمْ يتمكن الشاه من الرد أو لمَ لمْ يستطع أن يبدى رد فعله إزاء ذلك ؟ هذا ما ورد ذكره بالتفصيل فى الكتاب .

أما فيما يتعلق بالأمريكان فيجدر بنا القول : إن سرعة الأحداث وتطورها وعمقها فى إيران خلال عهد الثورة ، أو وفقًا لقول المسئولين الأمريكان خلال «أزمة إيران» ، حيث كانت متعددة الأطراف ، تمت على نطاق واسع ، مؤثرة ومربكة فى آن واحد ، كل هذا جعل الأمريكان يفقدون القدرة على التعبير عن رد فعلهم أو إصدار قراراتهم . وبدلاً من ظهور واشنطن بمظهر القادر على تنفيذ سياسة واستراتيچية مناسبة إزاء أزمة إيران ، كانت دوماً منفعلة وتبدى رد فعلها بعد وقوع أى حدث أو تطور جديد فى إيران .

هذا وقد كان الشاه شريكًا استراتيچيا للأمريكان وحليفًا موثوقًا به ، وكان يميل ميلاً تاما للمعسكر الغربى ، وهذا أمر بيّن لا يحتاج إلى توضيح ؛ لذا كان الأمريكان يؤيدون بقاء الشاه ، وكانوا يفضلونه عن أى بديل آخر ، وهذا أمر بدهى لا يحتاج إلى توضيح. والخلاصة أنهم كانوا يستفسرون عما يجب أن يقوموا به لبقاء الشاه وتثبيته .

وما يتردد فى أذهاننا من مبالغات وأخطاء نحن الإيرانيين عن أمريكا ، هو أن أمريكا لديها من القوة ما يجعلها تستطيع أن تفرض رغباتها وإرادتها على العالم أجمع ، فنحن نسحب أقدام أمريكا على الفور عندما تلحق بنا هزيمة أو إخفاق ، فكل واقعة تحدث فى أى بقعة من العالم أو فى المنطقة ، وليس لنا باب مطمع فيها، أو نعجز عن إدراك أسبابها، ننسبها إلى أمريكا وخططها واستراتيجيتها الشيطانية فى العالم .

ومن الواضح أننا حينما نجعل من أمريكا مثل ذلك الغول ، فمن البديهى أن يكون لدينا هذا التصور وذلك التخيل بأن ذلك الغول وتلك القوى الكبرى لو كانت ترغب حقًا، لشمرت عن ساعديها وعملت على حراسة نظام الشاه بإشارة واحدة .

ومعارضو الثورة والمؤيدون لفرض التآمر فيما يتعلق بالثورة الإسلامية يبدأ أساس استدلالهم من هذه النقطة . فهم يستدلون بأن الأمريكان لو كانوا يرغبون حقا لكان فى استطاعتهم مساندة الشاه ومنع سقوطه ، لكنهم لم يفعلوا ذلك . ومؤيدو الثورة يستدلون فى المقابل – كما شاهدنا – بأن واشنطن قامت بكل ما تستطيع لبقاء نظام الشاه . وأى عمل كانت تستطيع القيام به ولم تفعله ؟!

والحقيقة ليست هذه ولا تلك ، وما نقوله بأن كل ما ترغبه أمريكا تقوم بتحقيقه ليس سوى وهم باطل . وكان آباؤنا يفكرون بأن « ما من ورقة تسقط فى هذه المملكة دون إذن إنجلترا وإرادتها » ، وكذلك نحن أيضًا نحلق فى نفس الفضاء ، مع الاختلاف فى أننا جعلنا أمريكا بديلاً لإنجلترا .

إن أمريكا قوية ، قوية جدا ، ولكن ليس بالشكل أو بالقدر الذى يمكنها من أن تخطط لكل شىء على مستوى العالم . إن أمريكا قوية ، ولكن ليس بالقدر الذى يمكنها من أن تحول دون قيام ثورة فى نيكاراجوا أو إيران أو أى أحداث أخرى . لو كانت أمريكا ترغب فى منع قيام ثورة إيران ، فلم يكن لديها أكثر من طريقين: إما أن ترسل إلى إيران قوات بشكل مباشر ، وإما أن تطلب صراحة من الشاه وبشكل قاطع الاستفادة من القوات المسلحة الإيرانية فى مواجهة الشعب ، لكن مثل هذه الرغبة لم تكن لدى واشنطن ، وقد ورد فى الكتاب أسباب عدم وجود تلك الفكرة لدى واشنطن. فأولاً ، وكما أشرنا من قبل ، إن واشنطن لم تستطع قط أن تدرك أبعاد النتائج الوخيمة

لأزمة إيران ، وكانت تفتقد الإدراك الصحيح والفهم الدقيق لأبعاد تلك الأزمة . كانت واشنطن – على عكس ما نتوهم – تفتقد المعلومات الصحيحة حول وضع نظام الشاه ومكانته بين الشعب، لم يكن لواشنطن أدنى علم عن القوى المعارضة للشاه ، كانت واشنطن تخطئ فى تقديرها لقوة نظام الشاه ، وأخيراً كانت واشنطن تتوهم أن الشاه الذى تمكن من الإمساك بزمام سفينة إيران لمدة سبعة وثلاثين عامًا ، وواجه خلالها العديد من الصعاب والأزمات وتمكن من الخروج منها سالمًا ، سوف يتمكن هذه المرة أيضًا من العبور ثانية بسفينة حكومته من الطوفان إلى بر الأمان، وهذه كانت تصورات واشنطن فى غضون عام ١٣٥٧ هـ.ش (١٩٧٨م) ، فلم يشعر الأمريكان بأن ثورة قوية تحدث فى إيران فى الشهرين أو الثلاثة أشهر القادمة ، وكانوا يقولون : «ما من مشكلة ! ليس لنا دخل !» . وثمة شيء آخر وهو أن مجموع قرارات البيت الأبيض لم تتسم بالفكر المتناسق أو بالاستراتيچية المحددة ، ولم يكن هناك ورقة عمل يجب أن تنفذ حيال التطورات فى إيران ، وورد شرح ذلك بالتفصيل خلال الكتاب . فكان يوجد جناح واحد فى جهاز رئاسة البيت الأبيض يرأسه «برچينسكى» مستشار الأمن القومى ، ويؤيد هذا الجناح استخدام العنف من قبل الشاه تجاه الثورة . أما الجناح الثانى فكان يرأسه «سايروس فانس» وزير الخارجية، وكان على النقيض يرغب فى الإصلاح . وهذه الازدواجية كانت باعثًا على عدم تمكن رئاسة البيت الأبيض من تنفيذ سياسة منسجمة ومحددة تجاه أزمة إيران . وكثيراً ما صرح الشاه بأن الإشارات والعلامات والرسائل المتناقضة التى كانت تصله من واشنطن كانت مصدراً لحيرته ، وكان يعتبر عدم اتخاذ واشنطن قراراً محدداً هو بمثابة تنفيذ سياسة جديدة من قبل أمريكا ، سياسة أحد أهدافها تنحيته عن الحكم .

وسبب آخر لعدم تدخل أمريكا فى شئون إيران فى غضون عام ١٣٥٧هـ.ش (١٩٧٨م) ، وهو على النقيض تمامًا لما حدث فى غضون عام ١٣٣٢هـ .ش (١٩٥٣م) ، فهذه المرة كان الشاه فيها زعيمًا قويا مقتدراً مجهزًا يتمتع بخبرة واسعة ، وكان يبدو – على عكس عام ١٣٣٢هـ .ش – أنه لم يكن يميل إلى تدخل الأجانب فى دولته . وكان الأمريكان يشعرون بأن الشاه يدرك ما يفعله جيداً ، وأنه سيلقى فى النهاية بالأزمة وراء ظهره . ولنعد إلى الموضوع الأساسى وهو ما يتعلق بتصور الشاه للأحداث ،

إنه لم يكن يؤمـن بمقاومة الثورة ومواجهتها عسكريا ، ولو كان يفكر فى هذا الأمر فى فترة ما، إلا أنه فقد إرادته عمليا فى الحكومة منذ أواسط عام ١٣٥٧هـ.ش (١٩٧٨م) ؛ لذا أبدى استسلامه. وحول الاستفسار عـن عـدم استخدامه حل القمـع العسـكرى كمـا حـدث فى عـام ١٣٣٢هـ.ش (١٩٥٣م) أو فى ١٥ خـرداد من عـام ١٣٤٢هـ.ش (١٩٦٣م) فهذا ما قد تم تحليله إلى حد ما فى الكتاب .

وأحد أسباب ذلك هو أن الأمريكان لم يطلبوا منه هذا السيناريو بشكل محدد ، وكـان الشـاه يتـخـيل – واهمًا أو مـحـقًّـا – أن مـثل هذا الحل لن يكون مـوضـع تـأييد واشنطن . كمـا أنـه لم يكن راغـبًا فى مـثل هذا الحل ، فكثـيرًا مـا كان يطالبه القواد العسكريون المتشـددون أن يأذن لهم للقيام بذلك الحل ، وكـانوا يطمـئنونه باسـتعـادة الأمن والهدوء والنظام فى البلاد خـلال ثمـان وأربعين سـاعة ، أما فيمـا يتعلق بقدرتهم على ذلك أو عدم قدرتهم فهذا بحث آخر، لكن الأمر المهم هو أن الشـاه لم يسمح بذلك . ولكن لمَ لم يجبهم برد ولو بسيط ؟! فكان هذا أيضًا موضع بحث وتحليل لعرض بعض الأسباب والبواعث . وأحد هذه الأسباب – كما أشرنا من قبل – من الممكن أن يكون بسبب شعور الشاه بأن سياسة القمع لن تنال تأييد واشنطن، والشىء الذى كان يجهله الشـاه هو أن الأمريكان لم يكن لهم موقف محدد من الأصـل ، أى أننا لو افترضنا أنه كان قد أذن لأمثـال العقيد خسروداد ، والمشير غلام على أويسى ، والفريق رحيمى (الحـاكم العسكرى لطهران) ، والقائد نـاجى (الحاكم العسكرى لأصفـهان) ، أو الفريق بدره آى ونشاط (قـائدا الحرس الإمبراطورى) كى يكرروا يوم الجمعـة السوداء [٣] ، وحينئذ لن تقوم واشنطن بتمزيق أرديتها ، ولن تفقد هدوء منامها ، ولن تتساءل لمَ يقوم الجند بسحق الأهالى وقمعهم ؟

ومن المسلم به أنه لو كانت الجمعة السوداء قد تكررت لما تمكنت الثـورة من التقدم بمثل هذه السرعة والسلاسة . حتى لو لم تكن قد تمت مذابح جديدة ، فإن الجيش كان يستمر فى نفس مسلكه الجاد والحاسم الذى أبداه فى صبـاح يوم الجمعة ١٧ شهريور، فلم يكن معلومًا أن الثورة سوف تتمكن من الانتصار بهذه السرعة .

والحقيقة هى أنه بعد بضـعة أيام من مذبحة ميدان الشهداء (زاله) ، كان القواد العسكريون يسـيرون أمـام الجامعـة بحلقات الزهـور ويضعونها على أكتاف الناس .

وفى العديد من المدن التى تم الإعلان فيها عن الحكومة العسكرية ، فإن الشىء الوحيد الذى لم يكن له وجود هو الحكومة العسكرية ، فكل شعار نريده نستطيع أن نلحقه بالثورة ، لكن الحقيقة هى أن أحداث السابع عشر من شهريور لم تقع سوى مرة واحدة ، أى أن الجيش تعامل باستخدام العنف مرة واحدة فقط منعاً لتجمهر الأفراد ، وفى الأيام والأسابيع والشهور التالية على ذلك لم تكن الحكومة العسكرية سوى اسم بلا مسمى . وكان الوضع أشبه بأسد قد فقد فمه وعنقه وبطنه ، فلا أحد يخشاه أو يهابه . ويكفى أن نقارن سلوك الحكومة العسكرية عام ١٣٥٧هـ .ش (١٩٧٨م) بسلوكها فى عامى ١٣٣٢هـ .ش و١٣٤٢هـ .ش (١٩٥٣ - ١٩٦٣م) ، وسبب التردد والمخاوف من استخدام الصدام العسكرى مع الثورة هو شعور الشاه حينئذ بأن المسئولين الجدد فى أمريكا كانوا من العناصر الليبرالية المطالبة بالإصلاح ، ولن يؤيدوه فى سياسة القمع والمذابح . وكان استنتاج الشاه هذا صحيحاً ، لكن لم تكن هذه هى الحقيقة كاملة ، حيث كان يفكر جيداً ، فمع قدوم الديمقراطيين إلى البيت الأبيض فى النصف الثانى من عام ١٣٥٥هـ .ش (١٩٧٦م) ظهرت تغييرات وتطورات مهمة فى سياسة أمريكا الخارجية ، وكان يبدو أن أمريكا ليست مستعدة لحماية النظم المناهضة لحقوق الإنسان - مثل نظام إيران - عن طريق مقاومة الشيوعية وتهديدها كما كان الوضع فى السابق ، وهذه النتيجة التى توصل إليها الشاه صحيحة أيضاً ، لكن جدية هذه الاستراتيجية التى كانت تعرف باسم «سياسة حقوق الإنسان» أمر يستلزم البحث . حقيقة أن الدفاع عن حقوق الإنسان كان يعد أحد أهم ملامح السياسة الخارجية الأمريكية ، لكن فى الوقت نفسه لم يطلب شخص من الشاه صراحة أن يطلق سراح المعتقلين السياسيين ، أو أن يوقف أعمال التعذيب ، أو أن يسمح للمؤسسات الدولية المدافعة عن حقوق الإنسان بزيارة مسجونى إيران ، أو أن يمنح الحرية للمطبوعات، أو ألا يحول دون اندلاع المظاهرات والاعتصام . بعبارة أخرى ، إن ما قام به الشاه منذ أوائل عام ١٣٥٦هـ.ش (١٩٧٧م) تحت مسمى «المجال السياسى المفتوح» لم يكن من قبيل الدعاية أو تنفيذاً لأوامر أمريكية . إن الأمريكان كانوا يؤيدون ويدعون لرعاية حقوق الإنسان ، بيد أنهم لم يكونوا راغبين قط فى قلب نظام الشاه . كانوا يريدون الإصلاح ووضع خطة لحقوق الإنسان فى إيران ، كانوا يريدون أن يخفض الشاه من حجم مشترياته من الأسلحة المتطورة والمعدات ، لكنهم

لم يرغبوا قط فى وجود شاه آخر . ولتحقيق هذه المعادلة بشكل يحقق درجة من الإصلاح من ناحية، ويضمن وجود النظام وبقائه من ناحية أخرى ، كان الأمر يستلزم مهارة ما ليست من الأمريكان ، بل من الشاه ذاته . فالشاه كان يجب أن يستمر فى الحكم بنفس الثبات والاطمئنان ، من ناحية أخرى كان يجب أن يتخلى عن سياسات القمع ويخطو خطواته نحو الإصلاح . لكن الشاه لم يستطع فى الواقع تحقيق هذه المعادلة . فقد قام دفعة واحدة وبشكل سريع بتغيير ظروف الحكم فى إيران ، لدرجة جعلت العديد من معارضيه يشعرون وكأنهم يشاهدون ما يحدث فى رؤيا أو منام . فمن كان يتخيل منذ عدة شهور أن يتم إطلاق سراح آلاف المعتقلين السياسيين ؟! أى شخص يمكنه أن يتخيل أن يتم إيقاف أعمال التعذيب، وأن تمنح الحرية للمطبوعات، وأن يقوم مئات ، بل آلاف ، بل سرعان ما أصبحوا مئات الآلاف من الأفراد بمظاهرات ضد الشاه فى أرجاء الدولة دون أن تراق قطرة دم واحدة من أنف شخص ؟! أى شخص يمكنه أن يصدق أن يسقط ذلك النظام القوى المقتدر بقواته العسكرية التى تبلغ سبعمائة ألف جندى فى كامل الوفاء له، بالإضافة إلى عشرات الآلاف من قوات الحرس الخالد الذى بلغ فى طاعته ووفائه للشاه حد العبادة ؟! أى شخص يمكن أن يصدق أن نظامًا من أقوى التشكيلات الأمنية والمعلوماتية فى العالم ، نظامًا تمكن من أسر كل معارضيه بشكل قل نظيره وتمكن من القضاء عليهم وحبس أنفاسهم داخل صدورهم ، نظامًا كان يحظى بتأييد القوى الكبرى كالاتحاد السوفيتى السابق والصين وأمريكا وإنجلترا وفرنسا وغيرها ، من كان يصدق أن يسقط على هذا النحو خلال بضعة شهور ؟!

وجزء كبير من الأفكار والآراء الخاطئة والشكوك والأوهام وافتراض نظرية التآمر حول الثورة الإسلامية يستنتج فى الحقيقة من هذا السقوط المفاجئ وغير المتوقع للشاه.

إن الشاه كان قد أدرك بعض الحقائق بشكل جيد ، ففى أمريكا قويت شوكة الأفراد والعناصر الليبرالية فى إطار الحزب الديمقراطى ، وذلك بعد عشرة أو عشرين عامًا من قدوم المحافظين الجمهوريين – وفيما يتعلق بمدى مصداقيتهم فهذا أمر يستلزم بحثًا – وكان كثير منهم يتسمون بالجدة ومن بينهم «جيمى كارتر» رئيس

الجمهورية نفسه ، وقاموا بضغوط شديدة على أمثال نظام إيران ، لكن الشاه ظل - على نحو يدعو للعجب - عاجزًا عن فهم ثلاثة أمور أساسية حول التطورات الجديدة. أولاً أنه لم يكن مضطرًا قط لتنفيذ الإصلاحات وإيجاد المجال السياسى المفتوح ، وواقع الحال أن أمريكا لم تكن لتمزق أرديتها لو لم يقم الشاه بالإصلاح ، أو تستدعى سفيرها فى طهران.

وكثير من نظم القمع ، لم يكن لها خطة عمل ، وكانت أكثر خطورة من نظام الشاه ، ورغم ذلك لم تهتم بسياسات أمريكا الجديدة ولم تحرك ساكنًا ، وتظاهر بعضهم بالتغيير ، وظلوا ينتظرون حتى يخمد الطوفان وتدور المياه فى الساقية ، حتى أن بعضهم لم يكن مستعدًا كى يعبر عن رد فعله ، وداوم نفس أسلوبه ونمط حكمه. لكن الشاه فعل ما فعل دفعة واحدة ، والسؤال الأساسى هنا هو : أى باعث حقيقى أثر فى الشاه وجعله يقوم بتلك التغييرات ، ويتجه نحو ما أطلق عليه «سياسة المجال السياسى المفتوح» فى إيران عام ١٣٥٦هـ .ش (١٩٧٧م) ؟! هل كان الباعث الحقيقى هو قدوم الديمقراطيين إلى البيت الأبيض، وطرح «كارتر» سياسته الخاصة بحماية حقوق الإنسان ؟! هل كان الباعث لدى الشاه فى تنفيذ تلك التغييرات هو فقط اجتذاب رضا واشنطن ؟!

فى اعتقادى أن إجابة هذا السؤال هى من أكثر المسائل المتعلقة بالثورة الإيرانية الإسلامية أهمية وتعقيداً، وعلى الرغم من أهمية هذا السؤال إلا أنه لم ينل حظه فى إيران من البحث والتحقيق . فى حين أننا نعلم كيف يفكر رئيس النظام فى النظم والحكومات الديكتاتورية ، وكيف ينظر إلى الدور الأساسى الذى يلعبه فى التغييرات . وإيران لم تكن مستثناة كذلك من هذه القاعدة آنذاك. فما كان يفكر فيه ، وما كان يدور فى مخيلته ، كان له تأثير مصيرى فى سير التطورات داخل إيران . ولأننا نعلم أن جميع القرارات السياسية المهمة كانت تتم بناءً على رغبة الشاه ، وعليه فإن مفتاح فهم الاستفسار حول بواعثه فى إيجاد نظام المجال السياسى المفتوح فى إيران يمكن العثور عليه إذا ما فهمنا بواعث الشاه فى استخدامه هذه السياسة . ونحن لم نقم فقط بالتحقيق فى هذا الشأن ، بل إن نظرتنا إلى هذا الموضوع كانت سطحية إلى حد بعيد، وكانت تدور فى قالب «نظريات التآمر» .

فنحن ندعى أولاً أن الشاه فى الأساس كان مكلفًا ومنفذًا لسياسة أمريكا فى إيران ، وعليه لم يكن يبدى رأيًا أو رغبة من تلقاء نفسه ، وببساطة تامة ، إن الأمريكان قد قالوا له : «قم بتنفيذ هذه السياسة – أى سياسة حقوق الإنسان – فنفذها» . والأمر الثانى «إن هذه السياسة نفسها لم تكن أكثر من خدعة وحيلة»، «كانت مثل القناع الذى يرتديه الاستكبار على وجهه لخداع العامة ، ورغب فى سحق الأحرار بهذه الحيلة» . وردنا على أهم الأسئلة المطروحة حول الثورة الإسلامية هو الاستفسار عن بواعثه فى إيجاد المجال السياسى المفتوح فى إيران بالرغم من كل هذه التبعات والنتائج . ومع كل هذه المغالطات ، أليس من العجب أن يزداد عدد المؤيدين لافتراض التآمر حول الثورة الإسلامية ؟! فأى تحقيق قدمناه حتى عن جانب واحد من الثورة الإسلامية خلال العشرين عامًا الماضية سوى بضعة شعارات ومهاترات ؟! ألا يسألنا الجيل الجديد وما بعده أنه حتى لو افترضنا أن الشاه لم يكن أكثر من مكلف أو عميل ، فلمَ يطلب منه الأمريكان تنفيذ سياسة تلحق الضرر بمصالحهم ؟ فلو افترضنا أن عقل الشاه لم يستوعب ذلك ، ألم يستوعب كذلك عقل الأمريكان إلى أى جهة تسير المملكة؟! وإذا عدم الشاه بحق إرادته ، وكان منفذًا لسياسة أمريكا فقط، فلمَ لمْ يطلب منه الأمريكان وقف سياسة المجال السياسى المفتوح ؟! ولو كانت سياسة حقوق الإنسان ما هى إلا حيلة وخدعة ، فلأى سبب استخدمها الشاه بشكل جدى ؟! ألم يكن فى استطاعة الأمريكان أن يقولوا له سرًّا إن هذا ما هو إلا تظاهر وخداع؟! ويطمئن خاطره كما كان فى السابق بأنه سيكون موضع تأييد الأمريكان بنسبة مائة فى المائة ؟! وكيف فهمنا نحن أن تلك السياسة ما هى إلا حيلة وخداع ، ولكن الشاه مع كل ما له من تجارب واطلاعات واتصالات عديدة مع كبار المسئولين الأمريكان لم يتمكن من فهم أو إدراك أن تلك السياسة لم تكن أكثر من سياسة جوفاء أو ديكور ؟!

وقد ورد فى كتاب «مقدمات الثورة الإسلامية» أن سياسة حقوق الإنسان لم تكن فقط خدعة وحيلة ، بل كانت أحد التغييرات المهمة فى سياسة أمريكا الخارجية ، لكن الأمر المهم هنا هو : هل ما تم فى إيران عام ١٣٥٦هـ .ش (١٩٧٧م) تحت مسمى «المجال السياسى المفتوح» بواسطة الشاه كان بسبب التغييرات والتطورات التى حدثت فى البيت الأبيض ؟! وهل كان باعث الشاه هو فقط اجتذاب رضا واشنطن ؟! وللإجابة

على ذلك يجدر بنا أن نقول إنه مما لا شك فيه أن قدوم الديمقراطيين إلى البيت الأبيض يمكن أن يكون أحد البواعث المهمة لتغييرات الشاه السياسية ، لكن - كما ورد بالكتاب - كانت لديه بالتأكيد بواعثه الأخرى فى تنفيذ تلك السياسات . فكانت إصابته بمرض السرطان فى مراحلها المتطورة ، لذا كان الشاه يشعر أن أن وفاته قد دنا ، وكان يعلم جيداً أن ما اكتسبه من قوة وتبعية على مدى ما يقرب من أربعين عاماً من الشد والجذب ، لن يتمكن ولى عهده الشاب عديم التجربة من الحصول عليها على الفور ، وكان يدرك أن تلك القوة الفائقة العريضة له لا يمكن أن تكون لخليفته ، وكان الشاه يعلم أكثر من أى شخص آخر أن كل شيء - وفقًا للنظام الذى أوجده - كان يتم تحت إشرافه وبأمره المباشر . فهل كان يستطيع ولى عهده الشاب ، أو أساسًا كان من المصلحة أن يتولى زمام كل شيء ؟! فلعل الشاه أنجز بعض الإصلاحات كى يمنح الآخرين دوراً أكثر فى اتخاذ القرار وإدارة شئون المملكة . وتكون النتيجة الحد من الضغوط وأعباء المسئولية من على كاهل خليفته . لعله قد فكر أن المجال السياسى المفتوح سيفسح المجال أكثر لأفكاره وآراء الآخرين للدخول فى ساحة اتخاذ القرار والعلاقات السياسية تدريجيًا ، لعله كان يريد فى الأعوام القليلة الباقية من عمره أن يقوم بنفسه بهذه التغييرات ، أو أن يبقى بجوار الشاه الجديد الشاب ويعينه على عبور دوامة الإصلاحات الشديدة ، وفتح المجال السياسى فى إيران . وربما لا شيء من هذا كله ، وأنه قد ضاق ذرعًا لأن نظامه كان موضع لوم وانتقاد دائم من قبل منظمة حقوق الإنسان، وربما لأن كل صحفى كان يتحاور معه يحدثه على الفور عن إحصائيات المعتقلين السياسيين والساواك والتعذيب مما كان يسبب له الضجر والاستياء ، لعله كان مستاءً لأن كل تقرير أو مقال جاد كان ينشر فى المطبوعات الغربية حول إيران ، بدلاً من أن يدور فى إطار عرض نتائج نظامه والمعجزة الاقتصادية التى حدثت فى المملكة ، كان يدور حول موضوعات أخرى كانعدام حرية التعبير والصحافة والاجتماعات . لعله كان يشعر أنه كلما تتطور إيران فى المجال الاقتصادى ، ففى النهاية ، ولكى يحظى بالسمعة الطيبة وحتى يكون جادًا فى الأمر ، لم يجد من بُد إلا فى الخروج من هيكل النظام الديكتاتورى لدول العالم الثالث والمضى قدمًا فى طريق الإصلاح السياسى .

لعله كان يفكر حقاً أنه قد تم فى إيران التطور والتقدم الاقتصادى بقدر كاف ، وحان الوقت كى يمضى قدماً نحو التوسع السياسى دون أية مشاكل . لعله كان يفكر فى أنه سيثبت أقدام حكومته لو أطلق سراح آلاف المعتقلين السياسيين - وأكثرهم من الطلاب والشباب - أو إذا قلل من ضغوطه على المطبوعات ، أو إذا انتقد أعمال الحكومة .

لقد كان نظامه وحكومته أقوى من أن يكونا موضع تهديد جاد ، وقد أشار كثيراً إلى «إن قواتنا المسلحة لن تسمح بأن يلحق أدنى ضرر بالنظام» . وفى الحقيقة ، أنه كان يعتقد أن القوات المسلحة ستحمى تاجه وعرشه إذا ما استدعت الضرورة . لعله كان يفكر ....

لقد بدأت جميع الجمل السابقة بكلمة «ربما أو لعل» ؛ لأننا لا يمكن أن نأخذ إحداها مأخذ الحسم . والحقيقة أن ما من شخص يستطيع أن يقول بشكل قاطع ما الذى كان يدور فى خلد الشاه فى ذلك الشأن ، أو يعرض بواعثه لمنح الحريات أو وفقًا لقوله «إيجاد المجال السياسى المفتوح» .

ومن المسلم به أنه لو كان يشك للحظة فى أن ما أنجزه من إصلاحات وفتح المجال السياسى فى بهمن لا يمكن العدول عنه ثانية ، لما اتجه قط ناحية التغيير . إنه بلا شك كان يفكر فى أن منح الحريات ، وإيجاد المجال السياسى المفتوح ، وإلغاء الرقابة على المطبوعات، والتقليل من الضغوط على المعارضين لا يشكل أى خطر حيوى على نظامه .

من المحتمل أنه كان يفكر كثيراً فى أن نظامه من القوة بمكان ، بحيث لا تستطيع هذه التغييرات أن تلحق به الخلل . وهذا كله أيضاً على سبيل الحدس والتخمين ؛ لأنه - كما قيل - لم يتحدث الشاه قط فى مثل هذه الأمور مع أى شخص ، ولم يوضح قط كيف كان يفكر ، وما هى بواعثه للقيام بمثل هذه التغييرات . كما أن جميع من حوله من شخصيات النظام البارزة وأقربائه من الدرجة الأولى قلما كانوا يعلقون على هذا الأمر . فضلاً عن أن تعليقاتهم القليلة لم تتمكن من توضيح الصورة ؛ لأنه - كما نعلم - كان المنفرد فى اتخاذ القرار ، وكان الآخرون مطيعين منفذين لأوامره الملكية ، وكان ذلك يتم أيضاً فى إطار القرارات السياسية المصيرية المهمة للدولة .

وثمة أمور أخرى تتعلق بالشاه تثير مزيداً من الغموض فى فهم وإدراك البواعث الحقيقية لديه فى إعماله هذه السياسات ، والتى انتهت بسياسة المجال المفتوح :

أولاً : أن الشاه لم يكن من ذوى المشورة ، وإن كان فى بعض الأحيان يستشير البعض من أمثال : عبد الحسين هزير ، عبد الله انتظام ، د. على أمينى ، حسين علا ، العقيد يزدان بناه ، ود. حسين أرسنجانى ، فقد حل محلهم جيل جديد من المسئولين ممن لم يكن لديهم أدنى شك فى تقديسهم للشاه وطاعته طاعة مطلقة دون نقاش ، وكأنه قبلة العالم بالنسبة لهم .

وجيل على أمينى وأحمد قوام السلطنة الذين اتسموا بإرادتهم واستقلالهم الفكرى، وكانت لهم صلاحية الإشراف ، حل محله جيل أمير أسد الله علم ، ود. منوچهر إقبال ، وأمير عباس هويدا ، والمهندس عبد الله رياض وجعفر شريف إمامى ، وكان أكبر افتخار لهم طاعتهم المطلقة «لذات الإمبراطور المقدسة».

وقد حل محل الرجال القدامى ممن تمتعوا بالقدرة والحنكة فى العشرة أعوام الأولى لحكم الشاه ، رجال بلغ مقدار إفراطهم فى تحقير أنفسهم وتعظيم «الإمبراطور آريامهر» وتقديسه منتهاه، فإذا كان الشاه يريد شيئًا فلم يكن لهم أدنى اعتراض ، ولم تكن لديهم القدرة أساساً على النقاش مع «رجل المملكة الأول» .

وفى النهاية ، وبعد أعوام عديدة من الصلة الوثيقة مع الرجال الجدد ، فحينما بلغت أزمة عام ١٣٥٧هـ .ش (١٩٧٨م) ذروتها اضطر الشاه ثانية لاقتفاء أثر د. على أمينى ، وعبد الله انتظام وإحسان نراقى .

والخلاصة ، أنه حينما تم استدعاؤهم إلى القصر ، كان كل شىء قد انتهى . وجيل علم ، وإقبال وهويدا الذين حلوا محلهم ، لم يكن الشاه يشاورهم فى الأمر، وحتى «فرح» ، لم يتشاور الشاه معها فيما يتعلق بأمور الدولة السياسية أو الداخلية .

ثانيًا: ثمة مشكلة أخرى للشاه وهى أنه كان إنسانًا شكاكًا منفرداً بفكره لا يثق فى الآخرين . وعدم ثقته فى الآخرين من جهة ، وتلك الهالة من النخوة والكبر والتقديس التى غرق فيها من جهة أخرى ، جعلاه لا يتخذ أحداً من المقربين إليه أو من رجال

حكومته ليكون موضع مشورة . وكانت المطبوعات ، وأجهزة الإعلام المسموعة والمرئية ، ونواب المجلس ، وأعضاء مجلس الشيوخ ، ورجال السياسة ، وكل شخص وجميع الأشخاص يعظمون الشاه . وكان «القائد الكبير» يرى نفسه بذلك القدر من الهيبة والجلال ، وفى المقابل يرى من حوله ضعافًا صغارًا . حتى أنه إذا ما كان يرغب بالفعل فى أن يتبادل أطراف الحديث والنقاش معهم ، لم يكن يستطيع ذلك .

ماذا يحدث لو رغب فى أن يسألهم عما يرون فيه خير وصلاح المملكة ؟! أو يستفسر منهم عن وجهة نظرهم فيما يتعلق بسياساته وإيجاد المجال السياسى المفتوح؟! لقد ظل الوضع لأكثر من عشرين عامًا على نمط واحد، وهو إذا ما كان رجال حكومة الشاه يعارضون فى داخلهم هذه السياسة أو تلك «للأب الملك» ، فلمْ يكونوا على استعداد - حتى لو كلفهم الأمر حياتهم - أن يفصحوا عن معارضتهم تلك . وكان الشاه قد صرح مرارًا وتكرارًا بأنه لا يعارض قط إبداء النقض أو الرأى المعارض . والأشخاص الذين قدموا نقدهم تجاه سياسة أو رأى ما «لرجل الدولة الأول» بطريقة ظريفة وبكامل الاحترام ، وبصورة أبوية ، خيرة ، ودية وأخوية لم يكونوا قليلين . ونقدهم هذا أفضى إلى أن ينالوا الخاتم الأسود على شهادة رقيهم وتطورهم السياسى، فيتقاعدون تدريجيا ، ويخرجون من فلك القدرة وهرمها .

وبناءً عليه ، فإنه لو حدث فرضًا وطلب الشاه رأيًا من رجال حكومته ، فهم يصدقون جميعًا على رأيه ، وكالعادة ، يقومون بمدح النبوغ الملكى ويثنون عليه .

والخلاصة ، إننا لا نملك سبيلاً آخر سوى الحدس والتخمين ، فيما يتعلق بما كان يدور فى ذهن الشاه فى الشهور الحساسة والمصيرية فى الفترة من ١٣٥٦ : ١٣٥٧هـ.ش (١٩٧٧ :١٩٧٨م) . وإن كنا نواجه مشكلة فيما يتعلق ببداية هذه المرحلة ، وبواعث الشاه فى اتجاهه ناحية المجال المفتوح، إلا أن الإبهام يبدو قليلاً حول المرحلة الأخيرة، أو على الأقل منذ أواسط عام ١٣٥٧هـ .ش (١٩٧٨م) . فيمكن أن نقول بكل ثقة كيف كان يفكر الشاه ، ولمَ أبدى هذا النوع من القرارات ؟

واستدلال الكتاب هو أن الشاه فى إحدى المراحل ، وربما بعد مسيرة عيد الفطر ، أو بعد مذبحة السابع عشر من شهريور ، فقد القدرة عمليا فى اتخاذ القرار ، ويبدو

أنه بعد أن فكر مليًا وبشكل مثير للحيرة لديه فى معارضة الشعب له ولنظامه أصيب «بالفلج» و «ترك كل شىء» .

إنه كان يشعر بأنه أدى خدمات جليلة لملكته ولشعبه خلال سبعة وثلاثين عامًا ، وكان يعتقد أنه فى ظل مساعيه المضنية سوف يتمكن فى النهاية من أن «يبدل إحدى ممالك القرون الوسطى بأخرى متطورة تنتمى إلى القرن العشرين»(*).

إنه فى الحقيقة كان يعتقد أن معارضيه ينحصرون فى «بضعة آلاف من رجال الدين الرجعيين» ، «حفنه من الشيوعيين ممن لا ينتمون للوطن» ، «عدد من المثقفين سطحيى النظرة لا شأن لهم» ، «عدة آلاف من الطلاب الشبان المنخدعين عملاء الأجانب» .

إنه فى الحقيقة كان يعتقد أن الكثيرات من النساء العاملات والمتعلمات يؤيدنه ، بسبب منحه إياهن حق التصويت وحق الطلاق وإخراجه لهن من «جدران المنزل الأربعة» ودخولهن ساحة المجتمع .

إنه فى الحقيقة كان يعتقد أن برنامجه الخاص بإصلاح الأراضى كان سببًا فى القضاء على النظام الطبقى للملاك والرعية فى إيران ، وأن الفلاحين الذين صاروا أصحاب أراض ، وملايين الزراع ، وصغار الملاك يؤيدونه بكل قوة .

إنه فى الحقيقة كان يعتقد أنه بإشراكه العمال فى أرباح المصانع وزيادة أجورهم سوف يحظى بتأييد طبقة العمال الشبان فى إيران . إنه فى الحقيقة كان يعتقد أن «الإصلاحات الحديثة» ، و «ثورته البيضاء» و «المعجزة الاقتصادية» التى قام بها قد بدلت صورة إيران ، وأن ملايين الأشخاص ممن ينتمون إلى الطبقة المتوسطة الجديدة ، والمقيمين بالمدن - الذين استفادوا من هذه الإصلاحات - أدركوا خدماته وقدروها ، ولو لم يكن جميعهم ، فعلى الأقل البعض منهم قدّر له هذا وصاروا أوفياءً له. أو أن الملايين الذين استفادوا من إصلاحاته كان يجب أن يؤيدوه للحفاظ على مصالحهم .

(*) عبارة كانت تستخدم كثيراً سواء قبل ثورة الشاه أو بعدها فيما يتعلق بنتائج إصلاحاته.

لكن مسيرة عيد الفطر المهيبة ، وصياح ملايين الأفراد فى شوارع طهران بقولهم فى صوت واحد «الموت للشاه» كان بمثابة الشوكة القوية التى جعلته يستيقظ من حلمه ومنامه وأخيلة كان يغرق فيها طوال أربعة وثلاثين عامًا . وصار الشاه من بعد مشتت الحواس، خائفًا ، حائرًا مضطربًا . وأدرك فى أى رؤى وأى خيال كان يعيش ، وما هى حقيقة الواقع . تلك الرؤى الذهبية ، والمنام ، والأخيلة ، وهوس «المدنية العظمى» ، و«خلافة قورش الكبير» ، والوصول إلى «بوابات المدنية العظمى»(*) جميعها الآن ، وفى أقل من عدة ساعات أصبحت بالنسبة للشاه أشباحًا بلا روح أو مضمون .

وشعبه لم يكتف فقط بعدم إحساسه بمساعيه وإصلاحاته ، أو عدم تقديره لها ، بل طالبوا بمحوه من فوق سطح الأرض .

لا شعبه ، ولا العمال الذين – وفقًا لحساباته – جعلهم شركاء فى أرباح كدهم ، ولا النساء اللائى جعلهن – وفقًا لحساباته – أحرارًا ، ولا الفلاحين الذين – وفقًا لحساباته – أنقذهم من نيرعبودية الملاك ، ولا القرويين الذين أنقذهم من الفقر والتخلف بمساعدة «كتائب العلم» ، و«كتائب الصحة» ، و«ديار الإنصاف»، و«التعاونيات القروية»، ولا أية طبقة فى ولاية أخرى انتفعت بإصلاحاته ، جميعهم لم يكتفوا فقط بعدم تقديم الشكر له ، بل إنهم جميعًا لم يكن يرضيهم شىء أقل من موته .

ويبدو أن الشاه لم يتمكن حتى أواخر عمره من أن يستعيد توازنه من جراء هذه الشوكة التى وخزته فجأة بشكل غير منتظر وعلى عكس جميع التوقعات . فرؤية ملايين الأفراد متشابكى الأيدى وهم يطلبون سقوطه فقط ، جعلت كل جنته وكل العالم الذى صنعه لنفسه خلال سبعة وثلاثين عامًا ينهار فى بضع لحظات .

إنه حتى نهاية أمره لم يرغب ، ولم يستطع أن يدرك حقيقة ما حدث . إنه لم يتمكن من استيعاب فكرة استياء الناس منه ، والنتيجة أنه لم يفكر قط فى أسباب ذلك ، أو فى تفسير أسباب عدم الرغبة هذه . وعوضًا عن ذلك لجأ إلى مجموعة «التوهمات» و «افتراض التآمر» عاجزًا عن إدراك الأسباب الحقيقية لسخط الشعب .

(*) مصطلحات كان يستخدمها الشاه السابق فيما يتعلق بتطورات إيران .

وقضى الشاه الثلاثة أعوام الباقية من عمره تتملكه بضعة ظنون مجنونة ، مثل «إن الأمريكان طعنوه بخنجر من خلفه» ، «انتقم الإنجليز منه» ، «كانت جميع الخطط بسبب النفط ؛ لأنه كان يتصدى لفكرة تصدير النفط إلى الغرب بثمن زهيد» ، «إنه كان يرغب فى أن يجعل المملكة بلداً صناعيا ، ولما كان ذلك يتعارض ومصالح المستعمرين ، ساعدوا على قلب نظام حكمه» .

ومشكلة الشاه وجميع مؤيدى نظرية «افتراض التآمر» هى أنهم حين يريدون توضيح أسباب سخط الشعب - ولاجرم - ظهور الثورة ، يتحدثون عن «تقدم إيران ورقيها» ، عن «النفط وصمود الشاه فى مواجهة الشركات النفطية»، عن «استياء الغرب من جعل إيران بلداً صناعيا» ، عن «غضب الاستعمار والمحافل الإمبريالية من سياسة نظام الشاه المستقلة» وعن العالم وعن البشر جميعهم دون أن يتحدثوا عن حقيقة مؤكدة ، وهى أن شعب إيران لم يكن يرغب فى نظام الشاه.

وبدلاً من كل هذه الظنون والنظريات ، لو أن الشاه كان قد كلف نفسه بعض المشقة ، وتفقد سجنى «القصر» و «أوين» اللذين لم يكن يفصلهما عن قصره سوى بضعة كيلو مترات فقط ، أو قضى ساعة واحدة مع بضعة آلاف من الطلاب ورجال الدين والكتاب والشعراء والمثقفين والمتعلمين ، لكان قد انتبه إلى ما كان يحدث فى مملكته. ولفهم ماهية الواقع، وأى تصور كانت تشكيلاته الأمنية والمخابراتية يصورونه له. كانوا يصورون كل شىء منضبطاً وأن كل شىء يسوده الأمن والأمان .

لم تكن ثمة مشقة فى أن يرتدى الشاه فوق رأسه «طاقية الإخفاء» ويوارى نفسه ، ثم يذهب إلى أماكن التعذيب فى «أوين» وسجن «القصر» حتى يرى عن كثب كيف تقع طبقة المثقفين والمتعلمين وشباب المملكة تحت وطأة أسوأ ألوان التعذيب دون رحمة أو هوادة؛ كى يعترفوا ممن أخذ فلان هذا الكتاب، وإلى من كانوا يعطون ذلك المنشور؟

ما من مشقة فى أن يتحدث الشاه مع آلاف المسجونين السياسيين ، كى يدرك أن المتهمين كان قد حكم عليهم بالسجن لمدد تتراوح من عشرة إلى خمسة عشر عاماً ، بسبب ارتكابهم جريمة اصطلح على تسميتها بمصطلح ثقيل يملأ أفواههم، وهو «القيام بإجراء مضاد لأمن الدولة» ، وعلى أساس محتوى ملفهم ، فهم يريدون «زلزلة استقرار الدولة وأمنها» ، وأنهم «قاموا بإجراءات تتعارض ومصالح الدولة القومية» .

والحقيقة أن مخالفتهم وجرمهم هو فقط أنهم كانوا يقرأون مقالات مرافعات خسرو گلسرخي ، ومؤلفات پاك نژاد وسعيد محسن . أو الأسوأ من ذلك أنهم كانوا يقرأون كتب : «فاطمة هى فاطمة» ، «التشيع العلوى تشيع صفوى» للدكتور شريعتى ، بيان مجاهدى أو فدائى الشعب ، كتاب رد نظرية البقاء لپرويزپويان ، أو أحد مؤلفات مسعود أحمد زاده وبيژن جزنى .

ما من مشقة فى أن يتحدث الشاه مع الطلاب والشعراء والكتاب والمثقفين وأهل القلم فى مملكته ، حتى يلاحظ مدى الألم والسخط الذى ينتشر بين عدد لا بأس به من أصحاب الفكر فى دولته . ويكفى أن يلقى نظرة سريعة على المكانة الاجتماعية لآلاف المسجونين السياسيين فى دولته حتى يدرك أن ما يربو على التسعين فى المائة منهم يشكلون طبقة الطلاب والكتاب وأهل القلم ورجال الدين الشبان والمثقفين والمتعلمين .

ما من مشقة فى أن يقوم الشاه بتحليل نفسى – اجتماعى عميق كى يدرك أن طبقات عديدة من الطبقات الحديثة ، المتعلمة ، والتى كان يظنها تحمى نظامه بقوة، أى شعور كان لديها ؟ وكيف كانوا يفكرون فى حكومته ؟

من هنا كان يكفى أن يفعل ما كان يقوم به الشاه عباس ، فكان يرتدى خرقة الدراويش ويسير بين الناس كى يعلم ماذا يجرى فى مملكته . فكان عليه هو أيضًا أن يتنكر فى زى آخر ، ويسير فى ساعة غير معلومة فى الأزقة والأسواق كى يدرك إلى أى حد ضاق الشعب ذرعًا بحكومته ، الشعب كله أصحاب الرأى والعامة ، المتعلم والجاهل، المتدين وغير المتدين ، الفقير والثرى ، المدنى والقروى ، والتقليدى والتحديثى؛ حتى يرى بأم عينيه أن انعدام حرية المطبوعات والبيان والفكر وحظر الاجتماعات وكذلك الرقابة كانت جميعها تقطع الأنفاس وتكتمها فى الصدور . وحتى أولئك الذين كانوا يستفيدون من النتائج الاقتصادية ومن تضاعف دخل النفط إلى أربعة أضعاف ، كانوا يتذمرون كذلك تحت الوطأة الشديدة لديكتاتورية النظام .

وعوضًا عن ذلك كله ، كان الشاه غارقًا فى عالم قد صنعه لنفسه ، وصنعه له المقربون منه من : الراديو والتليفزيون ، المطبوعات ، أبواق الدعاية الرسمية ، رجال حكومته ، مجلس الشورى الوطنى ، مجلس الشيوخ وزمان مملكته وأرضها. عالم

خيالى كان يتولى فيه دور الرجل القوى ، البطل العظيم ، الزعيم التاريخى الذى سينقذ مملكته وشعبه من مغبة الفقر والتخلف . عالم يسود فيه الهدوء والاستقرار كل شىء فى دولته ، تنعدم فيه المشاكل ، كل شعب إيران يعربون فيه عن شكرهم ليل نهار للإنجازات العظيمة المتلألئة «للأب الملك» و«القائد الكبير» .

وإذا ما ظهر بعض المعارضين المستائين لم يمثل ذلك مشكلة كبرى ، فجميعهم «حفنة خائنة لا تنتمى إلى الوطن، رجعيون ، خداعون ، محتالون ، عملاء ، مأجورون للاستعمار والقوى الأجنبية» . والشعب كذلك لا ينخدع بهم قط ويتهمونهم دومًا بأنهم «معارضون للقومية» .

هذا فى مجموعه هو العالم الذى كان يعيش فيه الشاه ، عالم كانت جدرانه العالية تفوق بمراتب جدران قصر سعد آباد أو قصر نياوران ، وظل أكثر من ثلاثين عامًا حائلاً دون إدراك الشاه لواقع المجتمع الذى كان يعيش فيه .

والنقد الآخر الموجه للكتاب هو أنه قلما ظهرت فيه الهوية الإسلامية للثورة ، وكذلك الدور الدينى والقيادى للإمام ، لدرجة أن البعض يقول : إن الكتاب يسعى لإنكار عنصر المذهب فى تكوين الثورة الإسلامية ، وأنه يقلل من شأنها .

وللإجابة على هذا الانتقاد يجدر بنا القول : إنه قد تم طرح صورة معينة فى هذا الموضع أيضًا ، أى أننا افترضنا مجموعة من المفاهيم حول الثورة الإسلامية ، وكل كتاب أو مؤلف لا يتطابق وهذه المفاهيم المفترضة نضعه تحت المساءلة .

وأحد هذه الافتراضات، أن الثورة تمت لإيجاد نظام دينى فى المملكة. والافتراض الآخر هو أن الشاه كان قد اتخذ سياسة مناهضة للإسلام فى إيران ، وكان يريد القضاء على الإسلام ومحوه . وبالطبع فإن شعب إيران المسلم لم يكن من الهين عليهم أن يتحملوا سياسات نظام الشاه المناهضة للإسلام ، وفى النهاية رفعوا راية العصيان ضد ذلك النظام ، وأقاموا نظامًا إسلاميا محل نظام الشاه المعارض للإسلام .

لكن كتاب «مقدمات الثورة الإسلامية» لم يتطرق إلى مثل هذه الموضوعات وتناولها بشكل مقتضب إلى حد ما .

وأى إجابة يمكن الرد بها على مثل هذه الانتقادات ؟ فهل سعى الكتاب لتقليص الدور الدينى ودور الإمام والإسلام فى ظهور الثورة ؟ وردًا على هذا ، يجب القول : إننا لو نقبل هذه الافتراضات السابقة بشكل مطلق حول أسباب وجود الثورة ، ففى تلك الحالة توجه الانتقادات السالفة الذكر إلى الكتاب - إلى حد ما - ، ولكن قبل أى شىء يجب النظر : فى أى وقت طرحت هذه الافتراضات السابقة على هذا النحو المطلق ؟ هل فى عهد الثورة ؟ وأيضًا فيما يتعلق بأسباب وبواعث مقاومة نظام الشاه كان ثمة تصور بأن الشاه يرغب فى أن يمحو الإسلام، أو أن الإسلام استغل لتعبئة الشعب ضد ذلك النظام - فمن الأصل ، ما هى أسباب وبواعث وعلل انقلاب الشعب ضد نظام الشاه ؟ لمَ كان الشعب غير راض عن ذلك النظام ؟ وبعبارة أخرى ، لو أننا عرضنا كتاب «مقدمات الثورة الإسلامية» فى فترة عهد الثورة ، لما لحق به أى نقض من الانتقادات السابقة الذكر، لكن لو أعد الكتاب للبحث فى الظروف والفترة التى تلت الثورة ، ففى تلك الحالة يمكن توجيه بعض هذه الانتقادات المطروحة إلى الكتاب .

لكن هدفى من تأليف الكتاب لم يكن أبدًا أن يتم على أساس سليقة اليوم وسياقه ، بل على العكس ، كان كل همى أن أوضح للقارئ - قدر الإمكان - المجال الطبيعى ، والحقيقى ، والواقعى للثورة وقت ظهورها أى فى عام ١٣٥٧هـ.ش (١٩٧٨م) ، لا أن أصف الأيديولوجية الحكومية أو أقدم تفسير الحكومة وقراءتها لذلك الحدث التاريخى العظيم على أنه صورة للثورة ؛ لأننى مؤمن بأن ثمة اختلافات جذرية بين الأمرين .

وكما ورد فى الكتاب ، إنه فى كل ثورة ، وبعد إسقاط السلطة السابقة ، تأتى فترة تسعى خلالها القوات المنافسة لكلا القوتين كى تشكل سلطة جديدة ، فى هذه الفترة ، يُنشئ الصراع سلطة تتمكن فى النهاية من الظفر على الآخرين خلال الأحداث السياسية ، وتتولى قيادة الثورة ، وتخطط لإنشاء النظام الجديد . وطبيعى أن ذلك الحدث يفسر الثورة على أنها كانت فى اتجاه واحد مع أيديولوچيتها وأهدافها السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

ولنفترض أنه بعد الصراع والنزاع خلال العامين الأول والثانى للثورة كان من وصل إلى الحكم هو «حزب توده» أو «الجبهة الوطنية» أو «حركة التحرير» بدلاً من

رجال الدين ، ففى هذه الحالة ، هل سيكون التفسير الذى قُدم عن الثورة أو عن الأسباب والبواعث التى أدت إلى وجودها هو نفسه الذى يُقدم اليوم من قبل الحكومة ؟! وليس هذا فقط ، بل إن التاريخ المعاصر لإيران بأكمله ، وكذلك التطورات السياسية والاجتماعية والشخصيات التاريخية ، والعديد من الأحداث والاتفاقيات لكانت قد اتخذت طابعًا آخر . ولو كانت الجبهة الوطنية - فى المقابل - هى التى وصلت إلى سدة الحكم لبدلت الثورة «الإسلامية» بثورة مضادة للاستبداد والاستعمار ، ولكانت امتدادًا لطريق د. مصدق وحركة تأميم النفط ، ولكانت بدايتها هى ٣٠ تير من عام ١٣٣١هـ .ش (١٩٥٢م) بدلاً من ١٥ خرداد ١٣٤٢هـ .ش (١٩٦٣م) ، ولو كان التوفيق قد حالف «حزب توده» أو الجماعات اليسارية الأخرى لأصبحت الثورة الإسلامية ثورة شيوعية ضد الإمبريالية بهدف وصول الكادحين إلى السلطة وفى مقدمتهم طبقة العمال ، وكذلك إيجاد نظام اشتراكى للقضاء على الاستغلال والظلم الطبقى ، ولكانت بدايتها أيضًا فى الوقت الذى خضب فيه سفاحو نظام الشاه المرتبط بالإمبريالية التراب بدماء العمال والكادحين المعتصمين . وعند تدوين تاريخ الثورة أيضًا كانت تتقدم أدوار عن غيرها ، كنضال طبقة العمال ، وثورة الفلاحين ، وحركة المثقفين والكتاب ، ولأضفوا عليهم من الأهمية ما يفوق غيرهم ، ولكان قد تم التأكيد على الظروف القاسية والمضنية لحياة الكادحين وطبقات الولايات الأخرى محدودة الدخل ، ولأصبحت الفروق الطبقية (كما قال ماركس) هى الباعث الأصلى لظهور الثورة .

كما أن هذه الجماعات السياسية المختلفة كانت تعلن بأعلى صوتها عن هذه الرسائل والتحاليل على الرغم من عدم تمكنها من السلطة ، حتى بلغ الأمر تخصيص جزء من نفس الكتاب لطرح هذه الآراء ونقدها ، فمابالكم إذا ما كانت بالفعل قد تمكنت من الحكم !!

ورجال الدين أيضًا لم يُستثنوا من هذه القاعدة العامة ، فبعد وصولهم إلى سدة الحكم ، قاموا بتقديم الثورة وتفسيرها وفقًا لإطار فكرهم ومصالحهم الخاصة.

وفى نظرة رسمية - ظهرت تدريجيا - يبدو ، أولاً : أن الثورة تمت فقط من أجل إيجاد حكومة أو نظام إسلامى . ثانيًا : عند البحث فى الثورة نجد أنه لا يوجد دور قط

لأية مجموعات أو طبقات أخرى ، وأن حمل النضال ضد الشاه كان يقع فقط على كاهل رجال الدين ، وأى عناصر أخرى فإما لم يكن لها حضور فعال ، أو الأسوأ من ذلك ، يتهمونها بأنها تبغى انحراف الحركة والنضال عن مسيرتهما الطبيعية . ولكن إذا ما نظرنا على أرض الواقع بنظرة فاحصة تجاه المعتقلين السياسيين أثناء النضال ضد نظام الشاه ، يجب أن نذعن بأن أكثر من تسعين فى المائة من نسبة هؤلاء المناضلين المسجونين لم يكونوا من رجال الدين .

والسؤال الذى يُطرح هنا، هو: ما هو الباعث لنضال تلك النسبة ضد نظام الشاه؟ فضلاً عن ذلك ، يمكن طرح سؤال آخر ، وهو : إذا ما عدنا إلى عام ١٣٥٧هـ.ش (١٩٧٨م) ، ماذا كان باعث رجال الدين أنفسهم للنضال ضد نظام الشاه ؟

ولو كان الكتاب يخرج فى فترة السنوات الأولى للثورة ، لما اتهم قط بعدم الوفاء لحق رجال الدين والانحراف عن أهداف الثورة . لكن المشكلة بدأت لأن الكتاب يتعرض لفترة العشرين عامًا بعد الثورة . عشرون عامًا نشرت فيها أجهزة الدولة الإعلامية ما نشرته لصالح رجال الدين فى لون وإطار واحد ، لدرجة تجعلك تتوهم أن ما من شخص آخر سواهم كان فى حلبة المصارعه . وبناءً عليه ، حينما ظهر الكتاب وذُكرت فيه أسماء جماعات وشخصيات ممن لا ينتمون إلى طبقة رجال الدين، كانوا موجودين، يقاومون ، وأدوا دورهم فى الثورة ، أوجد استفسارًا ، وهو : أكان لهؤلاء وجود ؟! وهل مؤلف الكتاب لم يقم بتعظيم أولئك دون سبب ؟! وهنا اتهم الكتاب بأنه تعمد تقليص دور رجال الدين فى الثورة . فى حين أن جرم الكتاب الوحيد هو أنه أراد أن يقدم أصدق الروايات ، وأكثر من كان لهم دور فى الثورة والإشارة إلى أهدافهم وقواتهم .

أما فيما يتعلق بذلك النقد الذى يتهم الكتاب بأنه يستغل ذلك كى يُفرغ الثورة من هويتها الإسلامية ، وأنه يريد أن يبين للقارئ أن الباعث الأصلى للثورة لم يكن إيجاد حكومة إسلامية ، فما الذى يجب أن نقوله هنا ؟!

فى البداية يجدر بنا القول ، **أولاً** : إن الكتاب لا يهدف إلى إفراغ الثورة من هويتها الإسلامية أو الدينية ، ولا يستغل ذلك كى يثبت للقارئ أن هدف تلك الحركة العظيمة لم يكن إيجاد حكومة إسلامية .

ثانيًا : يوجد جزء خاص فى الكتاب يوضح أسباب النضال ضد نظام الشاه، وكيفية اتخاذ الثورة مثل هذا الطابع الدينى . ونهاية المشكلة أو سبب النقاش يوجد فى موضعه . وكما تم الإشارة من قبل ، أنه خلال العشرين عامًا الماضية تم تدريجيا تقديم تفسير أو تبرير خاص من الوجهة الدينية أو البعد المذهبى أو الإسلامى للثورة. وليس معلومًا أى ميزان أوجد وجه الاشتراك رغم كل ما كان يتم فى عهد الثورة ؟! وإذا ما عدنا إلى عهد الثورة ، نجد أمامنا السؤال التالى : لمَ كانت من الأصل هذه النهضة العظيمة ؟! ماذا كان يبغى الناس ؟ ماذا كانت بواعثهم وأدلتهم للنضال ضد نظام الشاه ؟ ماذا كانت توقعات الشعب من نظام الشاه ؟ ماذا كان يريد الشعب من نظام الشاه ولم يرغب ذلك النظام ، أو لم يستطع القيام به ؟

وثمة فارق كبير بين الرد الرسمى الموجود اليوم حول هذه الأسئلة وبين ما كان يوجد قبل عشرين عامًا . ويرى كتاب «مقدمات الثورة الإسلامية» أن الناس كانت لديهم توقعات ورغبات غير مقبولة من نظام الشاه ، تلك الرغبات والتوقعات كانت عبارة عن : حرية البيان ، حرية الفكر ، حرية المطبوعات، حرية الاجتماعات ، المشاركة السياسية ، الانتخابات الحرة ، إلغاء التعذيب ، الإشراف على أعمال الحكومة ، إطلاق سراح المعتقلين السياسيين ، سيادة القانون ، الحد من سلطة الحكومة ، الأمن السياسى والاجتماعى ، وعبارات أخرى كانت قد دخلت المعجم السياسى للمجتمع الإيرانى منذ عهد الحكومة النيابية ، أى فيما يقرب من قرن مضى . لكن المشكلة هنا تبدأ من أن هذه العبارات لم تكن لدى الشاه أكثر من ألفاظ دون معنى أو مفهوم . إنه كان يعتقد بأنه يفهم أكثر من الجميع إلى أى شىء يحتاج شعبه ومملكته ، وكان قد أشار مرارًا : «فى إيران توجد جميع الحريات إلا حرية الخيانة» . وكثيرًا ما أجاب على سؤال : لمَ لا تمنح الحرية للشعب ؟ بقوله : «إن الحرية نمط غربى ، وهى التى ستفضى بالغرب فى النهاية إلى المحو وسوء الحظ، فلمَ تصل مجتمعنا؟ » . وكان يقول مرارًا : «إن الحرية والديمقراطية غربية، لن تواسى مجتمعنا ، ولن يكون لها أى نتيجة سوى الفوضى وعدم الاستقرار» .

ويرى الكتاب أن هذا الأمر هو السبب الرئيسى وراء سخط الشعب واستيائه من نظام الشاه ، كما كان سخطهم من حكومة رضا شاه أيضًا هو خداع تلك الحكومة

واستبدادها . وفى كل مرة كان الناس يجدون فيها المجال والفرصة التعبير عن سخطهم ومعارضتهم لنظام الشاه ، لم يكن يُسمح لهم بإظهار تلك المشاعر . بعبارة أخرى ، إن أمنية الشعب فى أن يكون له حكومة غير مستبدة لم يكن أمراً خفيا فى صدورهم وعقولهم فقط ، بل صاحبه نضال وسعى دائم ضد الاستبداد . فى إحدى المراحل كان اليسار وحزب «توده» يتقدم هذا النضال ، وفى مرحلة أخرى كان الوطنيون فى «حركة التحرير» ، وفى مرحلة أخرى كانت «القوى المذهبية» ، وفى فترة أخرى كان أيضاً مؤيدو «النضال المسلح» ، وما كان مشتركًا فى جميع هذه الحركات هو الاستياء من نظام الشاه الساحق المستبد ومعارضتهم له .

وبناءً على الأدلة التى وردت تفصيليًا فى الكتاب دخل المذهب حلبة النضال ضد نظام الشاه تدريجيا ، ونما فى هذه الحلبة حتى تمكن بشكل طبيعى من تولى قيادة النضال فى عهد الثورة . ومذهبية حلبة النضال ضد نظام الشاه نشأت لسببين أساسيين :

أولهما : عدم توفيق العناصر غير المذهبية التى كانت فى قالب الوطنيين واليساريين.

والآخر : كان عبارة عن التغيير والتطور الذى طرأ على المعرفة الدينية للمجتمع . معرفة بدلت النظرة إلى الدين وخلقت أسلوبًا جديداً للشريعة . وعلى عكس وجهة نظر المنتقدين إن الكتاب لم يُخرج الثورة الإسلامية من هويتها الدينية ، بل إنه خصص صفحات عديدة لعرض كيفية مذهبية الثورة .

والخلاصة ، إن المشكلة تنشأ من أنه جعل السبب الرئيسى أو الباعث الأساسى لرد فعل الشعب أو سبب سخطه على نظام الشاه موضع الأنظار ، يرى أن الإسلام لو استطاع تولى قيادة النضال ضد نظام الشاه ، لاستطاع المذهب فى ظل هذا العمل أو تلك القراءة الجديدة للدين أن يعكس بشكل مؤثر آلام ومطالب الشعب السياسية والاجتماعية ، ويستطيع الإسلام أن يكون ناطقًا باسم المطالب السياسية والاجتماعية التى لم يتمكن نظام الشاه من تحقيقها ، وتمكنت مطالب الشعب السياسية والاجتماعية وتوقعاته ورغباته وميوله وأمانيه من أن تجرى على لسان الإسلام . والشعب الذى كان قد ضاق ذرعًا بمظالم نظام الشاه وجوره واستبداده وتكبره وغروره

وعدم سريان القانون فى عهده ، تمكن من أن يعبر عن معارضته بلسان الدين .
ومن وجهة نظرى ، إن فصل الإسلام والمفكرين الإسلاميين هو أنهم تمكنوا من خلق مثل هذا الوضع - أو وفقًا لقول العلماء السياسيين -«هذا الوضع الخاص» للمذهب فى المجتمع الإيرانى .

حقيقة أن الناس كانوا يريدون الإسلام ، ولكن هل كانت مشكلتهم ومطالبهم الخاصة بالإسلام تتمثل فى الأمور الشرعية ، أى الصلاة ، الصوم ، والزكاة ؟ ومتى أوجد نظام الشاه مشكلة ما تجاه هذه الأمور؟ وأى شخص رغب فى أن ينشئ مسجداً أو يسافر لأداء فريضة الحج أو الزكاة أو حق الإمام ، أو يؤدى الصلاة ، أو يصوم ، وأية امرأة رغبت فى أن ترتدى العباءة وتذهب بها إلى الجامعة ، وأى شخص رغب أن يذهب إلى الحوزة العلمية بقم للدراسة ، هل قام الشاه بمنع أى منهم ؟

لو أن الناس كانوا يريدون الإسلام (وهذا ما كانوا يريدونه) ، لكان هدفهم هو إيجاد نظام ديمقراطى حر بقيادة الشعب عن طريق الإسلام وفى إطاره، حتى لا يتمكن أى مسؤول أو أية حكومة من العمل وفق الأهواء . حقيقة أن أحد الأهداف الأساسية للثورة هو «إيجاد حكومة إسلامية» ، لكن ما هو مفهوم الناس؟ وماهى رغباتهم وتوقعاتهم من الحكومة الإسلامية ؟ وأية بشرى كانت تقدمها لهم الحكومة الإسلامية - من وجهة نظرهم - فيما يتعلق بالجيش والحكومة والمجتمع ؟

لو أن شخصاً كان قد قدم أقلاماً فى عام ١٣٥٧هـ .ش (١٩٧٨م) إلى عدة آلاف ، بل إلى ملايين الأفراد ممن كانوا يشاركون فى المسيرات المهيبة ، وقال لهم: اكتبوا خصائص تلك الحكومة الإسلامية التى ترغبون فى إقامتها . فماذا كانت تحويه تلك الكتابات من أمور ؟ ولمَ قاموا بهذه التجربة فى مسيرة تاسوعاء، وعاشوراء ، والأربعين أو المسيرة الخاصة بتأييد حكومة المرحوم بازرجان؟ ولمَ يسيطر الغموض على الأمور التى تتعلق بهدف الشعب وقادة الثورة من الحكومة الإسلامية ؟

ولإدراك مطالب الشعب وقادة الثورة - ومن بينهم المرحوم الإمام الخمينى (ره) [٣] وتوقعاتهم ومفهومهم حول الحكومة الإسلامية ، يكفى أن نلقى نظرة ثانية على البيانات

وتقارير المسيرات والشعارات وخطب زعيم الثورة وأحاديثه وكتاباته فى النجف وباريس، وأيضًا أحاديث الزعماء السياسيين والدينيين الآخرين فى عهد الثورة والسنوات الأولى لانتصارها ، حتى نتبين أسباب النضال ضد نظام الشاه وهدفه ، ويتبين كذلك هدف الشعب وزعماء الثورة من «النظام الإسلامى» و «الحكومة الإسلامية» سواء من الناحية العسكرية أو من الناحية الإدارية . بعبارة أخرى ، إن الكتاب لم ينكر الهوية الدينية للثورة ، بل إن المشكلة تنبع من أنه يسعى لتوضيح ماهية هدف الشعب والزعماء من تلك الهوية الدينية - أى من الإسلام - وتوقعاتهم منها ، وأيضًا ما نوع الأمل الذى كان يحدوهم من حكومة فى ظل الإسلام . ولا تمس الحاجة لوضع النظريات أو أن نقوم بالحدس والتخمين لإدراك هذا المعنى، فنظرة إجمالية على مجموع المستندات الخاصة بعهد الثورة وأحاديث زعيم الثورة وبياناته وخطبه هو وغيره من الزعماء السياسيين الدينيين ، وأيضًا الشعارات والتقارير الخاصة بالمسيرات والمظاهرات فى عهد الثورة ، كل ذلك يوضح بجلاء حقيقة أسباب قيام الثورة ، وأية رسالة كان يضمها المذهب على أنه الناطق باسم تلك الثورة العظيمة .

وأمر أخير أرغب فى توضيحه فى هذا الموضع ، وهو لا يتعلق إلى حد ما بكتاب «مقدمات الثورة الإسلامية» ، ولكن طالما أن الحديث امتد بنا إلى هذه النقطة فلابد وأن أطرحه ، وهو : إلى أى مدى قد تمكنا جميعًا من نقل حديث الثورة الإسلامية وروايتها إلى الجيل التالى على الثورة ؟ إلى أى مدى قد تمكنا من ربطهم بتلك الثورة العظيمة فى تاريخ إيران المعاصر ؟ إلى أى مدى قد تمكنا من إيجاد أواصر الاتصال والارتباط فى الجيل الجديد تجاه الثورة الإسلامية ؟

وردى - باعتبارى أحد الأساتذة الذين يقومون بتدريس الثورة الإسلامية فى الجامعات - على هذه الأسئلة يأتى - وللأسف - بالنفى . فأنا أرى - وللأسف - أننا لم نستطع بأى وجه قط أن نربط الجيل الجديد بالثورة بالشكل الذى ينبغى ، بل إننى أرى فى الحقيقة أننا لم نستطع حتى أن نطلعهم على ألف باء تلك الثورة العظيمة . وأعتقد أن السبب الأساسى وراء ذلك هو غموض الأسباب والبواعث الحقيقية التى أدت إلى إيجاد الثورة ، وإحلال أسباب وبواعث أخرى مفتعلة لتحل محلها تدريجيا ، وهذا ما أدى إلى أن الرواية الرسمية - التى تتم عن الثورة - اتخذت طابع الشعارات بشكل

يزداد يوماً بعد يوم . والنتيجة هى تهيئة المجال لعدم ميل عدد كبير تجاه الثورة ، وللأسف يجب أن نعترف بأن الهوة بين الجيل التالى على الثورة وبين الثورة فى تزايد مستمر يوماً بعد يوم ، على الرغم من حجم الدعايات الواسعة ، وعلى الرغم من التعليم المنظم فى جميع المستويات الدراسية من المرحلة الابتدائية وحتى الجامعة ، وعلى الرغم من بث العديد من البرامج الإذاعية والتليفزيونية ، وعلى الرغم من إنفاق المليارات من الريالات من ميزانية الدولة كل عام على الدعاية والإعلان عن ذكرى الثورة ، وإقامة الاجتماعات وعقد الندوات المحلية والدولية لتمجيدها ، وعلى الرغم من إنشاء مؤسسات وجمعيات ومنظمات للبحث والتحقيق بهدف تقديم الثورة الإسلامية والتعريف بها . وهنا يمكن أن نطرح سؤالاً : ما هو حقاً مقدار ارتباط الجيل الجديد أو معرفته اليوم بالثورة الإسلامية ؟ هل الجيل الذى يعيش اليوم فى العشرين من عمره يشعر بفائدة الثورة الإسلامية بمقدار ثلث ما كان يشعر به الجيل الذى سبقه بعشرين عاماً ؟ هل كل هذه الدعاية الرسمية الحكومية الضخمة تمكنت من التأثير على الجيل الجديد التالى على الثورة ؟

والواقع المرير هو أنه على الرغم من كل هذه المساعى ، يبدو أن المسافة بيننا وبين نقطة البداية للثورة فى تزايد ، وبنفس المقدار أيضاً يقل إدراك الجيل الجديد بالثورة ، ويقل أيضاً ارتباطهم بها .

وإذا ما تغاضينا عن جميع أولئك الذين لا يتفقون والثورة ، أو أولئك الذين ينظرون إليها نظرة الشك والريبة ، أو فى قالب التوهم وافتراض التآمر ، فيمكن تلخيص مشاعر الباقين فى أفضل حالاتها فى هالة من عدم الارتباط أو عدم المعرفة بشكل يدعو للحزن .

ومن وجهة نظرى ، أن السبب الأساسى لهذه المأساة يعود إلى هذه الحقيقة: إذا ما نحينا جانباً هذا الكم الهائل من الدعاية المكررة للحكومة والتى لا نتاج لها ، فإننا لم نستطع عمليا أن نصور السمات الحقيقية للثورة ، ولم نوفق فى نقلها إلى الجيل التالى ، والتصوير الأيديولوچى ذو الاتجاه الواحد – الرسمى – الذى يُقدم عن الثورة ، أدى إلى مسخ الهوية الأصلية للثورة تدريجيا . كما أن الاستفسار عن كيفية وأسباب وقوع ذلك التطور التاريخى العظيم يهبط فى كل يوم وبشكل متزايد عن اليوم السابق

تحت تل من الدعاية السياسية أحادية الجانب، وينمحى تدريجيًا الجوهر الحقيقى لها من الأنظار أكثر وأكثر .

ونحن فضلاً عما لدينا من اضطراب فى الرواية الواقعية للثورة الإسلامية ، فالأكثر من ذلك ، أننا نفكر فى الاستفادة منها لتحقيق أهدافنا وميولنا السياسية، ونتاج ذلك أن الصورة التى قدمناها عن الثورة إلى الجيل الجديد هى صورة مجازية ، سطحية ، مكررة ، ذات شعارات ، غير حقيقية ومختلقة . والنتيجة هى ازدياد عدد غير المنتمين أو غير المشجعين للثورة يومًا بعد يوم . ونحن قد منحنا الأولوية لأهدافنا ومصالحنا السياسية بدلاً من أن نمنحها للثورة الإسلامية ، حتى أن البعض منا كان مستعدا للإنفاق على الثورة لتحقيق مصالحنا السياسية . ولو تجاوزنا الحكومة والمؤسسات والهيئات التى لها علاقة مباشرة أو غير مباشرة لذلك ، فإن رسائل جامعاتنا أيضًا لا تتألق فى هذا المضمار ، فجزء كبير منها ، والذى تم عن طريق الطلاب ، يمكن أن نلخصه فى مباحث نظرية حول مفهوم الثورة . مباحث من قبيل : ما هى الثورة (فى مفهوم المعاصرين) ؟ ما هى وجهات النظر حول الثورة فى علم الاجتماع والعلوم السياسية ؟ وإلى أى منها تقترب الثورة الإسلامية ؟ وهل يمكن تطبيق نظرية «إسكاتش پل» بقدر من الإصلاح والتسامح على الثورة الإسلامية ؟ أم يجب علينا اقتفاء أثر «تشارلزتيلى» فى التحليل والعرض دون أن نقدم أدنى معلومات عن أسباب وبواعث ظهور الثورة الإسلامية وماهيتها إلى المخاطب ؟

وهؤلاء الأساتذة الذين يطلق عليهم أساتذة الفهم والإلقاء ، ففضلاً عن استفادتهم من التحقيق فى الثورة وفهمها ، فهم يقدمونها فى إطار الآراء النظرية، ومثل هذا التقديم جدير بالاحترام ، لكن ألا يجب علينا نحن أنفسنا أن يأتى يوم علينا نقتفى فيه أثر تحليل الظواهر والتطورات السياسية والاجتماعية لمجتمعنا ؟ فالأساتذة وأصحاب النظريات الغربيون ، من أمثال : نيكى كدى ، حامد الجار ، يرواند إبراهاميان ، فرد هاليدى ، شاؤول بخاش ، مايكل فيشر ، ماروين زوينس ، ريتشارد كاتم وغيرهم كثيرون ممن كتبوا حول ثورة إيران الإسلامية ، أى ميزان ملهم ومؤثر كان لديهم جعلهم أسرى النظريات الخاصة بظاهرة الثورة ؟ وهل كان الكتاب وأصحاب النظريات الغربيون أيضًا مثلنا ، تتلخص عصارة كتاباتهم فى بحوث نظرية حول الأسس

الاجتماعية للثورة ، أم كانوا على العكس ، قد شمروا عن ساعدهم ، وقاموا بالبحث والتمحيص فى الظاهرة التى حدثت فى إيران باسم الثورة الإسلامية ؟

والمؤلفات التى دونت من قبل غير الجامعيين وبعض أساتذة الجامعة لتدريس الثورة الإسلامية فى الجامعة هى أيضًا نادرة القيمة العلمية والتاريخية ، ومعظمها يغلب عليه طابع الشعارات، وليس لها تأثير فى إيجاد علاقة قوية مع الثورة الإسلامية ، لو يطلع القارئ بدقة على جميع هذه المؤلفات ، فلن تضيف شيئًا على حجم معرفته فيما يتعلق بثورة إيران الإسلامية . وهذه المؤلفات فى الغالب قد دونت لنشر نفس النظرة الحكومية ، وقلما تجعل نفسها أسيرة البحث الدقيق حول أسباب وكيفية ظهور الثورة الإسلامية .

وأمر أخير أرى من الضرورة إيراده فى هذا المقام ، وهو الاعتذار عن التوقف عن تدوين المجلد الثانى من كتاب «مقدمات الثورة الإسلامية» ، ففى العديد من المواضع فى الكتاب يتم تحويل القراء إلى المجلد الثانى ، لكن للأسف ، فبعد مضى أكثر من خمسة أعوام على الطبعة الأولى للكتاب ما من خبر حتى الآن عن المجلد الثانى ، على الرغم من أننى قد عزمت أثناء تدوين الكتاب فى عام ١٣٧٢هـ .ش (١٩٩٣م) على أن أقوم بالعمل على الفور فى المجلد الثانى ، لكن نشر كتاب «ماچگونه شديم» - كيف أصبحنا -، وكتاب «سنت ومدرنيته» - التقليد والتحديث - ظل مانعًا حتى الآن من تدوين المجلد الثانى لكتاب «مقدمات الثورة الإسلامية» . وأمل أن يغمرنى الحق تعالى بعنايته ، وأن يتم الفرج ، وأتمكن فى المستقبل من طبعه.

من الله التوفيق وعليه التكلان .

لتبق أيها الطائر الأسير ، ولتترقب

ذلك اليوم المبارك الذى يخلو فيه العالم من الأقفاص .

المؤلف

صادق زيبا كلام

شهر مرداد من عام ١٣٧٨ هـ.ش

الموافق (١٩٩٩م)

الهوامش

(١) سوليوا ن ، ويليام : ماموريت در طهران .

انظر هامش المترجم رقم [١] .

(٢) انظر مقال «مذاكرة با أمريكا خيانت نيست» مجموعة مقالات صادق زيباكلام (١٣٧٦ - ١٣٧٧ش) ، انتشارات روزنه (تهران ١٣٧٨هـ .ش) .

(٣) مذبحة صباح يوم الجمعة السابع عشر من شهريور عام ١٣٥٧هـ .ش (١٩٧٨م) في ميدان ژاله (الشهداء) .

الفصل الأول

لمَ قامت الثورة الإسلامية ؟

على عكس التصور المبدئى الذى قد يكون لدينا ، **لا توجد وجهة نظر جامعة** تحظى بقبول أهل النقد فيما يتعلق بأسباب الثورة الإسلامية . وقد قدم المحللون ردودًا متباينة على هذا السؤال ، وكانت ميولهم السياسية من ناحية ، ورؤيتهم الاجتماعية من ناحية أخرى باعثًا لظهور هذه الردود المتباينة . وكما كانت هناك وجهات نظر متباينة بشأن الأحداث السياسية العظيمة الآخرى على مدى التاريخ ، فما من عجب إذا نسخت بمرور الوقت بعض الآراء المطروحة فيما يتعلق بأسباب ظهور الثورة الإسلامية، أو على العكس ، قوبل البعض الآخر بقبول شديد ، وأثمر ذلك فى النهاية عن ظهور وجهات نظر جديدة على الساحة.

والخلاصة ، يمكننا القول : إن معظم الكتابات التى تمت حتى الآن بشأن الثورة الإسلامية تتخذ الجانب النظرى ، أى أن الكاتب يسعى خلالها لإيجاد جذور هذه الثورة، موضحًا - وفق مزاعمه - بواعث وأسباب ظهورها ، وقلما تم عمل حتى الآن حول تسجيل وقائع الثورة الإسلامية من قبيل : كيفية سير الأحداث والتطورات فى عهد الثورة ، وكذلك كيفية تكوينها ، وكيفية تداعى النظام السابق ، وفى النهاية تداعى النظام السابق ، وكيفية إحكام الثورة قبضتها على مقاليد الحكم . كل هذه أمور قلما كانت موضع تحليل أو حتى موضع تدوين وتسجيل مترابط منظم .

ومن الوهلة الأولى يبدو عدم التناسق هذا غريبًا ، لكن ثمة أمور وتطورات تبدو غير منطقية ، فالسقوط المفاجئ لذلك النظام القوى والذى لم يكن يتخيله شخص حتى فى منامه قبل هذا الحدث ببضعة شهور من ناحية ، ومن ناحية أخرى وقوع قيادة القوات الثورية تحت لواء المذهب وبزعامة أحد رجال الدين دون أن يكون له حزب

أو جيش أو جبهة أو تشكيلات أو مؤسسة منظمة وهو الأمر الذى لم يحدث من قبل ، ولا يوجد حدث يضاهيه فى العصر للعاصر .

والسؤال الآخر الذى يُطرح فى موازاة ذلك، وبشكل أعمق حول حدوث الأزمة التى ابتلى بها نظام الشاه ، هو : من أين ظهر دفعة واحدة ذلك الطوفان الرهيب الذى قلب جزيرة الثبات [١] رأسًا على عقب ؟ وكيف أن أحدًا لم يكن قد توقع احتمال حدوثه ؟ واللغز التالى والأكثر غموضًا من هذا ، هو: إن شعب إيران الذى عاش أكثر من نصف قرن تحت ظل حكومة لا دينية ، كيف كان يبدى ميله وتحركه نحو الدين رغم تظاهره فى تلك الأعوام بالصمت ؟!

بعبارة أخرى ، ليس فقط سيل السخط العام الجارف والاستياء من النظام البهلوى الذى ظهر فجأة مما يدعو إلى الحيرة ، بل إن موجة الميل إلى الدين التى ظهرت فى المجتمع الإيرانى مع بداية الثورة ، والتى عُرفت تدريجيا باسم «الأصولية» تدفعنا كذلك إلى طرح العديد من الاستفسارات .

ولعل التردد فى الرد على هذين السؤالين الأساسيين أدى إلى أن نتوقف عند التحاليل النظرية حول الثورة الإسلامية لمعرفة ما حدث . والسبب الآخر لهذا الميل يعود إلى طبيعة العلوم الإنسانية والاجتماعية التى تميل فى الغالب إلى وصف الأحداث وعرضها ثم القيام بشرحها ، وفضلاً عن الشرح والعرض والتحليل الموضوعى ، فإن الأمر يتطلب كذلك الدقة، والصبر ، والاطلاع ، والعمل الدؤوب حتى يتم تحليل نظرية الثورة .

وما يبدو فيما يتعلق بثورة إيران الإسلامية والذى يمكن إظهاره ، هو التأمل فى كيفية إيجاد دليل لذلك السؤال الجاد فى مقابل صحة بعض التحاليل النظرية المطروحة وواقعيتها . وعلى الرغم من تباين هذه التحاليل ، إلا أنه يمكن تلخيصها فى أربع مجموعات محددة .

أولاً: افتراضات التآمر [٢]

يعتقد البعض أن الثورة الإسلامية هى فى الحقيقة مؤامرة خُطط لها من قبل بواسطة القوى الأجنبية لإسقاط الشاه . ومؤيدو هذه النظرية كان معظمهم فى البداية من أفراد الأسرة الحاكمة (خاصة الشاه نفسه) ، والبلاط ، وبعض كبار مسئولى

النظام السابق ، والطبقات المرفهة والتى تتصل بالنظام بصلة قربى ، وبعض القادة العسكريين والشرطيين للنظام البهلوى . لكن الخلافات والمشاكل التى تلت الثورة ، جذبت تدريجيا طبقات أخرى عديدة تجاه هذا التحليل .

ومؤيدو افتراض التآمر يتهمون الغرب - وخاصة أمريكا وإنجلترا - بسحب البساط من تحت قدمى الشاه ، ولا شك أن قلة يوجهون أصابع الاتهام إلى الشرق والاتحاد السوفيتى السابق . ولا توجد وجهة نظر واحدة رداً على ماهية الباعث الذى كان لدى الغرب للقضاء على الشاه .

فالبعض يعتقد أن إنجلترا كانت ترغب الانتقام من الشاه بسبب اقترابه من أمريكا (منذ شهر مرداد سنة١٣٣٢هـ .ش - ١٩٥٣م) ، ويرى البعض أن الغرب كان يريد معاقبة الشاه بسبب دوره فى ارتفاع قيمة النفط داخل منظمة الأوبك ، ويرى عدد كبير أن إيران فى الأعوام الأخيرة للنظام كانت تتحرك بشكل سريع نحو الصناعة والرقى ، والغرب - الذى كان يرى أسواقه فى خطر - أسقط نظام الشاه كى يحول دون ظهور «اليابان الثانية» .

وفى النهاية توجد نظرية أخرى يرى أصحابها أن إيران كانت ضحية متبادلة بين قوتين عظميين ، فأمريكا تضحى بإيران كى تحصل فى مكان آخر على امتياز من الاتحاد السوفيتى (*) .

(*) تُشاهد هذه الرؤية عن الثورة الإسلامية فى كثير من المؤلفات والتحاليل التابعة لمؤيدى السلطنة . وصحيفة كيهان (الصادرة فى لندن برئاسة تحرير مصباح زاده) الناطق غير الرسمى باسم مؤيدى السلطنة تتضمن عادة هذا النوع من التحاليل . ومؤلفات داريوش همايون - وزير مخابرات النظام السابق - تقع فى نفس السياق ، ومن مؤلفاته حول الثورة الإسلامية كتاب بعنوان «ديروز ، أمروز ، فردا ، سه گفتار پيرامون انقلاب إسلامى» وطبع فى الخارج سنة ١٣٦٠هـ .ش . وكتاب «پاسخ به تاريخ» للشاه السابق ، والعديد من أحاديثه الإذاعية والتليفزيونية والصحفية بعد رحيله عن إيران سنة ١٣٥٧هـ .ش أيضاً مفعمة بتوجيه الاتهام للغرب بضلوعه فى الثورة . وكذلك نظريات واستنتاجات العديد من مؤيدى السلطنة ومن بينهم الشاه ، والتى ظهرت فى الكتاب القيم لـ «ويليام شوكراسى» تحت عنوان «آخرين سفرشاه» ترجمة عبد الرضا هوشنگ مهدوى ، تهران سنة ١٣٦٩هـ. ش ، توضح نظرتهم هذه حيال الثورة الإسلامية . وأظهر البعض كذلك بشكل مباشر أو غير مباشر وجهات نظر مشابهة لمؤيدى السلطنة من بينهم رئيس وزراء الشاه د. شاهپور بختيار ، وذلك فى مؤلفه حول الثورة بعنوان «يكرنگى» وفيه اتهم الأمريكان بالتنسيق مع معارضى الشاه ، وأدان رئيس أركان الجيش اللواء عباس قره باغى والجنرال روبرت هايزر باعتبارهما شخصيات أساسية للقيام بهذا الدور.

وعلى الرغم من أن نظرية افتراض التآمر يؤيدها مؤيدو السلطة ، إلا أن بعض الماركسيين الإيرانيين يتطرقون إليها بشكل آخر . فمن وجهة نظرهم : إنه نتيجة للاختلافات الداخلية للنظام فى أعوامه الأخيرة ، كانت تظهر فى إيران ظروف عينية وذهنية للثورة ، وكانت الدولة فى طريقها لتقبل الثورة . لكن الإمبريالية الأمريكية تدخلت فى الأمر ، وأوجدت الثورة الإسلامية عن طريق التآمر حتى تغير مسار الحركة - ووفقًا لزعمهم - وتحول دون ظهور ثورة حقيقية.

حقا إنهم يظهرون بهذه الأوهام أشكالاً أخرى لافتراضات التآمر ، من بين ذلك أن الغرب كانوا يريدون إخلاء إيران والدول العربية المنتجة للنفط من الأرصدة المالية (المودعة فى البنوك الغربية) ، ووفقًا لوجهة نظر مؤيدى هذه النظرية ، أن تلك الأرصدة (التى ظهرت فجأة فى أعقاب الارتفاع المفاجئ لأسعار النفط فى أوائل السبعينيات) كان من الممكن أن تمثل خطرًا على النظام المالى للعالم الغربى ، وإذا ما عزم أصحابها على سحب ودائعهم من البنوك دفعة واحدة، سيصاب النظام المالى الغربى بالسكتة عمليا . ويُتهم الغـرب فى هـذا الافتراض بأنه بخلقـه الثـورة الإسلاميـة فى إيران ، ثم إيجاد الحرب بين إيران والعراق يوجه إنفاق الأرصدة المالية لهاتين الدولتين - فضلاً عن العرب - إلى شراء الأسلحة والمعدات ، والنتيجة القضاء على ذلك الخطر المحتمل .

ويرى البعض أن لإسرائيل ضلعًا فى هذه الأحداث ، وطبقًا لهذا الافتراض: إن جيش إيران فى عهد الشاه - قبل الثورة - كان فى طريقه كى يصبح القوة العسكرية الكبرى الخامسة على مستوى العالم ، ومثل هذه القوة العسكرية كانت تستطيع أن تهدد أمن النظام الصهيونى ، وكان من الممكن أن يصل قائد قوى كالقذافى أو جمال عبد الناصر إلى سدة الحكم على أثر انقلاب عسكرى فى الجيش ، أو أن تتوجه قوة إيران العسكرية العظيمة إلى إسرائيل . والصهاينة بإيجادهم الثورة الإسلامية ، ثم إشعالهم نار الحرب المفروضة، أحبطوا عمل القوتين العظميين فى المنطقة بشكل عملى.

ربما لا يحتاج إلى توضيح أن ما من شخص من مؤيدى افتراضات التآمر يقدم لنا الأدلة والشواهد لإثبات صحة وجهة نظره . فضلاً عن أن معظمهم فى الغالب يفتقد الأساس الذى تقوم عليه هذه الافتراضات الأولية . وعلى سبيل المثال : ما من شخص فى الغرب يتصور أو يتخيل أن إيران ستصل فى القريب إلى مكانة اليابان ، فماذا

حدث كى يرغبوا فى القضاء على الشاه ؟! بل على العكس ، إن العديد من المحللين الواقعيين الغربيين كانوا يؤمنون بأن مشاريع الشاه هى فى الغالب مشاريع خيالية ، غير معقولة وغير منطقية (٣) . فضلاً عن أن سياسة الغرب إذا ما كانت قائمة على عدم السماح لأية دولة أخرى بالنهوض اقتصاديا ، ففى هذه الحالة، وإذا ما نحينا اليابان أيضًا جانبًا، ووفقًا للقاعدة، فإن كوريا الجنوبية ، وتايوان ، وسنغافورة ، وهونج كونج ، وماليزيا ، وتركيا ، وإسبانيا وغيرها من الدول التى ازدهرت ازدهاراً ملموسًا فى العشرة أو العشرين عامًا الأخيرة ، يجب أيضًا أن تكون قد تعرضت للثورات ودسائس الغرب ، وما كان لها أن تنجح .

ورواج افتراضات التآمر بين الإيرانيين هى أساسُ مسألة نفسية اجتماعية عميقة لا علاقة لها بالشواهد والأدلة . فمؤيدو افتراض التآمر عند استنتاجهم لنتيجة ما ، لا يلجأون إلى قدر من المعلومات ، ولا يجمعون حشداً من الشواهد التى تتعلق بافتراضاتهم .

وفى الحقيقة ، وبعيداً عن الثورة الإسلامية ، فمن الأصل قلما يوجد موقف سياسى يمكن تتبعه فى تاريخ إيران المعاصر لا يورد فيه افتراض التآمر ، فمنذ عهد الحكومة النيابية وحتى ظهور رضا شاه وسقوطه ، والحركة القومية لتأميم النفط ، وأزمة أعوام ١٣٣٩ - ١٣٤٢ هـ .ش (١٩٦٠ - ١٩٦٣م) ، والإصلاحات الزراعية وغير ذلك، جميعها ينسبونها بشكل أو بآخر إلى عوامل خارجية. والمصطلح الشهير «العمل ، عمل الإنجليز» هو انعكاس لهذه العادة السياسية .

وثقافتنا السياسية وتحقيقاتنا التاريخية مفعمة بمصطلحات من قبيل: «الأجانب» ، «الاستعمار» ، «الإمبريالية» ، «عمال منقادون» و «عملاء الأجانب». وبالتأكيد ليست الشعوب هى فقط التى تسير وراء هذا الأسلوب فى مواجهة التحولات السياسية ، فقلما توجد حكومة فى إيران يمكن تتبعها خلال القرن الأخير لم تنسب إلى الحركة المعارضة لها صفة «أجنبية» وإلى معارضيها صفة «أجانب» وفى عهد الثورة الدستورية، حينما اعتصم ما يربو على العشرة آلاف شخص من أهالى طهران داخل سفارة إنجلترا ، أطلقت عليهم الحكومة آنذاك لقب «حفنة من الخائنين» قد «استؤجروا من قبل إنجلترا» (٤) .

وبعد سبعين عامًا من عهد مظفر الدين شاه ، استخدمت حكومة الشاه أيضًا نفس المضامين أثناء ثورة شعب تبريز سنة ١٣٥٦هـ .ش (١٩٧٧م) . وأعلن المتحدث باسم الحكومة «هولاكو رامبد» صراحة : «إن أولئك الذين كانوا يقومون بالشغب فى تبريز كانوا قد جاءوا من تلك الحدود» .

وفى الفترة التالية على الحكم النيابى ، نضجت هذه الظاهرة بشكل أكثر، فالحكومة، والصحف ورجال السياسة كانوا ينسبون كل حدث أو حركة سياسية عظمت أو صغرت إلى الأجانب ، ويعدون معارضيهم عملاء الأجانب وعمالهم(٥) .

وكان الشاه السابق أصدق مثال على هذه الحالة المرضية ، فخلال سبعة وثلاثين عامًا من حكمه - وخاصة فى العشرين عامًا الأخيرة - كان يعد كل معارض عميلاً للأجانب الذين كانوا يناصبونه وسلطنته العداء . كما كان يعتقد أن معارضيه من اليساريين على اتصال بالشيوعية الدولية أو «بالرجعية الحمراء»[٤] ، ويعتبر الوطنيين على اتصال بإنجلترا وأمريكا ، أما رجال الدين - من وجهة نظره - فكانوا عملاء لمصر وسوريا والعراق وليبيا .

والعديد من الأجانب الذين كانوا يتصلون بالإيرانيين كانوا يذكرون هذه الظاهرة بتعجب . والمستشرقان الإنجليزيان اللذان كانا قد سافرا إلى إيران فى أوج الحروب الداخلية بين القوات المؤيدة للحياة النيابية وقوات محمد على شاه ، يذكران فى كتاباتهما بتعجب :

«على الرغم من احتدام المعارك بين الجانبين ، إلا أن كليهما كان يرى فى النهاية أن الشىء المهم هو وجهات نظر حكومتى روسيا وإنجلترا ومواقفهما ، وذلك حتى نهاية القتال» .

وهذان المستشرقان كانا قد جاءا إلى إيران حتمًا فى أوائل القرن العشرين ، لكن الكثيرين ممن يتصلون بالإيرانيين فى أواخر هذا القرن يذكرون نفس الموضوع بتعجب أيضًا . والأمثلة الواضحة على ذلك تتمثل فى كل من «ويليام سوليفان» و «أنتونى پارسونز» (سفيرا أمريكا وإنجلترا فى إيران خلال عهد الثورة) ، وأيضًا الجنرال «هايزر» . فثلاثتهم كان لهم اتصالات عديدة بالإيرانيين فى عهد الثورة (وبخاصة

السفيرين) . ويشير ثلاثتهم إلى هذا الأمر فى خواطرهم. يقول السفيران : «كنا قد اعتدنا على سؤال الشاه لنا ، فكان يسألنا: لمَ تغيرت سياسات حكومتيكما تجاهى؟ وكان الشاه يبحث عن إجابة هذا السؤال حتى يوم وفاته : لمَ غير الغرب - وبخاصة أمريكا - سياسته تجاهه؟(٦)

ويذكر ويليام سوليڤان - آخر سفير لأمريكا فى إيران - اعتقاد الشاه بضلوع الأجانب فى التخطيط لأحداث إيران فى عهد الثورة ، وذلك خلال لقائه بالشاه ، فيقول(٧):

«فى أول لقاء كان لى مع الشاه بعد عودتى إلى طهران ، كنت أرغب فى السؤال عن أحواله وأوضاعه حينما تواتى الفرصة المناسبة ، لكن فى اليوم الذى قابلته فى مكتبه بقصر نياوران كان يبدو نشيطًا وبصحة جيدة . ومضت الدقائق الأولى فى تبادل التحية والاستفسار عن الأحوال وكيفية قضاء العطلة ، ولم تُلاحظ أية علامة للاستياء لدى الشاه فى الوقت الذى لم نتطرق فيه بالحديث عن المسائل والأمور الجارية وأوضاع الدولة السياسية ، لكن بمجرد أن بدأت فى ذكر السياسة الحالية ، تغير وجهه ، كما تغير أسلوب حديثه . وكان يفضل عدم الحديث بشأن الأزمة الحالية فى دولته ، وكلما سعيت كى يتحدث عن ذلك ، كان يجيبنى بجمل مقتضبة ويفضل الصمت . وكان هذا الأسلوب من الشاه ، وكذلك وجهه المتبرم ، من الأمور غير المعتادة بالنسبة لى ؛ لذا بادرت إليه بالسؤال دون تردد : ماذا يحدث لكم ؟! وما أن نطقت بهذا السؤال حتى حلت عقدة لسان الشاه فجأة ، وتحدث عن الأحداث التى وقعت خلال الشهور الأخيرة فى إيران من وجهة نظره خلال عشر دقائق دون توقف . وكان الشاه يصف مجموع هذه الأحداث على أنها مناقضة للقانون ومنافية لسيادة الحكومة ، وكان يقول : إنهم استخدموا طبقات اجتماعية مختلفة من الطلاب والعمال كى يستقطبوا العامة وعناصر أخرى نحو رجال الدين الشيعة . كان يعتقد أن المظاهرات والأعمال التى تمت ضد النظام ليست بالأمر الطبيعى ، أو أنها لم تنبع من تلقاء نفسها ، بل كانت عبارة عن برنامج خُطط له من قبل ضد النظام . وقد ذكر الشاه ضلوع القوى الأجنبية فى تلك الأحداث أثناء شرحه لوجهة نظره وتوضيحها ، فقال : إن ما حدث خارج عن حدود قدرة ك . ج . ب (المخابرات السوڤيتية) ، ولابد من ضلوع إدارتى المخابرات الإنجليزية

والأمريكية فى الأمر . وكان الشاه يؤكد على دور الإنجليز خاصة فى هذه الأحداث ، ويقول : إنهم كانوا يريدون الانتقام منه بعد تأميمه النفط ، ونظراً لعدم خضوعه لشروطهم الخاصة بمد اتفاقية اتحاد شركات النفط ؛ قاموا بالتحريض ضده . وكان الشاه يذكر أحاديث وأخبار إذاعة الـ B.B.C - التى كانت تقوم ببث وجهات نظر معارضيه وكذلك النقد الموجه ضد نظامه - على أنها شاهد على ادعائه . لكن ما كان يؤلم الشاه بشكل أكثر هو الدور الذى كان فى مخيلته لإدارة المخابرات المركزية الأمريكية فى دعم الأنشطة المضادة للنظام . فكان يسأل فى استياء وتعجب : ماذا فعل مع الأمريكان حتى تقوم إدارة المخابرات المركزية الأمريكية بالعمل ضده؟! وأشار الشاه إلى وقائع سفره إلى أمريكا وزيارة الرئيس «چيمى كارتر» إلى إيران ، وقال : إنه كان يظن أن علاقات إيران وأمريكا قد أحكمت بأساس متين بعد تبادل الزيارات تلك وبعد المباحثات التى تمت ، وتوهم أن أمريكا تؤيد جميع سياساته . والآن كان يريد أن يعلم ما الذى حدث وجعل أمريكا تتخلى عنه وعن تأييده ؟ هل قام بعمل أدى إلى استياء الأمريكان وأثار حفيظتهم ؟! أم تم بيننا (نحن الأمريكان) وبين الروس اتفاق سرى لتقسيم العالم ، وإيران جزء من هذا الاتفاق ؟! ومن شدة غضب الشاه واستيائه، وعلى أثر الحديث الذى سمعته منه، تملكتنى الحيرة للحظة . وكان يقول بصوت متماسك إنه وقع ضحية الخيانة بخسة ، وكأنه كان يريد الإنصاف . كان الشاه أثناء حواره يتحدث بانفعال واضطراب بشكل جعلنى فى نهاية هذا اللقاء أحتار فى كيفية الإعراب عن رد فعل مناسب»(٨) .

ويذكر الشاه فى جميع أحاديثه الإذاعية والتليفزيونية والصحفية ، فضلاً عن أحاديثه مع الغرب وغيرهم ، وذلك بعد رحيله عن إيران فى ٢٥ من شهر دى سنة ١٣٥٧هـ . ش (١٩٧٨م) وحتى وفاته فى عام ١٣٥٩ هـ .ش (١٩٨٠م) أحياناً بشكل غير مباشر ، وأحياناً أخرى بشكل مباشر وصريح ، يذكر «التآمر» و«مخططات الغرب والأجانب» على أنها من مسببات سقوطه .

ومثال ذلك ما ذكره فى حديثه التفصيلى للمجلة الإنجليزية الشهيرة «Now» تحت عنوان «كيف أسقطنى الأمريكان» (٩) .

وقد وقع سفير إنجلترا «پارسونز» فى مشاكل مع الشاه بسبب هذه الأمور ، فضلاً عن سوء العلاقات بينهما بسبب البرامج الفارسية التى تبثها إذاعة الـ B.B.C [٥] ، فيقول الشاه صراحة : إن برامج هذه الإذاعة تؤكد فكرته حول تأييد الإنجليز لمعارضيه . وفى أحد لقاءات الشاه مع پارسونز - الذى ضاق ذرعًا مـن سمـاع موضوع إذاعـة الـ B.B.C المتكرر وكذلك دور الإنجليـز فى أحداث إيران - نجـد پارسونز يخرج عن طوره ويقول للشاه : «لو أن شخصًا يعتقد حقا أن حكومة إنجلترا تتباحث سرا مع معارضيك لكان مكانه مستشفى الأمراض العقلية» .

وفى نفس اللقاء الذى نحى فيه پارسونز البروتوكول السياسى جانبًا نجده يقول للشاه : «إن توجيه الاتهام للإنجليز أسهل من مواجهة الحقيقة» (١٠) .

ونحن حقا لا نهدف إلى تحليل هذه الظاهرة . فما من شك أنه من وجهة النظر التاريخية كان نفوذ الاستعمار الإنجليزى وروسيا القيصرية وقواتهما فى إيران من العوامل التى ساهمت فى ظهور هذه الظاهرة . فدورهما كان باعثًا لوجود هذا المعتقد الاجتماعى، ألا وهو وجوب ضلوع «الأجانب» فى كل حدث سياسى ، واقتصادى واجتماعى مهم يتم فى إيران ، ونفوذ أمريكا وتدخلها فى الخاص من شئون إيران يوضح دورها فى دعم هذه الظاهرة ، والنتيجة هى تسلط لا شعورى ودون مسببات لافتراض التآمر فى سدى ولحمة ثقافتنا السياسية الحالية ، بشكل جعله فى كل حدث سياسى يعد معارضيه عمالاً للأجانب وعملاء لهم .

لكن بعيداً عن المجال التاريخى ، فثمة عوامل أخرى لوجود هذه الظاهرة تتعلق بالمجالين الثقافى والاجتماعى . وأهم هذه العوامل انعدام روح التحقيق والبحث الدقيق فى العلوم الإنسانية ومن بينها التاريخ . وضعف التحقيق فى العلوم الإنسانية هو فى الحقيقة جزء من المشكلة الأساسية ، وهو البنية التحتية لركود التحقيق العلمى فى كافة المجالات . وإذا ما كان البناء العلمى فى مجتمع ما ضعيفًا ، فلا ينحصر النقص على مجال الفيزياء أو الكيمياء ، بل إن بقية فروع العلم سوف تتعرض لذلك الركود بنفس المعدل كل فى دوره .

بعبارة أخرى ، فى مجال البحث عن الأسباب وتحليل وتأصيل ظهور التغيرات السياسية ، والاجتماعية والتاريخية وسير تكوينها ، من الممكن أن يوجد نفس القدر من

الضعف والركود الموجود فى المجالات العلمية الأخرى . ولإدراك هذه العلاقة يكفى على سبيل المثال أن نلقى نظرة إجمالية على العديد من المؤلفات التى دونت داخل إيران حتى الآن حول الثورة الإسلامية(١١) .

والرقابة سبب أساسى آخر لنمو هذه الثقافة ، فمنذ أواخر القرن التاسع عشر وحتى الآن تم طرح أفكار اجتماعية جديدة فى إيران ، وكان ظل الرقابة يلقى بثقله دومًا عليها . ففى العهد القاجارى كان ثمة معارضة جادة للأفكار الحديثة . وفى العصر البهلوى كانت الرقابة - رسميا - جزءًا من أدوات الحكومة، فلم يكن حكام الأسرة البهلوية يسمحون بأى نوع من النشر أو التحقيق أو الرؤية المستقلة إذا كانت مغايرة لوجهة نظر الحكومة ، سواء كانت تتعلق بالتاريخ وجولة التغيرات السياسية والاجتماعية فى إيران ، وسواء كانت تتعلق بالعالم الخارجى . فكل ما كان يُكتب أو يقال لأكثر من نصف قرن فيما يتعلق بالتغيرات السياسية ، وأجواء وجودها ، ونتائجها والقائمين عليها كان عمليا عبارة عن وجهة نظر الحكومة فقط وكفى .

وفى الظروف التى لم يكن يُسمح فيها بنشر أى تصور آخر عن التاريخ أو أية فكرة أو وجهة نظر أخرى فيما يتعلق بالوضع السياسى للدولة ، سواء كان حقيقيا أو غير حقيقى ، صحيحًا أو خطأ ، فى ظل هذه الظروف لا يكون بعيداً عن التوقع أن يلجأ المجتمع إلى التخيل ، والأوهام ، والبحث عن يد «الإنجليز» ، و«العوامل القوية الخفية» ومؤامرات القوى الأجنبية وخططها المرئية وغير المرئية بدلاً من التحليل الحقيقى للأحداث السياسية ، بشكل يجعلنا نُقيم أعمال الأنظمة ، والمجموعات ، والشخصيات وأساس التغيرات السياسية فى الداخل أو على مستوى المنطقة فى قالب «افتراضات التآمر» .

ولم تستثن الثورة الإسلامية أيضًا من هذه القاعدة ، فنحن نشاهد ظهور العديد من النظريات حولها - وبغض النظر عن أوجه الخلاف بينها - فجميعها لا يعتبر الثورة بمثابة حركة أصيلة شُكلت فى المملكة ذاتها ونشأت نتيجة بعض الأفعال أو ردود الأفعال السياسية ، والاجتماعية والاقتصادية فى الدولة ، وفى المقابل تتبع مفهوم «الأيادى» ، و«الخطط» و«التآمر» لهذه القوى الأجنبية أو تلك ، وتعد ذلك باعثًا على وجودها .

ثانياً: التحديث أحد بواعث الثورة (*)

أساس هذه النظرية هو «افتراض التحديث» ، ويروج أساسًا بين بعض المحللين السياسيين الغربيين ، وبعض الإيرانيين الذين يؤيدون هذه النظرية يكررون عمليا أدلة أولئك المحللين .

ولكن ، ما هى نظرية «افتراض التحديث» ؟

طبقًا لهذه الرؤية ؛ إن الشاه كان يقوم فى العشرة أو الخمسة عشر عامًا الأخيرة لحكمه ببعض الإصلاحات الجذرية فى المجالين الاقتصادى والاجتماعى ، وهذه الإصلاحات سرعان ما غيرت واجهة إيران وحولتها من مجتمع تقليدى شبه إقطاعى ، شبه متخلف فى مجال الصناعة إلى مجتمع شبه أوروبى عصرى صناعى . وكانت الإصلاحات الزراعية ، ومنح الحقوق الاجتماعية والمدنية إلى النساء (كحق المشاركة فى الانتخابات وحق الطلاق) ومشاركتهن بشكل أكثر فاعلية فى الأمور الاجتماعية تمثل بعض جوانب هذه السياسات ، وكانت سياسات التحديث بشكل عام تسعى لإحلال النظم الاجتماعية الغربية محل النظم التقليدية المذهبية .

ويرى مؤيدو هذه النظرية أن مساعى الشاه لتغيير إيران من مجتمع متخلف إلى مجتمع عصرى ينتسب إلى القرن العشرين ، كانت باعثًا لبروز ظواهر اجتماعية عديدة مخالفة للعادة . فوفقًا لزعمهم ، أن الطبقات والجماعات التقليدية لم تكن تميل إلى التحديث ، وكانت هذه السياسات بالنسبة لعدد كبير منهم مغايرة لمبادئهم ومعتقداتهم التقليدية ؛ لذا قاموا تدريجيا بتنظيم صفوفهم فى مواجهة الشاه ، وفى النهاية رفعوا راية العصيان ضد نظامه .

والجمل التالية نموذج من عشرات النماذج التى ذكرتها هذه الطائفة من المحللين عند حديثهم عن أسباب الثورة الإسلامية :

«إن جذور العصيان الحالى فى إيران تكمن فى اندفاع هذه الدولة نحو القرن العشرين ، والذى خُطط له من قبل الشاه منذ خمسة عشر عامًا ، ففى غضون

(*) Modernization Theory

عـام ١٩٦٣م (١٣٤٢هـ .ش) شـرع الشـاه فى الإصـلاح كى يجـذب مـجـتـمـع إيران الإقطاعى إلى عصر جديد ، بيد أن التحديث كان يتعارض مع المؤسسات الاجتماعية والمذهبية القديمة ، وقد عارض التقليديون بشدة سير هذا التحديث»(١٢) .

ومؤيدو هذه النظرية لا يوجهون نقداً إلى برامج الشاه الاقتصادية ولا يتحدثون بشأن سياسات حكومته ، بل إن نقدهم تجاه الشاه يتلخص فى السرعة والعجلة التى نفذ بها برامجه الإصلاحية المتطورة :

«قد تلقى شاه إيران الآن درساً مريراً لكنه مفيد ، فخلال مساعيه الدءوبة لإنقاذ دولته من التخلف والنظام الإقطاعى البالى لم يتمكن من اصطحاب شعبه معه . وعلى الرغم من أن أهدافه كانت سامية ، لكن كان من الصعوبة بمكان تحقيقها دون تأييد شعبه» (١٣) .

بعبارة أخرى ، إن ما أدى إلى الاستياء من نظام الشاه من خلال هذه النظرية هو ضغطه وسعيه فى التحديث السريع للمجتمع الإيرانى ومحاولة تغريبه ، وكان هذا منه يتعارض وميول معظم الإيرانيين ورغباتهم .

ومع الأخذ فى الاعتبار رؤية الغرب تجاه الشاه نجد أن ظهور هـذه النظرية أمـر لا يثير العجب ، فخلال أعوام طوال، وخاصة منذ عام ١٣٤٢هـ.ش (١٩٦٣م) وما بعد ، كان الشاه فى أذهان الكثيرين من الغرب هو القائد العصرى الذى يقوم بشكل جاد بمجموعة من الإصلاحات الاجتماعية والاقتصادية، وغيَّر من صورة إيران . ولا ريب أن هذا التصور لم ينشأ بسبب وجود مصالح متبادلة بين الشاه والغرب ، فكثير من القادة الآخرين فى دول الشرق الأوسط أو فى جهات أخرى من العالم متحدون مع الغرب ، لكن لم ينشأ مثل هذا التصور عنهم . وبعيداً عن أحاديث الشـاه وتصاريحه المؤيدة للغرب ، فقد ظهر هذا التصور بسبب السياسات ، والمشاريع الاقتصادية، والخلاصة بسبب الشكل الظاهرى الذى اتخـذته إيران فى الأعـوام الأخـيـرة لنظام الشـاه . فالأجانب الذين كانوا يتوجهون إلى إيران فى تلك الفترة، ويقيمون فى الفنادق الحديثة، ويعملون فى المشاريع الاقتصادية العملاقة أو فى الشركات الأجنبية أو الإيرانية المختلطة ، كانت إيران تبدو لهم دولة تتجه نحو الرقى والتحديث بخطى سريعة ، وكانت

معلوماتهم واتصالاتهم مع المجتمع الإيرانى تقتصر على جانب سطحى ، دون أن يدركوا المشكلات أو المسائل السياسية والاجتماعية العميقة فى الدولة .

والظهور المفاجئ لأمواج الغضب الجارفة ضد الشاه لم يكن غير قابل للتصور أو غير متوقع فقط بالنسبة للغرب ، بل إن العديد من المحللين يرون أن الاستياء من الشاه كان بسبب سعيه المفرط فى تقدم إيران ورقيها . وبناء عليه يبدو أن السبب الوحيد من وجهة نظرهم فى ظهور الثورة هو إفراط الشاه فى تنفيذ برامجه «المتطورة»، وما يدعم هذا الوهم ويمنحه القوة ظاهرة مذهبية الثورة وقيادتها التى وقعت بشكل عملى فى يد رجال الدين .

والفكرة التى ظهرت حول الشاه لم تقتصر فقط على مسئولى الأنظمة الغربيين والمحللين محدودى المعرفة بإيران ، ففى الأعوام المواكبة للثورة وقع بعض الكتاب المتخصصين فى شئون إيران فى مثل هذا التصور إزاء الشاه من أمثال : «جيمس بيل» و «مارڤين زونيس»[١٤] .

وعلى هذا النحو لم يكن الصحفيون الغربيون - الذين بادروا بالتوجه إلى طهران فى عهد الثورة ، ورؤيتهم لسيول الجماعات المعارضة المتدفقة فى الشوارع أثناء إقامتهم لعدة أيام فى فندق هيلتون أو الإنتركونتيننتال -هم فقط الذين توصلوا إلى هذه النتيجة ، وهي أن التحديث السريع كان باعثًا للغضب والاستياء من نظام الشاه ، بل توصل إليها أيضًا بعض الكتاب المتخصصين فى شئون إيران ، من أمثال : «شائول بخاش» [١٥] وأيضا «نيكى كدى» [١٦] ، فقد أدركوا أن سياسات الشاه المنحازة للغرب ، من قبيل الإصلاح الزراعى أو حرية المرأة كانت باعثًا لسخط رجال الدين من الحكومة .

وما من شك أن ثمة مواضع أخرى تمكن خلالها الكتاب الغربيون من عرض الثورة بصورة مغايرة لهذه النظرية [١٧] ، ولكن بشكل عام حظى «افتراض التحديث» بقبول أكثر لديهم .

وهذا الافتراض قائم فى الأساس على فرضين أساسيين ، أولهما : إن الشاه كان جادا بصدد تحديث إيران . والآخر : إن مجموعات من شعب إيران (تتألف من

الطبقات التقليدية والمذهبية بشكل أكثر) كانت معارضة تماماً لبرامج الشاه التحديثية . وبهذين الفرضين نجد أن سبب معارضة الإيرانيين لنظام الشاه أنهم لم يقبلوا فقط هذه الإصلاحات والإجراءات الحديثة ، بل إنهم كانوا يعارضونها بالفعل . والنتيجة المنطقية التى نستنتجها من خلال نظرية «افتراض التحديث» أن الشاه لو لم يكن قد قام بهذه الإجراءات لما ظهرت أية مشكلة أو أزمة ، فالمشكلة بدأت منذ قام الشاه بتنفيذ برامجه المتطورة .

بعبارة أخرى ، لم توجد أية معارضة فى الفترة السابقة على قيام الشاه بالإصلاح (أو على الأقل لم تكن بذلك القدر الذى ظهرت عليه بعد ذلك) . لكن الحال لم يكن كذلك على أرض الواقع ، فقد ظهرت معارضة الشاه حتى قبل قيامه ببرامجه التحديثية ، فالحركة الوطنية فى ٣٠ تير عام ١٣٣١هـ .ش (١٩٥٢) ، وقمع المعارضين فى الأعوام التالية على انقلاب ٢٨ مرداد عام ١٣٣٢هـ .ش (١٩٥٣م) ، والنشاط الواسع للمعارضين خلال الأعوام ١٣٣٩ - ١٣٤٢هـ .ش (١٩٦٠ - ١٩٦٣م) ، وثورة ١٥ خرداد عام ١٣٣٢هـ .ش (١٩٥٣م) جميعها توضح هذه الحقيقة ، ألا وهى أن معارضة نظام الشاه كانت موجودة بالفعل حتى قبل قيامه بإصلاحاته الحديثة .

وثمة مشكلة أخرى فى نظرية «افتراض التحديث» ، وهى أنها تُقصر المعارضة ضد الشاه على الطبقات المذهبية (أو الطبقات ذات الأصول المذهبية من أمثال المهاجرين القرويين فى المدن) فى حين أن الواقع كان على النقيض من ذلك، فثمة أصوات وشخصيات معارضة لنظام الشاه لا علاقة لها بالمذهب ، ولو كانت نظرية «افتراض التحديث» واقعية ، فلا يجب إذن أن تكون هناك شخصيات غير مذهبية فى زمرة معارضى الشاه .

والمشكلة الأساسية فى نظرية «افتراض التحديث» تتمثل فى أنها تتجاهل العنصر السياسى أو الجذور السياسية لمعارضة نظام الشاه ، فثمة أمور لم تكن موضع أدنى اهتمام لدى مؤيدى هذه النظرية ، من قبيل : كيف كانت الماهية السياسية لحكومة الشاه ؟ كيف كان يتعامل هذا النظام مع معارضيه؟ إلى أى مدى كان يحظى بالقبول ؟ إلى أى حد كان الأفراد يحظون بحقوقهم وبالأمن السياسى والاجتماعى ؟ وما هو

مقدار مشاركة الشعب فى الحكومة ؟ وإلى أى مدى كانوا يشعرون بتحكمهم فى مصائرهم ؟

ومن وجهة نظر هذه النظرية أن النظام السياسى العام لإيران يتلخص فى شيئين : فمن ناحية ، قرر الشاه بإصرار وبرغبة ملحة لا تقبل التراجع ، السعى لتطوير دولته وتحديثها . ومن ناحية أخرى ، أن هذه الإصلاحات وذلك الرقى السريع قد تم بشكل سريع بالنسبة للشعب ، والنتيجة أنهم لم يدركوا ما حدث، وقاموا بمعارضته، وأصروا على أن يخلصوا أنفسهم وهم فى نفس المناخ والأوضاع والأحوال التقليدية السابقة .

ثالثاً : نظرية «الاقتصاد» أحد بواعث ظهور الثورة الإسلامية

كما هو متوقع ، تعتبر هذه النظرية أن المشاكل والأزمات الاقتصادية هى الباعث الأساسى لظهور الثورة الإسلامية ، وتروج أكثر بين أتباع الماركسية . ويمكن تقسيم أتباع هذه النظرية إلى مجموعتين :

المجموعة الأولى : تتضمن فى معظمها الكتاب الغربيين ، والمجموعة الثانية : تتضمن الجماعات الإيرانية اليسارية (أتباع ماركس ولينين) . وعلى الرغم من أن كلتا المجموعتين تعدان الاقتصاد باعثاً لسقوط الشاه ، إلا أنهما متباينتان فى الكيفية .

فأساس رؤية المجموعة الأولى قائم على ارتفاع قيمة النفط ، وتضاعف ثمنه أربعة أضعاف فى عام ١٣٥٢هـ .ش (١٩٧٣م) . ومن وجهة نظرهم أن الارتفاع المفاجئ فى دخل النفط أدى إلى مبادرة الشاه للقيام بمجموعة من البرامج الاقتصادية المتطورة دون دراسة جيدة . وهذه المشاريع التى كان بعضها قد تم تنفيذه دون دراسة متأنية ظهرت عواقبها وآثارها السلبية منذ أواسط الخمسينيات (أى أواسط السبعينيات بالتقويم الميلادى) . وقد أجبر التضخم ، والأزمات الاقتصادية ، والإسراف المحير للأجهزة التنفيذية، ونقص البضائع ، والقصور فى تقديم الخدمات الأساسية ، والفساد وما إلى ذلك، الشاه كى يقوم بتنفيذ برنامج لمجابهة التضخم [تغيير حكومة الأمير عباس هويدا وتولية جمشيد آموزگار محله فى شهر مرداد عام ١٣٥٦هـ .ش (١٩٧٧م)].

لكن سياسات مواجهة التضخم تبعها الاستياء ، وأفضى عدم التوفيق الاقتصادى إلى أزمة سياسية أظهرت فى أعقابها مشاكل اجتماعية عميقة كانت فى النهاية سببًا فى الثورة .

وقد أشار «بخاش» وكذلك «نيكى كدى» ، بعيداً عن سبب التحديث ، إلى العامل الاقتصادى أيضًا ، بالإضافة إلى أن كلا من «مايكل فيشر» و «فردهاليدى» و «ريتشارد كاتوم» قد قدم كل منهم تحليلاً اقتصاديا عند بيان أسباب الثورة ، وقد حدد «كاتوم» النظرية السالفة الذكر على النحو التالى :

«بلا شك أن الهدوء الذى ساد خلال الأعوام من ١٣٤٢ إلى ١٣٥٢هـ.ش (٦٣:١٩٧٣م)، وفى المقابل الاستياء والعصيان الذى عم فيما بين عامى ٥٦-١٣٥٧هـ.ش (٧٧ : ١٩٧٨م) يعود فى الفترة الأولى إلى الزيادة الملحوظة فى معدلات الدخل للغالبية العظمى من الإيرانيين ، والفترة الثانية كانت على العكس من ذلك ، حيث عانى المجتمع من مشكلات اقتصادية عميقة ، باستثناء الطبقة الثرية الممتازة» (١٨) .

وعلى هذا النحو يرى "بخاش" أنه على الرغم من وجود مشاكل اقتصادية للنظام قبل ارتفاع قيمة النفط [فى عام ١٣٥٢ ش (١٩٧٣م)] لكن هذه المشكلات لم تكن على النحو الذى يهدد بقاء النظام :

« لما كانت الفرصة مواتية للغالبية العظمى من الإيرانيين لتحسين أوضاع معيشتهم ، لم تتمكن المشاكل الاقتصادية من أن تمثل خطراً أساسيا للنظام. لكن انفجار أسعار النفط فى السوق العالمى فى عام ١٣٥٣ش (١٩٧٤م) أدى إلى وجود مشاكل اقتصادية واجتماعية عميقة فى إيران»(١٩) .

بعبارة أخرى ، إن جذور تداعى نظام الشاه، وظهور الأزمة التى أدت إلى إيجاد الثورة يكمن فى الاقتصاد، أو كما قلنا بشكل أكثر دقة : يكمن فى إخفاق البرامج الاقتصادية لإيران فى الأعوام المواكبة للثورة. وهذا ليس معناه أن نظام الشاه كان خاليًا من المشاكل قبل تلك الفترة ، أو أن خطط التطور الاقتصادى لإيران كان بلا عيب أو نقيصة ، ولكن عمق الخسائر وآثار تلك المشاكل لم يكن على النحو الذى يصيب النظام بالفلج أو يجعل بقاءه مستحيلاً. ولكن فى أواسط الخمسينيات (أى أواسط

السبعينيات بالتقويم الميلادى) كان الاضطراب الاقتصادى فى الدولة وإخفاق العديد من برامج الخطة الخمسية قد هيأ الأسباب لدى عدد كبير من أفراد الطبقة المتوسطة، وخاصة الطبقات محدودة الدخل، للاستياء العام بشكل جعل العديد من أفراد الشعب يصطفون ضد النظام ، ويعربون عن عصيانهم له فى النهاية .

وقد استفاد بعض الكتاب الغربيين - المنحازين إلى هذه النظرية - من بعض المعادلات الاقتصادية المعقدة أو من النماذج التكنيكية، وسعوا لإثبات أن الفاصل المالى بين الطبقة المرفهة والطبقة محدودة الدخل كان فى ازدياد خلال العشرة أعوام الأخيرة من حكم الشاه .

والبعض الآخر من المحللين اعتبر هجرة القرويين إلى المدن باعثًا للتمرد ضد الشاه ، فهم يرون أن المهاجرين القرويين فى المدن [الذين زادوا زيادة مفاجئة فى العشرة أعوام الأخيرة لنظام الشاه] أولاً : كانوا من ناحية الدخل أقل من الطبقات القاطنة بالمدن . ثانيًا : من ناحية الاختلافات الجمة بين الحياة فى المدينة والحياة فى القرية ، قد حدث نوع من اليأس الاجتماعى لساكنى العشش هؤلاء .

ووفقًا لنظريات علم الاجتماع ، كان المهاجرون القرويون فى المدن يعانون من نفور اجتماعى وثقافى (أى يشعرون بالاغتراب عن أنفسهم) . ومن وجهة نظر أولئك الكتاب كانت مشاكل المهاجرين الاقتصادية من ناحية، ومشاكلهم الاجتماعية فى المدن من ناحية أخرى باعثًا لأن يكونوا قنبلة على وشك الانفجار، وأن يكون لهم أيضًا الدور المهم فى الحركات التى تمت بين عامى ٥٦ - ١٣٥٧هـ.ش (٧٧ : ١٩٧٨م) .

وقد انساقت «نيكى كدى» أيضًا وراء هذا الرأى ، فهى ترى عند توضيحها كيفية الميل لمذهبية الثورة ، أنه على الرغم من تأثير ثقافة المقيمين فى المدن ونمط حياتهم فلم يكن للعديد منهم الميل إلى المذهب ، لكن حل محلهم القرويون المهاجرون فى المدن الذين كانوا متدينين إلى حد ما [٢٠] .

ونحن هنا لا نقوم بنقد وجهات النظر هذه ، فهل من الأصل ، كان الوضع الاقتصادى للشعب فى تدهور خلال الأعوام الأخيرة لنظام الشاه ؟ أم على العكس ، كان مستوى المعيشة فى ارتفاع ؟ والأمر الثانى والسؤال الأكثر أهمية هو :

لو افترضنا جدلاً أن الوضع الاقتصادى للشعب فى الأعوام الأخيرة لنظام الشاه كان فى تدهور، فهل كان هذا هو العامل الوحيد الذى هيأ أسباب الاستياء من النظام؟ أم ثمة عوامل أخرى شاركت فى هذا الأمر؟! وفى نهاية هذا البحث قد اجتهدنا إلى حد ما فى مناقشة الإجابة على هذين السؤالين الأساسيين. أما فيما يتعلق بالقرويين المهاجرين إلى المدن، فيجدر بنا أن نوضح فى هذا المقام أن وجهات النظر المطروحة حول هذه الطبقة هى فى حدود الافتراض، وغالبًا ما كانت استنتاجات أو اجتهادات ذهنية.

فتلك الطائفة من الكتاب الأجانب أو الإيرانيين الذى سعوا لإقامة جسر بين الثورة وبين تلك الطبقة قلما قدموا الأدلة والشواهد العينية على ذلك.

ومن الأصل لم تتم دراسات وأبحاث دقيقة فيما يتعلق بالمهاجرين القرويين سواء فى الداخل أو فى الخارج. والعمل الوحيد الموثق الذى تم فى هذا الشأن يتعلق بأحد الأساتذة الإيرانيين فى جامعة نيويورك، وتم فيما بين عامى ٥٥-١٣٥٦ هـ.ش (٧٨-١٩٧٩م). ونتيجة هذا البحث توضح أن القرويين القاطنين فى المدن لم يكن لهم تحرك من الناحية السياسية فقط، بل كانوا يفتقدون فى الأصل الحس السياسى. فضلاً عن ذلك والأكثر أهمية، أنه على عكس وجهات النظر الشائعة التى تعتبر المهاجرين القرويين فى المدن كتلة مستاءة على وشك الانفجار، يبين البحث السالف الذكر أن الغالبية العظمى من المهاجرين إلى المدن لم يكونوا مستائين بسبب مستوى معيشتهم (كانوا فى الواقع فى رضاء تام إذا ما عقدنا مقارنة مع وضعهم فى القرية)[٢١].

والمجموعة الثانية التى تعتبر المشكلات والأزمات الاقتصادية هى الباعث الأساسى لوجود الثورة الإسلامية تتألف من الجماعات الإيرانية اليسارية، بيد أن طريقة التفكير بين هاتين المجموعتين لا تقبل حتى المقارنة مع تحليل الغربيين.

فلو أن الغربيين يطرحون الاقتصاد مرتبطًا بمسائل أخرى، فإن اليساريين الإيرانيين يجعلونه مطلقًا. وتلك الطائفة من المحللين الغربيين الذين تتبعوا العامل الاقتصادى فى تحليلهم حول أسباب الثورة، يطرحون هذا العامل فى إطار مكانة إيران وظروفها. لكن اليساريين الإيرانيين على عكس هؤلاء، فهم يجعلون من

الاقتصاد حدثًا غير قابل للاجتناب . بمعنى أن الثورة كانت ستحدث فى إيران بغض النظر عن كيفية تصرفات الشاه أو نوع سياسته . وسياسات الشاه الاقتصادية – من وجهة النظر اليسارية – عجلت بظهور الثورة ، ولو لم تكن فإن ظهور الثورة كان أمرًا حتميا لا مفر منه .

واختلاف آخر بين المحللين الغربيين واليساريين الإيرانيين يدور حول الدور الذى نسبته هذه المجموعات لنفسها فى ظهور الثورة .

لكن المشكلة الرئيسية عند البحث فى وجهات النظر اليسارية تتمثل فى كونها أسيرة حشد من المصطلحات ، والأكليشيهات والجمل المزدانة التى ربما تكون مستحسنة من وجهة النظر الأدبية ، لكنها متعصبة وفى الغالب قليلة المحتوى .

ومشكلة أخرى فى هذا الموضع وهى أن اليساريين الإيرانيين قلما اعتادوا تقديم الوثائق والمراجع فى تحاليلهم ، وغالبًا ما يتم عرض الموضوعات بشكل دعائى .

وقد بحثنا فى هذا التحليل حول أربع مجموعات يسارية أساسية هى على الترتيب: الفدائيون ، والمجاهدون ، وحزب توده ، وفى النهاية إحدى مجموعات المائوئية (٢٢).

ونقول فى البداية : إنه لا توجد نظرية واحدة أو تعريف واحد حول الثورة بشكل عام والثورة الإسلامية بشكل خاص بين اليساريين ، ولم يكن اختلاف الآراء مقصورًا على تقديم تعريف حول الثورة الإسلامية ، بل لم يكن ثمة اتفاق أيضًا فيما يتعلق بالثورة الإسلامية ، هل يمكن فى الأصل أن يطلق عليها ثورة أم لا؟ فقد أطلقوا على الثورة أسماءً عدة مثل : «انتفاضة» ، «حركة» ، «نهضة» ، «حدث» ، «ثورة تحررية» ، «ثورة البرجوازية الديمقراطية القومية» وبعض المصطلحات الأخرى .

وعلى نفس النسق تم إطلاق مصطلحات متباينة على قادتها من قبل الجماعات اليسارية، مثل : «برجوازية» ، «قلة من البرجوازية» ، «أتباع البرجوازية» ، «برجوازية تقليدية» ، «برجوازية ليبرالية» ، «متشددون رجعيون»، «رجعية» ، «دلالو البرجوازية» ، «صغار الملاك وبرجوازية صناعية» ،«برجوازية السوق» وما إلى ذلك .

وأخيرًا نجد مشكلة أخرى فى هذا المقام ، وهى أنه مع تغيير العلاقة بين هذه المجموعات وبين الحكومة تغيرت كذلك نوعية تحليلها ، فمن الممكن أن تذكر جماعة الثورة الإسلامية على أنها ثورة شعبية قومية ، ولكن نفس هذه الجماعات تقلل من حجم الثورة عند توتر العلاقات بينها وبين الحكومة ، وتصف الثورة بأنها «حركة» أو «نهضة ٢٢ بهمن» .

ويجيب فدائيو الشعب – فدائيان خلق – على أسباب ظهور الثورة الإسلامية على النحو التالى :

«بعد أعوام من تحمل الآلام والمعاناة والمهانة ، بعد أعوام من التعذيب والتنكيل ، حل فى النهاية عهد نهضة حشود الملايين من أفراد الوطن ، وكانت أولى أمواج الثورة الجماعية تنبئ عن طوفان ثائر فى ـ ١٣٥٦هـ .ش (١٩٧٨م) ، وكان طوفانًا قويا لا نظير له قد أغار من جهات إيران الأربع ، وأثار نبأ النهضة خلقًا كثيرين ، وجعلهم يعزمون على مجابهة الديكتاتورية والنفاق والاستبداد مع ما كان بهم من فقر وجوع وتشرد . وكان نبأ المعارك الدامية ، يدفع طبقة العمال وجميع المطحونين فى وطننا كى يتحرروا من مخالب الإمبريالية المقرونة بالمصائب والرأسمالية»(٢٣) .

وبعد تقديم أجواء قيام الثورة ، يقوم فدائيو الشعب بشرح كيفية تشكيلها، ووفقًا لمزاعمهم ، فإن الثورة تبدأ منذ قيام البلدية بهدم المنازل التى شيدها أصحابها خارج الحدود (بدون ترخيص) [٦] :

«سحق النظام بيد جلاديه الظالمين المخادعين أول نضال شجاع أملاً فى إرهاب الأفراد . واستشهاد بعض المطحونين القاطنين خارج الحدود لم يمنع الشعب من الاستمرار فى النضال ، بل حثهم على الإصرار أكثر من ذى قبل لمجابهة النظام. والآن لم يمض طويل زمان على المقاومة الباسلة لقاطنى الأكواخ خارج حدود طهران حتى قام أهالى قم الشجعان وطلاب الحوزة العلمية باعتراضات موسعة للوقوف ضد مظالم النظام ، وبعد قم حل الدور على تبريز ...

وكان الغضب الثورى الجماعى دومًا فى ازدياد ، وكان الأفراد يخطون خطوات واسعة كل لحظة»(٢٤) .

ولا تمس الحاجة إلى توضيح ، فهذه الجمل تنطوى فى الظاهر على عبارات حماسية ولا تقدم شيئًا إلى القارئ حول أسباب الثورة . فليس معلوما لمَ وكيف بعد أعوام من تحمل الآلام والمعاناة يأتى وقت دفعة واحدة فى عام ١٣٥٦هـ .ش (١٩٧٧م) تثور فيه حشود ملايين الأفراد ؟ فهل أمواج الثورة الجماعية (التى زمجرت دفعة واحدة فى عام ١٣٥٦هـ .ش) كانت موجودة من قبل أم لا ؟ وفى حالة الإجابة بالإثبات ، فلمَ وكيف لم يكن هناك خبر عن «الطوفان الثائر» من قبل ؟! وكيف تطلعنا هذه الأمواج دفعة واحدة فى عام ١٣٥٦ هـ .ش بنبأ هذا الطوفان ؟! هل ثارت طبقة العمال وغيرها من الطبقات الكادحة ضد الفقر ، والتشرد ، والجوع والبطالة فيما سبق ؟ أم أنهم قرروا فجأة هذا النضال عام ١٣٥٦هـ .ش؟ وإذا ما كان هذا النضال موجوداً من قبل (وبالتأكيد كان على هذا النحو وفقًا لمزاعم فدائى الشعب) فكيف لم يصل إلى نتيجة قبل عام ١٣٥٦هـ .ش ؟ أم أنهم فكوا طلاسمه فى عام ١٣٥٦هـ .ش ؟!! وفى النهاية ، إذا كان هناك نضال قبل عام ١٣٥٦هـ .ش ، إذن ، ووفقاً للتتابع التاريخى ، لا يمكن اعتبار عام ١٣٥٦هـ .ش هو بداية الثورة .

بعبارة أخرى ، إن فدائى الشعب قد توقفوا عند حد العبارات الحماسية – والتفصيلية حول بداية النضال عام ١٣٥٦هـ .ش لكن ليس لديهم الرد الشافى حول الأسباب والعلل والأدوات الخاصة بظهور هذه الأحداث دفعة واحدة ، وليس لديهم المعرفة الكافية بهؤلاء الذين قاموا بهذا «الطوفان الثائر» .

هذه الأسئلة ليست فقط هى التى نواجهها فى تحليل منظمة فدائى الشعب، وحتى لو افترضنا قبول عدم وجود أى شيء قبل عام ١٣٥٦هـ .ش، وبناءً على الأدلة التى لم يقدم فدائيو الشعب توضيحًا لها «يبدأ فى هذا العام إغارة الطوفان الثائر من جهات إيران الأربع» . وهذا أيضًا لا يحل المشكلة . فهل الذى أطلق شرارة الثورة هو هدم بضعة منازل تم إقامتها خارج الحدود دون ترخيص ؟ وهل توجد علاقة منظمة أو صلة وثيقة بين النضال خارج الحدود ضد البلدية ونضال قم أو تبريز ؟!

والمشكلة هنا تكمن فى أنهم يصلون إلى نتائج متباينة تمامًا فى تحليل آخر أصدروه فى شهر مرداد من عام ١٣٥٧هـ .ش (١٩٧٨م) (قبل عام ونصف من التحليل

السابق) يدور حول الحركة خارج الحدود . من بين ذلك أنهم لم يعلنوا سحق هذه الحركة من قبل النظام، بل إنهم كانوا يعتقدون أن هذه الحركة انتصرت وأن النظام تقهقر أمامها . (بعبارة أخرى) ، لم يكن من المنطقى أن تستطيع هذه الحركة أن تؤدى إلى ثورات قم وتبريز : «نتيجة للنضال المستمر المتعدد الجوانب للحشود المطحونة خارج الحدود ، المصحوبة بعمليات المجاميع المسلحة وغيرها من القوات الثورية ، اضطر النظام المعادى للشعب إلى التراجع . ورأى النظام نفسه فى هذا الوقت مضطرا للتقهقر ، فلو استمر فى سياساته لكان قد تلاشى فى صراعه مع الحشود الهائلة من المطحونين ... وهذا النصر للمطحونين على النظام يوضح هذه الحقيقة ، وهى أن الشعب لو هب كافة ، لو اتحد كافة ، وأعلن المبادرة بالغضب الثورى ، لن تستطيع قوة قط من الوقوف أمامه» (٢٥) .

وكل معنى تقدمه هذه الجمل لا يوضح معنى «السحق» ، لكن بعيداً عن هذا ، هل تم سحق النضال خارج الحدود فى النهاية بوساطة النظام ؟ ونتيجة هذا السحق أن نمت بداخلها النواة للحركات التالية أم على العكس ، تراجع النظام أمامها ؟ ولا جرم ، فخارج الحدود لا يمثل نقطة البداية، وتحليل فدائى الشعب فى هذا الشأن من ناحية التوقيت ، لا يخلو أيضاً من المشاكل والتناقض . فكما شاهدنا فى تحليل شهر بهمن عام ١٣٥٨هـ .ش (١٩٧٩م) أعلنوا أن بداية أمواج الثورة الجماعية كانت فى إطار النضال خارج الحدود فى عام ١٣٥٦ هـ.ش. لكن فى تحليلهم الصادر فى شهر مرداد من عام ١٣٥٧هـ.ش (١٩٧٨م) يعتبرون بداية الأحداث خارج الحدود هو عام ١٣٥٤هـ.ش (١٩٧٥م)، وفى هذه الحالة، ومن المنطقى، يجب أن تكون بداية الثورة فى عام ١٣٥٤هـ.ش وليس فى عام ١٣٥٦هـ .ش . ولو أنهم تناولوا جميع هذه المشاكل بشكل قابل للاهتمام والتفسير ، فلا يزال لدينا مسألة أساسية ، وهى ظهور «الغضب الثورى» نتيجة لأحداث خارج الحدود ، وهذا ما يدعيه الفدائيون فى تحليل شهر بهمن عام ١٣٥٨هـ .ش (١٩٧٩م) ، والمشكلة هنا تبدأ من أن منظمة فدائى الشعب ذكرت فى تحليلها الصادر فى شهر مرداد عام ١٣٥٧هـ .ش (١٩٧٨م) ما يلى :

«احتدم العراك فى مناطق عدة بين بعض الأهالى وبين البلدية بسبب إقامة منازل دون ترخيص ، وعلى أثر هذا العراك ظهر الباعث للنضال ضد النظام» . ومعظمهم ،

وفقًا لادعاء المنظمة (وهو صحيح) ، «كانوا يفكرون في كيفية حل هذه المشكلة مع البلدية» وكان تقديم الرشوة ، والمضى إلى مجلس الشورى الوطنى ومجلس الشيوخ ، والذهاب إلى مقر الشاه وحزب رستاخيز ، ولقاء هويدا و ... كل هذا كان من بين الطرق التى لجأ إليها القاطنون خارج الحدود للخلاص من قبضة البلدية» .

والسؤال المهم هو : كيف أنهم – من وجهة نظر فدائى الشعب – فى تحليلهم (التالى للثورة) يبدلون هذا «بالغضب الثورى» الذى أشعلت توابعه قم وتبريز وغيرهما؟ كيف يفسر الفدائيون حركة واحدة بتحليلين متباينين؟ فهم يقولون فى أحد المواضع: إن الحركة خارج الحدود فى عدد قليل أوجدت الباعث للنضال ضد النظام ، ومعظم القاطنين خارج الحدود كانوا يفكرون فى حل مشاكلهم بالتظلم لدى رؤساء النظام واللجوء إليهم. وفى موضع آخر يعلنون أن نفس الحركة كانت شرارة الثورة والغضب الثورى التى «أشعلت ألسنتها المضطرمة قم وتبريز وغيرهما» .

وفى النهاية «القاطنون خارج الحدود» من الذى يسير منهم فى هذين الطريقين المتضادين ؟! هل كانوا يلجأون إلى قصور رؤساء النظام وحزب رستاخيز ؟ (كما أعلن الفدائيون قبل الثورة)، أم أنهم أعلنوا تمردهم وأضرم لهيب مشاعلهم الثائرة قم وتبريز؟ (كما يقول الفدائيون بعد الثورة)، ولمَ اضطر الفدائيون من الأساس لتغيير رأيهم هكذا بعد الثورة فيما يتعلق بالحركة خارج الحدود ؟!

أساسًا ، كانت رؤية فدائى الشعب قبل الثورة فيما يتعلق بالحركة خارج الحدود تقترب من الواقع بمقارنتها برؤيتهم بعد الثورة . أى أن حركة خارج الحدود كانت حركة محدودة بذاتها ، ولم يكن لها أدنى علاقة بأحداث عام ١٣٥٦هـ .ش .

فعلى أرض الواقع ، إن القاطنين خارج الحدود كانوا يسلكون أيضًا نفس الطريق الذى تحدث عنه الفدائيون قبل الثورة ، وهو : اللجوء إلى رؤساء النظام والتوسط لديهم للحماية من شر البلدية ، تقديم الرشوة وبعض المصاريف الأخرى، والخلاصة ، السعى فى محاذاة النظام لمقاومته ، واتخاذ أساليب متشددة لمواجهة البلدية وعمال الشرطة ، لكن من ناحية سبب اضطرار فدائى الشعب لعدم عرض الحديث على هذا النحو بعد الثورة ، ووضعهم فى المقابل أمورًا أخرى لم تحدث على أرض الواقع ، يعود إلى

المشكلة الدائمة بين الجماعات والأحداث ، حيث تضطر الجماعات إلى تحليل الأحداث السياسية على نحو يتوائم وأيديولوجيتها أو نظرتها الخاصة .

وجزء كبير من اعتقادات فدائي الشعب وتعاليمهم السياسية يتكون من كيفية وجوب قيام الثورة في إيران . فأكثر من العشر داخل منظمة فدائي الشعب ناضلوا من أجل ظهور الثورة ، وقاموا بطرح النظريات حولها ، لكن الثورة التي ظهرت في النهاية قلما كانت تتشابه وتحاليلهم ونظرياتهم .

فهم بالطبع إما أنهم كانوا ينفون كل ما كان يحدث على أرض الواقع ولم يكن له علاقة بآرائهم ، وإما أنهم أعادوا النظر في معتقداتهم ورؤيتهم حول الأحداث السياسية والاجتماعية لإيران وثورتها ، وهذا أيضاً لم يكن ممكناً ، وبدلاً من ذلك سعى الفدائيون لأن يجعلوا الثورة وطريقة ظهورها على نحو معين، وعملوا على مطابقة ذلك بما كانوا يتحدثون عنه منذ أعوام . لذا فقد صنعوا «جبلاً» من «قشة» الحركة خارج الحدود ، تهبط من مرتفعاته ثورة بهمن .

وكان التحليل الأول لفدائي الشعب فيما يتعلق بالقاطنين خارج الحدود قد تم في شهر مرداد من عام ١٣٥٧هـ .ش (١٩٧٨م) ، وفي ذلك الوقت لم تكن الثورة قد وقعت ، ولم يكن الفدائيون يتوقعون ظهورها (كسائر المناضلين في إيران) في الشهور التالية على ذلك . لكن التحليل الثاني يعرض في وقت كانت الثورة قد وقعت ؛ لذا رأى الفدائيون أنفسهم مضطرين عند حديثهم حول تلك المسائل السابقة وعرضها لأن يطرحوها بتفسير وبنمط آخر على أن تتفق تلك الأحداث وإطار معتقداتهم وآرائهم ، بغض النظر عن كيفية وقوع هذه الأحداث وتطوراتها على أرض الواقع .

وبعيداً عن الأمور الداخلية ، فقد وضع الفدائيون أيديهم على بواعث خارجية أيضاً عند حديثهم عن أسباب الثورة ، والمحور الأساسي للباعث الخارجي من وجهة نظرهم «الأزمات العامة للمعسكر الإمبريالي» ، وتبعات ذلك على النظام الرأسمالي التابع لإيران :

«مع تفاقم الأزمة العامة فإن الرأسمالية التابعة لإيران – والتي تأثرت من جذورها بتطورات الأزمات العامة للمعسكر الإمبريالي – قد تركزت في الحكومة وتواءمت مع

المبدأ الاحتكارى ، ومع تفاقم الأزمة الاقتصادية ، وتصدع النظام الديكتاتورى للشاه ، وتزايد الخلاف بين الجماعات الإمبريالية الأمريكية ، فإن الحركة الشعبية نمت سريعًا ، وبنموها ازدادت حدة الأزمة العامة للرأسمالية الإيرانية» (٢٦) .

بعبارة أخرى ، يقول الاتجاه اليسارى : إن بداية الثورة فى إيران قد واكبها تعرض النظام الرأسمالى العالمى لأزمة، ولما كان نظام إيران تابعًا لهذا النظام من جذوره – على حد قول فدائى الشعب – فقد كان لهذه الأزمة أثرها على إيران أيضًا.

فهل هذا كان موجودًا بالفعل على أرض الواقع ؟ أى هل كان المسافرون – الذين توجهوا إلى الدول الإمبريالية – يرون فى عام ١٣٥٦هـ .ش (١٩٧٧م) بأم أعينهم أن الأزمة قد ألقت بظلالها على هذه الدول ؟ وهل الأشخاص الذين سافروا فى هذا العام إلى نيويورك ، ولندن ، وباريس ، وطوكيو ، وجينيف ، وفرانكفورت ، أو إلى عواصم الدول التابعة للرأسمالية العالمية كإسطنبول ، وكراتشى ، وسول ، وريودوجانيرو ، والمكسيك ، وجوهانسبرج ، وتايبيه ، وهونج كونج وغيرها كانوا يرون بوضوح أن الأزمة الاقتصادية أو السياسية كانت تلقى بظلالها على هذه المناطق ؟ هل كانوا يرون أن إضرابًا عاما قد وقع فى أمريكا ؟ أو أن العمال فى إنجلترا قد قاموا بإضراب ؟ أو أن وسائل النقل والمواصلات فى طوكيو قد أصابها الشلل بسبب المظاهرات والاضطرابات العامة؟ أو أن نقصًا شديدًا فى المواد الغذائية قد حدث فى إسطنبول ؟ وأن نصف بنوك سويسرا قد أصابها الإفلاس ؟

فمن الممكن أن يكون مراد الاتجاه اليسارى من تعبير «أزمة الرأسمالية العالمية» هو الأزمة الاقتصادية ، أى أن المؤسسات والشركات الإنتاجية قد واجهت مشكلات اقتصادية أخرى مع زيادة الإنتاج . وفى هذه الحالة حرى بنا أن نكرر نفس السؤال : هل لو أننا قد سافرنا فى عام ١٣٥٦هـ .ش (١٩٧٧) إلى العواصم الإمبريالية كنا سنشاهد الشركات والصناعات المختلفة وهى تعانى من مشاكل مالية ؟ وأن بعضها قد أصابه الانهيار ، والبعض الآخر ظل بين الخشية والرجاء ؟

من الممكن أن يكون المراد من الأزمة هو الركود فقط ، أى أن الغرب قد تعرض لمشكلة زيادة الإنتاج وقلة التصدير . وفى هذه الحالة ، لا يقتصر هذا الأمر أو ينحصر

على عام ١٣٥٦هـ .ش (١٩٧٧م) فقط . فالمنافسة – سواء كانت بين منتجى إحدى الدول الغربية وسواء كانت بين دول الرأسمالية العالمية المختلفة – كانت قائمة دوما ، ولم تختف هذه المنافسة فى عام ١٣٥٦هـ .ش (١٩٧٧م) ولم تمتد أبعادها بحيث تصيب العالم الغربى بالفلج .

بعبارة أخرى ، لو كان البعض قد سافر فى عام ١٣٥٦هـ . ش (١٩٧٧م) إلى العواصم الإمبريالية ، فلم يجدوا شيئًا جديدًا على ما كان قائمًا بالفعل فى أعوام ٤٥ ، ٥٠ ، ١٣٥٥هـ .ش (٦٦، ٧١، ١٩٧٦م) . وعلى الرغم من هذا كله ، فإن تعبير «أزمة الرأسمالية العامة» كان المفتاح الرئيسى فى يد الاتجاه اليسارى «الإيرانى» يفتح به كل مغلق سياسى أو اجتماعى . وعمليا كان كل حدث سياسى مهم يقع فى إيران – وفق مزاعم اليساريين – إما نتيجة «المنافسة» بين الدول الإمبريالية ، أو نتاج «احتدام الخلاف داخل النظام الرأسمالى» أو نتيجة «الأزمات العامة للرأسمالية» ، ولم يتم قط توضيح ماهية هذه الأزمات ، وما هى دلائلها العينية وأسبابها الملموسة ، وعلى أى نحو ظهرت ، وأصلاً ، على أى نحو تم تأثيرها عمليا على تطورات الأحداث فى إيران ؟

ولكن إذا ما قبلنا – فرضًا – أن العالم يحكمه نظام رأسمالى عام – كما يعتقد اليساريون– وأن هذا النظام تعرض دفعة واحدة لأزمة ما أو لركود أو لشدة الخلاف، وكان نتاج ذلك أن تتبدل الحكومة فى إيران ، أو يتم الإصلاح الزراعى ، أو يقوم الناس دفعة واحدة ضد النظام ، وتفور أمواج «الثورة الشعبية»، ويثور الكادحون ، فهنا يبقى أيضًا استفسار مهم : بالطبع لم يكن نظام الشاه هو النظام الوحيد التابع للرأسمالية فى هذا العالم ، فعلى الأقل لدينا عشرات النماذج بين دول العالم الثالث التابعة للإمبريالية طبقًا لوجهة نظر الاتجاه اليسارى . وفى هذه الحالة، كيف تتم الثورة فى إيران وحدها أما غيرها من الدول لم تحرك ساكنًا ؟

وعلى سبيل المثال ، فإن نظام المملكة العربية السعودية لو لم يكن أكثر تبعية من نظام الشاه بالمعسكر الإمبريالى، فهو يقينًا لم يكن أقلَّ منه. وفى هذه الحالة، كيف تأثر نظام إيران «بأزمة المعسكر الإمبريالى» أو «بمخططات الإمبريالية الجديدة واستراتيجيتها» ولم يتم فى المملكة العربية السعودية ولو مظاهرة بسيطة من بضعة أفراد ؟

والمجموعة الثانية التى بحثنا فى وجهات نظرها فيما يتعلق بأسباب ظهور الثورة ، هى مجموعة مجاهدى الشعب . والسبب الأساسى فى هذا التسلسل بين المجاهدين والجماعات اليسارية يعود إلى التشابه والاقتراب فى وجهات النظر بين هذه المجموعة والجماعات اليسارية ، وعلى الأخص جماعة فدائى الشعب . وفيما يتعلق بالثورة فإن مجاهدى الشعب لم يصرحوا بشىء أكثر مما سمعناه عن فدائى الشعب . فأساس تحليلهم هو تعبيرات وأكليشيهات من قبيل : «فساد النظام» ، «الأزمات الرأسمالية» ، «الخلافات داخل المجتمع» وغير ذلك :

«انقضت أعوام طوال ، أدى فيها ضعف وسلوك الزعماء وسياسة الصمت إلى غضب الخلق المظلومين واستيائهم ، وانقضت أعوام طوال حتى خرج هذا الغضب الدفين من بنادق المجاهدين ، وأطلقوا النيران على روح الديكتاتورية وأربابها . لكن فى النهاية ، انطلقت ذات يوم مجاميع الشعب إلى الميدان بحماس قاطع ، وأفسد صمت القبر أمن الإمبراطور» (٢٧) .

وقد شاهدنا من قبل – عند الحديث عن فدائى الشعب – أنهم بعد إلقائهم مجموعة من العبارات دون أن يكلفوا أنفسهم مشقة التوضيح والتحليل ولو بشكل مقتضب ، يعلنون «أن الشعب فى النهاية قد ثار وقام بحركة» دون أن يتمكن القارئ من فهم : أى أحداث وقعت؟ وأى تطورات تمت؟ وأى تغيرات حدثت؟ وما الذى حدث كى يكون عام ١٣٥٦هـ .ش (١٩٧٧م) فى النهاية هو عام الثورة والغضب وظهور الحركات والانتفاضات ؟! وهذه هى نفس المشكلة التى تظهر لدى مجاهدى الشعب . فهم لا يوضحون فى تحليلهم لماذا ، وكيف ، ولمَ ، وعن طريق من تمت هذه الأحداث السياسية والاجتماعية، التى دفعت الشعب بهذه الصورة المفاجئة وبشكل جاد وقاطع إلى الميدان فى عام ١٣٥٦هـ.ش (١٩٧٧م)؟! ولمَ لمْ يندفع الشعب إلى الميدان بمثل هذا الحماس فى عام ١٣٤٥هـ .ش أو عام ١٣٥٥هـ .ش (١٩٦٦ ، ١٩٧٦م) على سبيل المثال ؟ ألم يكن الشعب مستاءً من النظام فى هذين العامين ؟ إذن لمَ لم نر أية ثورات فى هذين العامين ؟ ولمَ اشتعل اللهيب دفعة واحدة فى عام ١٣٥٦هـ .ش؟

وبدلاً من أن يجيب المجاهدون وكذلك الفدائيون على هذه الأسئلة ، يقومون فقط بإلقاء العبارات الإنشائية ، فيقولون : «كانت المظاهرات الدامية فى التاسع عشر من شهردى من عام ١٣٥٦هـ .ش (١٩٧٧م) أول تجلٍ لمظاهر المعارضة والتى كانت تتم فى السابق بصور مختلفة . فقبل ذلك بقليل ، كانت مظاهرات الأهالى المطحونين المظلومين خارج حدود طهران واعتراضاتهم تدل على ازدياد المعارضة التى لم يتمكن النظام ثانية من منعها بكافة الحيل» (٢٨) .

وبعيداً عن الأكليشيهات السابقة ، فإن مجاهدى الشعب يطرحون عاملاً آخر فيما يتعلق بأسباب الثورة ، ألا وهو سياسة حقوق الإنسان التى كان يتم تنفيذها من قبل الحكومة الأمريكية الجديدة فى عهد رئاسة «چيمى كارتر» . لكن تبرير المجاهدين لهذه السياسة كان فى نفس قالب المرض الاجتماعى الذى أشرنا إليه قبل ذلك فى حديثنا عن «افتراضات التآمر» . بمعنى أنهم لم يقيِّموا سياسة حقوق الإنسان فى القالب السياسى والاجتماعى الحقيقى للمجتمع الأمريكى ، بل إنهم أوقفوا فكرهم عند حد التآمر والتخطيط من قبل الإمبريالية (أمريكا) ، والنتيجة كما سنرى من بعد ، أن ظهر التناقض فى تحاليلهم حول هذا الأمر بسبب تعارض أفكارهم مع الأحداث الخاصة بحقوق الإنسان :

«قد توصلت أمريكا بعد تجربة ڤيتنام وبعد تدارس نتائج المؤتمر المتعدد الجوانب إلى نتيجة مفادها أن النظم الديكتاتورية تؤدى على المدى الطويل إلى ظهور قوة التشكيلات والجماعات الثورية ، التى تسحب فى النهاية الدول الواقعة تحت سلطتها إلى ثورة ؛ لذا غيرت من سياستها ، وجعلت «كارتر» رئيساً لها لتظهر بوجه المدافع عن حقوق الإنسان» (٢٩) .

بعبارة أخرى ، يحلل المجاهدون الحدث بأنه نتيجة لهزيمة أمريكا فى ڤيتنام، حيث بدلت من استراتيچيتها الإمبريالية . فقبل هذا كانت أمريكا تسعى لتأمين مصالحها فى العالم عن طريق مساندتها للنظم الديكتاتورية وتأييدها لهم، غير أن تجربة ڤيتنام - وفقًا لزعم المجاهدين - أظهرت لواشنطن أن حماية النظم الديكتاتورية أو النظم التابعة لها كانت سبباً لظهور تشكيلات وأحداث ثورية فى هذه الدول تكون فى النهاية سبباً لاندلاع الثورة . وبناءً عليه ، وللحيلولة دون ظهور خطر اندلاع الثورة فى هذه الدول ،

تسعى أمريكا فى قالب استراتيچيتها الجديدة - بطرحها موضوع حقوق الإنسان - لإيجاد نوع من التعاطف بشكل أكثر بين هذه النظم وبين شعوبها .

ولكن فى تحليل آخر حول ثورة إيران يستنتج المجاهدون نتيجة مغايرة لهذا التحليل تمامًا ، ويرون أن الإمبريالية ظلت تحمى الشاه وسياسته الساحقة أكثر من ذى قبل :

«من ناحية أخرى ، ومع احتدام النضال الثورى يومًا بعد يوم ضد وحشية النظام والإمبريالية ، كانت النتيجة ازدياد وحشية وديكتاتورية الشاه وحماية أربابه .... فى مجتمعنا ، فإن الهيئة الحاكمة (فى أمريكا) وغيرها من المسئولين الأمريكان المغيرين كانوا يفضلون الوضع الراهن وتأييد النظام أكثر من ذى قبل» (٣٠) .

بعبارة أخرى ، كان المجاهدون يقولون من ناحية : إن الإمبريالية غيرت من سياستها حينما استشعرت أن حماية النظم الديكتاتورية يفضى على المدى الطويل إلى اندلاع الثورات فى هذه الدول . ولكن من ناحية أخرى ، وفيما يتعلق بإيران ، يصرحون بعكس هذا الرأى تمامًا ، ويرون أن المسئولين الأمريكان يؤيدون نظام الشاه أكثر من ذى قبل . ولا تمس الحاجة للقول : إنه على أساس تحليل المجاهدين لسياسة حقوق الإنسان كان يجب أن تقل مساندة « المغيرين الأمريكان» لنظام الشاه ، والعكس ليس صحيحًا «أن يزداد أكثر من ذى قبل» .

من الممكن أن نفترض فيما يتعلق بإيران أنه لما كان تقليص الأبعاد الديكتاتورية يؤدى إلى وهن الأسس لدى حكومة الشاه ، فإن أمريكا قد تغاضت بشكل استثنائى عن تنفيذ سياسة حقوق الإنسان فى إيران . بيد أن هذا لا يحل أيضًا مشكلة تحليل المجاهدين ، فالمشكلة الأساسية على رأس هذا التحليل هى : لو أن أمريكا - بعد تجاربها فى ڤيتنام كما يزعم المجاهدون - قد وصلت إلى نتيجة مفادها عدم مساندتها ثانية للنظم الديكتاتورية ، وبدلاً من ذلك تقوم بتنفيذ سياسة حقوق الإنسان ، فعندئذ كيف نحت مثل هذه السياسة الاستراتيچية والأساسية مع قدوم رئيس الجمهورية الجديد «رونالد ريجان» ولم يسمع ثانية عن رعايتها لحقوق الإنسان ، بل وتستأنف الحكومة الجديدة تأييدها للنظم الديكتاتورية بشكل أكثر ؟!

والسبب الأساسى الذى أوقع تحليل المجاهدين فى مثل هذا التناقض يعود إلى نفس المشكلة الاجتماعية التى تجعل التحاليل السياسية للأحداث غير مطابقة للواقع الموجود ، بل تجعلها فى قالب الخيال الثقافى «الأمر أمر الإنجليز» . ولننحى هذه العبارات المطولة جانبًا ، فإن المجاهدين كانوا بالفعل يتبعون فكرة «المخططات» و«المؤامرات» من قبل القوى الأجنبية (الإمبريالية) على أنها العامل الأساسى لتطور الأحداث فى إيران . لذلك فهم يصلون إلى موضع محير حيث يصرحون بأن الإمبرياليين هم السبب وراء خلع الشاه :

«بعد مؤتمر جوا ديلوب [٧] اتفق الإمبرياليون على التضحية بالشاه الذى كان خادمًا لهم لأعوام طوال وذلك على أمل إيجاد نافذة لهم لحفظ مصالحهم ، وغضوا الطرف عن الليبراليين والرجعيين»(٣١) . وبدلاً من أن ينظر المجاهدون فى عالم الواقع دون عالم الخيال إلى كيفية وأسباب تأكيد «چيمى كارتر» على حماية حقوق الإنسان ، وعلى أى شكل كان يبدو هذا التأكيد فيما يتعلق بإيران، وأى آثار كانت له ، أغلقوا فكرهم ، وعليه لم يكن من المصادفة أن يقعوا فى مثل هذا التناقض وفى تلك الحيرة عند استخلاص نتائجهم ، وعلى الرغم من تشييدهم جبلاً من الادعاءات القائمة على «التحاليل العلمية والتاريخية» فقد أصر المجاهدون على أن الشاه والمطالبين بالسلطة قد توصلوا إلى أن «الإمبرياليين قد اتفقوا على التضحية به» .

والمجموعة السياسية اليسارية الثالثة التى نبحث فى تقييمها لأسباب ظهور الثورة الإسلامية هى المجموعة التابعة لحزب توده . وعلى الرغم من أن هذا الحزب قلما يقع تحت تأثير الخيال ، مثلما حدث لدى المجموعتين السابقتين ، غير أن مجموعة البواعث التى يطرحها لا تزيد عن كونها تعبيرات وأكليشيهات . والمحور الأساسى لهذه التحاليل هو فساد الوضع الاقتصادى وردود أفعال المطحونين إزاءه . وقد ظهرت ردود الأفعال تلك فى شكل معارضات وإضرابات للعمال على مستوى المجتمع فى أوائل عام ١٣٥٦هـ .ش (١٩٧٧م) . ومع تدهور الوضع الاقتصادى للنظام ، وضيق الحال بالطبقات المحرومة والكادحة ، وانضمام الطلاب المناضلين للمظاهرات، كل هذا عمل على تأجج الثورة وتعميقها ، وفى النهاية تم القضاء على نظام الشاه . فضلاً عن ذلك ، وكما تقول الجماعات اليسارية الأخرى ، يذكر حزب توده كذلك ضلوع «مشاكل الرأسمالية العالمية» فى الأحداث .

وبعيداً عما سبق ذكره ، يطرح حزب توده موضوعين آخرين لم يرد ذكرهما لدى أي من الجماعات اليسارية الأخرى ، وكان لهذين الموضوعين- وفقًا لمزاعم حزب توده - أثرهما العميق فى ظهور الثورة الإسلامية ، وهما : «ثورة أفغانستان» [٨] و «الموقف الحاسم لحكومة الاتحاد السوفيتى» [٩] الذى لم يسمح للدول التى كانت ترغب فى التدخل فى شئون إيران وسحق الثورة (أى الغرب وخاصة أمريكا) بأن توفق فى هذا الأمر .

وبعد أن أحصى الحزب إغارات النظام وسياساته الاقتصادية والإمبريالية العالمية بزعامة أمريكا ، يصل إلى نتيجة مفادها :

«كانت الغالبية العظمى من شعب إيران تعيش فى ظروف مضنية ، وكان الكادحون فى المدن والقرى محرومين من أبسط وسائل الحياة الصحية والتعليمية، وقد استمدت نطفة الانفجار الثورى فى إيران قوتها من بين هذا الظلم المجحف ، من بين الوديان العميقة للمغيرين الأجانب والمحللين من ناحية ، ومن بين من وقع عليهم الإغارة من ناحية أخرى ، نمت الثورة من بين شعب إيران المظلوم من ناحية ، ومن جبهة الإمبريالية المجرمة من ناحية أخرى ، الثورة على حكم أمريكا الإمبريالية والطبقات الحاكمة المؤلفة من كبار الرأسماليين والإقطاعيين ، الثورة على حكم الشاه من ناحية، وعلى نظام السافاك الماص للدماء من ناحية أخرى ، وهكذا نمت الثورة بمرور الأيام بشكل سريع» (٣٢).

وفى تحليل آخر حول أسباب الثورة، يشير الحزب - بعد مقدمة مشابهة لما سبق - إلى «أزمة الدول الإمبريالية» و «دور الصين الخائنة» ، وفى المقابل يشير إلى «الدور التاريخى للدول الاشتراكية» فيما يتعلق بثورة إيران الإسلامية ، ويصرح :

« .... نتيجة لهذه السياسة المعارضة المغتصبة للشعب، عانى اقتصاد إيران من أزمة لا علاج لها . ففى كل يوم كانت تزداد مظاهر الركود والتدهور الاقتصادى والزراعى وانهيار الصناعات المحلية . والتضخم الذى كان بلا ضابط (بلغ فى الأعوام الأخيرة إلى ما يربو عن ٤٠٪ سنويا) قد دمر الكيان الاقتصادى للدولة، واشتد الحال وضاق ليس فقط على الملايين من الطبقات الكادحة ، بل أيضًا على الطبقات المتوسطة

فى المدن التى لم يكن فى إمكانها منع جزء من هذا الحشد الهائل من السلب والنهب فى مثل هذه الظروف كان من الطبيعى أن تحتدم الثورة المعارضة المؤلفة من طبقات الشعب المختلفة ، وكانت أعمال السلب والنهب التى بلا ضابط للشاه السابق وأسرته وأعوان ذلك النظام الديكتاتورى وعماله ، وكذلك إغارة كبار الرأسماليين المحليين التابعين للإمبريالية مصاحبًا لتأثير أزمة الرأسمالية التى انعكس نموها السريع بشكل لا يصدق على المجتمع الإيرانى . كل هذا ، وغيره من الأوضاع هيأ الأجواء للاستياء العام والانفجار وظهور الوضع الثورى فى دولتنا» (٣٣) .

وبعد أن يطرح حزب توده - وفقًا لمزاعمه - أجواء ظهور الثورة ، يبدأ فى عرض كيفية تشكيلها :

«إضرابات العمال العنيفة التى بلغت أوج نضالها فى ربيع عام ١٣٥٦هـ .ش (١٩٧٧م) ، خاصة فى مناطق شاهى ، وسمنان ، وطهران والكرج ، وتم سحقها بمساعدة القوات المسلحة حيث تجاوزت القضاء على الإضراب إلى إراقة الدماء . وأيضًا يمكن اعتبار إضراب الطلاب المناضلين المستمر وتظاهرهم هو حقا بداية الحركة الثورية الحالية فى إيران .

وعلى هذا النحو بدأ عهد لم يسبق له مثيل اشتدت فيه الأزمة المتعددة الجوانب للنظام الديكتاتورى» (٣٤) .

وبعد توضيح أسباب ظهور الثورة وكيفية بدايتها ، تابع الحزب حديثه فى شرح البواعث الخارجية التى كانت من وجهة نظره سببًا فى إحكام الحركة الثورية وظفرها :

«.... يجب أن نذكر فى هذا الإطار أن تبدل الأوضاع فى العالم ، وتغير القوى بما يلحق الضرر بالإمبريالية والرجعية ويفيد الجبهة العالمية العريضة المعادية للإمبريالية - أى الدول الاشتراكية - ، والحركات الوطنية التحررية ، وحركة العمال ، وأيضًا الانتصارات العظيمة التى خطفت الأبصار للحركات التحررية فى الأعوام الأخيرة ، والانتصار التاريخى لشعوب ڤيتنام ، ولاوس وكامبوديا ضد الإمبريالية الأمريكية ، وغيرها من الانتصارات الخاصة بالثورات فى آسيا وأفريقيا ، كل هذا كان له عميق الأثر فى تهيئة الظروف الملائمة وإعداد المناضلين فى طريق استقلال إيران

وحريتها وتشجيعهم من الناحية المعنوية . وحرى بنا فى هذا المقام أن نشير إلى حدث خاص ألا وهو توفيق إخواننا فى ثورة أفغانستان . ومن العوامل الأخرى التى كان لها الدور العميق فى تقدم ثورة إيران ضد السياسة المعادية للثورة - أى الإمبريالية الأمريكية - هو موقف الاتحاد السوفيتى .

فكما نعلم أن الصديق برجنيف قد صرح خلال حديث صحفى له لجريدة «برافدا»، قائلاً : إن الاتحاد السوفيتى يعارض تماماً التدخل فى الأحداث التى تتم داخل إيران أيا كان نوع هذا التدخل . وكانت سياسة الإصرار من قبل الاتحاد السوفيتى فى هذا الشأن حائلاً لاستخدام الإمبريالية - كما كان فى السابق - سياسة اللجوء العلنى إلى القوة ضد الشعب ، ومكنت شعب إيران من التعامل مع أعدائه فى الداخل والخارج معتمداً على نضاله ومقاومته» (٣٤) .

كما أن الانتقادات والانحرافات التى يوجهها حزب توده - من وجهة نظره - إلى كيفية ظهور الثورة الإسلامية ، بعضها واضح قلما يحتاج إلى توضيح . فكم كانت ثورة أفغانستان مصدر إلهام للإيرانيين ، وكم كان موقف الاتحاد السوفيتى باعثًا لتدعيم الثورة وظفرها ، ولا أظن أن الأمر فى حاجة إلى توضيح .

وفى الواقع كانت موسكو تتخذ موقفًا متماسكًا للغاية حيال أحداث إيران فى عهد الثورة ، وقد أبدى الاتحاد السوفيتى بالفعل تأييده للثورة فى وقت لم تدرك فيه أكثر العناصر نفوراً من الشاه أن عمر نظام الشاه قد أوشك على النهاية . فضلاً عن أنه ليس معلومًا خلال عشرات الأعوام التى كانت تتدخل أمريكا خلالها بشكل علنى فى الخاص من شئون إيران لمَ وكيف كانت حكومة الاتحاد السوفيتى تتحمل هذا التدخل؟ ولمَ توجه إنذاراً إلى واشنطن كى تترك إيران وشأنها ؟

غير أن المشكلة الأساسية حول فكر حزب توده هى دور أمريكا وسياستها الجديدة على المستوى العالمى وخاصة فى إيران . ويشير الحزب كذلك - كمجاهدى الشعب - إلى وجهة نظره فى التغيير الذى طرأ على السياسة الأمريكية ، إلا أنه يذكر سبباً لظهور هذا التغيير يتفاوت تماماً مع وجهة نظر المجاهدين :

«وما يمنع القيادة السياسية الأمريكية الآن من استخدام أساليب التعدى العلنية السابقة ، ليس تغيير ماهية السياسة الإمبريالية لأمثال كارتر وروكفلر ، بل هو تلك

القوة المتنامية يومًا بعد يوم للجبهة العالمية العظيمة المعادية للإمبريالية ، وحصنها الأساسى هو مجتمع الدول الاشتراكية الذى يحول دون قيام الإمبريالية بهذه الإجراءات الظالمة» (٣٦) .

وقد شاهدنا من قبل أن المجاهدين لم يعدوا تغيير سياسة أمريكا فى عهد كارتر سوى أنها لا تزيد عن كونها مؤامرة استمدت من تجارب ڤيتنام ، للحيلولة دون ظهور الثورات . فى حين أن حزب توده يرى على العكس من ذلك أن السياسة الجديدة ليست فقط مؤامرة وحيلة ، بل هى تقهقر الإمبريالية تحت ضغط «الجبهة العظيمة المعادية للإمبريالية» . لكن الأمر المهم هنا هو أنه على الرغم من اختلاف المبرر حول «سياسة أمريكا الجديدة» إلا أن كلتا المجموعتين تشتركان فى مسألة أساسية . ولذا فإن تحليل حزب توده أيضًا - كتحليل المجاهدين - واجه مشكلة مع قدوم حكومة ريجان . فلو كان سبب عدم «استخدام أساليب التعدى» من قبل واشنطن - كما يدعى الحزب - هو «قوة الجبهة المعادية للإمبريالية وحصنها الأساسى مجتمع الدول الاشتراكية» لكان لزامًا علينا أن نشاهد استمرار تلك السياسة من قبل أمريكا فى عهد ريجان أيضًا ، حيث لم يحدث تصدع فى الجبهة المعادية للإمبريالية ، ولم يتم فناء مجتمع الدول الاشتراكية . لكننا شاهدنا على العكس من ذلك أن سياسة أمريكا فى عهد ريجان كانت سياسة هجومية، تسعى للحرب والتدخل فى شئون الدول الأخرى إلى أبعد مدى .

* * *

أما رابع وآخر جماعة يسارية إيرانية قمنا ببحث وجهات نظرها وميولها المائوئية، وكذلك آرائها فيما يتعلق بأسباب ظهور الثورة الإسلامية هى جماعة حزب العمال الاشتراكى . وقد وقع اختيارنا على هذه الجماعة من بين الجماعات اليسارية الأخرى لسببين ، أولهما : إن هذه الجماعة كانت موالية للقوى الماركسية فى الخارج ، وهى إحدى الجماعات الأساسية الموالية لاتحاد الطلاب والدارسين الإيرانيين ، فضلاً عن أن آراء هذه الجماعة تتفاوت فى مجموعها وآراء الجماعات الثلاث اليسارية الأساسية - الفدائيون ، المجاهدون وحزب توده - وهذه الجماعة - مثل الجماعات الثلاث السابقة -

تعتبر أن السبب الأساسى لظهور الثورة الإسلامية يتمثل فى المسائل الاقتصادية وأزمة الرأسمالية»:

«إن الركود الدولى للعالم الرأسمالى ونتائجه كان سببًا فى احتدام أزمة إيران الاقتصادية، وبلغ معدل التضخم ٣٠٪، وارتفعت أسعار السلع الرأسمالية المستوردة من العواصم الإمبريالية بسرعة هائلة تفوق ارتفاع أسعار النفط.

.... والضجة التى افتعلتها السلطة فيما يتعلق بتحرير المرأة لم تكن سوى محض افتراء يثير الخجل. وعلى الرغم من أن بعض الامتيازات القانونية قد ارتبطت بالمرأة، وتم تعديل بعض القوانين الظالمة المجحفة بحق المرأة، إلا أن هذا الإجحاف لم يتم تغييره.

والشعب الذى سُحق تحت وطأة النظام بشكل وحشى، قد وطأ هذا النظام جميع حقوقه الثقافية واللغوية تحت قدميه، وجعل منه - بالمقارنة مع المتحدثين باللغة الفارسية - رعايا من الدرجة الثانية.

ولما كان الجزء الرئيسى من الشعوب المظلومة يتمثل فى القرويين، فقد تكوَّن الظلم القومى باستغلال القرويين الفقراء، والعمال الأدنى مكانة، وأهالى القرى المعدمين الذين طردوا من أرضهم وهاجروا إلى المدن. وجميع هذه الحقائق تنفى تلك النظرية التى تنص على أن إيران فى حال تبديل إلى دولة إمبريالية صغيرة بسبب دخل النفط. فعلى العكس من ذلك، زاد دخل النفط من التخبط الاقتصادى الذى كان باقيًا فى إطار السلطة الإمبريالية»(٣٧).

وبعد أن يطرح حزب العمال أسباب ظهور الثورة وفق مزاعمه، يدخل إلى مرحلة تالية يعرض فيها كيفية ظهورها وتشكيلها :

«حدث تصدع فى الكيان المحكم لاستبداد السلطة منذ عام ١٩٧٦م (١٣٥٥هـ.ش)، فقد ارتفعت ضجة استغلال كبار مسئولى النظام وبعض الأسر من الخمسين أسرة التى استفادت من الثورة البيضاء. وظهر أول خلاف فى الرأى بين من كانوا على رأس السلطة حول كيفية السياسات اللازمة لمواجهة الأزمة الاقتصادية. وبدأ وجه السلطة الديكتاتورى فى الانكسار دفعة واحدة» (٣٨).

وبعد أن يكسر حزب العمال الاشتراكى وجه السلطة دفعة واحدة نتيجة للأزمة الاقتصادية ، يتتبع موضوع «الأزمة فى جبهة الإمبريالية» وأثرها فى ظهور الثورة الإسلامية :

«فيما يتعلق بالركود الاقتصادى العالمى ونتائجه ، قام النظام بزيادة ضرائب التجار ، ورفع الأسعار واتخاذ بعض السياسات الجمركية . وكان ذلك لصالح الإمبرياليين والخمسين أسرة القابضة على القوة الاقتصادية» (٣٩) .

وقد أدت الميول الفكرية للثلاث جماعات السابقة حول «الإمبريالية العالمية» إلى ظهور مجموعة من المشكلات والتناقضات . ويحمل الميل الفكرى لهذه الجماعة أيضاً تناقضاً آخر . فلو نفترض أن «الإمبريالية العالمية» قد تعرضت بالفعل فى تلك الفترة إلى أزمة اقتصادية ، ولو نفترض أكثر من ذلك أن نظام الشاه قد انبرى لإنقاذ الإمبريالية من أزمتها الاقتصادية ، وفى النهاية ، لو نفترض أن اقتصاد إيران (الذى كان فى ذلك الوقت يعانى من أزمة وفق زعم الاتجاه اليسارى) كان فى إمكانه إنقاذ اقتصاديات أمريكا ، وإنجلترا ، وفرنسا ، وألمانيا ، واليابان ، وكوريا الجنوبية وغيرها من الاقتصاديات التى تشكل اقتصاد العالم الإمبريالى ، فهذا أيضاً لا يحل المشكلة . فليس معلوماً أن زيادة تحصيل الضرائب الجمركية فى الدولة سيكون سبباً لإنقاذ «الإمبريالية العالمية» من ركودها الاقتصادى من ناحية ، ومن ناحية أخرى تزداد مصالح الرأسمالية المحليين و «الخمسين أسرة المقتدرة» . فهذه السياسات كانت باعثاً لتخفيض واردات الدولة من الإمبرياليين ، وزادت عملياً من الركود بدلاً من إنقاذه بتخفيض قوة إيران الشرائية . فضلاً عن أن هذه القرارات قد حدت من دخل الرأسماليين بدلاً من زيادته .

وعلى أية حال ، فمن مجموع هذه السياسات ، فضلاً عن «الهجوم على طبقة العمال عن طريق تثبيت مستوى الأجور» (٤٠) يستخلص حزب العمال الاشتراكى نتيجة مفادها :

«إن جميع هذه الإجراءات زادت من عزلة مجتمع السلطة ، وأظهرت هذه العزلة نفسها فى صورة هزيمة الشاه داخل مؤسسة مؤلفة من حزب سياسى واحد مطالب بالسلطة على أساس الثورة البيضاء» (٤١) .

وبعد أن يرى الحزب وجه السلطة الديكتاتورى يتهاوى على هذا النحو دفعة واحدة، ويرى وجوب سقوط حزب رستاخيز أيضًا على أثر المشكلات الاقتصادية للنظام وفى ظل أزمة الرأسمالية العالمية ، يعلن عن استعداد المجتمع للثورة :

«كان عام ١٩٧٧م (١٣٥٦هـ .ش) نقطة تحول فى أزمة النظام ، وبدأ بعض المفكرين والمعارضين والليبراليين عامة فى الجبهة الوطنية السابقة الموالية للنضال الدولى للدفاع عن حقوق الإنسان فى إيران يعلنون عن معارضتهم للنظام بشكل علنى»[٤٢].

وفى النهاية يحل الدور على أمريكا . فإذا كان المجاهدون يعتقدون أن أمريكا كانت ترتدى على وجهها قناع حقوق الإنسان ، وكانت تحمى الديكتاتوريين حتى لا تقوم ثورة فى الدول الواقعة تحت سلطتهم . وإذا كان حزب توده يرى أن أمريكا لم تتمكن - كالسابق - من استخدام سياسة العنف والقمع تجاه الثورة بسبب الانتصارات الخلابة للقوات المعادية للإمبريالية - وفى مقدمتها الدول الاشتراكية - هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، بسبب الموقف القوى للاتحاد السوفيتى القائم على عدم التدخل فى الخاص من شئون إيران غير أن هذين الاعتقادين لا يوجدان لدى حزب العمال الاشتراكى ، فهو يصرح :

«قرر نظام الشاه سحق جميع الجبهات المعارضة بموافقة واشنطن»[٤٣] .

* * *

إن طرح البواعث الاقتصادية فيما يتعلق بأسباب ظهور الثورة لا يقتصر فقط على الكتاب الغربيين أو الماركسيين . فكثير من الكتاب - سواء من رجال الدين أو غيرهم - فى إيران ممن كتبوا حول الثورة قد طرحوا نفس الآراء، سواء لوقوعهم تحت تأثيرهم ، أو لتتبعهم الأفكار اليسارية ، أو سواء كانوا مستقلين عنها .

ومع الأخذ فى الاعتبار أن معظم اليساريين فى إيران قد قاموا بعرض المسائل الاجتماعية وتحليلها ، وأن أدبنا السياسى فى هذا المجال متأثر بشدة بأفكارهم ،

ويجدر بنا أن نضيف إلى هذه العوامل بعض العوامل الأخرى ، مثل : تواجد حشد هائل من الأجانب - خاصة الأمريكان - ، ونقص الخدمات الاجتماعية ، والبطالة المتنامية للطبقات الدنيا والمتوسطة ، وتوسيع الفجوة بين الطبقة المرفهة والطبقات الاجتماعية الأخرى»(٤٤) .

* * *

ولنترك نقد النظريات التى أحصيناها حتى الآن ، ولنطرح فى هذا المقام آخر نظرية حول أسباب ظهور الثورة .

رابعاً: نظرية الدين أحد بواعث الثورة

ذكرنا فى البداية أن أحد خصائص الثورة الإسلامية الأكثر حيرة والأكثر تعقيداً هو بعدها الدينى . مثير للحيرة ليس فقط لانعدام العلاقة بين أية ثورة من الثورات المعاصرة وبين الدين ، بل لأنه قلما يوجد تطور سياسى أو اجتماعى مهم فى القرن الأخير على مستوى العالم مرتبط بمثل هذه الصورة بالدين، وممتزج به على هذا النحو الواسع . ومعقد من ناحية أنه قلما كان دور الدين فى الثورة موضع البحث الأكاديمى، وقلما استطاع كاتب أن ينحو جانب الواقعية فى تقديم هذا الدور القيم وتحليله .

ومن بين الكتابات التى ألفت حول الثورة الإسلامية يمكن تقسيم مجموعة الآراء التى طرحت حول الدين وعلاقته بالثورة الإسلامية إلى ثلاث مجموعات :

المجموعة الأولى : ليس لها أى تعامل مع الدين أو إيمان بدوره فى الثورة، وتتألف من الطوائف اليسارية أو الماركسية ، ومؤيدى افتراض التآمر ، وبعض الكتاب الغربيين، وفى النهاية ، بعض الوطنيين الإيرانيين .

المجموعة الثانية : (وهم أساساً فى الغرب): تتألف من الكتاب الذين ينظرون إلى الدين على أنه أحد العوامل السلبية .

أى أنهم يعتقدون أنه أحد العوامل أو أحد ردود الأفعال إزاء إصلاحات الشاه التحديثية . وكانوا أساساً من الجماعات الاجتماعية التى لعبت دوراً مهمًا أكثر من غيرها فى مذهبية الثورة ضد الشاه ، وهم من أهل السوق ، والقرويين المهاجرين إلى المدن ورجال الدين .

والمسألة الأخرى التى تطرح بوساطة هذه المجموعة هى أن قلق نظام الشاه كان أكثر تجاه معارضيه غير الدينيين من أمثال الوطنيين، حزب توده والجماعات الأخرى، وكان فى غفلة عن الدين ومعارضيه الدينيين، والنتيجة أن تمكن رجال الدين من النمو ، وتمكنوا من السيطرة على قيادة الحركة المضادة للنظام ، مستفيدين من عنصر الاستياء الذى أوجدته إصلاحات الشاه المتطورة من جهة ، ومن جهة أخرى من القضاء على المعارضين الآخرين [الذين تم القضاء عليهم من قبل الشاه] .

والمجموعة الثالثة : تتعارض تماماً والمجموعة الأولى ، فحين ينعدم فى تحاليل المجموعة الأولى أى أثر عن الدين ومكانته ودوره فى الثورة ، فإن المجموعة الثالثة لاترى فى الثورة شيئًا سوى الدين والإسلام . وأساساً لو لم نقيم الثورة وفقًا للدين ، فعلى الأقل نقيمها على اعتبار وجود علاقة بينهما . بعبارة أخرى ، يعتبر فى هذا الموضع أن عامل الاستياء ، والمعارضة ، وأخيراً الهجوم ضد الشاه كان بسبب وطء الشاه الإسلام تحت قدميه ، والنتيجة مطالبة الشعب الإطاحة بنظام الشاه من منطلق الإسلام ولإيجاد حكومة إسلامية .

ولاشك أن هذه النظرية قلما تعلن بمثل هذه الصراحة وذلك الوضوح السابق ، فأولئك الذين يطرحون هذه النظرية يذكرون دومًا أسباباً أخرى ، لكنهم فى النهاية يضعون الثقل والعبء النهائى الخاص بأسباب ظهور الثورة على كاهل المحافظة على الإسلام .

ويعتبر حجة الإسلام السيد "عباس على عميد زنجانى" أن السياسة المناهضة للإسلام [١٠] هى العامل الأصلى والمحدد لسقوط نظام الشاه ضمن عدم نفيه للعوامل الأخرى فى ظهور الثورة ، يقول :

"إذا ما بحثنا فى الأسباب والعوامل التى تخرج عن ماهية الثورة الإسلامية وآمالها وجذورها التاريخية ، يستنتج عامل واحد فقط هو السبب الأصلى والعامل الأول

فى أحداث الثورة منذ ميلادها وحتى ظفرها، ألا وهو تنفيذ السياسة المناهضة للإسلام بوساطة الشاه الذى كان يرى فيها استمراراً لنظامه بهدف جذب التأييد الأجنبى له بشكل أكبر ، وإرساء دعائم سلطنته وحكمه الديكتاتورى داخل البلاد "(٤٥) .

ويقيم د. محمدى – الذى ذكرناه من قبل – العلاقة بين الدين والثورة على النحو التالى :

"... إن السبب الأصلى والأساسى لثورة الشعب هو أن الشاه قام بمحو القيم الراسخة للمجتمع المنبثقة من الدين وعقائده ، ولنفس السبب المتعلق بجرح المشاعر الدينية لشعب إيران المسلم ، لم يعد ثمة مجال آخر للصبر والتحمل إزاء جميع المساوئ الاجتماعية والاقتصادية "(٤٦) .

ويقوم افتراض السيد عميد زنجانى على أن الشاه كان مضطرا للاعتماد على قوى الاستكبار لاستمرار حكومته ، ولما كان الإسلام معارضًا للتعامل مع مثل هذه القوى اضطر النظام لمجابهة الإسلام .

من ناحية أخرى ، يعارض الإسلام أسلوب الحكم المستبد – وكان هذا هو أسلوب نظام الشاه – والنتيجة أن أصبح الإسلام والشاه فى تضاد من هذا المنطلق، ووفقًا لرؤيتهم فإن النضال ضد الشاه – الذى تم بقيادة الإمام الخمينى – تم فى ثلاث مراحل . المرحلة الأولى يكون السعى فيها لتحذير الشاه من هذه السياسة الخطيرة (المناهضة للإسلام) ، والتى لم يكتب لها النجاح .

ثم تأتى المرحلة الثانية ويتم النضال والمقاومة والعراك فيها بشكل غير مباشر يؤدى إلى زيادة إضعاف النظام وتعبئة الشعب عن طريق الإعلام . وفى النهاية وبعد أن يصل النظام إلى مرحلة الكارثة ، تأتى المرحلة الثالثة للثورة وفيها يكون الإطاحة بنظام الشاه وميلاد الثورة الإسلامية (٤٧) .

وحول مدى توافق هذه النظرية مع التطورات السياسية والاجتماعية والدينية الحقيقية فى إيران ، فهذا يستلزم بحثًا . لكن الشىء المبهم الذى تظهره هذه النظرية هو مسألة الكارثة التى لحقت بنظام الشاه . فوفقًا لهذه النظرية كان النظام قويا فى بداية سياسته المناهضة للإسلام ، وتدريجيا صار أكثر ضعفًا خلال المرحلة الثانية

حتى بلغ هذا الضعف فى النهاية - أى فى المرحلة الثالثة - مرحلة إصابة الشاه بكارثة والإطاحة به . بمعنى آخر ، أنه فى بداية الفترة التى بدأت فيها السياسة المناهضة للإسلام [التى يعدها عميد زنجانى منذ عام ١٣٤٠ ش (١٩٦١م)] كان النظام أكثر قوة من فترة بداية الثورة (١٣٥٦ ش - ١٩٧٨م) . فى حين أن الواقع كان على عكس هذا الادعاء تماماً . فنظام الشاه كان أقوى سواء فى مجال السياسة الخارجية أو من حيث دخل النفط أو الوضع الاقتصادى ، وسواء من ناحية الأمن الداخلى، والأمور العسكرية والحربية والسيطرة على المعارضين. والخلاصة ، كان النظام - من جميع النواحى - أكثر قوة فى عام ١٣٥٦ ش عنه فى عام ١٣٤٠ ش . لكن المشكلة الأساسية فى هذه النظرية - كغيرها من النظريات الأخرى التى طرحناها حتى الآن حول أسباب الثورة الإسلامية - أنها لاتقدم الثورة الإسلامية فى إطار مسيرة التطورات السياسية والاجتماعية والدينية فى إيران . أى أنها لاتعدها ظاهرة مرتبطة بهذه التطورات . ورأينا من قبل أن النظريات الأخرى كانت لها بالفعل مثل هذه الرؤية . فمثلاً النظريات التى كانت ترى الثورة الإسلامية نتاج إصلاحات الشاه الحديثة ، أو النظرية التى تعدها نتاج الارتفاع المفاجئ لأسعار النفط فى أوائل الخمسينيات (السبعينيات بالتقويم الميلادى) ، أو نتاج التأثير الاجتماعى والاقتصادى السلبى لهذا الارتفاع ، أو النظريات التى كانت تبحث عن جذور الثورة فى المشاكل الاقتصادية .

فجميعها كانت ترى الثورة شيئاً منفصلاً عن سير التطورات فى إيران المعاصرة . وهذا الانفصال لاشك يستلزم وقتاً ؛ لذا رأينا أن كلا منها يقدم تاريخاً لبداية الثورة الإسلامية . ونظرية الثورة من أجل الإسلام لاتستثنى أيضاً من هذه القاعدة ، وجميع من يتبعون هذه النظرية يطرحون أوائل الأربعينيات، وتحديداً عام ١٣٤٢ ش (١٩٦٣م) على أنه بداية الثورة الإسلامية .

ويذكر السيد عميد زنجانى أيضاً بداية الثورة على النحو التالى :

"كان الشاه يعتقد أن سياسته المناهضة للإسلام تستطيع أن تنقذه من مخالب المانع الأساسى لاستمرار نظامه ، وأنها تنحى مشاكله السياسية الخارجية

والداخلية جانبًا ، وأنها تمهد الطريق لبقاء سلطنته وإحكام قوته ، وقد دخل ميدان النضال منذ عام ١٣٤٠ ش (١٩٦١م) بإخفائه الباعث الأساسى لهذه السياسة وتحت غطاء مسمى الإصلاح ، ولما كانت الدولة والشعب المسلم المتمسك بالإسلام كلاهما مرتبط برجال الدين حماة الإسلام ، فقد جوبه منذ الخطوة الأولى بمقاومة رجال الدين الذين هم لسان الإسلام ولسان حال شعب إيران المسلم "(٤٨).

وقد تم تأجيل البحث فيما يتعلق بالاستفسار حول : هل يجب اعتبار الثورة الإسلامية ضمن مجموعة التطورات السياسية والاجتماعية والدينية المعاصرة فى إيران؟ أم نعتبرها جزءًا من هذه التطورات ؟ أم (كما يعتقد مؤيدو افتراض التحديث والإسلام أحد عوامل الثورة) يمكن أن نقيمها بعيدًا عن هذه التطورات؟ حيث سيرد الحديث تفصيليا حول هذا الأمر فى موضع آخر .

ونظرية "الدين أحد عوامل الثورة" تختلف عن النظريات السابقة فى واحد من الاختلافات الأساسية ، فقد بدأت هذه النظرية تنمو فى نفس الفترة التى نمت فيها الحكومة الإسلامية .

فى بداية الأمر ، سواء خلال عهد الثورة ، وسواء فى الأعوام الأولى التالية للثورة، كان المحللون السياسيون والإسلاميون ينظرون إلى الدين على أنه قوة اجتماعية يمكن أن تجمع القوى الغاضبة والمقاومة للشاه تحت لوائها . ففضلاً عن نظرتهم للإسلام على أنه يحل محل نظام الشاه، وأنه يستطيع تنفيذ الإصلاحات التى لم يستطع النظام القيام بها أو لم يرد القيام بها ، وفى النهاية يمحى الارتباط السياسى والاقتصادى لإيران بدول الغرب .

لكن يجب ألا يكون بعيدًا عن التصور أن النظام الجديد الذى كان يُفسر على أنه نظام إسلامى فى قالب إحدى المؤسسات الحكومية كان يقدم تدريجيا رؤية جديدة عنه وعن الثورة، رؤية أن ذلك النظام الجديد قد نتج ليس باعتباره وليدًا للثورة فقط، بل باعتبار أن النضال وسقوط النظام السابق وظهور الثورة قد تحقق أصلاً بسبب هذا الميلاد .

ولاينبغى أن يكون هذا بالأمر الغريب ، فنحن نشاهد أيضًا فى الثورات الأخرى هذه الظاهرة . ففيها كذلك نفس الفكرة التى تحكم فى قالب النظام الجديد وبعد

المقاومات والمعارك الأولية، بعيداً عن كونها وليدة الثورة ، بل أنها تمضى لأقل من هذا، وتقدم الثورة أساساً فى اتجاه أو بهدف وجودها .

على سبيل المثال ، فى أحداث الثورة الإسلامية ، إذا ما كان حزب توده قد بلغ فى النهاية سدة الحكم بنفس النمط الفكرى الخاص به تجاه الثورة والذى شاهدناه من قبل ، فهل يكون هناك تقييم سوى أن هذه الثورة كانت نضالاً تاريخيا بهدف سيادة الكادحين وخاصة طبقة العمال وإيجاد نظام اشتراكى فى المجتمع ؟ !

لكن فى الاتجاه المقابل ، أى عدم طرح الدين فى التحاليل السابقة التى قدمناها عن الثورة ، فالأمر يحتاج إلى مزيد من الإيضاح . ففيما يتعلق بالاتجاه اليسارى فهذا الأمر غير بعيد عن الذهن . ففى التقسيم الذى تعمل به الماركسية حول الأركان المكونة للمجتمع تجعل الدين جزءًا من السمات الخاصة بهذا المجتمع. والسمات الأخرى كالثقافة ، والأيديولوچية ، والمعتقدات السياسية ، والسلوك الاجتماعى وما إلى ذلك وليدة قوى وعوامل أساسية . وثمة سمات أخرى تمثل البنية التحتية للمجتمع كالاقتصاد ، والأنماط الملكية وعلاقة الحاكم بذلك المجتمع . وعليه لايجب أن ننتظر من الاتجاه اليسارى أكثر مما قدمه فى تقييمه موجة المطالبة بالإسلام التى شاهدناها خلال الثورة . وتلك الموجة نفسها طبقًا للقول الشهير "الشروق دليل على الشمس" هى علامة استفهام فى مقابل فكر الاتجاه اليسارى حول هذا الأمر .

وبناء على ماسبق يتضح أن الاتجاه اليسارى لايدخل العالم الواقعى للنضال من حيث الكم أو الكيف بالنسبة للقوى السياسية المتصارعة أو لرغباتها وميولها وبواعثها . وعلى النقيض يستقر على عرش نسج الخيال ، ويتحدث عن "الأزمات الاقتصادية" ، "وسوء الأحوال المعيشية للعمال والوضع المضنى للكادحين" و" الركود والأزمة التى ألمت بالنظام الإمبريالى العالمى" .

* * *

لو أن توضيح انعدام عنصر الدين فى تحاليل الاتجاه اليسارى حول ثورة إيران الإسلامية جلى لايحتاج إلى نقاش ، ففى التحاليل الأخرى لاتوجد مثل هذه البساطة ،

وتبدو المسألة فى شكل أكثر تعقيداً . وأساساً بسبب قلة دور الدين على أنه أحد العوامل السياسية والاجتماعية فى المجتمعات الغربية ، فإن المحللين قلما يرون أنفسهم مضطرين للاصطدام به .

وعلى أساس التجارب التى حدثت فى الغرب يوجد هذا التصور العام ، وهو أن التطور الصناعى وإيجاد المؤسسات الاجتماعية الحديثة يؤدى إلى ظهور العلمانية وتنحية الدين عن الحياة السياسية والاجتماعية للمجتمع .

وفيما يتعلق بإيران توجد هذه النظرة فى كثير أو قليل ، فنتيجة التطور الاقتصادى والاجتماعى الحديث فى أوائل القرن العشرين وفى العهد البهلوى- خاصة فى عهد رضا شاه - لم يعد للدين أى دور فى التطور السياسى أو الاجتماعى للدولة . وبعض المحللين الإيرانيين أيضاً يتبعون الغرب فى كونهم ، إما أنهم يفترضون أن الدين فى إيران قد انتهى ، أو أنهم لايقرون بدوره فى التطورات الاجتماعية .

وقبل ظهور ثورة إيران الإسلامية باثنين وعشرين عاماً يرى خداداد فرمان فر مائيان - أحد الأكاديميين الإيرانيين - أن الدين قد انتهى فى المجتمع الإيرانى ، فيقول : "لقد تحطم البنيان الاجتماعى والاقتصادى الذى كان مربيا للقيم والتقاليد (للمجتمع الإيرانى) ، وعلى الرغم من عدم إحلال قيم أخرى جديدة محلها حتى الآن ، فإن الدين سواء كان فى قالب إحدى القوى الاجتماعية ، وسواء كان مأمناً للفرد (فى المجتمع) قد فقد أثره لفترة طويلة ، وما من علاقة لدينا توحى بإحيائه أو إعادته مرة أخرى "(٤٩) .

ولم يكن فرمانفرمائى هو المحلل الوحيد الذى اعتقد بانتهاء أمر الدين ، فبعده بعشرين عاماً ، وعلى الرغم من وجود العديد من الأدلة والقرائن ، قام "فرد هاليدى" بتحليل المجتمع الإيرانى برؤية تقترب فى قليل أو كثير من نفس الرؤية السابقة . ففى مؤلفه الشهير المكون من ثلاثمائة صفحة والذى نشره قبل الثورة ببضعة شهور يتناول الدين فى حديثه حول إيران فى حدود صفحتين . وعلى الرغم من أن هذا المؤلف يعد فى كثير من الجوانب نقطة تحول فى مجموع المؤلفات التى تم طبعها حول إيران ونظام الشاه حتى ذلك الوقت (خاصة بسبب تعرضه لواقع نظام الشاه والتصوير الكاذب الذى أعده الغرب عنه) . لكن "هاليدى" لم يقدم شيئاً إلى قارئه عن نهضة الإسلام

الاجتماعية والسياسية ضد النظام ، ولم يشر إلى الجماعات ولا إلى الأحداث ولا إلى الأفكار الدينية المعارضة، ولم يتطرق بالحديث عن إحياء الفكر الديني ومكانته في صفوف القوات المعارضة للنظام . والقارئ الذي يقرأ مؤلف "هاليدي" بعد أو حتى في الشهور السابقة على الثورة يواجه استفسارًا كبيرًا ، وهو : أين كانت تختفي كل هذي القوة الدينية داخل المجتمع الإيراني؟ ولم يذكر "هاليدي" حتى اسمها !

وعلى أساس كونه خبيرًا غربيا ماركسيا مهتما بشئون إيران ، فإن الرد الذي قدمه في النهاية بعد ظهور الثورة في توجيه وتفسير العنصر الديني لثورة إيران لايختلف كثيرًا مع تفسيرات الكتاب غير الماركسيين الذين - كهاليدي - تغاضوا عن ذكر أمواج الثورة الدينية . فهو يرى أن سمة الثورة الإسلامية - وخاصة زعامة الإمام الخميني - كانت في المراحل النهائية للنهضة وتحديداً بعد شهر يور عام ١٣٥٧ ش (١٩٧٨م) حيث تمكن من السيطرة على القيادة العامة للثورة .

فضلاً عن أنه يرى أن لفظ الإسلام هو في الحقيقة بمثابة قناع على وجه ثورة إيران ، يسعى لإخفاء الحقيقة وهي أن معارضي الشاه كانوا يشكلون طبقات الشعب المختلفة ، وأحلوا محلها فكرة أن المعارضين كانوا من ناحية المكانة الاجتماعية يمثلون طبقة واحدة ، كما أنه أوجد مشروعية لفظ الإسلامي لطبقة صغار البرجوازية التي كان لها دورها المهم في هذه الثورة (٥٠).

وبعيداً عن "هاليدي" فإن بعض الغربيين المهتمين بشئون إيران الذين يجابهون دفعة واحدة الأمواج الإسلامية في ثورة إيران قد سعوا كذلك لإظهارها على نحو آخر. "فنيكي كدي" على سبيل المثال ترى أن نظام الشاه كان يعتقد أن القوة الأساسية لمعارضيه تتمثل في العناصر غير الدينية وقد قام بالقضاء عليها ، وأدى هذا إلى تمكين القوى الدينية من المضي قدمًا دون خسائر والاصطدام بنظام الشاه في النهاية (٥١) .

والبعض الآخر يبحثون في أن العلماء كانوا يتمتعون بنوع من الحصانة أمام نظام الشاه ، فمن وجهة نظرهم أن الشاه كان على عكس أبيه - الذي كان يمارس أعمال القلع والقمع إزاء رجال الدين - لم يحكم السيطرة عليهم ، والنتيجة تمكن رجال الدين من تكوين قوات معارضة له (٥٢) .

وإثبات عدم صحة هذه التوجهات لايحتاج إلى عناء، فعلى عكس النظريات المذكورة لم يكن الحال يوحى بأن النظام كان قلقًا فقط من القوى غير الدينية أو من معارضيه القدامى (حزب توده والوطنيون) ، وكان غافلاً عن العناصر الدينية ، فعلى الأقل كان أكثر من نصف المعتقلين السياسيين والمكبلين بأغلال السافاك يمثل القوى والعناصر الدينية ، وإذا ما انعدم ذكر معارضى النظام القدامى أو التقليديين فى عهد الثورة (كالحركة الوطنية ، والجبهة الوطنية وحزب توده)، فلم يكن ذلك بسبب أن النظام قد قضى عليهم أو قيدهم وترك فى المقابل العنان للقوى الدينية . وكان عدم ذكرهم نابعًا من أن هذه القوى لم يكن لها حضور فعلى منذ خرداد ١٣٤٢ ش (١٩٦٣م) وما بعد ذلك على أنها قوة أساسية من معارضى النظام كما كانت فى السابق ، فقد بلغ عدد المعتقلين السياسيين من رجال الدين فى أعتاب الثورة من ألفين إلى ثلاثة آلاف شخص ، فى حين كان عدد المعتقلين السياسيين المنتمين إلى الجبهة الوطنية وحركة التحرير وحزب توده حوالى مائة شخص . والحصانة السياسية للعلماء لم تكن أكثر من خيال واهٍ .

صحيح أن الشاه لم ينفذ السياسة المناهضة للإسلام المضادة لرجال الدين بنفس القسوة التى نفذها بها أبوه . صحيح أنه لم يواجه بمعارضة جادة من قبل علماء قم قبل عام ١٣٤١ش (١٩٦٢م) . لكن منذ ذلك التاريخ وماتلاه كان الشاه يرى نفسه أكثر قوة وأهمية من ذى قبل ، والأهم من ذلك لم تكن توجد مرجعية المرحوم آية الله العظمى بروجردى [١١] ، وكان الشاه يتصادم مع كل رجل دين يعلن عن معارضته لسياساته.

وتلك الطائفة من العلماء ورجال الدين ممن كان يبدو عدم وجود مشاكل لديهم تجاه الحكومة ، كان عدم اصطدامهم بالشاه ناشئًا من عدم تدخلهم فى الشئون السياسية وليس لكونهم يتمتعون بحصانة خاصة من قبل النظام . فعشرات من رجال الدين الذين زج بهم فى السجون أو تم نفيهم بسبب معارضتهم للنظام هم دليل على بطلان مفهوم "الحصانة" من قبل نظام الشاه .

وبعيداً عن هذه الاتجاهات ، فقد طرحت نظريات أخرى أيضًا حول الأمواج الإسلامية التى امتزجت بالثورة . وتتركز هذه النظريات بين طبقات اجتماعية خاصة ،

من قبيل : رجال الدين ، وأهل السوق ومهاجرى القرى فى المدن . وقد أشرنا إلى هذه النظريات فى التحليل الخاص بـ "الثورة نتيجة إصلاحات التحديث" .

وأكثر هـذه النظـريات تداولاً هى التى تؤكد عـلى دور مهاجـرى القـرى فى المدن [١٢] . وبعيداً عن الغربيين ، فكما شاهدنا يوجد من بين الكتاب الإيرانيين أيضًا من يطرح هذه النظرية . وكما أشرنا سالفًا ، فإنه طبقًا لهذه النظرية عانى القرويون فى المدن من مشاكل اقتصادية واجتماعية ، ولما كانوا - إلى حد ما - من المتدينين ، لجأوا إلى الإسلام وكانوا يحاولون مجابهة الضغوط التى حولهم عن طريقه ، والنتيجة كانت ظهور الأمواج الإسلامية الهائلة التى شاهدناها فى إيران مقترنة بالثورة .

وقد أشرنا سالفًا إلى تحقيقات د . فرهاد كاظمى لدحض هذه النظرية ، وتوضح نتائج تحقيقاته ، **أولاً** :

إن هذه النظرية التى تقـول : إن القـرويين فى المدن كـانوا يعـانون من مـشـاكل اجتماعية ، هى من الأساس قابلة للشك . ودلائله توضح عكس ذلك ، حيث إنهم كانوا أكثر رضا بحياتهم فى المدن عنها فى القرى .

ثانيًا (وهو الأهم) :

عدم ظهور أى أثر لديهم من الفكر السياسى أو الاجتماعى (٥٣) . والشىء الوحيد الذى يمكن إعلانه بشكل مؤكد فيما يتعلق بهؤلاء هو أن القرويين المهاجرين - مثل بقية الجماعات - قد شاركوا فى الثورة بعد أن دارت عجلتها .

والجـمـاعـة الأخـرى التى تدعى بأنهـا ذات ضلع فى مـذهبيـة الثورة هى أهـل السوق [١٣] ، ويعتقد مدعو هذه النظرية أنه نتيجة لإصلاحات الشاه أصاب الكساد السوق من الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية ، وعليه ثاروا ضد النظام .

والبعض الآخر أشار أيضًا إلى العلاقة الاقتصادية الخاصة والرابطة الاجتماعية بين السوق ورجال الدين ، ويدّعون أنه بعيداً عن الاستياء الذى كان لدى رجال الدين أنفسهم من النظام ، فقد زادت معاناة أهل السوق أيضًا من أسباب هذا العداء بين الطبقتين وبين النظام (٥٤) .

الدين ، والأصولية والثورة الإسلامية

إن المشكلة الأساسية لدى جميع النظريات التى حققنا فيها حول العلاقة بين الدين والثورة أو مذهبية الثورة هى أنها تبحث هذه الظاهرة بمنأى عن سير التطورات السياسية والاجتماعية العامة داخل المجتمع الإيرانى ، وأقصى ما تقوم به هو طرح البعد الدينى للثورة فى العلاقة بإحدى الطوائف الاجتماعية المحددة أو ببعضها .

وحقيقة الأمر هو أن موجة الميل إلى الدين التى شاهدناها فى عهد الثورة وعرفت تدريجيا باسم "الأصولية الإسلامية" ليست ظاهرة بسيطة يمكن اعتبارها نتاج هذا الإجراء أو ذاك ، أو نتاج هذه السياسة أو سياسة النظام ، أو رد فعل هذه الطائفة الاجتماعية بعينها أو تلك تجاه هذه الإجراءات أو تلك السياسات .

ويفرض أن الشاه كان قد قام بمثل هذه السياسات على أرض الواقع (لأن بعض السياسات التى تنسب إليه معظمها فى ذهن كاتبها على أنها أحداث حقيقية تمت على مستوى المجتمع) ، فالسؤال الأساسى هنا، هو : أية علاقة يمكن أن تكون بين الدين والثورة؟ هل انعدم دوره ويجب أن نبحث عن جذور الثورة فى المسائل الاقتصادية كما يعتقد الاتجاه اليسارى ؟ أم أن الثورة كانت أساساً بسبب الدين كما يعتقد مؤيدو فكرة "الدين أحد عوامل الثورة"؟ هل الدين كان مجرد غطاء لإظهار المشاكل السياسية والاجتماعية والاقتصادية فى ظروف لم تكن فيها أية قناة أخرى فى متناول اليد؟ هل كان الدين هو الملاذ للطوائف الاجتماعية التى كانت تعانى من إصلاحات النظام السابق المتطورة أم كانت تعارضها من الأصل ؟

وفى النهاية، هذه الأمواج المطالبة بالإسلام أو الأصولية الإسلامية ، لمَ، وكيف ، ومن أين أحيت هذا الفكر الدينى الذى شاهدنا تدفقه فى عهد الثورة ونمته؟

وليس من السهولة الرد على هذه الاستفسارات ولاندعى العلم به . وأولئك الذين يعتقدون أن الإجابة على هذه الاستفسارات واضحة ولاتمس الحاجة فيها إلى بحث ، إما أنهم لم يفهموا هذه الاستفسارات جيداً ، وإما أن ردودهم هى من نفس نوع الردود التى تحدثنا حولها فى الجزء السابق [٥٥] .

إن إحياء الفكر الدينى وإقبال الناس على الإسلام ، والذى يذكره البعض باسم " الأصولية الإسلامية" وشاهدناه فى فترة الخمسينيات (أى السبعينيات بالتقويم الميلادى) ، وخاصة فى عهد الثورة هو أمر قلما كان موضع البحث والتمحيص الجاد والعلمى فى إيران نفسها مثل الكثير من التطورات الاجتماعية الأخرى . وبالتأكيد تمت فى الغرب أعمال جديدة حول هذه الظاهرة (٥٦). ولما كان هذا الأمر المتصل بالبحث فى الأصولية لايرتبط ببحثنا ، فعلاقتنا به تكون فى حدود أنه يتعلق بالثورة الإسلامية. والسؤال حول : هل الأصولية الإسلامية هى التى أوجدت الثورة أم لا؟ هو سؤال مهم لكنه فى الوقت نفسه سؤال افتراضى وأكاديمى للغاية ، والرد عليه لن يوصلنا إلى نتيجة . ولعل الشىء الأكثر أهمية هو أننا من الناحية التاريخية نجد أن الأصولية لها سابقة تمتد إلى ماقبل الثورة ، وعمرها - على الأقل - يصل إلى ما قبل الثورة بعشرة أو بعشرين عاماً .

والإقبال الدينى الذى شاهدناه فى عهد الثورة قد ظهر قبل ذلك بسنوات ، وربما يمكن ببساطة وبشكل عام أن نتحدث حول بعض أسباب وجوده، وأن ثمة مجموعة من العوامل السياسية والاجتماعية والاقتصادية كانت باعثًا على وجوده ، وبسبب استمرار تسلط تلك العوامل نمت الأصولية وامتدت جذورها بشكل سريع .

والاستفسار حول: هل كان من الضرورى أن تنتهى الأصولية بالثورة ؟ فلم يتضح بعد ما هو ثابت فى هذا الشأن . فلم تؤد أية حركة من حركات الأصولية فى الدول الإسلامية الأخرى حتى الآن إلى ثورة ، وكانوا يطرحون هذه الحركة دومًا على أنها إحدى القوى السياسية . والشىء الذى يمكن قوله بمنتهى الثقة هو أنه فى أعتاب الثورة ، أو لنكن أكثر دقة ونقول فى أعقاب الحركة التى أفضت فى النهاية إلى سقوط الشاه ، كانت الأصولية الإسلامية بالفعل هى الأكثر قوة بين القوى السياسية المعارضة للنظام ، وكانت تضم طيفًا واسعًا من الطبقات الاجتماعية المتباينة ؛ لذا كان من الطبيعى أن يلقى هذا الطيف بظلاله على الثورة عامة وأن يتولى زعامتها بشكل عملى .

والأكثر من هذا كله ، إذا ما أردنا أن نتحدث حول الأصولية الإسلامية والثورة ، سنقع أسرى إعمال الفكر بسبب انعدام الدراسات، وسنقدم بعض النتائج الخيالية التى تتشابه مع ما رأيناه سالفًا .

وقد ذكرنا من قبل أن تقييمنا للأصولية سيقع فى إطار علاقتها بالثورة وحدودها. فضلاً عن أن ما سوف يأتى سيكون فى حدود إحدى النظريات البسيطة . فالتعمق حول الأصولية أمر معقد للغاية .

فى البداية يطرح هذا السؤال : هل نستطيع أن ننظر إلى الأصولية الإسلامية على أنها ظاهرة كانت عناصر وجودها متأثرة فى النهاية بمجموع العوامل الاجتماعية، والسياسية والاقتصادية ؟ ولو يكون ردنا بالإيجاب على هذا السؤال ، ففى هذه الحالة يجب أن نقبل أن ظهورها لم يكن أمراً قاصراً على إحدى الدول بعينها ، فإذا ما توافرت هذه الظروف فى أى مجتمع إسلامى آخر، فلا ريب سوف تحدث الأصولية .

بعبارة أخرى ، ثمة أوجه شبه بين الأصولية الإسلامية فى مصر والجزائر أو فى ماليزيا وإيران ، واحتمال وجود اشتراك بين الأصولية الإسلامية فى إيران وسائر الدول الإسلامية لاينبغى أن يكون باعثاً لهذا التصور، ألا وهو أن هذا الاتجاه فى إيران لم يكن له سمات خاصة به ، فمن وجهة نظرنا أنه يمكن تقسيم أسباب ظهور الأصولية أو إحياء الفكر الدينى فى إيران إلى ثلاثة أسباب ، هى : مكانة التشيع ورجال الدين فى إيران ، العوامل السياسية، والتطورات الدينية المعاصرة.

نعلم أنه على عكس الديانة المسيحية اليوم التى تتركز دائرتها الأصلية فى علاقة الفرد مع الخالق ، فإن الإسلام يدخل فى دائرة العلاقات الاجتماعية . وفى حين أن الدين يعد أمراً شخصيا فى العديد من المجتمعات الغربية ، ففى المجتمعات الإسلامية يوجد مكان دوماً لالتحام الدين بالأمور السياسية والاجتماعية ، وهذا الأمر فى المذهب الشيعى أشد منه فى المذهب السنى ، والأدلة حول هذا الشأن خارج نطاق بحثنا . لكن يمكن القول بشكل إجمالى : إنه من وجهة نظر الشيعة تتخذ الحكومة شرعيتها فقط فى حال ارتباطها بالإمام المعصوم . لذا فإن الحكومات التى حكمت باسم الإسلام قلما كانت موضع تأييد الشيعة . فبعيداً عن العصيان، فقد قام الشيعة فى مواضع عديدة على هذه الحكومات وثاروا ضدها .

وعلاقة الشيعة بالحكومة بعد الغيبة الكبرى أمر أكثر تعقيداً، فمن ناحية، تبرز مسألة عدم الشرعية أو اغتصاب حكومة غير معصومة . ومن ناحية أخرى ، يشكل

الحكام الشيعة حكومة باسم الخليفة، وفى بعض المواضع تكون مستقلة عنه فى مناطق مختلفة من العالم الإسلامى ، وفى النهاية ومع عدم وجود الإمام المعصوم يظهر دور علماء الشيعة بشكل أكبر فى بيان الأمور الدينية للشيعة وتفسيرها .

ففى العصر الصفوى ، وبعد مضى أكثر من ستة قرون على زمان الغيبة ، تشكلت فى إيران ولأول مرة حكومة شيعية ، وكانت ثمة عوامل جعلت حكومة الملوك الصفويين لاتواجه مشكلة عدم الشرعية .

أولها : إن الشيخ صفى الدين الأردبيلى مؤسس الأسرة الصفوية ينتسب من ناحية الأب إلى الإمام موسى الكاظم (عليه السلام) .

ثانيًا : إن الحكام الأوائل للصفويين وزعماءهم كانوا مرشدين دينيين لطوائفهم وقبائلهم بعيداً عن زعامتهم السياسية .

ثالثًا : بعيداً عن أن علماء الشيعة كانوا يؤيدون الحكومة الصفوية ، كان بعضهم كذلك يمثلون جزءًا من المسئولين فى الحكومة .

وحالة الفوضى وسوء الحظ التى سيطرت على إيران بعد سقوط الدولة الصفوية أثرت بالطبع على مكانة علماء الشيعة . فضلاً عن السياسة الباردة التى سلكها نادر شاه تجاه الشيعة ، حيث أدت إلى هجرة عدد كبير من علماء الدرجة الأولى من إيران ، وفضلوا الإقامة فى النجف ومناطق إقامة الشيعة فى الإمبراطورية العثمانية (العراق) .

وبموازاة انتهاء عصر الفوضى وعشرات الأعوام من الحروب الداخلية بعد العصر الصفوى والتى اقترنت ببلوغ الأسرة القاجارية سدة الحكم ، كانت هناك ثلاثة عوامل أدت إلى حصول العلماء تدريجيا على جزء من نفوذهم وقوتهم التى كانت لهم فى العهد الصفوى ، العامل الأول: هو عدم وجود جذور دينية للملوك القاجاريين وحكامهم . وعلى عكس السلاطين الصفويين ، لم يحظ الحكام القاجاريون بمشروعية خاصة ، ولم يكونوا مرشدين دينيين لقبائلهم وأتباعهم . وما مكنهم من إقرار سيادتهم هو إعمال السيف فى أطراف المملكة وأرجائها ، وكانوا مضطرين لإكرام جانب العلماء للحصول على مشروعيتهم . وهذا ليس معناه أن الملوك القاجاريين لم يعيروا الدين اهتمامًا ، فعلى

العكس من ذلك ، ففضلاً عن أنهم كانوا إلى حد ما أفراداً متدينين، قد أظهروا الاحترام الجم تجاه العلماء أيضًا . والاحترام والتبجيل اللذان أظهروهما تجاه العلماء كان انعكاساً لمعتقداتهم الداخلية ، لكنهم فى الوقت نفسه لم يروا أنهم فى حاجة إلى تأييد العلماء .

والعامل الثانى : هو بداية الحروب بين إيران وروسيا ، فمن وجهة نظر الحكومة ، كان للعلماء دور مهم وذلك لإصدارهم فتاوى الجهاد وحث الناس وترغيبهم للانضمام إلى الحرب . وعلى الأقل كان الحكام القاجاريون يسعون خلال فترة الحرب إلى تهيئة أسباب رضا العلماء كى يستفيدوا من مساعيهم ضد عدوهم القوى ، أى الإمبراطورية الروسية .

وإذا ما كان العاملان السابقان قد نتجا فى الغالب بسبب التطورات السياسية ، فقد نمت جذور العامل الثالث من داخل طبقة رجال الدين أنفسهم. فحرب العقيدة بين الاتجاهين الفكريين "الأصولية والإخبارية" التى قسمت علماء الشيعة خلال عدة قرون إلى مجموعتين ، انتهت بانتصار علماء "الأصولية" . وعلى عكس الإخباريين الذين كانوا يرون أنه ليس فى مقدور العلماء الخروج من دائرة الأحاديث والروايات والأخبار المؤكدة، كان الأصوليون يرون قدرة العلماء على الوصول إلى موازين حديثة وإصدار أحكام جديدة عند الحاجة بقليل من تفسير الأصول والاستنباط منها .

وهذا الانتصار كان له نتائج مهمة بالنسبة لرجال الدين ، من أهمها أن كل فرد شيعى إن لم يكن مجتهداً فهو مكلف بتقليد أحد العلماء المجتهدين .

وهذه العوامل الثلاثة أدت إلى حصول العلماء ثانية على جزء من قوتهم ونفوذهم الذى كان لهم فى العصر الصفوى . لكن على عكس العهد الصفوى لم يظهروا أدنى ميل للاقتراب من البلاط القاجارى أو المساهمة فى تقويته . والعامل الآخر الذى كان يحول دون ظهور مكانتهم كما كانت إبان العصر الصفوى هو أنه على الرغم من أن بعض العلماء قد عادوا إلى إيران مع ذلك الهدوء الذى أعادته الحكومة القاجارية إلى الدولة ، إلا أن النجف ظل كما كان مركز الحوزة العلمية الشيعية ؛ وكانت النتيجة إقامة علماء الدرجة الأولى فى النجف أكثر من إقامتهم فى إيران .

وفى النهاية ، فإن حكام الدولة القاجارية وملوكها - الذين كانوا يرون أن سلطتهم قد أحكمت - قلما كانوا يشعرون بحاجتهم إلى العلماء . والبعض منهم - كناصر الدين شاه - كان يسعى علانية لإبعاد العلماء عن التدخل فى أمور المملكة . والخلاصة أن العلماء فى العصر القاجارى كانوا مشغولين بالدرس والبحث أكثر من انشغالهم بالأمور السياسية والحكومية . لكن بالتدريج حينما اتخذت مصائب العصر القاجارى وكوارثه أبعاداً واسعة ، ومن ناحية أخرى كانت الأفكار الإصلاحية الحديثة تنضج فى الدولة ، تم اجتذاب العلماء أيضاً إلى مجال النضال السياسى . وتعد فتوى السيد ميرزا الشيرازى نقطة تحول فى العصر الحديث فى حياة رجال الدين السياسية والاجتماعية ، ومنذ ذلك التاريخ أصبح رجال الدين جزءاً لايتجزء من النضال السياسى للمجتمع ، أحياناً كانوا يتولون بأنفسهم زعامة هذا النضال ، وأحياناً أخرى كانوا يشاركون فيه مع غيرهم من القوى .

ولاشك أن هذا ليس معناه أن جميع من ينتمون إلى هذه الطبقة كانوا يشاركون فى المعارك السياسية أو يرون الانشغال بالنضال السياسى أمراً عاما، أو أن جميع العلماء كانوا يرون ذلك أو كانوا يقومون به . وما يمكن إظهاره بشكل مؤكد أن العلماء كانوا يتولون دور الزعامة بالفعل فى كل حدث شاركوا فيه .

وأولئك الذين يعتبرون زعامة رجال الدين فى ثورة إيران الإسلامية إما أنها ناشئة عن رد فعل هذه الطبقة إزاء إصلاحات الشاه المتهورة ، أو يعدونها نتاج نمو معارضة البرجوازية ، أو يعتقدون أن نضالهم كان نتاج تنفيذ الشاه سياسته المناهضة للإسلام، يعلمون بالتأكيد أن هذه الطبقة كانت تتولى زعامة النضال السياسى قبل الثورة الإسلامية بسبعين عاماً [١٤] . أى فى الوقت الذى لم يكن الشاه قد ولد فيه بعد ، ولم يكن هناك انتماء للبرجوازية ، ولم تكن السياسة المناهضة للإسلام قد نفذت بعد .

لمَ ، وكيف أظهر الدين ورجاله هذه الخاصية فى إيران ؟ ولم لم نشاهد فى الدول الإسلامية الأخرى هذه الظاهرة بمثل هذه الأبعاد؟ مامن شك أن جزءاً من الإجابة على هذا الاستفسار يعود إلى تباين العقيدة بين التشيع والتسنن ، وأسسها ، والشكل التاريخى لكلا المذهبين ، والجزء الآخر ينشأ من الفكر الثقافى الخاص بالشيعة ،

والذى يتخذ فيه المصطلحان "مجابهة الظلم" - خاصة فى قالب الحكومة - و"الشهادة" بعداً تاريخيا ومحوريا . ولكى نظهر تأثير هذين البعدين يكفى أن نتأمل نظرة التجليل التى يظهرها الشيعة تجاه حماسة الإمام الحسين (عليه السلام) على مدى التاريخ .

وفى النهاية تجدر الإشارة إلى الاستقلال المادى لرجال الدين الشيعة . فهم يستقلون فى حياتهم عن الحكومات ، ويعتمدون على أتباعهم . فى حين أن علماء السنة يعتمدون إلى حد ما على الحكومات . وقد مكن الاستقلال المالى علماء الشيعة من الوقوف فى وجه الحكومة ، فى حين أن مواجهة رجال الدين السنة للحكومة يمكن أن يتبعه خطر يهدد مصدر دخلهم . ومامن شك أن جذور الإجابة على هذا الاستفسار هو بحث عقائدى تاريخى اجتماعى بعيد عن مجالنا، وما نستطيع أن نتحدث حوله على ضوء مشاهدتنا فى العلاقة بين دور الدين والثورة ليس أن رجال الدين قد دخلوا حلبة النضال فى أحداث الثورة الإسلامية ، بل إن رجال الدين كانوا قد دخلوا معترك هذا النضال منذ بدايته فى أواخر القرن التاسع عشر ، أحياناً بشكل قوى ، وأحياناً أخرى بشكل أقل . وفى الحقيقة أن تلك الطائفة من رجال الدين ممن حازوا شهرة واسعة وبقيت أسماؤهم خالدة ، هم أولئك الذين شاركوا فى النضال بشكل مباشر .

ودور الفكر الثقافى للشيعة ولرجال الدين على الرغم من أهميته فى إيجاد الأصولية الإسلامية ومذهبية الثورة ، لكن يبقى سؤال مهم ، وهو أن رجال الدين والفكر الثقافى للشيعة لم يظهرا فقط فى العشرة أو فى العشرين عاماً السابقة على الثورة ، بل كان وجودهما فى إيران منذ عدة قرون . وفى هذه الحالة ، كيف لم تتخذ أية حركة فى أى نضال سابق ذلك الطابع الدينى الذى شاهدناه فى الثورة الإسلامية على الرغم من تواجد رجال الدين فى العديد من هذه النضالات؟

كيف - على سبيل المثال - لم تظهر حكومة إسلامية ، ولم يظهر اتجاه دينى خاص خلال الثورة النيابية على الرغم من أن رجال الدين هم الذين كانوا يتزعمون تلك الثورة؟ وينطبق ذلك أيضًا على النضال الخاص بتأميم النفط ، والتطورات السياسية التى حدثت فى أعقاب رضا خان . كيف لم يكن بين طبقة المتعلمين أو فى المجتمع أى اتجاه دينى لافى عهد الثورة النيابية ، ولافى الفترة التالية على رضا شاه ، ولافى

النضال الخاص بتأميم النفط ، وفى عهد د. مصدق؟! ولمَ لمْ يقتفوا أثر الزعماء الدينيين؟ ولكن بعد سبعين عامًا من الحكم النيابى ، وبعد أكثر من عشرين عامًا على نضال أعوام ١٣٢٠- ١٣٣٢ش (١٩٤١-١٩٥٣م) لطبقة المتعلمين والمثقفين فى المجتمع وتتبعهم للطبقات التقليدية ، رأوا أن يفتحوا أحضانهم للدين ، ويقتدوا برجال الدين عن طيب خاطر !!

والرد على هذا السؤال يوجهنا إلى مجموعتين أخريين من مجموعة العوامل التى أظهرت الميل للإسلام ومذهبية الثورة ، وهما : العوامل السياسية والتطورات الدينية .

* * *

فى أمثلة النضال السابقة ، بغض النظر عن الدور الذى كان يلعبه الدين ورجاله فيها ، كانت فى مجموعها رؤى غير دينية ، يشكلون وزنها الأصلى فى كفتى الأيديولوچية والزعامة . وكانت الخميرة الفكرية لهذه النضالات عبارة عن :

المطالبين بالإصلاح ، المتأثرين بالغرب ، المثقفين ، العلمانيين فى عصر الحكم النيابى، الاتجاه اليسارى (الماركسية – اللينينية) وفى النهاية الوطنية، ولم يتمكن عنصر من هذه العناصر من الحصول على الانتصار الدائم ومُنى بالهزيمة فى ساحة النضال السياسى والاجتماعى ، ولم يبق أى أثر له .

وكان الفكر العلمانى (تقليل شأن الدين على أنه أمر شخصى خارج عن نطاق الدائرة الحكومية) وتقليد الغرب لإنجاز الإصلاحات السياسية ، والاجتماعية والاقتصادية ، والذى بلغ ذروته فى عهد الحكم الدستورى ، قد انتهى بالهزيمة بشكل عملى مع عدم توفيق الحكم النيابى .

وبقايا المصلحين العلمانيين ، على الرغم من الأمانى الكثيرة التى كانت تحدوهم مع ظهور رضا شاه ، وعلى الرغم من المساعدات القيمة التى قدموها له ، تم القضاء عليهم أو تحديد إقامتهم تحت وطأة ديكتاتوريته القاسية .

وإذا كانت العلمانية قد بلغت أوجها مع بداية حكم رضا شاه ، فإن تألق نجم اليساريين كان فى نهاية حكمه . وإذا ماكانت العلمانية توجد أكثر فى الشخصيات والطبقات المتعلمة بشكل متفرق غير متمركز ، فإن الاتجاه اليسارى كان يقوم بنشاطه فى قالب تشكيلات أو منظمات حزبية متمركزة . وعلى الرغم من أن الاتجاه اليسارى قد تمكن من تحقيق إنجازات ملفتة للأنظار خلال عدة أعوام فى قالب حزب توده ، إلا أنه تلاشى فى النهاية نتيجة لبعض العوامل أهمها تصرفات قيادة الحزب ، ولم يبق له من أثر .

والوطنية هى العنصر السياسى الثالث والأخير الذى نما فى أعقاب عصر رضا شاه، وأفل نجمها - كالاتجاه اليسارى - مع انتهاء فترة ١٣٢٠-١٣٣٢ ش (١٩٤١-١٩٥٣م). وإذا ما استنتجنا أن بداية ونهاية أمر الاتجاه اليسارى كان مع ظهور وأفول حزب توده ، فتكون بداية ونهاية أمر الوطنية مع ظهور وسقوط د. محمد مصدق .

وبعد سقوط حكومة د . مصدق كانت تتم بعض الجهود فى أوقات مختلفة لإحياء الوطنية ، لكن "الجبهة الوطنية" لم تتمكن بعد مصدق قط من الوقوف على قدميها ، وبعض هذه الجهود التى كانت تتم بوساطة عناصر أكثر تدينًا من جناح الوطنيين - فى الغالب من عناصر "حركة الحرية" - لم تصل إلى نتيجة أيضًا. فبعد مصدق كانت الوطنية فى الغالب اسمًا ، على الرغم من أن الاسم له طنين الأسطورة لدى الكثيرين .

من الممكن أن يرد مؤيدو الوطنية : أنه ، على عكس حزب توده ، تم سقوط الاتجاه الوطنى بوساطة النظام وعن طريق انقلاب أمريكى إنجليزى ، ومامن شك أن حكومة مصدق سقطت عن طريق انقلاب ، ولم يكن سقوطها طبيعيا . لكن بحثنا فى أن الاتجاه الوطنى لم يتمكن أصلاً من الظهور أو الصمود على أساس كونه أحد العناصر السياسية من وجهة النظر الاجتماعية فى إيران . وأسباب عدم الصمود هذا هو موضوع بحث اجتماعى - تاريخى خارج عن نطاق موضوعنا .

فالقومية من وجهة النظر التاريخية هى ظاهرة وجدت فى أوروبا مع ظهور البرجوازية وفى أعقاب الثورة الصناعية ، ولم يتم مثل هذا التطور فى إيران ، ولم تظهر قط هذه الثورة .

كان ظهور البرجوازية فى أوروبا وإتمام الإصلاحات السياسية - الاجتماعية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر تطوراً تدريجيا، لم يتم بانقلاب ولامن أجل السيادة وإيجاد الإصلاح ، كانت البرجوازية ترى الحاجة للاستفادة من القوة العسكرية ، كانت تستفيد من الجيش والقوة العسكرية إما لبسط الإمبراطورية والسيطرة على المستعمرات أو لمواجهة القوى المنافسة ، وكان استخدام الجيش يتم خارج الحدود .

أما فى إيران ، فكانت الحكومة تعتمد دومًا على القوة العسكرية ، ولم تتمكن أية حكومة أو دولة من البقاء دون حماية الجيش أو الاستفادة منه ، وكانت علاقة الجيش بالحكومة تتم بلاشك عن طريق البلاط ، والحكومات التى تتمتع بتأييد البلاط لم يظهر فيها بالطبع أية مشاكل مع الجيش . وفى غير هذه الحالة ، أى دون تأييد البلاط ، لم تتمكن أية حكومة من البقاء فى سدة الحكم أكثر من بضعة أيام .

لاشك أنه منذ أواخر القرن التاسع عشر وحتى الآن قد شاهدنا مراراً انتصار العناصر السياسية الإصلاحية على القوى الحاكمة (أى البلاط والقوة العسكرية) ، لكن هذه الانتصارات كانت فى الغالب بسبب تراجع هذه القوى إلى أن يظهر تطور أساسى فى هيكل تلك القوى . وهذا التراجع كان يتم بسبب بعض الظروف الخاصة التى كانت تحدث فى الدولة ، وبانتهاء هذه الظروف يتحرك البلاط ويمسك فى قبضته بزمام القدرة من جديد بكل طاقته .

وفترة الحكم النيابى ، وفترة مابعد رضا شاه ، وثورة ٣٠ تير ، وأزمات أعوام ١٣٣٩ - ١٣٤٢ ش (١٩٦٠ - ١٩٦٣م) جميعها ينطبق عليها الحديث السابق ، حيث يتضح من خلالها أن البلاط أحيانًا ماكان يفقد سيطرته المطلقة تحت ظروف خاصة ، هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى كانت الحركات الإصلاحية تبلغ أوجها وتتمتع بقوة جديرة بالملاحظة . لكن مع تغيير الظروف يخرج البلاط من حالة الدفاع ويبدأ فى استعادة مواضعه التى فقدها خلال الأزمة.

وجميع الحكومات التى حاولت العمل بشكل مستقل عن البلاط لم يكتب لها التوفيق ، وكان ظهورها لفترات قصيرة . وهذه الحالة تشاهد بوجه خاص فى العصر التالى على رضاشاه ، حيث ضعف البلاط مع سقوط ديكتاتورية رضا خان القوية .

وبعيداً عن حكومة د . مصدق ، فهناك حكومة أخرى كانت مستقلة إلى حد ما عن البلاط ، وكانت بزعامة أحمد قوام السلطنة . وقد بدأت فى أواسط العشرينيات (أى الأربعينيات بالتقويم الميلادى) وبصعوبة بالغة لم تتمكن من الدوام أكثر من عامين . ومثال آخر هو حكومة د. على أمينى فيما بين عامى (٦١-١٩٦٢م)(١٣٤٠ - ١٣٤١ش) حيث كانت تسعى فى عملها مستقلة إلى حد ما عن البلاط ؛ لذا لم توفق ، ولم تدم أكثر من أربعة عشر شهراً .

وعلى الرغم من التباين الذى كان يوجد فى زعامة هذه الحركات وفى الظروف الخاصة بها ، إلا أنه من وجهة نظر علم الاجتماع كانت جميعها تشترك فى سمة خاصة ، فعلى عكس حركة الإصلاح القومية والبرجوازية فى أوروبا التى كانت تتحرك تدريجيا من أسفل هرم القوى الحاكمة ، وتولت زمام القوة السياسية بعد عدة أجيال ، نجد أن القومية فى إيران كانت تتحرك من أعلى ، ودخلت هرم القوة ، وقامت بإصلاحات سياسية واجتماعية .

بعبارة أخرى ، صحيح أن حكومة د. مصدق سقطت بوساطة انقلاب ، ولم يسمح النظام قط منذ عام ١٣٣٢ش (١٩٥٣م) وما تلاه بأى ظهور للجبهة الوطنية أو نمو لها ، لكن من ناحية البعد الأكثر عمقاً، لم يكن الاتجاه الوطنى - بناء على الأدلة التاريخية - قادراً على الصمود فى إيران قط باعتباره أحد المؤسسات السياسية.

بعبارة أخرى ، لم تتوفر فى إيران قط تلك الظروف الاجتماعية اللازمة لظهور القومية وصمودها. وعدم التوفيق السياسى للعناصر، والرؤى غير الدينية مهدت الطريق بالفعل لأيديولوچية جديدة ، ولحدث تمكن من ملء هذا الفراغ السياسى . على الأقل فإن جزءاً من مجالات ظهور ذلك الإسلام السياسى النضالى ، وتلك الأصولية وإحياء الفكر الدينى الذى شاهدناه فى فترة الخمسينيات (أى السبعينيات بالتقويم الميلادى) وفى عهد الثورة ، يعود فى الحقيقة إلى عدم توفيق العناصر غير الدينية التى لم تتمكن من الاستمرار فى شكل مؤسسات سياسية . وقد بدأت هذه العناصر منذ عهد الثورة الدستورية ومعها ، وبلغت أوجها فى الفترة التالية على رضا شاه ، ومنذ ذلك الحين وما تلاه ظهرت هذه العناصر فى التاريخ - فى الغالب - اسماً فقط .

* * *

وفى الحقيقة ، قد شاهدنا أول براعم الميل للإسلام ، أو لنقل بشكل أكثر دقة العودة إلى الإسلام فى الأعوام الأولى التالية لانقلاب عام ١٣٣٢ش - ١٩٥٣م ، وكان تفتحها يتم أحيانًا من خلال البعد السياسى ، وأحيانًا أخرى من خلال بعد التحديث فى الفكر الدينى . وفى حين كانت معظم العناصر غير الدينية قبل ذلك تتولى قيادة العناصر المقاومة للنظام الحاكم ، فمنذ ذلك العهد وما بعده ، كانت تتشكل فى الغالب من عناصر دينية تتولى مقام الزعامة .

وأهمية التطور الدينى الحديث ليس فقط فى مجال الجبهة السياسية ، بل الأهم من ذلك هو التأثير الاجتماعى لهذا التطور والذى بدأ فى نفس الفترة ، وكان عبارة عن اجتذاب الدين لطبقة الدارسين والجامعيين فى المجتمع .

وإذا كانت الجامعة وطبقة المتعلمين حتى الآن ، إما أنهم من زمرة المصلحين العلمانيين، أو من المنتمين إلى حزب توده ، وإما أنهم يعيشون فى المعسكر الوطنى ، إلا أن الفكر الدينى بدأ بعد ذلك تدريجيا فى كسر هذا الحصار ، وكان مؤسسو هذا التطور يتشكلون من مجموعة من رجال الدين المحدثين ، وعدد من دارسى العلوم الدينية ممن حصلوا علومهم الحديثة فى الغرب . وكانت الشخصية الأساسية الممثلة لطائفة رجال الدين آنذاك هو المرحوم آية الله طالقانى ، والشخصية الجامعية المهندس مهدى بازرجان . ويجدر الإشارة فى هذه الحركة إلى دور آية الله الأستاذ مرتضى مطهرى إلى جانب هاتين الشخصيتين . وكانت اللغة التى يستخدمونها لنشر الدين تختلف بالطبع عن تلك التى كانت تستخدم فى المراكز الدينية وبين رجال الدين ، من منطلق أن المستمعين كانوا من طلاب الجامعة ، وكانت هذه اللغة تسعى بشكل خاص لإقرار الوحدة بين العلم والدين ، ولطرح الإسلام بشكل يربط بينه وبين متطلبات العصر الحاضر . فضلاً عن دخول بعض الألفاظ فى دائرة هذه الحركة ، من قبيل : الحكومة ، الاقتصاد ، النظام السياسى ودور الأبعاد الاجتماعية فى الدين . وتشكلت خلال بضعة أعوام أول جمعيات إسلامية طلابية على مستوى الجامعة ، فضلاً عن جمعيات المهندسين والأطباء الإسلاميين (٥٧) .

والعنصر الثانى : هو ظهور الإمام الخمينى [١٥] ، فحركة الإمام لم تدعم فقط موجة العودة إلى الإسلام الجديدة التى اتخذت مكانها بين طبقة الدارسين والطلاب فى

أبعاد واسعة ، بل أظهرت تطورات تاريخية فى العلاقة بين المذهب والسياسة ، والمذهب والحكومة فى إيران .

أولاً : إذا ما كان لرجال الدين حضور فعال فى النضال قبل أوائل الأربعينيات (الستينيات بالتقويم الميلادى) وظهور الإمام ، سواء فى أحداث الثورة الوطنية ، أو بعيداً عن ذلك ، وتمثل هذا الحضور فى المرحوم "آية الله مدرس" ، و"فدائيان إسلام"، والمرحوم " آية الله كاشانى" والمرحوم" آية الله طالقانى" . لكن كما ذكرنا سالفًا ، كانت زعامة الحركات فى مجموعها تقع فى يد العناصر غير الدينية .

ثانيًا : إن رجال الدين الذين شاركوا فى النضال على الرغم من إطلاق البعض عليهم لقب "آية الله"[١٦] إلا أنهم لم يكونوا مرجع تقليد ، ولم يكونوا جزءًا من الصفوف العليا فى هرم رجال الدين ، وكان نضالهم يتم خارج نسيج رجال الدين وهرمهم . وفى الحقيقة ، منذ عهد الحكم النيابى وحتى الآن كانت هذه هى المرة الأولى التى يناضل فيها أحد مراجع التقليد وأحد آيات الله على هذا النحو ضد الحكومة . ومع تولى زعامة النضال والحركة من قبل أحد آيات الله مرجع التقليد - وذلك فى نضال الإمام ضد النظام - أدى هذا الأمر إلى ظهور نتائج لم نشاهدها قط فى أى من صور النضال السابقة لرجال الدين .

وأول نتيجة لنضال الإمام وأهمها : هى ظهور فجوة واضحة وعميقة بين النظام والدين . وإذا ما انعدم وجود مشكلة خاصة بين قم والحكومة قبل ثورة الإمام ، أو على الأقل لم تكن الحكومة معارضة للدين من وجهة نظر الطبقات الدينية ، إلا أن نضال الإمام ونتائجه هدم هذا التصور . فقلما كان ينظر فرد مؤمن - خاصة من بين المقيمين فى المدن - إلى النظام على أنه حكومة حامية للإسلام ومؤيدة له . وكان هذا الحكم أكثر صراحة فى قم والمراكز الدينية .

والنتيجة الثانية المهمة لنضال الإمام ضد النظام : هى تأثيرها على قمة الهرم لطبقة رجال الدين . فنضال الإمام على أنه أحد مراجع التقليد ضد النظام أدى إلى عدم تمكن أى مرجع أو أى رجل دين من رجال الدرجة الأولى من إظهار علاقته بالنظام علانية .

ونتائج ثورة الإمام السياسية مهمة للغاية أيضًا . فقد ذكرنا أن مقاومة المناضلين من رجال الدين قبل الإمام ضد النظام لم تكن تتم فى إطار نسيج رجال الدين أو هرمهم ، فى حين أن الأمر اختلف خلال حركة الإمام ، وكان انعكاس هذا الاختلاف فى أنه قلما كان يتم حماية هؤلاء أو تأييدهم من داخل نسيج رجال الدين أنفسهم . فلم يتمكن نضال أى من رجال الدين الآخرين من إيجاد قاعدة له داخل المراكز أو الحوزات الدينية ، غير أن نضال الإمام ، على أنه أحد مراجع التقليد ، أدخل عدداً كبيرًا من رجال الدين فى المستويات المختلفة إلى الثورة وتصدوا للنظام . بعضهم - وأكثرهم من تلاميذه - أشعلوا نار العداء بين قم والنظام بعد نفى الإمام عام ١٣٤٣ ش - ١٩٦٤م ، ولم يسمحوا للحركة التى أوجدها الإمام فى هرم رجال الدين بالتوقف .

والخلاصة ، بعد ثورة الإمام لم يكن الحال قط بين قم وطهران كعهده السابق ، فقد أوجدت ثورته فصلاً جديداً فى العلاقة بين الحكومة والدين ، فصلاً تمثل فى مجموعه فى العداء - أو على الأقل - فى صمت المراجع وعدم تأييدهم للنظام .

وقد أوجدت ثورة الإمام نتائج مهمة كذلك فى الشكل العام للنضال ضد النظام ، **فأولاً** : قامت بتقوية شأن الموجة المطالبة بالإسلام - التى ظهرت تدريجيا فى أواسط الثلاثينيات (أى الخمسينيات بالتقويم الميلادى) - وبثت فيها روحًا جديدة .

ثانيًا : إن المناضلين الدينيين - خاصة من بين طبقة الطلاب وأهل السوق- الذين ظلوا بالفعل دون زعامة مع هزيمة الاتجاه الوطنى ، رأوا مع ظهور الإمام فى ساحة النضال زعامة سياسية - دينية جديدة لهم .

ثالثًا : قامت الجماعات والحركات الراديكالية الدينية باستخدام السلاح بعد سحق ثورة ١٥ خرداد والقضاء على أى نوع من إمكانية النضال ضد النظام . ولاشك أن استخدام السلاح بين الجماعات الإسلامية له سابقة تصل إلى ما قبل عام ١٣٤٢ش- ١٩٦٣م ، وإلى جماعة "فدائيان إسلام" لكن استخدام الفدائيين للسلاح كان فى الغالب بهدف القضاء على معارضيهم السياسيين . فى حين كان النضال المسلح للمناضلين بعد عام ١٣٤٢ ش - على الأقل - نظريا ، أى أنه كان حركة لاجتذاب مجاميع الشعب إلى المواجهة المسلحة ضد النظام .

والإحساس بافتقاد أى نوع من إمكانية النضال ضد النظام بعد سياسة القلع والقمع والمذابح التى تمت فى ١٥ خرداد ، لم يدفع فقط الجماعات الإسلامية إلى حركة التسلح ، بل ساق كذلك الاتجاه اليسارى الجديد (اليسار بعد حزب توده) إليها .

وأهم هذه الحركات التى كانت بين العناصر الإسلامية هى حركة "المجاهدين" . وفى الواقع ، تصل النطف الأولى لأفكار المجاهدين إلى العنصر الأول وإلى أفكار المهندس "بازرجان" والمرحوم " آية الله طالقانى" . لكن المجاهدين قد توسعوا كثيراً عما كان لدى كل من بازرجان وطالقانى فى طرح أيديولوچيتهم ، واستفادوا بعدد كبير من أفكار الماركسية واللينينية ، وسعوا فى مزج هذه الآراء بالعقائد الإسلامية .

وعلى الرغم من هذه الازدواجية ، فقد أرسى المجاهدون أساس الثورة منذ أواخر الأربعينيات (الستينيات بالتقويم الميلادى) الذى سرعان ما نما وتوسع بين القوى الدينية المناضلة . لكن استقبال المجاهدين بين طبقة الشباب والطبقة الراديكالية الدينية لم يمح مشكلة الازدواجية الفكرية لهذه الجماعة . ولم تتمكن هذه الازدواجية من الاستمرار فترة طويلة ، ورجحت عمليا كفة الماركسية بشكل تدريجى على كفة الإسلامية ، والنتيجة كانت ماركسية جزء كبير من القادة وعدد كبير من كوادر المجاهدين وزعمائهم، وسعى المجاهدين فى إقامة جسر بين الماركسية والإسلام لم يواجه فقط بالهزيمة ، بل إن هذا الجسر قد انهدم على رأس المجاهدين [٥٨] .

وعدم توفيق فكر المجاهدين ، والمشاكل والكوارث التى ظهرت هى مسائل ظهرت أساساً بعد الثورة . وقبل الثورة - خاصة فى الفترة موضع البحث [١٣٤٥ - ١٣٥٥ش .١٩٦٦ -١٩٧٦م] - كانت حركة المجاهدين بالنسبة لمعظم القوى الدينية - ومن بينها عدد كبير من رجال الدين المناضلين - هى حركة رائدة توضح إمكانية فك طلاسم النضال ، وتعد فخراً للمؤمنين الثوريين . ومشكلات هذه الحركة ومبهماتها العقائدية تكمن فى ظل النضال والمسائل العاجلة فى العراك ضد النظام . وفى تلك الأعوام حيث كان يعيش المناضلون فى وضع تلاشى فيه الفاصل بين الحياة والموت ، فى مثل هذه الظروف ، كان البت فى المسائل الأيديولوچية والالتحام فى المباحثات النظرية ، لو لم نقل : إنه كان انحرافًا عن النضال ، فعلى الأقل كان أمرًا

لاجدوى منه ومجرد عبث. وتلك الطائفة من القوى الإسلامية المناضلة التى لم تستحسن عقائد المجاهدين ، اضطرت بالفعل لطرح انتقاداتها فى دائرة ضيقة من مفكريها . وكان طرح هذه الانتقادات بشكل أكثر علانية وعلى مستوى أوسع بعد عام ١٣٥٤ش- ١٩٧٥م ، حيث أعلنت قيادة المجاهدين ماركسيتها . وقبل ذلك ، كان المجاهدون عبارة عن حركة إسلامية لم تكن تجذب إليها عدداً كبيراً من الطلاب الدينيين ، وعدداً من رجال الدين المناضلين فقط ، بل استطاعت النفاذ أيضًا إلى السوق وبين الطبقات الاجتماعية الأخرى .

ورابع العناصر الإسلامية وآخرها والذى أفضى إلى الأصولية الإسلامية وإحياء الفكر الإسلامى : هو المرحوم "د. شريعتى" والنهضة الفكرية الثقافية التى طرحها . والاختلاف المهم بين حركة شريعتى وبين الثلاثة عناصر السابقة هو أنه بسط حدود المطالبة بالإسلام أو الميل إلى الإسلام بشكل أوسع . وإذا ماكانت قاعدة الإسلام توجد حتى الآن بين رجال الدين ، والطلاب ، وأهل السوق وبعض الدارسين على أنها عنصر فكرى اجتماعى ، فإن أفكار شريعتى تمكنت من جذب طبقات وجماعات جديدة إلى الاتجاه الإسلامى ، وتمكن شريعتى من إدخال عامل الدين إلى الحركة بين الجماعات الاجتماعية الحديثة التى حظيت بقدر من التعليم.

فالطبقة المتوسطة الجديدة التى ظهرت فى أعقاب الازدهار الاقتصادى فى الأربعينيات وأوائل الخمسينيات (الستينيات وأوائل السبعينيات بالتقويم الميلادى) ولم تر حزب توده ولا د. مصدق ، ولم يكن لديها أى مفهوم عن "الجبهة الوطنية" أو "نهضة الحرية" ولم تتعرف على المجاهدين ، وكان الإمام أيضًا بالنسبة لها شخصية دينية يعيش فى منفاه فى دولة أخرى ، وأخيراً لم يستطع النظام كذلك أن يمنحها الأمل فى المشاركة السياسية داخل المجتمع ، رأت هذه الطبقة فى أحاديث شريعتى أفقًا اجتماعيا جديداً فتح فى وجهها .

وعلى عكس المجاهدين الذين كانوا يسعون لاكتساب أفكارهم الإسلامية الثورية من الماركسية [١٧] أعاد شريعتى الاتجاه نحو الإسلام، وأحيا مفاهيم الشيعة المنسية، وبث فيها روحًا جديدة مستمدة من الجدال ، والإيثار والنضال . ولم يبجل شريعتى

لغة الشيعة ومصطلحاته فقط من قبيل: الشهيد، الشهادة، الانتظار، التشيع، العهد، المذهب، الزمان، الإمام، الغيبة... ولم يضعها إلى أسماعها فقط، بل أخذ منها بعض العبارات التي تعرض النظام علانية.

وعلى عكس الشعارات التي كانت ترسم شخصياتهم الثورية تتمثل في ماركس، لينين، تروتسكي، ماو، وتشه جيفارا، كان شريعتي يركز على أمثال الإمام علي (عليه السلام) والإمام الحسين وأبي ذر وفاطمة وزينب (عليهما السلام)، أي تلك الشخصيات التي كان يراها في التشيع الثوري في صدر الإسلام (١٠٦).

وعلى الرغم من التباين العميق بين بعض الاتجاهات لدى العناصر الأربعة، فإنه تمكن من إعداد واجهة جديدة للإسلام خلال عشرين عاماً، واجهة متطورة، ثورية ومناضلة. واجهة تدين الحكومة والمؤسسة والاقتصادية لحكم الإسلام الذي نص على عدم المساواة الطبقية، وجعل المجتمع إخوة متساوين. الإسلام الذي أنهى عهد القديم السياسي والديكتاتورية والاستبداد، وأحل محله عهد الحرية، واحترام الفكر وتأمين المساواة الاجتماعية والاقتصادية. الإسلام الذي أنهى سلطة القوى الكبرى في إيران، وجعلها مستقلة معتمدة على ذاتها. الإسلام الذي قضى على الفساد المالي والإداري، وأقام محله نظاماً قائماً على العدالة والقانون وحياة كريمة. والخلاصة إن هذا الإسلام أحيى كل ما انعدم وجوده في نظام الشاه، وأوجد كل شيء لم يوفق نظام الشاه في إيجاده أو لم يستطع إيجاده.

وعلى هذا النحو تمكن الإسلام من توحيد ولاء جميع الطبقات المتباينة داخل المجتمع الإيراني في نسيجه وثقافته، بين الفقير والغني، بين الطبقة المتوسطة الجديدة والطبقة التقليدية، بين ساكني العشش في الجنوب وسكان الشمال المرفهين، بين طلاب الحوزة وطلاب الجامعة، بين الشيوخ والشباب، بين العامل والبائع المتجول والتاجر، وجمعهم تحت راية واحدة. وبذلك تمكن الإسلام من تحريك ملايين الأفراد لمعارضة نظام الشاه والتصدي له.

* * *

إن تلاشى الحركات غير الدينية وعدم توفيقها ، سواء فى إطار الاتجاه اليسارى ، أو تحت مسمى الاتجاه الوطنى من ناحية ، وإحياء الفكر الدينى من ناحية أخرى ، على الرغم من أنه قد هيأ المجالات الأصلية للأصولية الإسلامية التى شاهدناها فى عهد الثورة ، لكن عمليا كان ثمة عنصر آخر موضع حاجة كى يُدخل هذه العوامل إلى حيز التنفيذ ويستثمر كل هذه الطاقات . هذا العامل كان قيادة الثورة فى قالب الإمام . فوجود هذه المجالات كان يعد البنيةالتحتية ، وكان وجودها من الضرورة بمكان (لإنجاح القوى الإسلامية فى أحداث الثورة) ، إلا أنه لم يكن فى الإمكان الاستفادة من هذه المجالات بدون قيادة ، كما أن الحركة لم تكن لتتمكن من الوصول إلى الظفر الحتمى .

وكان الإمام هو النموذج الكامل للقائد الدينى والسياسى للعناصر الإسلامية ، وتتبعته جميع القوى الإسلامية باستثناء المجاهدين ، إلا أنهم لم يبدوا معارضة ظاهرة له ، فضلاً عن أنهم لم يكونوا قط فى موضع يمكنهم من العثور على مكان لهم فى قيادة الثورة بسبب التفتت فى التشكيلات والمؤسسات الخاصة بهم من ناحية ، ومشاكل الرؤى وعلامات الاستفهام التى كانت حول أفكارهم ، خاصة بعد عام ١٣٥٤ ش - ١٩٧٥م من ناحية أخرى (٦٠) .

والاتجاه اليسارى أيضًا قبل فى مجموعه زعامة الإمام . وكان الباقون من حزب توده وكذلك الاتجاه اليسارى الجديد (اليسار بعد حزب توده ومجاهدو فدائيان إسلام وغيرهم) ينظرون إلى الإمام باعتباره زعيماً ضد الإمبريالية يتقدم الحركة الثورية التى قامت للنضال ضد البرجوازية المنتمية للشاه .

والوطنيون كذلك ، على الرغم من أنهم كانوا مستائين إلى حد ما من معارضة الإمام للدستور ، إلا أنهم كانوا يقبلون زعامته بالفعل . وأخيراً كان الإمام من وجهة نظر العديد من المثقفين زعيماً معارضاً للاستبداد ، ووطنيا مؤمنًا بالحرية.

ولم يكن اجتذاب الإمام للجماعات السياسية والمثقفة محدوداً ، فبعد بداية الثورة ببضعة شهور كان الملايين من عامة الشعب ينظرون إلى الإمام نظرتهم للزعيم المناضل ضد النظام . وسلوكه غير المتكلف ، وأسلوب حياته البسيط ، واهتمامه واحترامه

للشعب الذى لم يكن يرى من الشاه وعماله شيئًا سوى الأرستقراطية ، والتجمل ، والحياة الأسطورية ، والطموحات العالية ، والنخوة والتكبر بشكل فاق الحد ، وعدم الاهتمام ، واللامبالاة ، وعدم الرعاية (للشعب) ، وفساد الحكومة وخداعها ، كل هذا أفضى إلى اتحاد الغالبية العظمى من أفراد الشعب فى أن يكون الإمام هو الزعيم الطبيعى فى مواجهة الشاه .

والخلاصة ، كان الإمام زعيماً بالفعل للقوى الدينية ، وكان زعيمًا وطنيا معارضًا للإمبريالية فى أعين القوى السياسية غير الدينية ، كما كان زعيمًا معارضًا للديكتاتورية والاستبداد بالنسبة لطبقة المثقفين ، وأخيرًا كان زعيمًا شعبيا محبوبًا من قبل الملايين من عامة الشعب رجالاً ونساء نتيجة للصورة التى كانت لديهم عن الشاه ونظامه .

والخلاصة ، إن زعامة الإمام لم تكن قاصرة على نوع واحد أو على طبقة خاصة أو على مجموعة بعينها . فقد صار خلفه عدد كبير من أفراد الشعب على اختلاف طبقاتهم الاجتماعية .

وعلى الرغم من أن الحصول على مقام زعامة الثورة أمر أساسى ، إلا أنه لم يكن فى الإمكان الوصول إلى الهدف المقصود دون تنفيذ سياسات صحيحة ، أو دون اتخاذ قرارات حكيمة . وقد أبدى الإمام فى مقام الزعامة شجاعة وحيطة وحسن استخدام للتكنيك الصحيح فى مواضع حاسمة. وأخيرًا نجح فى إيجاد الألفة، والوحدة والتنسيق بين مخالفيه . وجزء أساسى من نجاح الثورة الإسلامية مرهون بلا شك بزعامة الإمام. وإذا ماكانت أسماء زعماء الثورات العظيمة المعاصرة قد ارتبطت بثوراتهم ، من قبيل : لينين وثورة الاتحاد السوفيتى ، غاندى ونضال شعب الهند ، ماو وثورة الصين ، كاسترو وثورة كوبا ، كذلك ارتبط اسم الإمام بثورة إيران الإسلامية .

وأخيرًا ، إذا ما كانت الثورة الإسلامية - كما يبدو - قد افتقدت لمقومات بعض الثورات الأخرى كالهيئة الحزبية ، والجيش المحرر ، والتشكيلات المنظمة والقادة ، إلا أنها امتلكت شبكة كبيرة من المساجد ورجال الدين المحليين ، كانوا يعملون بالفعل كمؤسسة تحت إمرة القائد . فكانت آلاف المساجد من أقاصى القرى البعيدة وحتى

المدن الكبيرة تعمل فى آن واحد ، وتتصل مع بعضها البعض ومع الزعيم مثل أية هيئة حزبية أو خلية ثورية فى جيش محرر .

وننهى البحث حول الثورة وعلاقتها بالدين والميل إلى الإسلام بالعودة ثانية إلى السؤال الذى طرحناه فى بداية هذا البحث ، ألا وهو : هل نستطيع إيجاد علاقة بين ظهور الأصولية الدينية فى المجتمعات المتباينة؟ وهل توجد علاقة بين ظهور الأصولية فى إيران ومصر من الناحية الاجتماعية ؟ هل يمكننا القول : إن مجتمعى إيران ومصر - على سبيل المثال - لديهما خصائص متشابهة ، وإن تلك الخصائص المشتركة كما أنها أوجدت موجة الميل إلى الإسلام فى إيران ، فلا ريب أنها ستظهر هذه الموجة فى مصر أيضاً ؟

والآن نوسع دائرة السؤال ، ونتساءل : هل نستطيع القول إن ثمة علاقة تربط بين الأصوليات الدينية فى عصرنا ؟ هل يوجد تشابه بين الدور الذى قامت به الكنيسة الكاثوليكية فى أمريكا اللاتينية إزاء النضال السياسى - الاجتماعى، والتى عرفت باسم "الكنيسة الثورية" أو "لاهوت التحرر"(٦١)، وبين دور الكنيسة فى نضال شعوب أوروبا الشرقية ، وخاصة فى بولندا ، وألمانيا الشرقية (سابقا) ، وتشيكوسلوفاكيا وجمهوريات البالطيق (فى الاتحاد السوفيتى السابق) ، وبين دور المساجد والإسلام فى انتفاضة الفلسطينيين ؟

لقد ذكرنا سالفا أننا لانملك الأساس الذى ندخل به فى بحث معقد حول الأصولية الدينية ، وسبب هذه الاستفسارات هو مجرد العودة إلى سير الحديث الذى قد تطرقنا إليه فى البداية ، وهو الاستفسار حول ظهور الثورة الإسلامية وأسبابها . فالبحث فى أسباب ظهور الأصولية الإسلامية فى إيران لاينفصل عن البحث فى أسباب ظهور الثورة الإسلامية .

وقد أحصينا فى هذا المقام ثلاثة أدلة طرحناها حول أسباب ظهور الأصولية الإسلامية فى إيران ، وهى : مكانة التشيع ورجال الدين ، مكانة العناصر السياسية غير الدينية وأخيراً إحياء الفكر الدينى فى قالب العناصر السياسية الدينية . لكنها جميعاً كانت عوامل تم طرحها تحديداً لارتباطها بسمات خاصة بإيران . والسؤال هنا:

بعيداً عن هذه العوامل ، هل نستطيع أن نضع أيدينا على أسباب وعوامل أخرى؟ عوامل تكون أكثر شمولاً ، عوامل تستطيع أن توضح العلاقة بين الأصولية الدينية فى إيران ومصر ، بين الكنيسة الثورية فى البرازيل ونيكاراجوا ، بين دور المثقفين الكاثوليك فى نضال الشعب فى بولندا أو تشيكوسلوفاكيا واتجاه الفلسطينيين فى الانتفاضة نحو الإسلام .

والرد على هذا الاستفسار ينقلنا من مدار تحليل الأصولية الدينية فى إيران إلى مدار تحليل أسباب الثورة . لأننا لو نرغب فى ذكر أحد السمات أو أحد أوجه الشبه نجده : تشاوشيسكو فى رومانيا ، أنور خوجه فى ألبانيا ، آريش هونكر فى ألمانيا الشرقية ، محمد رضا شاه فى إيران ، ساموزا فى نيكاراجوا وفلسطين المحتلة فى قطاع غزة . وستكون السمة المشتركة هى حرمان الشعب من أبسط حقوقه الفردية والاجتماعية . بعبارة أخرى ، إذا ما أردنا أن نعرضها بشكل بسيط وشامل ، فربما يجب أنْ نقول : إن الأصولية الدينية - على ما يبدو - كانت تظهر فى وقت يُحرم فيه عدد كبير من أفراد الشعب من حقوقهم السياسية والاجتماعية نتيجة الحكومات ذات الحزب الواحد (الاستبدادية - الديكتاتورية).

ولاريب أننا لانرغب فى إطلاق أحكام عامة . فمن الخطأ أن نقول إن النظم ذات الحزب الواحد يتبعها أصولية دينية ، أو أن نقول إنه كلما تكون الأصولية الدينية يجب أن نقتفى أثر الحكومات المستبدة .

فكثير من النظم والمجتمعات ترأسها حكومات ديكتاتورية ، ولم تظهر فيها أصولية دينية . وكذلك ما أكثر الأصوليات الدينية التى ظهرت فى ظروف لم يسمع فيها شىء عن استبداد الحكومة أو تسلطها .

وفيما يتعلق بالحالة الأولى ، يمكن ذكر الثورة الدستورية فى إيران وكذلك الثورات والحركات التحررية على مستوى العالم ، التى لم يكن لها أية علاقة بالدين. وفيما يتعلق بالحالة الثانية ، يمكن الإشارة إلى الأصولية الدينية فى الغرب أو فى الهند أو داخل إسرائيل ، والتى ظهرت فى ظروف لم يسمع فيها شىء عن الحكومة ذات الحزب الواحد .

ومع الأخذ فى الاعتبار هاتين الملاحظتين العامتين ، فالشىء الذى يهمنا أكثر ، وربما نستطيع أن نطلق عليه "الأصولية الدينية - السياسية" يتضح أنه ينمو دومًا فى ظروف تحرم فيها الغالبية العظمى فى المجتمع من حقوقها السياسية والاجتماعية . مع ملاحظة أنه على الرغم من التباين العميق بينها إلا أن هناك عنصراً سياسيا اجتماعيا أساسيا يجمع بين هذه الأصوليات الدينية . فجميعها ، بغض النظر عن ظهورها داخل الكنيسة الكاثوليكية فى أوروبا الشرقية ، أو الكنيسة الثورية فى أمريكا اللاتينية، أو فى الكنيسة الإنجيلية فى أفريقيا الجنوبية ، أو بين المسلمين السنة فى فلسطين المحتلة ، أو بين الشيعة الإيرانيين، فجميعها بدون استثناء تعارض أنظمتها السياسية الحاكمة ، وتسعى لانهيارها أو على الأقل لتغييرها . وهو نفس الاعتراض الذى شاهدناه فى إطار النضال ضد نظام الشاه فى إيران .

وكان حديثنا أيضاً قبل القيام بالبحث حول الأصولية الإسلامية وعلاقتها بالثورة الإسلامية يدور حول أسباب هذا الاعتراض ، ورأينا أن البعض كان يعتقد أنه نتاج سياسات الشاه التحديثية السريعة ، وأن عدداً كبيراً رأى أنها نتاج المشاكل الاقتصادية ، وأخيراً عدها البعض نتاج سياسة الشاه المناهضة للإسلام ، ويشيرون إليها بأصابع الاتهام .

جذور الانقلاب : الاستبداد والديكتاتورية

ربما يبدو بعد استخلاص النتائج التى أوردناها فى نهاية الجزء السابق أن مزيداً من البحث حول أسباب ظهور الثورة الإسلامية أمر مبالغ فيه . لكن الوضع ليس على هذا النحو. فأولاً : من الجائز ألا يقتنع ناقدونا بذلك العامل المشترك الذى ذكرنا وجوده بشكل عام فى "الأصوليات الدينية - السياسية" ، وأن إدراك هذا الدور - من وجهة نظرنا - هو مفتاح معرفة الماهية السياسية والاجتماعية لها . بعبارة أخرى ، إنهم ضمن قبولهم وجود الأصولية الدينية فى إيران أو كولومبيا بأمريكا الجنوبية - على سبيل المثال - من الجائز ألا يقتنعوا بتشابه الأسباب الباعثة على هاتين الأصوليتين . ثانيًا (واحتمال هذا الافتراض أقوى بكثير من الافتراض الأول) : على فرض أنهم

يوافقون على إمكانية تشابه بواعث ظهور الأصولية الدينية فى مناطق عدة ، لكنهم لايعدون وجود هذه البواعث - كما ذكرنا - فى تلك الدول على أنها نتاج سيادة النظام الديكتاتورى ، ومن الممكن أن يعتبروا - على سبيل المثال - أن الظلم الاقتصادى ، وعدم المساواة الاجتماعية، والفقر ، والجوع ، والفساد وما أشبه ، هى عوامل ظهور الكنيسة الثورية واللاهوت التحررى فى أمريكا الجنوبية .

وبناء عليه ، نعود ثانية إلى نفس السؤال الرئيسى الذى طرحناه خلال المبحث الخاص بـ"الاقتصاد أحد بواعث الثورة" . فأى دليل أو أدلة حقيقية لدينا حتى لايكون الاقتصاد - أو نقول بشكل أكثر دقة - عدم نجاح النظام فى هذه الجبهة هو حجر الأساس للثورة الإسلامية؟

وأول مشكلة تواجهنا فى مجموعة الرؤى التى طرحناها حتى الآن حول أسباب الثورة ، هى انعدام الأدلة والبراهين فى دعم أو إثبات صحة ما يقال . ونموذج على ذلك ، أننا ذكرنا سالفًا فى الموضع الخاص بالقرويين المهاجرين فى المدن ، وكذلك كما شاهدنا فى المباحث السابقة ، أن أولئك الذين وضعوا أيديهم على اضطراب الأوضاع المعيشية لهذه الطبقة باعتبارها أحد عوامل الاستياء والميل إلى الإسلام ، قلما يذكرون الأدلة لإثبات هذا الادعاء ، فى حين - على الجانب الآخر - أوضحت تحقيقات د. كاظمى - التى أشرنا إليها - عكس ذلك الادعاء .

والنموذج الآخر هو السوق وأهل السوق . فغالبًا مايتم ذكر هذه المجموعة على أنها إحدى الطبقات المستاءة من نظام الشاه . وخلاصة الحديث ، إنه على إثر إصلاحات الشاه الاقتصادية قل نفوذ هذه الطبقة وضعفت مكانتها الاجتماعية ، وكانت النتيجة انضمامها إلى الجبهة المعارضة للشاه .

وبعيداً عن "نيكى كدى" و"فردهاليدى" اللذين أشرنا إليهما من قبل ، ثمة مجموعة أخرى من الكتاب - من بينهم الكاتبان الأمريكيان "مايكل لدين وويليام لويس" - قد وضعوا أيديهم على أهل السوق والضربة التى حلت بهم نتيجة لإصلاحات الشاه التحديثية فى بحثهم حول أسباب الثورة . ويذكر الكاتبان المشار إليهما - وفق زعميهما - العوامل التى كانت سبباً لإثارة أهل السوق ضد النظام على النحو التالى :

وتجار السوق - الذين كانوا طبقة تقليدية تحظى بنفوذ كبير - استاءوا بشدة من برامج الشاه الإصلاحية ، وكان إنشاء نظام بنكى حديث على نمط الإسلوب الغربى يهدد دخل السوق بسبب نظام الفائدة (كان السوق يقرض الأموال بفائدة تزيد عن مثيلتها فى البنك) ، وكانت خطط الشاه لإيجاد نظام تعاونى (التنمية المصرفية) عاملاً آخر لعداء السوق للشاه . والأسوأ من هذا كله، أن الشاه أراد أن يقيم مركزًا تجاريا جديداً محل السوق وفى نفس المكان ، وهذا ما أدى بالفعل إلى الاضمحلال الطبيعى للسوق .

وبعيداً عن هذه الإجراءات ، كان الشاه يضع العقبات والقيود ضد أهل السوق لتثبيت الأسعار ، وبناء عليه فما من عجب أن ينهض العديد من أهل السوق لتأييد الثورة . وأخيراً يوجد عنصر قومى فى معارضة أهل السوق للشاه . فقد كانوا يأملون فى قدرتهم على طرد منافسيهم من الأرمن واليهود من الميدان بعد بلوغ (الإمام) الخمينى سدة الحكم"(٦٢).

ويقدم الآخرون أيضًا أدلة مماثلة حول جذور النضال وأسباب معارضة السوق لنظام الشاه . والخلاصة ، إن السوق كان جزءًا من ذلك النظام الاقتصادى القديم التقليدى الذى رغب الشاه فى أن يطيح به ويحل محله نظامًا جديداً .

والبعض الآخر ممن أرادوا أن يكونوا أكثر دقة ، وبحثوا فيما كان يربط بين أهل السوق ورجال الدين من علاقات اقتصادية واجتماعية رأوا أن إصلاحات الشاه الاقتصادية كانت بمثابة المطرقة على جذور تلك العلاقات ، وعليه قام رجال الدين - حفاظًا على مصالحهم المادية - بالثورة ضد النظام فى ظل تأييد السوق . وهذا هو أساس حديث الاتجاه اليسارى (الإيرانى) ، فقد ذكروا أهل السوق على أنهم طبقة صغار البرجوازية القومية التى عارضت النظام - الذى كان يمثل كبار البرجوازية المنتمية إلى الإمبريالية - وذلك لتعارض المصالح بينهما .

وجدير بنا أن نقول ثانية : إن كل ما ذُكر حول السوق وأهله افتقد الأدلة ، وكان عبارة عن استنتاجات ذهنية صرفة (كما كان الحال فى الحديث عن المهاجرين القرويين) .

وفى الحقيقة ، نحن لانملك بين أيدينا أى عمل منسق أو محدد حول التغيرات الاقتصادية والاجتماعية للسوق فى عهد حكومة الشاه السابق . والشىء المحدد هو وجهة نظر " روبرت جراهام" فقط التى طرحها فى مؤلفه القيم حول التحليل العام للأوضاع الاقتصادية فى إيران فى الأعوام الأخيرة لنظام الشاه. ووجهة نظر "جراهام" لاتبطل فقط الافتراض القائم على تدهور أوضاع أهل السوق نتيجة إصلاحات الشاه ، بل على العكس، تذكر أن وضع أهل السوق كان أفضل بمراحل فى هذه الفترة، يقول :

" على الرغم من تحديث اقتصاد إيران ، إلا أن السوق لايزال يمتلك أكثر من ثلثى التوزيع المحلى ، وثلث واردات الدولة على الأقل ، فضلاً عن ذلك ، كان يحصل على العملة الصعبة عن طريق تجارة الفرش والبسط والبضائع الأخرى . ووفقًا لأحد التصريحات غير الرسمية ، أن قيمة إقراض السوق (فقط) فى غضون عام ١٩٧٨م (١٣٥٧ش) كانت تعادل ١٥٪ من مجموع اعتماد الميزانية العامة للقطاع الخاص فى الدولة "(٦٣) .

ويجدر بنا أن نضيف – تأكيداً على وجهة نظر جراهام – أن السوق كان يستفيد استفادة كبيرة من الدخل الناتج عن بيع ٥ مليون برميل يوميا من النفط ، وكذلك من سياسات الأبواب الاقتصادية المفتوحة للنظام (التى لم تحد من الواردات الأجنبية) . صحيح أن اقتصاد إيران قد خرج من الحالة التى كانت له من قبل ، حيث كان السوق فيها هو الركن الأساسى لتجارة الدولة ، لكن يجب الانتباه إلى أن السوق فى جملته قد صنع نفسه مع هذا التغيير . فكانت الأجيال الجديدة من أهل السوق تركب تلك الموجة الحديثة ، ولم يتأذ السوق بالفعل من دورة التطوير ، بل كانت من الفوائد الأصلية للازدهار الاقتصادى فى الأربعينيات والخمسينيات (أى الستينيات والسبعينيات بالتقويم الميلادى) . وعلى عكس ما ذكره "لدين ولويس" وغيرهما من الكتاب الغربيين ، وكذلك ماقام بتحليله اليساريون الإيرانيون ، لم يلحق التوسع فى النظام البنكى الجديد أية لطمات على المصالح الاقتصادية للسوق ، بل على العكس ، كان أهل السوق من الفئات الرئيسية المستفيدة من النظام البنكى فى الدولة وتسهيلاته العديدة التى كانت تقدم للقطاع الخاص. وعلى عكس مايقول الاتجاه اليسارى، لم يكن للسوق أى تعارض فى المصالح مع النظام ، بل إن ارتباط الكثير من الصناعات الإنتاجية البسيطة التى

ظهرت فى الأربعينيات (أى الستينيات بالتقويم الميلادى) توضح لأهل السوق هذه الحقيقة وهى أن السوق ، إذا لم نقل إنه كان مشجعًا للتغيير ، فعلى الأقل كان متوافقًا معه بشكل تام .

وإذا ماانعدم الاتفاق حول دور السوق فى اقتصاد الدولة ، إلا أن الأمر قلما يكون مبهمًا فى مجال مشاركته فى التطورات السياسية . فللسوق سابقة نضال تمتد عبر التاريخ وتصل عمرها إلى أواخر القرن التاسع عشر . والمحللون الذين يصرحون بمعارضة السوق لنظام الشاه فى الأربعينيات والخمسينيات (أى الستينيات والسبعينيات بالتقويم الميلادى) تغاضوا عن مسألة مهمة ، وهى أن دور السوق فى الثورة الدستورية وكذلك فى أحداث النضال الخاص بتأميم النفط هو أمر لايحتاج إلى إثبات . فاسم السوق مرتبط بالمقاومة التى تمت فى عهد حكومة د . مصدق والجبهة الوطنية ، فضلاً عن أن البعض من أهل السوق كانت تربطهم علاقات حميمة بالجماعات الراديكالية الإسلامية ، من قبيل "فدائيان إسلام" و "اللجان المؤتلفة" [١٨] ، أو كانوا هم أنفسهم من مؤسسى هذه الحركات . وفى أحداث النضال الذى تم فيما بين عامى ١٣٤١ -١٣٤٢ ش (١٩٦٢ - ١٩٦٣م) ، وثورة ١٥ خرداد ، كان أهل السوق ممن يناضلون خلف الإمام الخمينى ، وفى الأعوام التى تم نفيه خلالها . وبعيدًا عن أن العديد منهم كانوا على اتصال به ، كانوا أيضًا يتعاونون مع المجاهدين . وفى الأعوام التالية على انقلاب ٢٨ مرداد عام ١٣٣٢ ش (١٩٥٣م) كان السوق فى مقدمة المعارضة ضد الشاه ، وكان نبضًا للحركات السياسية مع الجامعة .

وإضراب السوق وفتحه وإغلاقه فى تلك الأعوام لهو دليل على نضاله ضد الاستبداد . والخلاصة ، كان السوق دومًا منذ أواخر القرن التاسع عشر وبداية النضال السياسى لشعب إيران جزءًا من ذلك النضال .

وفى حالة صحة التحاليل التى قدمها بعض المفسرين بخصوص بواعث تدخل السوق فى الثورة الإسلامية ، يجب قبول فكرة أن الحكومة فى إيران كانت تسعى دومًا لإيجاد الإصلاحات الحديثة منذ أواخر القرن التاسع عشر وحتى أواخر الحكم القاجارى ، وأن السوق كان دومًا يعارض هذا التغيير بسبب ارتباطه بالنظام

الاقتصادى القديم ، أو أن الرأسمالية العميلة - فى قالب كبار البرجوازية- كانت تسعى للسيطرة على اقتصاد إيران منذ أواخر القرن التاسع عشر ، وكان السوق معارضًا لهذا التغيير باعتباره يمثل طبقة صغار البرجوازية ، والنتيجة هى الصراع دومًا بين هاتين الطبقتين . وفى عكس هذه الحالة ، يجب بالفعل أن نقوم بدراسة تاريخية اجتماعية بشأن السوق لمعرفة أسباب وكيفية ظهور السوق بمثل هذه الخاصية السياسية فى إيران ، وصراعه الدائم مع الحكومة، حيث ينعدم بالفعل البحث الدقيق حول هذا الأمر (مثل كثير من المسائل السياسية والاجتماعية) . وقد نستطيع القول بوجود عنصر معارض للاستبداد دومًا فى هذه المجموعة أو فى تلك المؤسسة الاجتماعية التى نطلق عليها اسم "السوق" .

وصراع السوق مع الحكومة يوضح فى الواقع حقيقة تاريخية تمتد أصولها بالفعل إلى تلك الفترة التى سيطر فيها الفكر النضالى الاجتماعى فى إيران المعاصرة (أواخر القرن التاسع عشر وظهور الحكم النيابى) .

ويوجد حديث مشابه حول "العمال" أو وفقًا لقول الاتجاه اليسارى "الكادحين" ، ونحن لانملك دليلاً ماديا أو بحثًا علميا يبين أن وضعهم الاقتصادى قد أخذ فى الانهيار فى الأعوام الأخيرة لنظام الشاه ، أو يثبت أن حرمانهم الاقتصادى قد أفضى إلى تصديهم لنظام الشاه . ونحن لانملك فقط الأدلة التى نستطيع - على أساسها - الوصول إلى نتيجة مفادها تدهور أحوال الكادحين فى الأعوام الأخيرة لنظام الشاه ، بل على العكس من ذلك ، فإن الأدلة الموجودة تناقض هذا الرأى :

"كانت الأجور والرواتب فى حال زيادة ... وكانت هذه الزيادات غير طبيعية إلى حد جعل الأب يخجل من ذكر قيمة أجره أمام ابنه ، حيث كان أقل من الابن رغم وجود الخبرة لدى الأب ودخول الابن ميدان العمل حديثًا . وثمة حقيقة مهمة وهى أن العمال عندما كانوا يفقدون عملهم بسبب التسيب المتكرر، كانوا يحصلون - على الفور - على عمل أفضل يفوق العمل الأول فى الراتب ... وكان الشعب حقا شديد الطمع ، فالفرد الذى كان يعيش فى السابق على الخبز والجبن ، لايرضى اليوم بأقل من الشواء مع الأرز . وكان العامل الأجير باليومية يذهب إلى عمله بسيارة من طراز "پيكان" . لاريب

أننا نحمد الله لحلول ذلك اليوم الذى يذهب فيه حتى العامل بالأجرة اليومية إلى عمله بسيارته الخاصة. وحال الرواتب والأجور هذا لن يستمر كثيراً على هذا النحو"(٦٤).

ولايقدم "هاليدى" أيضًا فى مؤلفه الشهير فى الوضع الذى يبحث فيه عن طبقة العمال فى إيران أى دليل على سوء الأوضاع الاقتصادية للكادحين ، وعلى العكس يرى أن طبقة العمال كانت تحظى بقوة اقتصادية جديرة بالملاحظة (٦٥).

وأخيرًا ، فإن عقد مقارنة حول وضع الأجور فى فترة الخمسينيات (أى السبعينيات بالتقويم الميلادى) يوضح بجلاء أن وضع العمال (على الأقل من حيث الأجور) كان أفضل بمراحل فى الأعوام الأخيرة من عمر نظام الشاه :

"ارتفعت الأجور بزيادة بلغت ٩٠٪ فى الأعوام من ١٣٤٩-١٣٥٦ ش (١٩٧٠-١٩٧٧م) ... وكان الحد الأدنى للأجرة اليومية فى عام ١٣٥٢ ش (١٩٧٣م) ٨٠ ريال ، وزاد إلى ٢١٠ ريال فى عام ١٣٥٦ ش (١٩٧٧م) ، وارتفع متوسط أجر العمال ثانية فى ٢١ صناعة رئيسية خلال عامى ٥٤ - ١٣٥٥ ش (٧٥ - ١٩٧٦م) إلى ٣٠٪ ثم إلى ٤٨٪ خلال عامى ٥٥ - ١٣٥٦ش (٧٦- ١٩٧٧م) ، وكان ارتفاع مستوى المعيشة - خاصة بين الحرفيين - مما يلفت الأنظار . وفى عام ١٣٥٠ ش (١٩٧١م) كان عمال الصناعات الإنتاجية فى طهران يحصلون على أجرة يومية تعادل ٢٢٠ ريال فى حدود المتوسط (١٧٠ ريالاً أساسى، ٣١ ريالاً إضافة عمل، ١٩ ريالاً علاوة خاصة)، إلا أن هذا الأجر بلغ ١٠٠٠ ريال فى عام ١٣٥٦ش (١٩٧٧م) بالنسبة لعمال صناعة السيارات فى مدينة آراك" بدون العلاوة الخاصة (٨٥٠ ريال أساسى ، ١٥٠ ريال إضافة عمل) (٦٦).

والمشكلة تكمن فى أنه حينما يُقدم الموضوع فى حدود الشعارات والإنشاء يمكن كتابة "إن توابع الفقر والجوع عند الكادحين قد بلغ أبعاداً مأسوية لانظير لها " أو "إن الكادحين ومهاجرى القرى فى المدن الذين كانوا يعيشون بالقرب من القصور فارت دماؤهم غضبًا وبلغ السيل الزبى" . لكن إذا ما طرقنا عالم الواقع ، نرى أن الوضع كان يبدو على نحو آخر . فقد رأينا فيما سبق أن أوضاع مهاجرى القرى فى المدن لم تكن سيئة على هذا النحو ، وأن السوق لم تبر تجارته نتيجة "لنمو طبقة كبار البرجوازية" أو "بسبب التطورات الاقتصادية المستحدثة" فى عهد الشاه . ويتضح الآن

أن وضع الكادحين لم يكن سيئًا ، بل كان على نحو أفضل وفقًا للأعداد والأرقام .

وإذا ماتم تحليل الجماعات الاجتماعية الأخرى (كموظفى الحكومة ، والمعلمين ، والتجار وغيرهم) بنفس النظرة ، فما أكثر ما نصل إلى نتائج مشابهة، حيث إن أوضاعهم جميعًا خلال الخمسينيات (أى السبعينيات بالتقويم الميلادى) كانت أفضل بمراحل من الفترة السابقة ، وتمتع الناس بقوة شرائية بشكل أكبر .

حقيقة ، وبعيداً عن هذه الطوائف الثلاث (مهاجرو القرى فى المدن ، ومجتمع السوق والعمال) كان مستوى المعيشة لدى المجتمع بأكمله فى ازدهار . ولاننسى ، أن الدخل النقدى للنظام فى العام الواحد فقط (وفقًا لأسعار الخمسينيات) بلغ حوالى ٢٠ مليار دولار . ويكفى أن نلقى نظرة على زيادة عدد الأسر التى كانت تستخدم الغسالات، التلفاز الملون،[٦٧] الثلاجات ، "الديب فريزر" والسيارات الخاصة خلال تلك الأعوام ، وكذلك الزيادة الملفتة للنظر فى أعداد المسافرين خارج الدولة وكم البضائع المستوردة من الخارج (خاصة البضائع الاستهلاكية والماكينات والآلات الأساسية) ، وأيضًا الزيادة المطردة فى أعداد الدارسين والطلاب خارج الدولة وداخلها ، ووجود آلاف العمال الماهرين والمتخصصين الأجانب (الفلبينيون ، والأفغان ، والهنود ، والباكستانيون، والكوريون ، واليابانيون ، والأوروبيون والأمريكان) فهذا كله يوضح هذا الازدهار :

"لقد زاد معدل إنتاج الكهرباء من ٧٠٠٠ مليون كيلو وات/ساعة فى عام١٣٤٩ش (١٩٧٠م) إلى ١٩٠٠٠ كيلو وات /ساعة فى عام ١٣٥٣ش (١٩٧٦م) ، كما زاد عدد أجهزة المذياع على مستوى الدولة من ٣ مليون جهاز إلى ٨ مليون جهاز ، وعدد التلفاز من ٢٠٠ ألف جهاز إلى ٢ مليون جهاز ، وعدد الدارسين من ٣/٦ مليون إلى ٧/١ مليون طالب فى نفس الفترة " [٦٨] .

وهذه الزيادة لاتعنى أن النظام قد تمكن من إيجاد تطور اقتصادى هائل فى الدولة، ولاتعنى أيضًا أن برامج الشاه وسياساته الاقتصادية كانت بلا عيب أو نقصان، أو أن المشاريع التى نفذت كانت ناجحة بالضرورة . وهذا هو الخطأ الذى وقع فيه بعض المحللين الغربيين ، فارتفاع مستوى المعيشة فى هذه الأعوام كان مرتبطًا فى

الواقع بشكل مباشر بدخل النفط الإيرانى ، وقد زاد هذا الدخل زيادة كبيرة فى العشرة أعوام الأخيرة لنظام الشاه ، حيث ارتفع من ٤٣٧ مليون أو أقل من نصف مليار دولار فى عام ١٣٤٢ ش (١٩٦٣م) إلى عشرين مليار دولار فى عام ١٣٥٧ش (١٩٧٨م) . بعبارة أخرى ، كان الدخل النقدى للدولة يتضاعف أكثر من أربعين مرة بسبب دخل النفط فقط خلال الخمسة عشر عاماً المشار إليها .

إن مفتاح إدراك أسباب الازدهار الاقتصادى فى العشرة أو الخمسة عشر عاماً الأخيرة من نظام الشاه تكمن فى الواقع فى هذه الزيادة الخيالية للدخل . والذى ردده نظام الشاه من خلال أبواق دعاياته على أنه معجزة القرن الاقتصادية، المعجزة - وفقاً لمزاعم عمال هذا النظام - التى تفوق معجزات ألمانيا، وإيطاليا واليابان الاقتصادية بعد الحرب ، هى فى الأصل لاتزيد عن كونها معجزة تضاعف دخل النفط الإيرانى أربعين مرة . ومثلما اتضح فى البحث والتحليل التفصيلى لبرامج التطور الاقتصادى فى عهد الشاه ، نجد أن اليابان وألمانيا قد أخذتا مكاناً لهما ، بل وحتى تركيا ، ولنترك الخيال ، ففى عالم الواقع والإحصائيات ، لم تبلغ إيران تلك المكانة التى بلغتها سنغافورة ، وماليزيا أو حتى المكسيك (٦٩) .

ولا تنحصر مشكلة مؤيدى نظرية "الاقتصاد أحد بواعث الثورة" فى انعدام الأدلة لإثبات ادعائهم ، فالمشكلة الأهم فى هذه النظرية هى أنها توجد فجوة بين الثورة الإسلامية وسير التطورات السياسية والاجتماعية المعاصرة فى إيران .

* * *

وعلى الرغم من التباين الملاحظ فى التحاليل السابقة ، إلا أنها تشترك جميعًا فى نقطة أساسية . فلم تقيم أية نظرية قمنا ببحثها حول أسباب الثورة الإسلامية هذا التغيير فى إطار دورة التطورات السياسية والاجتماعية المعاصرة للمجتمع . بعبارة أخرى ، أنها قلما تضع سقوط نظام الشاه فى قالب تاريخى ، أو قلما ترى أن جذور ثورة إيران الإسلامية تمتد فى قلب تاريخ إيران المعاصر .

وإذا ما تعمقنا فى نتائج النظريات التى بحثناها حتى الآن قد نستطيع أن نستخلص هذه النتيجة العامة ، وهى أن الحديث الأساسى لها جميعًا فى توضيح أسباب الثورة هو أنه فى الأعوام الأخيرة للنظام ، أو على الأكثر فى العشرة أو الخمسة عشر عامًا الأخيرة ، ظهرت نواقص وسلبيات أدت فى النهاية إلى سقوط الشاه ، ولو لم تحدث هذه السلبيات لما وقع حادث خاص ، ولظل النظام ممتطيًا جواد القوة وحكم كما كان يحكم فى السابق .

والبعض يقول صراحة : إنه قبل حدوث هذه الكوارث لم يكن للنظام أية مشكلة على الإطلاق . والبعض الآخر يستنتج مثل هذه الاستنتاجات فى بحوثه. والذى يفصل بين هذه النظريات هو اختلافها فى تحليل طبيعة ظهور هذه المشاكل وأسبابها . فالبعض يعدها نتاجًا لتسرع الشاه الزائد عن الحد فى تحديث المجتمع . والبعض يعتبرها نتاجًا لتضاعف قيمة النفط فى عام ١٣٥٢ ش (١٩٧٣م) أربعين ضعفًا . والبعض يرى أنها نتاج هجرة القرويين إلى المدن (مشاكلهم وإحباطهم فى المدن) . والبعض يعتبرها نتاج إعراض الشاه عن الدين واتباعه السياسة المناهضة للإسلام وشيوع الفساد والفحشاء ... وفى النهاية يقدمون جميع الآثار الناتجة عن هذه المشاكل، أى الغلاء ، والبطالة ، والفقر ، والجوع والتضخم على أنها من أسباب استياء الشعب من النظام ، أو أنه أساس تمردهم ضده .

من وجهة نظر هؤلاء ، إن مشاكل نظام الشاه قد تشكلت وظهرت فى الأعوام الأخيرة له والتى تمتد على الأكثر من عام ١٣٤٢ ش (١٩٦٣م) وماتلاه، وإن كانت بعض المسائل تطرح قبل ذلك ، فلم يكن لها علاقة مباشرة أو مؤثرة تجاه الثورة الإسلامية وسقوط الشاه فى عام ١٣٥٧ش (١٩٧٨م) . والمشكلة كانت تكمن فى السياسات ، وأساسًا فى السياسات الاجتماعية والاقتصادية فى الأعوام الأخيرة لنظام الشاه . وهنا نرى أن مامن نظرية من النظريات التى بحثناها لها أية علاقة بإيران قبل فترة الخمسينيات (أى السبعينيات بالتقويم الميلادى) ، أو على الأكثر قبل عام ١٣٤٢ ش (١٩٦٣م) .

فى الواقع ، إن هذه النظريات قد طرحت الثورة على أنها أحد التطورات المنفصلة عن مجموع التطورات السياسية والاجتماعية فى إيران ، دون أن يعلموا أنه من

الضروري إقامة جسر بين نضال عامى ٥٦ - ١٣٥٧ ش (٧٧- ١٩٧٨م) وبين التاريخ المعاصر للمجتمع الإيرانى . فمن وجهة نظرهم ، بغض النظر عما كان يحدث لإيران أو فى إيران قبل ذلك ، أنه يمكن الحصول على أسباب الثورة فى التطورات الخاصة بالعشرة أو على الأكثر بالخمسة عشر عاماً الأخيرة للنظام .

والنظرية التى نهدف أن نطرحها فى هذا المقام هى عكس هذه الرؤية تماماً. فمن وجهة نظرنا إنه بدون إدراك جميع التطورات السياسية والاجتماعية والدينية المعاصرة لإيران ، ليس من الممكن فقط تتبع أسباب ظهور الثورة الإسلامية ، بل إننا لن نستطيع حتى أن نقيم أقل المواضيع بساطة - من قبيل أسباب الاستياء من نظم الشاه - بشكل واقعى وبصورة صحيحة . فمن وجهة نظرنا ، لايمكن أن نضع فاصلاً أو حدا بين إيران عام ١٣٥٦ش (١٩٧٧م) وإيران عام ١٣٥٠ش (١٩٧١م) ، أو بين إيران عام ١٣٥٠ش (١٩٧١م) وإيران عام ١٣٤٥ ش (١٩٦٦م) ، ونستنتج أن الأمور فى مجموعها كانت تسير بشكل منظم أو على وتيرة واحدة حتى عام ١٣٤٥ش أو عام ١٣٥٠ ش (١٩٦٦ ، ١٩٧١م) ، ودفعة واحدة قام الشاه فى عام ١٣٥٥ش أو فى عام ١٣٥٦ش أو حتى فى عام ١٣٤٢ش (٧٦-٧٧-١٩٦٣م) بهذه السياسة ، أو نفذ ذلك الإجراء ، ووقع فى هذا الخطأ أو ذاك ، وأصبح الاقتصاد على هذا النحو ، وحدث ذلك التضخم ، وانهار أساس النظام دفعة واحدة .

فمن وجهة نظرنا ، إن ماحدث خلال عام ١٣٥٦ ش (١٩٧٧م) تمتد جذوره إلى عام ١٣٤٥ ش (١٩٦٦م) ، وكذلك إلى عام ١٣٤٠ ش (١٩٦١م). بل تمتد جذوره فى قلب تاريخ إيران المعاصر كله !

لايمكن أن نفصل أو نضع حدا بين إيران عام ١٣٤٥ ش (١٩٦٦م) وإيران عام ١٣٥٠ش (١٩٧١م) ، أو حتى إيران عام ١٣٤٠ ش (١٩٦١م) ، ونتوهم أننا نستطيع أن نبحث أحوال إيران فى عام ١٣٥٠ش (١٩٧١م) بشكل صحيح دون أن تمس حاجتنا إلى معرفة ماكانت عليه إيران أو ماكان يحدث فيها خلال الخمسة أو العشرة أعوام السابقة على ذلك التاريخ .

إن ما رأيناه فى عام ١٣٥٠ش (١٩٧١م) فى إيران هو ثمار ونتاج ماكان يحدث فى إيران عام ١٣٤٠ش (١٩٦١م) بل وعام ١٣٢٠ش(١٩٤١م) أو حتى قبل ذلك .

ولاشك أن التعريف بإيران عام ١٣٥٠ش (١٩٧١م) من بين الآثار والبقايا المندثرة لعام ١٣٤٠ش أوعام ١٣٣٠ش (٦١-١٩٥١م) أمر صعب ومعقد للغاية . وواضح أن تقديم ماكان يحدث فى إيران خلال عامى ٥٦-١٣٥٧ ش (٧٧-١٩٧٨م) له جذور تمتد خلال سبعة وثلاثين عامًا من حكم محمد رضا شاه هو أمر أصعب بمراحل إذا ما قلنا : إن الجذور تكمن فى تحديث الشاه السريع للدولة ، أو تضاعف سعر النفط أربعين ضعفًا ، أو إعراض الشاه عن الإسلام ، أو تعرض الإمبريالية لأزمة وإنها بدلت النقاب ، أو إن حدوث الاختلاف بين البرجوازية الوطنية وكبار البرجوازية قد أظهر أبعادًا عديدة ، وإن التضخم والغلاء والبطالة والفقر قد أثار الكادحين فأعلنوا عصيانهم .

لايمكن أن نفصل قط بين تطورات إيران عام ١٣٥٦ش (١٩٧٧م) ، بل إننا لانستطيع كذلك أن نفصل بين نضال عامى ٥٦-١٣٥٧ش (٧٧-١٩٧٨م) وبين النضال الذى تم قبل ذلك ضد النظام السابق . إن المعارضة لنظام الشاه لم توجد فقط فى عام ١٣٣٦ ش (١٩٥٧م) ، بل كانت توجد فى عام ١٣٤٦ ش (١٩٦٧م) ، وكانت توجد أيضًا قبل ذلك بعشرة أعوام ، أى فى عام ١٣٣٦ش (١٩٥٧م) . فلم يكن الحال أن المعارضة للنظام وجدت فى وقت محدد ، أو على سبيل المثال منذ عام ١٣٤٢ أو ١٣٤٥ش(٦٣- ١٩٦٦م) . ولم يكن الحال أن الوضع ظل هادئًا فى الأعوام السابقة لعام ١٣٥٦ش (١٩٧٧م) وفجأة ، ونتيجة للسياسات السابقة ، ظهر فى هذا العام التضخم فى الأسعار ومظاهر البذخ ، وعانت الإمبريالية من أزمة ، وانتشر الفساد والفحشاء والكفر . والخلاصة ، اندفع الأهالى إلى الشوارع ، وقام الكادحون بإضراب، وقام الطلاب بإعلان معارضتهم .

إن الصمت والهدوء الذى كان يبدو فى إيران قبل عام ١٣٥٦ ش (١٩٧٧م) لم يكن أكثر من سراب ، كان كالنار تحت الرماد . ويكفى فقط أن نلقى نظرة على أعداد المعتقلين السياسيين ، فقد ارتفع عددهم خلال السنوات العشر الأخيرة من حكم الشاه من أقل من مائة معتقل فى عام ١٣٤٦ش (١٩٦٧م) إلى ما يقرب من ٥٠٠٠ معتقل فى عام ١٣٥٦ش (١٩٧٧م) .

لايجب أن ندع الشك يراودنا فى أن الغالبية العظمى من المجتمع كانت تعارض الحكومة إذا ماتوفرت الظروف الملائمة ، ليس فقط فى عام ١٣٥٦ش (١٩٧٧م) بل طوال فترة نظام الشاه ، وخاصة منذ عام ١٣٣٢ش (١٩٥٣م) وماتلاه .

وانقلاب ٢٨ مرداد من عام ١٣٣٢ش (١٩٥٣م) الذى اضطر فيه الشاه إلى تدعيم سيادته فقط عن طريق الانقلاب واستخدام القوة العسكرية هو نفسه أفضل دليل على انعدام القاعدة الشعبية لذلك النظام .

وبعد الانقلاب ، لم يسمح النظام قط للمعارضين ، وعلى ما يبدو أن التلاطم السياسى فى الأعوام التالية على سقوط رضا شاه ، والمظاهرات والاشتباكات فى الشوارع ، والإضرابات ، والحكومات التى لم يستمر بعضها أكثر من عدة أسابيع ، كل هذه الأحداث قضت على المعارضة وعم "الهدوء" إيران. أما بعد ذلك بحوالى سبع سنوات ، حيث اضطر الشاه - لعدة أسباب - إلى تخفيف الضغط ، أطلت أمواج الاعتراض برأسها دفعة واحدة من السوق ، والجامعة ، والمدارس، ومن بين التجار ، وخلال أقل من بضعة أسابيع اجتمع مايقرب من ٨٠ ألف شخص من أهالى العاصمة فى ميدان جلاليه (بارك لاله حاليًا) بناءً على دعوة معارضى النظام . وفى عام ١٣٤٢ش (١٩٦٣م) استطاع النظام الحفاظ على سيادته بالاستفادة من القوى العسكرية بشكل واسع . وبعد ذلك بأربعة أعوام ، أى فى عام ١٣٤٦ ش (١٩٦٧م) ، وبمجرد أن تساهل النظام بشكل ضمنى ، أعلن مئات الآلاف من الأهالى معارضتهم له أثناء مراسم تشييع جنازة غلام رضا تختى[٢٠]. وقبل هذا كله ، أى فى عام ١٣٣١ش (١٩٥٢م) حث الأهالى الحكومة - التى كانت موضع تأييد الشاه - على التنحى وذلك خلال ثورة عارمة. [١٩]

والمعارضة التى شاهدناها كذلك فى عام ١٣٥٦ش (١٩٧٧م) لاتنفصل عن هذا . فلم يقع حادث خاص أو خارق للعادة فى هذا العام ، فلم تعان الرأسمالية العالمية من أزمة ، ولم تبدل الإمبريالية النقاب ، ولم تطرح شيئًا جديداً، لم يصل الخلاف الداخلى لطبقة كبار البرجوازية المنتمية للشاه إلى نقطة الانفجار، لم يقصم الغلاء ، والبطالة ، والفقر والتضخم ظهور الكادحين ، لم تكن إصلاحات الشاه التحديثية الغربية قد أخذت

سرعتها ، لم تكن سياسات الشاه المناهضة للدين قد اتخذت أبعاداً واسعة . إن ما حدث فى ذلك العام – كما سنراه تفصيليا فى الفصول التالية – هو فقط أن النظام سمح للأهالى بالتقاط الأنفاس ولو بشكل نسبى ، مثلما حدث فى أعوام ٣٩–٤٠ ، ٤٢، ١٣٤٦ش (٦٠–٦١ ، ٦٣ ،١٩٦٧م) .

أو أننا يجب أن نقول : إن نظام الشاه كان يحظى دومًا بالحماية والتأييد اللازمين ، وأن ثورة المعارضين تلك التى شاهدناها خلال هذه الفترات كانت نتاج المشاكل والأزمات الاقتصادية التى اضطر النظام للتأثر بها تدريجيا بسبب ارتباطه بالإمبريالية العالمية . أو يجب أن نقبل أن نظام الشاه لم يكن يحظى بتأييد الشعب دومًا ، وكان يحكم معتمداً فقط على القوة العسكرية ، لذلك فكلما تحين الفرصة تجد تلك النار الخامدة تحت الرماد طريقًا لها ، وآنذاك نشهد ظهور الاستياء .

وإذا ما قلنا : إن معارضة نظام الشاه كانت حادثًا ممتدا ومتصلاً يوجد دومًا – بغض النظر عن ماهية أوضاع الدولة وأحوالها – فلاريب أننا نواجه هذا الاستفسار ، وهو : من أين نشأت أسباب هذا الاستياء وجذور عدم الشعبية تلك؟والرد على هذا الاستفسار هو فى الحقيقة ردنا على أسباب الثورة .

نحن مضطرون قبل أن نقوم بالرد لطرح سؤالين أو مشكلتين تواجههما نظرية امتداد النضال . المشكلة الأولى (ويمكن القول إنها تمثل البعد التاريخى): هل كان ثمة سبب أو عدة أسباب ثابتة دومًا تدعو للاستياء من النظام؟بعبارة أخرى ، ومن وجهة النظر التاريخية ، كيف يمكن الادعاء بأن الاستياء من النظام كان يوجد دومًا ولم يتغير قط طوال سبعة وثلاثين عامًا من حكم الشاه؟

المشكلة الثانية (التى تُطرح من وجهة نظر علم الاجتماع) : إن الطبقة أو الطبقات الاجتماعية التى كانوا يعدونها غير راضية عن النظام ومعارضة له ، هل كانت ثابتة دومًا؟ هل كانت هناك طبقة أو عدة طبقات خاصة تعارض النظام دومًا؟ ولو نفترض أن طبقة الطلاب ، أو طبقة العمال ، أو مؤسسة رجال الدين فى العشرينيات (أى الأربعينيات بالتقويم الميلادى) أى فى الأعوام الأولى من حكم الشاه كانت تعارضه لسبب ما ، فهل كانت نفس هذه الطبقات هى المعارضة للنظام فى الثلاثينيات ،

والأربعينيات والخمسينيات (أى الخمسينيات، والستينيات والسبعينيات بالتقويم الميلادى)؟ هل كان الوضع الاجتماعى للطبقات المعارضة لنظام الشاه ثابتًا خلال سبعة وثلاثين عامًا من حكمه ، والنتيجة عدم حدوث أى تغيير فى معارضتهم؟ هل كان الباعث لدى هذه الطبقات فى مقاومة النظام والاستياء منه فى العشرينيات (أى الأربعينيات) هو نفسه الذى شاهدناه بعد ثلاثين عامًا فى الخمسينيات (أى السبعينيات) ؟ والخلاصة ، هل كان المجتمع الإيرانى مجتمعًا مفككًا ، مغلقًا وبسيطًا لدرجة أنه لم يحدث به أى تغيير أو تطور؟ وهل كانت الطبقة أو الطبقات المعارضة للحكومة على نمط واحد على الدوام؟

وبنظرة إجمالية حول مسيرة النضال ضد نظام الشاه يتضح ، أولاً : مسألة امتداد النضال . ثانيًا : نتمكن - إلى حد ما - من الرد على الاستفسارين سالفى الذكر .

ففى الأعوام الأولى من حكم الشاه كان حزب "توده" يعد أحد أهم الأحزاب المعارضة للنظام . وبعيداً عن هذا الحزب ، فثمة عناصر أخرى كانت تقف فى صفوف معارضى البلاط ، من بينهم : بعض الملاك ورؤساء العشائر والقبائل ، وبعض العناصر الليبرالية المطالبة بالحياة النيابية (ممن يرتبطون بأسر الملاك وكذلك من بقايا المطالبين بالثورة الدستورية) ، وأخيراً بعض الدارسين والباحثين العائدين من أوروبا . والعامل المشترك بين هذه الطوائف غير المتجانسة هو أنها كانت فى الغالب موضع غضب فى عهد رضا شاه ، وكان مصيرهم إما الهروب خارج المملكة ، أو الاختفاء والعزلة فى إحدى الضواحى داخل المملكة . وكان مصدر قلقهم وهمهم وغمهم الأصلى هو - لاقدر الله - ظهور رضا شاه آخر .

ومنذ أواخر العشرينيات (أى الأربعينيات بالتقويم الميلادى) وأوائل الثلاثينيات (أى الخمسينيات) ، ومع تأجج النضال لتأميم صناعة النفط ، صار الوطنيون مركزًا للمعارضة ضد الشاه . وفى أواخر الثلاثينيات (أى الخمسينيات) حملت عناصر أكثر تدينًا فى الجبهة الوطنية راية العصيان تحت مسمى "ثورة التحرير" . ومع ظهور الإمام ووقوع انتفاضة ١٥ خرداد ، صارت قم ورجال الدين مركزًا للمعارضة ضد النظام . ومنذ أواخر الأربعينيات (أى الستينيات) وما تلى ذلك بعدة أعوام ، انضم للمقاومة

بعض المؤيدين للنضال المسلح ضد النظام . وفى أوائل الخمسينيات (أى السبعينيات) كان د . شريعتى وحسينة إرشاد سمبل من معارضى النظام .

وما من شك أن ثمة فاصل كان يوجد بين أفكار حزب توده وماكان يؤمن به أتباع "ثورة التحرير" . ومامن شك أن ثمة خلافات جوهرية كانت توجد بين ماكان يبغيه الوطنيون ود . مصدق ، وبين ماكان يريد الإمام وجوده . ومامن شك فى أن هدف شريعتى من مقاومة النظام لم يكن مشابهاً لهدف مناضلى "فدائيان خلق" - أى فدائيو الشعب - والخلافات بين هذه العناصر أوضح من أن يتمكن شخص من تجميعها معاً حتى ولو بشكل تقريبى .

وهدفنا فى الأصل هو توضيح أن نظام الشاه كان دوماً موضع سخط واعتراض، وأن استمرار النضال ضده ، على الرغم من كونه غريباً وثقيلاً ظاهريا ، إلا أنه كان موجوداً خلال سبعة وثلاثين عاماً من حكمه بشكل أو بآخر.

أما فيما يتعلق بكون هؤلاء المناضلين - من وجهة النظر الاجتماعية - كانوا على نحو ثابت ، وأن المجتمع الإيرانى كان مجتمعاً ثابتاً لايتغير خلال سبعة وثلاثين عاماً ، فلاريب أن الأمر لم يكن كذلك . فلا يجب أن يؤخذ الاستياء من النظام ودوام النضال بمعنى السكون الاجتماعى للمجتمع الإيرانى فى عهد الشاه السابق . فبالتأكيد كان المجتمع الإيرانى فى حال تطور وتغيير ، وقد تبلور هذا التطور وذلك التغيير على أفضل وجه بين الطبقات والجماعات الاجتماعية التى قامت بمقاومة النظام . ويكفينا إلقاء نظرة إجمالية مرة أخرى على قائمة العناصر المعارضة لنظام الشاه والتى ظهرت فى أوقات متباينة خلال عمر هذا النظام .

وإذا مانظرنا من حيث النسيج الاجتماعى، فكان معارضو النظام فى العشرينيات والثلاثينيات (أى الأربعينيات والخمسينيات) يتألفون من المنتمين إلى حزب توده والوطنيين، وقد تغير هذا النسيج فى الأربعينيات والخمسينيات (أى الستينيات والسبعينيات) ، فمجموع المعتقلين السياسيين المنتمين إلى حزب توده، وثورة التحرير ، والجبهة الوطنية كان حوالى مائة شخص وذلك فى أواخر الأربعينات (أى الستينيات) وحتى عهد الثورة ، فى حين أنه فى أوائل الأربعينيات (أى الستينيات) لم يكن لدينا أى معتقل سياسى سوى من المنتمين إلى الوطنيين وحزب توده . وفى أواسط الخمسينيات

(أى السبعينيات) انخفض معدل هذا النوع من المعتقلين السياسيين إلى أقل من ٢٪ . وإذا كان المعارضون فى العشرينيات والثلاثينيات (أى الأربعينيات والخمسينيات) من خارج حزب توده يتألفون من: أهل السوق ، والتجار ، والحرفيين ، والوطنيين المتدينين ، ورجال الدين المرتبطين بالوطنيين والعناصر المطالبة بالحياة النيابية والإصلاح والتى ينتمى العديد منها إلى الطبقة المرفهة ، فإنه فى الأربعينيات والخمسينيات (أى الستينيات والسبعينيات) سواء من ناحية ما نطلق عليه فى علم الاجتماع "التقسيم العمودى" ، وسواء من ناحية "التقسيم الأفقى" فى صفوف المعارضين ، فنحن نشاهد تغييرات جديرة بالملاحظة . فمن ناحية التقسيم العمودى ، فإن مركز الثقل الاجتماعى للمعتقلين السياسيين يظهر فى الطبقات المتوسطة داخل المجتمع. ومن ناحية التقسيم الأفقى ، كانت صفوف المعارضين أكثر اتساعًا ، وشملت طبقات : الطلاب ، ورجال الدين ، والنساء ، والعمال ، وطلاب الجامعة، والمعلمين وأهل السوق .

وبنفس الترتيب ، كانت الرؤى السياسية لصفوف المعارضين تتغير ، فإذا كان الحديث فى العشرينيات والثلاثينيات (أى الأربعينيات والخمسينيات) يدور حول البرلمان والمطالبة بالحياة النيابية وتم النضال ضد الشاه فى إطار الدستور ، فالحديث فى الأربعينيات والخمسينيات (أى الستينيات والسبعينيات) كان يدور حول التغيرات الجذرية ، سحق النظام ، إيجاد مجتمع واحد دون تمييز طبقى، إيجاد النضال المسلح الجماعى ، حرب التطوع ، مقاومة الإمبريالية وأخيراً الثورة.

بعبارة أخرى ، صحيح أن المجتمع كان فى حال تغيير ، وأن الطبقات والمجموعات القديمة كانت فى طريقها إلى الزوال لتفسح المجال لظهور طبقات جديدة ، وأن تلك الطبقة الاجتماعية البارزة والهامة من الناحية السياسية والتى كانت تنتمى نوعًا إلى طبقة الملاك وتشكل الجزء الأساسى من العناصر السياسية للدولة فى قالب العناصر الليبرالية - الأرستقراطية فى العشرينيات (أى الأربعينيات) ، قلما كنا نراها فى الثلاثينيات (أى الخمسينيات). صحيح أن إحدى الطبقات السياسية المهمة ، أى النخبة التى سافرت إلى أوروبا فى عهد رضا شاه ودرست الحقوق والعلوم السياسية فى جنيف ، ولوزان ، والسوربون ولندن ، وقامت مع سقوط رضا شاه فى العشرينيات (أى الأربعينيات) بمعارضة النفوذ الجديد للبلاط وعودة استبداد رضا شاه ، قلما كنا

نشاهد أثرًا أو حضوراً لها فى الأربعينيات (أى الستينيات) . صحيح أن الجزء الأساسى من معسكر المعارضة ضد الشاه الذى تشكل من أعضاء "ثورة التحرير" والجبهة الوطنية فى الثلاثينيات (أى الخمسينيات) وأوائل الأربعينيات (أى الستينيات) قلما كنا نشاهد أثرًا أو حضوراً له فى الخمسينيات (أى السبعينيات) . لكن صحيح أيضًا أن ثمة طبقات ومجموعات جديدة ذات أفكار أكثر حداثة قد حلت محل هذه الطبقات وتلك العناصر والحركات . والحديث فى هذا المقام لايدور حول ماهية هذه التغييرات وكيفيتها ، وما يهمنا هنا هو أنه على الرغم من التباين بين هذه الطبقات ، سواء من ناحية المكانة الاجتماعية أو الطبقية ، وسواء من ناحية نظرياتهم ومعتقداتهم، إلا أنهم يشتركون جميعًا فى أحد الوجوه الأساسية . والسؤال المهم فى هذا الموضع هو : ما هو ذلك الوجه المشترك بينهم ؟

إن السبب الذى ظل ثابتًا على الدوام خلال سبعة وثلاثين عامًا من حكم الشاه السابق ، وكان باعثًا لنفور الطلاب والمثقفين - على سبيل المثال - من حكومته فى الخمسينيات (أى السبعينيات) هو نفسه الذى كان لدى أسلافهم تجاه الشاه وبلاطه فى العشرينيات (أى الأربعينيات) . وما كان يستاء منه أهل السوق فى حكومته خلال الخمسينيات (أى السبعينيات) هو نفسه الذى استاء منه آباؤهم فى العشرينيات (أى الأربعينيات). وما كان يعارضه الطلاب والدارسون فى الثلاثينيات (أى الخمسينيات) هو نفسه الذى كان يعارضونه فى الخمسينيات (أى السبعينيات). فما هو هذا الباعث؟!

أى باعث أدى إلى زيادة حدة الاعتراض والاستياء العام فى المجتمع تجاه النظام البهلوى خلال الخمسينيات (أى السبعينيات) بنفس القدر الذى كان له منذ ثلاثين عاماً مضت ؟

من وجهة نظرنا ، إن هذا العامل المشترك أو ذلك السبب الجذرى يعود إلى الماهية السياسية والشكل الحكومى للنظام السابق .

هذه الماهية هى التى أدت إلي دعم عنصر المعارضة والاستياء تجاه الشاه دومًا ، وانتقاله من جيل إلى آخر على الرغم من التغييرات والتطورات الاقتصادية والاجتماعية المهمة التى تمت فى غضون مايقرب من أربعين عامًا من حكمه .

إن حدوث التغييرات أو أوجه الإصلاح والتقدم الاقتصادى والتطور الاجتماعى خلال سبعة وثلاثين عامًا من حكم الشاه لايجب أن يحول دون تقييم أبعاد أخرى فى حكومته أو أن نتغاضى عنها . أبعاد من قبيل : الهيكل السياسى، ومعدل مشاركة أفراد الشعب فى إدارة الدولة ، وحرية الاجتماعات والمطبوعات وأجهزة الإعلام ، ومطاردة المعارضين والمخالفين ورعاية القانون والتمتع بالأمن الفردى والاجتماعى . وإذا ماكان قد تم بعض أوجه التغيير والتطور من الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية ، إلا أنه لم يتم أدنى تغيير من الناحية السياسية .

فمن ناحية ، من الممكن أن نذكر الماهية المزدوجة لنظام الشاه. ومن ناحية أخرى، يمكن أن نذكر بعض مظاهر الرقى والتقدم الاقتصادى خلال هذه الفترة ، من قبيل : الصناعات الحديثة والمشاريع المتقدمة ، والأبنية الحديثة المجهزة ، وجيش يتزود بالمعدات المتطورة ، وأحدث المعدات الحربية فى العالم ومشاركة النساء فى الأمور الاجتماعية (بمقارنة ذلك مع الدول الإسلامية والعربية الأخرى) .

وعلى فرض أننا نتفق مع مؤيدى نظرية افتراض "التحديث" ونعد هذه المظاهر حجة على التقدم الاقتصادى ، فهذا ليس أكثر من كونه أحد أوجه العملة. فعلى الوجه الآخر - الذى لم يبد على نحو ظاهر - يكون الهيكل السياسى للمجتمع ، والذى لم يشاهد فيه أدنى تغيير أو تطوير قط .

فى الحقيقة ، إن إيران الحديثة - من هذه الناحية - فى عهد محمد رضا شاه لم تختلف كثيرًا عن إيران المتخلفة فى عهد ناصر الدين شاه منذ مائة عام مضت. فإذا كان أمر الملك القاجارى ظل الله السلطان صاحب السعادة يسرى على جميع شئون المملكة فى المرحلة الأولى ، ففى المرحلة الثانية كانت أوامر صاحب الجلالة الإمبراطور أريامهر هى التى تصرف كل كبيرة وصغيرة داخل المملكة . إذا كان صاحب القداسة الملكية - فى المرحلة الأولى - قد قرر أية سياسة تنفذ وأى تدبير يتم، وعلى أى شخص يمنح الخلعة وعلى أى شخص يصب جام غضبه ، ومن يكون إمام الجمعة أو شيخ الإسلام أو نائب السلطنة أو نقيب السادات أو الصدر الأعظم أو الحاكم أو القائد أو الوالى ، ففى المرحلة الثانية كان تعيين أو عزل الوزير ، النائب ، رئيس الوزراء ،

المحافظ ، السفير ، عضو مجلس الشيوخ ، القادة ، العسكريين والمدنيين والأمراء أمراً منوطًا بالنوايا الملكية .

إذا كان الملوك القاجار قد قرروا إلى من يمُنح الامتياز وممن تكون الاستدانة ، فإن تحديد وتقرير أن تمتلك إيران قوة ذرية أو تشترى طائرة كونكورد أو قطار توربين ، وما الذى يشترى ، ومن أية دولة ، أو أية شركة أجنبية تعقد معها اتفاقية ، هذا كله كان من مهام صاحب الجلالة . إذا كان الحاكم القاجارى يرى نفسه فى فترة حكمه ظل الله وحاكم الرعية المطلق العنان ، فالشاه أيضًا يعتبر سلطنته موهبة إلهية فوضت إليه كى يحكم شعبه وأمته وفق إرادته . وكما كان الحال لدى حكام العهد القاجارى وسلاطينه ، كان كل ما يفكر فيه الشاه هو بلا شك الحقيقة المطلقة ومطلق الحقيقة . فأفضل التدابير والسياسات هو ما يفكر فيه الشاه أو يبغيه ، وكافة إيران آذان صاغية للأوامر ، ومامن مهمة للشعب سوى الانصياع للأوامر الملكية .

إن الأبعاد التاريخية ، والاجتماعية ، والسياسية ، والاقتصادية ، والثقافية، والمحلية أو العالمية ، كل فرمان ، وكل قرار ، وكل حديث وكل رسالة "للمعظم له" كانت تنشر لأسابيع فى المطبوعات والأجهزة الإعلامية ويقومون بتحليلها . وإذا كان الملوك القاجار بسبب دورهم – أى أنهم ظل على رؤوس الشعب – كانوا ينفذون أفضل الأحكام والتدابير، فإن صاحب الجلالة كان أفضل اقتصادى ، ومخطط ، واستراتيجى، وسياسى ، ومتخصص فى الشئون النفطية والعلاقات الدولية والتنمية والزراعة ... على مستوى الدولة (إن لم يكن على مستوى العالم) .

وأخيراً إذا ما كان معارضو النظام فى عهد السلطان صاحب السعادة هم حفنة من البابية ، والكفرة والأجانب ، فلم يكن معارضو صاحب الجلالة أيضًا أكثر من حفنة من الرجعيين ، وعملاء الأجانب ، وعملاء الاستعمار ، وخائنى الشعب والحكومة ومفسدين وإرهابيين .

وإذا ما كنا قد بحثنا فى المظهر الخارجى البراق لإيران الحديثة فى عهد محمد رضا شاه ، فهى لم تختلف كثيراً فى جوهرها الأصلى ونسيجها السياسى عما كانت فيه إبان العصر القاجارى . فلم تخط خلال المائة عام هذه خطوة واحدة فى طريق

التطور السياسى ، وكانت المشاركة السياسية للشعب وتدخله فى شئون الدولة وتحديد السياسات فى العصر البهلوى نادرة ، بل منعدمة كما كانت فى العصر القاجارى . وعدم تدخل الشعب فى شئون الدولة ، وعدم وجود دور لهم كان واحداً فى كلا العصرين ، وكان الشعب لاعلاقة له بالهيكل السياسى والحكام فى العصر البهلوى ، بل كان نافراً منهما معرضاً عنهما كما شاهدناه فى أواخر العصر القاجارى .

وأفضل دليل على التشابه السياسى بين كلا النظامين هو رد الفعل الذى أبدته مجاميع الشعب فى النهاية تجاه كلا النظامين . والاستبداد السياسى ، والظلم ، وسياسة الشاه والبلاط والحكام المطلقة العنان ، وعدم محدودية نفوذهم، وانعدام وجود القانون والأمن الفردى ، وتدخل الأجانب وامتداد نفوذهم فى شئون الدولة ، واعتقال كل فكر لايستحسن الحكومة أو يعتبرها غير صالحة والقضاء عليه ، كلها كانت عوامل أساسية أوجدت المعارضة والثورة ضد النظام القاجارى فى قالب الثورة الدستورية ، وكان الهدف الأساسى من هذه الثورة أيضاً – بغض النظر عن مدى نجاحها عمليا – عبارة عن إقرار حكومة القانون فى المجتمع ؛ حتى لايتمكن أى عميل أو أجير للحكومة من أرواح الشعب وأمواله وشرفه . ولم تكن هذه البواعث ، ولم يكن هذا الهدف فى منأى عن باعث ظهور الثورة الإسلامية . فمن ناحية زعامة الحركة كان ثمة تشابه بين الثورتين ، ففى كلتاهما تولى جماعة من رجال الدين الأيقاظ القيام بالدور المهم فى معية بعض المثقفين .

بعبارة أخرى ، على الرغم من ظهور الأفكار الحديثة والثورة الواعية منذ أواخر القرن التاسع عشر فى إيران ، إلا أنه لم يتم أى تطور أو تغيير سياسى مهم. فالهيكل السياسى للمجتمع الإيرانى فى الربع الأخير من القرن العشرين كان بكراً متحجراً غير مستصلح كما كان فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، فلم يكن يوجد فاصل بين آلام وآمال جزء كبير من الشعب السياسية – خاصة طبقة المتعلمين والمثقفين فى المجتمع – فى كلا العصرين على الرغم من مرور مائة عام ؛ لذا لم نبتعد عن الحقيقة لو نقول : إن الثورة الإسلامية كانت حركة لتدمير الهيكل القديم وسحقه وطرح ترتيب جديد .

الهوامش

(١) مصطلح ورد على لسان رئيس أمريكا آنذاك – چيمى كارتر – فى حديثه الشهير أثناء زيارته لإيران قبل الثورة الإسلامية بعام واحد .

(٢) Conspiracy Theories .

(٣) نشير هنا إلى مؤلفات Robert Graham ، Fred Halliday ، وكتاب هاليدى بعنوان «إيران ، ديكتاتوري وتوسعه سرمايه دارى» ترجمة فضل الله نيك آئين، انتشارات أميركبير، تهران ١٣٥٨هـ.ش ، وكتاب جراهام بعنوان «إيران سراب قدرت» ترجمة قاسم صنعوى ، تهران ١٣٥٨هـ .ش . فضلاً عن صحيفة Financial Times والصحيفة الأسبوعية The E conomiste اللتين تصدران فى لندن فيما بين عامى ١٣٥٦ – ١٣٥٧هـ .ش ، حيث نشرتا مقالات واقعية حول اضطراب برامج تطوير الاقتصاد فى إيران . وأيضاً بعض مقالات صحيفة le monde بقلم Eric Roulue الصادرة فى نفس الفترة .

(٤) Abrahamian,Ervand, "Between Two Revolutions", Princeton, University 1980, P .85 .

(٥) على سبيل المثال، انظر ، ملك الشعراء (بهار) ، «تاريخ مختصر أحزاب سياسى إيران» ، جلددوم ، أمير كبير ، ١٣٦٣هـ .ش .

(٦) على سبيل المثال ، انظر أحاديث الشاه مع مجلة "Now" تحت عنوان :

How The Americans Overthrew Me .(Decembre, 1979. pp.21-34) .

(٧) The Shah's Own story : What they have done to my Country .

وللاطلاع على أحاديث الشاه مع السفير الأمريكى (وليام سوليڤان) خلال عهد الثورة، انظر «خاطرات سوليوان» بعنوان «ماموريت درتهران» ترجمة محمود مشرفى، انتشارات هفته، چاپ سوم، ١٣٦١هـ.ش.

وللاطلاع على أحاديث الشاه مع السفير الإنجليزى «آنتونى پارسونز» خلال عهد الثورة، انظر «خاطرات پارسونز»، بعنوان «غرور وسقوط»، ترجمة د. منوچهر راستين، انتشارات هفته، ١٣٦٣هـ .ش.

وللاطلاع على رؤية الجنرال «هايزر» يمكن الرجوع إلى «ماموريت درتهران» ، «خاطرات ژنرال هايزر» ، ترجمة ع. رشيدى، انتشارات اطلاعات، تهران ١٣٦٥هـ.ش . ونفس هذه الخواطر ترجمها ونشرها أيضًا د. محمد حسين عادلى. وبعد خروج الشاه من إيران وسفره إلى مصر أقام فترة فى المستشفى العسكرى بأسوان نظرًا لظروف مرضه، ومن الذين توجهوا إليه بالزيارة وقتئذ «جرالد فورد» رئيس أمريكا السابق ، والسيدة «سينيتيا هولمز» زوجة «ريتشارد هولمز» الرئيس السابق لإدارة المخابرات الأمريكية وسفير أمريكا فى إيران خلال الأعوام ١٣٥٢ – ١٣٥٦هـ .ش (١٩٧٣ – ١٩٧٧م) . وتقول

السيدة هولز فى خواطرها : «بمجرد دخول جرالد فورد إلى الحجرة قال له الشاه فى ضيق وحسرة ويأس : «لمَ ؟» (أى لم سحبته أمريكا من موقع القوة ؟) . وللاطلاع على خواطر السيدة هولز ، انظر :

Helms cynthia : An Ambassodors Wife in IRAN". U.S .1981.

(٨) فيما يبدو أن هذا اللقاء قد تم بعد عودة سوليفان من إجازته (ثلاثة شهور) التى قضاها فى أمريكا، وقد تم سير الأحداث الخاصة بالثورة فى فترة غيابه على نحو سريع . وكان تاريخ هذا اللقاء تقريباً هو أوائل صيف عام ١٣٥٧ش (١٩٧٨م). (قبل كارثة سينما ركس بعبادان وأحداث ١٧ شهريور).

(٩) سوليوان ، ماموريت در إيران ، ص ١١٠ ، ١١١ .

(١٠) انظر مجلة Now .

(١١) پارسونز «غرور وسقوط» ص١٥٨ ،١٥٩ .

ويمكن عقد مقارنة أخرى فيما يتعلق بالكتب الدراسية الجامعية ، فنحن نجد العديد من الكتب الدراسية والمراجع المهمة المترجمة فى فروع : الفيزياء ، والكيمياء ، والهندسة ، والرياضة ، والكومبيوتر والطب ، وقلما نجد هذه المراجع فيما يتعلق بالعلوم الإنسانية، وعلى الرغم من ذلك فإن العديد من الكتب الدراسية المهمة المعروفة فى بعض المجالات مثل : الاجتماع ، والتاريخ ، والعلوم السياسية والاجتماعية ، وعلم النفس ، والاقتصاد والإدارة عبارة عن ترجمة للمتون الأجنبية .

(١٢) Dorman, A. William and Omeed .Ehsan (Mansur Harhang) .
"Reporting Iran the Shah's Way. Columbia Journalism Review, January - February, 1979 .

(١٣) المرجع السابق .

(١٤) Schaar .Stuart," Orientalim at the Service of Imperialism" .Race and Class, Vol. 21,1979 - 1980, pp. 74 - 75 .

(١٥) Bakhash, Shaul ."the Reign of the Ayatollashs: Iran and the Islamic Revolution" . U .S .1985, pp. 24 - 25 .

(١٦) Keddie, Nikki .R. "Roots of Revolution : An Interpretive History of Iran" U.S. 1982, pp. 157-158,169 -189, 239 - 242.

وقد تم نشر كتاب السيدة كدى فى إيران تحت عنوان «ريشه هاى انقلاب إسلامى إيران» ترجمة آقاى د. عبد الرحيم گواهى ، تهران ، ١٣٧٠هـ .ش ، انتشارات قلم.

(١٧) على سبيل المثال ، انظر :

Walker, Martin ."Power of the Press : the world"s Great Newspapers", U.K. 1982 ; Falk, Richard ." Iran and American Geopolitics", Race and Class, op. cit ; Dorman. william. A. "Iranian people v.s News Media: a case of libel", Race and Class,op. cit.

(١٨) Cottom,Richard," Nationalism in Iran Updated thraugh 1978," university of pitsburgh Press, U.S. 1979,p. 321.

(١٩) Bakhash, op. Cit, P. 11.

(٢٠) Keddie "Race and class", op. cit. 27.

(٢١) Kazemi, farhad poverty and Revolution in Iran : The Migrant poor, Urban Marginality, and politics, New york university, U.S,1990 .

(٢٢) لمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع ، انظر الفصل السادس .

(٢٣) كار . أرگان سازمان چريگ هاى فدائى خلق إيران ، ويژه سياهكل وقيام پرشكوه خلق، ١٩ بهمن ، ١٣٥٨هـ .ش .

(٢٤) نفس المرجع .

(٢٥) گزارشاتى أزمبارزات دليرانه مردم خارج از محدوده ، از سرى گزارشات سازمان چريك هاى فدائى خلق ايران دربارة مسكن ، مرداد ١٣٥٧هـ .ش .

(٢٦) «كار» ، سال أول ، شمارة ٤٧، أول اسفند ١٣٥٨هـ .ش ، ص٧ .

(٢٧) «مجاهد» (أرگان سازمان مجاهدين خلق إيران) ، سال اول ، فوق العادة ، شمارهء ٥، ٢١ بهمن ١٣٥٨هـ .ش ، ص١ .

(٢٨) المرجع السابق .

(٢٩) «مجاهد» سال أول ، شمارهء ١٢ ، ٥ آذر ١٣٥٨ هـ .ش، ص٦ .

(٣٠) «مجاهد» سال أول ، شمارهء ١ ، اول مرداد ١٣٥٨هـ .ش ، ص٢ .

(٣١) «مجاهد» سال أول ، شمارهء ٢٢ ، ١٢ بهمن ١٣٥٨هـ . ش ، ص٨ .

(٣٢) مردم (أرگان حزب توده ايران) ، دورهء هفتم ، سال اول ، شمارهء ١٦٤ ، ص ٢ .

(٣٣) مردم ، دورهء هفتم ، سال اول ، شمارهء ١ ، ٢٣ اسفند ١٣٥٨هـ . ش ، ص٤ .

(٣٤) المرجع السابق .

(٣٥) گزراش هيأت اجرائيه حزب توده إيران به پلنوم شانزدهم كميته مركزى حزب، به نقل از روزنامه مردم، دورهء هفتم ، سال اول ، شمارهء ١ ، ٢٣ اسفند ١٣٥٨هـ.ش ، ص٤ .

(٣٦) مردم ، دورهء هفتم ، سال اول ، شمارهء ١٦٤ ، ص٢ .

(٣٧) هفت نامه سوسياليستى كارگر (أرگان حزب گارگران سوسياليست إيران) شمارهء ٥، ١٣ خرداد ١٣٥٨هـ .ش ، ص١٠ .

(٣٨) نفس المرجع .

(٣٩) نفس المرجع .

(٤٠) المرجع السابق .

(٤١) نفسه .

(٤٢) نفسه .

(٤٣) المرجع السابق .

(٤٤) محمدى ، منوچهر : «تحليلى بر انقلاب إسلامى إيران» ، تهران ١٣٦٥ ش، ص٨٠ ، ص٨١ .

(٤٥) عميد زنجانى ، عباس على : انقلاب إسلامى وريشه هاى آن ، نشر كتاب سياسى ، چاپ دوم ، تهران ١٣٦٨ش، ص ٥٧٢ .

(٤٦) محمدی ، تحلیلی برانقلاب إسلامی ، ص ٨٨ .

(٤٧) عمید زنجانی : انقلاب إسلامی وریشه های آن ، ص ٥٧٣ .

(٤٨) المرجع السابق .

(٤٩) Farman farmaian , Khodadad : Social Change and Economic Behavior in Iran , Exploration in Enterpreneurial History , Vol 15, no 3.1957,pp . 178-183 .

(٥٠) Halliday , Fred : Theses On The Iranian Revolution , Race and Class , Vol 21, 1979 - 1980, p81 .

(٥١) Keddie , Nikki : R : Oil Economic policy , and Social Conflict, Race and Class , op . Cit , p . 27

(٥٢) Ldedden , Michal and William Lewis , Debacle : American Failure in Iran . U . S . 1981 , p , 31 .

وقد ترجم هذا الكتاب فى إيران تحت عنوان "هزيمت أمريكا در إيران "بوساطة ناصر إيرانى عام ١٣٦١ ش .

(٥٣) Kazemi : Poverty and Revolution in Iran , Op . Cit .

(٥٤) يأتى الحديث مفصلاً فى هذا الشأن فى المبحث التالى .

(٥٥) من أمثلة ذلك أن الشاه قد نفذ سياسة جادة وقاطعة لمحو الإسلام وفقًا لأوامر أمريكا وأن هذه السياسة قد جرحت مشاعر الشعب . أو أن الشاه كان يرغب فى أن يكون عميلاً ، ولما كان هذا المسلك معارضًا لتعاليم الإسلام لذا اضطر الشاه لمناهضة الإسلام كى لاتكون هناك مشكلة لعمالته ، وأدت هذه السياسة إلى استياء الشعب المسلم . أو أن الشاه كان يريد رقى المملكة بأقصى سرعة ، ولم يتحمل رجال الدين إصلاحات الشاه الحديثة والمتطورة ، فأعلنوا العصيان ضده . أو أن القرويين المهاجرين إلى المدن لما كانوا متمسكين بدينهم ، وواجهوا فى المدينة أنواع التسيب وعدم الانضباط ، ثارت حميتهم الدينية .... إلخ .

(٥٦) من بينها مجموعة قيمة طبعت فى هذا المجال ، وهى مجموعة مقالات بعنوان :

Stowasser , Barbara Freyer (ed) : The Islamic Impulse , U . S , 1987 .

(٥٧) لمزيد من المعلومات ، انظر الفصل السادس .

(٥٨) انظر الفصل السادس .

(٥٩) لمزيد من المعلومات حول د . شريعتى ، انظر الفصل السادس .

(٦٠) لمزيد من التفاصيل ، انظر الفصل السادس .

(٦١) Liberation Theology

(٦٢) Ledeen and Lewis "Debacle," Op . Cit . p . 31

(٦٣) Graham "IRAN", Op . Cit . p . 224 .

(٦٤) مجلة "تهران أكونوميست" ١ خرداد ١٣٥٥ ش نقلاً عن :

Halliday "IRAN" op . cit , p .224 .

(٦٥) Halliday "IRAN" op . cit , p p . 173 - 210 .

(٦٦) . Abrahamion "IRAN" Op . cit , P . 511

(٦٧) . Consumer and COpital Goods

(٦٨) . "IRAN" in der Kreise " , pp . 83 - 84

(٦٩) انظر مؤلفات: Halliday , Graham .

(٧٠) أحد أبطال الملاكمة وكان يحظى بشعبية كبيرة بين الأهالى . وبعيداً عن البطولة ، كان يعرف بأنه إحدى الشخصيات المعارضة للنظام والتى كانت على اتصال بالوطنيين .

الفصل الثانى

" نهاية عصر السراب "

بحثنا فى الفصل السابق أسباب الثورة الإسلامية ، ورأينا كيف ردت كل نظرية من النظريات التى ظهرت حتى الآن بخصوص هذا السؤال : لم ظهرت الثورة الإسلامية ؟ وفى الفصول التالية سيكون اهتمامنا أكثر حول كيفية ظهور الثورة . وعلى عكس أسباب الثورة ، لن نواجه نظريات عديدة بشأن كيفية وجودها ، وإذا ما تغاضينا عن بعض النظريات المتشابهة ذات القالب الواحد ، فقلما يظهر عمل جاد حول كيفية ظهور الثورة .

ويمكننا أن نلخص مجموع الأسئلة ، والمبهمات ، والافتراضات والنظريات المختلفة التى عرضت حتى الآن بشأن كيفية ظهور الثورة فى سؤالين شاملين :

أولاً : كيف سقط نظام الشاه القوى على هذا النحو فى سرعة البرق وبشكل محير خلال عدة أشهر؟

ثانيًا : متى ، ولم وكيف بدأ ذلك الذى عرف باسم "أزمة إيران" أو "الحركة الثورية"؟

والسؤال الثانى سيكون موضع بحث بشكل تفصيلى فى الفصل الثالث : لكن بعض جوانبه وكذلك تقييم بعض المقدمات الخاصة بالسؤال الأول سيشكل الجزء الرئيسى فى هذا الفصل .

وأحد الأسباب الرئيسية التى أدت إلى وجود هذين السؤالين ، هو الافتراض السابق الذى صور نظام الشاه على أنه كان نظامًا قويا محكمًا من الناحية الظاهرية .

فإذا ماكان غير ذلك ، فلمَ يُجلب سقوطه أو السرعة فى ذلك السقوط هـذا العجب وتلك الحيرة ؟ والمشكلة هنا هى أن رؤية العـديد مـن الإيرانيين فيما يتعلق بالإجابة على السؤالين سالفى الذكر تميل على الفور إلى ضلوع الغرب ، وخاصة أمريكا ، فى هذا الأمر .

ومعارضو الثورة ، والمطالبون بالسلطة ومؤيدو افتراضات التآمر يضعون الثورة ، بل الحركة كلها موضع استفسار بالنظر إلى الافتراض السابق ، أى قوة النظام . وكما شاهدنا فى الفصل الأول ، فهم يتهمون الغرب بطعن الشاه بخنجر من الخلف . فمن وجهة نظرهم ، أن سر إدراك كيفية ظهور الثورة يكمن فى طعن الشاه من الخلف من قبل الغرب . ومؤيدو الثورة فى المقابل ، لم يعدوا الشاه أكثر من تابع بلا إرادة للغرب ولأمريكا. ومن وجهة نظرهم، أن الغرب وأمريكا لم يفسحوا الطريق للشاه فقط ، بل أنهم كانوا يقفون وراءه حتى اللحظات الأخيرة الحاسمة، وكانوا يصدرون الأوامر له تباعًا بسحق الأهالى وقتلهم .

ولنترك وجهة نظر الإيرانيين ، فأى نظرة كانت لأمريكا نفسها تجاه نظام الشاه ؟ وأى دور قامت به واشنطن ؟ وكيف كانت تقيم أحداث أزمة الثورة فى إيران ؟

من ناحية أخرى ، كيف كان يرى الشاه موقعه وموقع نظامه إبان الثورة ؟ كيف كان يتم تقييم العلاقات بينه وبين واشنطن من وجهة نظره ؟

والرد على هذه الأسئلة لايوضح فقط العديد من ادعاءات المعارضين والمؤيدين ، بل يبدو أنه يجعلنا قادرين على رسم صورة أكثر واقعية لنظام الشاه ومكانته أثناء ظهور الثورة ، فضلاً عن أنه يمكننا من الوصول إلى تقييم حقيقى حول تأثير الغرب وخاصة أمريكا على أحداث الثورة .

إن سرعة الأحداث التى أدت فى النهاية إلى وجود الأزمة وظهور الثورة الإسلامية، وأخيراً إلى وجود الثورة نفسها ربما كان حدثًا غير متوقع بالنسبة للعديد من الإيرانيين وحتى المسئولين . لاشك أن وجود المعارضة لنظام الشاه لم يكن أمراً مستحدثًا أو غريبًا للعديد من شعب إيران أو لأولئك المهتمين فى الخارج بشئون إيران الداخلية ، وعلى الرغم من هـذا لم يكن متوقعًا بأى نحو قط وقوع ماحدث فى

عام ١٣٥٧ش (١٩٧٨م) ، لا من قبل الشاه ولا مسئولى النظام ولا العديد من المحللين والمسئولين الغربيين .

وفى حين كان المحللون الغربيون يسعون خلال فترة الثورة (والفترة التالية عليها أيضًا) لتحليل وتفسير وتوضيح هذه الأمواج العاتية غير المتوقعة ، كان رجال الحكومات الغربية - خاصة المسئولون الأمريكيون - مضطرين لمواجهة ما أطلقوا عليه "أزمة إيران" وإيجاد الحلول لها .

وربما يمكن القول : إن أحد مفاتيح إدراك سر الأزمة التى أدت فى النهاية إلى ظهور ثورة إيران الإسلامية يعود فى الحقيقة إلى التقييم الصحيح لنوع العلاقة التى كانت تربط بين نظام الشاه والغرب ، وخاصة أمريكا . وعلى الرغم من الأحاديث المطولة التى قيلت أو نشرت فى هذا الشأن ، وخاصة بعد الثورة ، إلا أن هذه العلاقة لم يتم تقييمها بشكل واقعى حتى الآن .

وتوجد نظرتان متضادتان حول شكل العلاقة بين نظام الشاه والغرب ، النظرة الأولى (كانت توجد أكثر فى الأعوام السابقة على الثورة بين معارضى النظام الحاكم ، ووجدت انتشارًا واسعًا بعد ذلك) تلخص العلاقة بين الشاه وأمريكا فى شكل بسيط ، فهى لديهم كالعلاقة بين "الخادم والمخدوم" أو بين "العبد والسيد" على نحو تتحدد فيه مهام الشاه فى تنفيذ فرمانات واشنطن وأوامرها فى كل صغيرة وكبيرة .

ومصطلح "مهره "[٢٠] فى معجمنا السياسى يُعرِّف هذا النوع من الحكومات الملقنة مثل حكومة الشاه ، ويتلخص هذا التعريف فى قيام الاستعمار أو الإمبريالية بتعيين هذه الأداة فى إحدى الدول ، وما عليها سوى تنفيذ أوامر ورغبات أربابها ، ومن الممكن أن تكون تلك الأداة : الشاه ، أمير هذه الدولة أو سلطان تلك ، رئيس جمهورية هذه الدولة أو الزعيم السياسى لتلك ، فعلى أى نحو كان تكون تلك الأداة منفذة لأوامر ورغبات الإمبريالية ، ولا تملك أية حيلة أو إرادة . وعلى سبيل المثال ، إذا ماتمت إصلاحات زراعية ، وإذا مانفذت هذه السياسة أو تلك ، وإذا ماتم سحق ثورة ١٥ خرداد ، أو شكل الشاه حزب رستاخيز ، فكل هذا يتم لصالح الإمبريالية وطبقًا لأوامر أربابها (التى هى بالطبع لتأمين مصالحهم) .

والنظرة الثانية (وتوجد بين رجال حكومة النظام السابق ومؤيدى السلطة) ينظر فيها إلى الشاه على أنه شخصية مستقلة حرة ، مامن غاية له أو هم سوى تأمين مصالح إيران ، وفى كل خطوة يخطوها يفكر أولاً وفقط فى خدمة شعبه .

وفيما يتعلق بأن النظام كان "أداة" وأى ميزان حقيقى تم على أساسه هذا الحكم، فهذا أمر خارج عن نطاق بحثنا . من ناحية أخرى ، نظراً لعدم وجود أدلة أو أساس لفكرة أن الشاه كان زعيماً مستقلا معتمداً على ذاته غير منتم لجهة ما ، فهذا أمر يحتاج إلى مزيد من البحث والنقاش .

وإذا ما تغاضينا عن هاتين النظرتين المبالغ فيهما ، فإن مايقترب أكثر من عالم الواقع ، أن الشاه كان يميل تماماً إلى الغرب من ناحية الرؤى الخارجية والاتجاهات السياسية . فقد تم بلوغه سدة الحكم بعد الهزيمة والانكسار المفاجئ لحكومة والده القوية باتفاق الحلفاء (أمريكا ، الاتحاد السوفيتى السابق وإنجلترا) وخاصة إنجلترا[٢١] والأهم من ذلك ، أن عودته إلى الحكم فى ٢٨ مرداد من عام ١٣٣٢هـ.ش (١٩٥٣م) – حينما خرج من الدولة وفقد قوته عمليا – كانت بفضل المساعى الجادة للندن وواشنطن .[٢٢]

وفى الفترة التى كان يطلق عليها فى العلاقات الدولية اسم "الحرب الباردة" [منذ نهاية الحرب العالمية الثانية عام ١٣٢٤ش (١٩٤٥م) وحتى وصول ميخائيل جورباتشوف سدة الحكم فى الاتحاد السوڤيتى السابق فى نهاية الستينيات (أى الثمانينيات بالتقويم الميلادى] كانت المنافسة بين معسكرى الغرب والشرق تشكل الجزء الأساسى من الهيكل الدولى ، وكان الشاه منتمياً إلى المعسكر الغربى .

وبعيداً عن المساعدات الغربية لوصوله إلى سدة الحكم ، كان الشاه – من وجهة نظره الشخصية – يخشى كثيراً من الشيوعية ، وبنفس القدر كان نفوره يزداد من الأفكار الاشتراكية ، والمساواة ، والقومية والعدالة الاجتماعية ، وقلما كان يستطيع إخفاء ميله إلى الغرب – أو لنقل بشكل أكثر دقة – إيمانه بالمعسكر الغربى فى حربه مع الشرق . إنه لم يسع قط – ككثير من رؤساء دول العالم الثالث – كى يستفيد من المنافسة بين كلا المعسكرين أو يحصل على امتيازما . فضلاً عن أنه قلما كان يتفوه

بالشعارات البراقة المضادة للاستعمار والإمبريالية والتى كان يستخدمها العديد من زعماء العالم الثالث . وفيما يتعلق بإيمان هؤلاء الباطنى أو العملى بمثل هذه الشعارات التى امتدت فترة بين الكثيرين من مثقفى وزعماء دول العالم الثالث ، فهذا أمر يستلزم بحثًا . أما فيما يتعلق بالشاه ، فيمكن القول بقوة : إنه لم يؤمن قط بمقاومة الاستعمار أو الإمبريالية ، وقلما كان يستخدم مثل هذه الشعارات ، وقلما اتخذ مكانًا له خلف هذه التصرفات .

والخلاصة ، إن تدخل الغرب لصالح الشاه ، والأهم من ذلك ، إيمان الشاه الشخصى بالمعسكر الغربى من ناحية ، وهروبه وخوفه ونفوره من اتجاهات وشعارات ومواقف الراديكاليين والمعارضين للاستعمار والإمبريالية من ناحية أخرى ، جعل منه ومن نظامه شخصية اعتبرت أنهما الحليف الاستراتيچى الرئيسى للغرب فى منطقة خليج فارس .

وهذا التقييم ليس معناه أن كل عمل قام به الشاه صغر حجمه أو كبر كان وفقًا لبرامج وأوامر أربابه السرية . فإذا ما انفصل عن زوجته ، أو قرر تشكيل حزب رستاخيز ، أو سافر إلى رومانيا ونال الدكتوراه الفخرية من جامعة بخاريست، أو أحل الأمير أسد الله علم [٢٣] محل د . منوچهر إقبال [٢٤] أو أوجد النظام المتعدد الأحزاب ، أو تباحث مع اليابانيين وأقام مصنعًا ضخمًا للبتروكيماويات بالاشتراك مع اليابان ، أو صنع قوة نووية فى بو شهر .. إلخ ، فنقول : إنه قام بكل هذه الإجراءات طبقًا لأوامر واشنطن أو لندن !!

والغرب ، خاصة أمريكا ، ليس لديه مثل هذه النظرة تجاه الشاه ، ولم ينظر إليه على أنه "أداة" بل هو من وجهة نظرهم لايعدو أكثر من "حليف" يمكن الاعتماد عليه والثقة فيه ، فى إحدى المناطق شديدة الأهمية من العالم ألا وهى منطقة خليج فارس . حليف بوجوده لايقلق الغرب من الشرق فى هذه المنطقة الحساسة من العالم .

وبعيداً عن هذا كله ، فإن مايمكن الإعلان عنه تحديداً أن علاقة الشاه مع الغرب وطريقة التفكير والنظرة التى كان يشعر بها من قبل الغرب تجاهه كان لها أهمية خاصة من وجهة نظر الشاه . وعلى الرغم من أهمية هذا الموضوع ، إلا أنه للأسف

لم يكن موضع أبحاث جادة . وفيما يتعلق بـ «لمَ وأى الأسباب التى أدت إلى وجود مثل هذه النظرة من الغرب تجاهه وتجاه نظامه ومدى أهمية ذلك؟» فقلما كان هذا الأمر أيضًا موضع اهتمام أو بحث أكاديمى ، ولم يقدم مؤيدوه ولامعارضوه حتى الآن أى تقييم أو تحليل حول هذه الظاهرة . فراغبو السلطة يسعون دومًا للتقليل من شأن الموضوع ، وكثيرًا ما أنكروه فى دفاعهم عن استقلال الشاه . من ناحية أخرى ، فإن معارضيه - خاصة من ينظرون إليه على أنه أداة - يعدون هذه الظاهرة نفسها أفضل دليل على عمالته وفقًا للمقولة "شروق الشمس دليل على الشمس" ، ووفقًا لزعمهم ، لو لم يكن الشاه "أداة" فما من دليل يقيم نظرة الغرب له أو حساسية الشاه تجاه هذا الأمر .

وعدم قيام مؤيدى السلطة بهذا الأمر أمر مفهوم ، فحساسية الشاه تجاه نظرة الغرب له - بغض النظر عن أسباب ذلك ودوافعه - توجد حائلاً ونقطة ضعف كبيرة على ذلك القول الذى يرى أن الشاه كان حاكمًا مستقلا معتمداً على نفسه . بيد أن استنتاج معارضيه - الذين يعدون هذا الأمر أيضًا كافيًا وضروريا لإثبات عمالته - لايخلو أيضًا من المشاكل . فكثير من زعماء الدول المنتمية إلى الغرب أو أولئك الذين يمكن أن يعدوا أدوات للغرب على الرغم من عمالتهم إلا أنهم لم يعطوا أهمية للنظرة التى ينظر بها أربابهم تجاههم .

والبعض منهم قام بالعديد من السياسات ، واتخذ العديد من القرارات - بغض النظر عن قيمتها من عدمها - دون أن يبدوا تلك الحساسية تجاه رد فعل الدول الغربية، وخاصة أمريكا . لكن الأمر لم يكن على هذا النحو فيما يتعلق بالشاه ، وقد غضب پرويزراجى - آخر سفير للشاه فى لندن والذى تحول إلى أحد جسور العلاقات بين الغرب والشاه - من كل هذه الحساسية وتلك الأهمية التى كان يبديها الشاه فيما يتعلق بنظرة الغرب له ، لكن الأعجب من هذا كله والأكثر حيرة هو : لمَ؟ (1)

وقد سعينا فى هذا الفصل للإجابة - إلى حد ما - على هذا السؤال : فأهمية هذا الموضوع - كما أشرنا فى بداية البحث - تعود إلى أن علاقات الشاه مع الغرب كانت فى مجموعها جملة من التصورات الذهنية التى كان الشاه يتخيلها ، والحساسية

التى كان يبديها حول نظرة الغربيين له هى فى الواقع أحد مفاتيح إدراك بداية التغيرات التى أفضت فى النهاية إلى حدوث الثورة الإسلامية. بعبارة أخرى ، كانت هذه الظاهرة بمثابة نقطة الانفجار الأولى للثورة. لكن الأمر الأكثر أهمية هو ماهية نظرة واشنطن تجاه الشاه فى بداية الثورة (٥٦-١٣٥٧هـ.ش، ٧٧- ١٩٧٨م) ، وأى صورة كانت فى الغرب حول الشاه؟

وكما أشرنا فى الفصل الأول أنه منذ خمسة عشر عامًا قبل الثورة ، أى منذ بداية الثورة البيضاء فى أوائل الأربعينيات (أى الستينيات بالتقويم الميلادى) ، كان الانطباع الذى تكون فى الغرب عن الشاه أنه أحد الزعماء الجادين المصلحين الذى يمسك زمام الأمور بقوة واقتدار . زعيم يدفع دولته المتخلفة المضطربة إلى الأمام . ونتيجة هذه النظرة ، كانت معارضة النظام من وجهة نظر الغربيين تعنى معارضة الإصلاحات الاجتماعية - الاقتصادية الحديثة التى شمر الشاه عن ساعديه لإنجازها فى إيران بكل جرأة . ولما كانت معارضة الإصلاحات والتنمية الاجتماعية والاقتصادية الحديثة محكومًا عليها دومًا بالزوال والهزيمة ؛ لذا لم تتمكن معارضة الشاه من تحقيق العمق والانتشار ، فضلاً عن الحكم عليها بالزوال مع مرور الوقت . والنتيجة أن الغربيين - خاصة العديد من ساسة واشنطن - كانوا ينظرون إلى الشاه على أنه زعيم قوى ، لم يترك المجال للمعارضين. يقول جارى سيك أحد كبار المستشارين فى حكومة كارتر:

"هذا الاعتقاد بأن الشاه كان يحكم فى مملكته بكل قوة ، وهذا الإيمان الراسخ بأن معارضيه لم يكونوا جديرين بالاهتمام قط، له جذور تمتد حتى قبل قيام الثورة بعام واحد - أى فى الفترة التى وقعت خلالها ثورة بهمن - والبحث فيما يتعلق بمعارضى النظام فى الداخل قلما كان موضع اهتمام أى باحث (داخل الحكومة الأمريكية)"(٢) .

وقد قامت واشنطن - إبان ظهور الثورة - بتقديم معارضى نظام الشاه على النحو التالى :

"أحد رجال الدين الطاعنين فى السن الذى قضى أربعة عشر عامًا متواصلة فى منفاه يدعو لمعارضة الشاه ، تبعه جمع من المؤيدين له من كبار السن ، ورجال الدين فى القرى ، وأخيرًا بعض المستائين فى المدن دون ضمان النتائج"(٣) .

ومن وجهة نظر واشنطن أن مثل تلك الجماعة من المنكسرين التابعين لن يتمكنوا بالطبع من أن ينالوا قدرًا من الأهمية فى مقابل شاه إيران المقتدر :

"كانت تحت إمرته ثروة طائلة ، كان يحظى بحماية لانظير لها من قبل جيش حديث قوامه ٤٠٠٠٠٠ جندى مسلح بأحدث المعدات الحربية ، وأخيرًا كان يتولى نظامه الأمنى أجهزة دقيقة منظمة عرفت بغلظتها وقوتها . فضلاً عن أن الشاه كان لديه بالفعل أصدقاء أقوياء ذوو نفوذ فى عاصمة كل دولة غربية، وفى الداخل ، كان مجلس الشورى الوطنى مطيعًا لأوامره" (٤) .

ومن ناحية السمات الشخصية للشاه ، كان الغرب – وخاصة أمريكا – يعتقد أنه يتمتع بشخصية قوية :

"وأخيرًا تمكن من اعتلاء أريكة الحكم بنجاح خلال سبعة وثلاثين عامًا ، وتخطى أزمات عديدة . أزمات – وفقًا لظاهرها – لم تكن أقل من مظاهرات وقلاقل عام١٣٥٦هـ.ش وأوائل عام ١٣٥٧هـ.ش(٧٧،١٩٧٨م)"(٥) .

لمَ وكيف ظهرت مثل هذه الصورة غير الواقعية عن الشاه؟ مامن شك أن جزءًا من الرد يرجع إلى موقع إيران الاستراتيجى[٢٥] والدور الذى كان يقوم به الشاه بكونه زعيم هذه الدولة . فقد لعبت إيران دورًا مهمًّا فى الصراع بين الشرق والغرب على أنها أحد حلفاء الغرب . فضلاً عن ذلك ، بملاحظة مكانة إيران فى منطقة مهمة من الشرق الأوسط ، كان ميل الغرب إلى نظام إيران لكون هذه المنطقة تحظى بأهمية خاصة . وقد تمكن الشاه من أن يوضح تدريجيا أنه يستطيع أن يكون أحد حلفاء الغرب الصامدين الأقوياء بشكل يمكن الاعتماد عليه . وبناء على هذا ربما نستطيع أن نقول : إن أهم وأقوى ملاحظة للغرب تجاه الشاه ونظامه تتلخص فى مكانة إيران ودور الشاه فى المحافظة على هذه المكانة . وتنضوى أية ملاحظات أخرى تحت هذه الملاحظة ، فطبقًا لقول أحد كبار المسئولين بالبيت الأبيض فى عهد حكومة چيمى كارتر : "إن واشنطن أقرت استراتيچيتها فى منطقة خليج فارس على أساس قوة الشاه وثباته ، كما أن سياسة البيت الأبيض فى علاقته المحكمة مع نظام طهران لاتقبل أى نوع من التراجع"(٦) .

وعلى الرغم من أن الدليل الأصلى لشعبية الشاه فى أعين الغرب هو تعلق أو ارتباط مصالح الغرب فى المنطقة ببقاء نظامه ، لكن ليس هذا هو كل ماحدث. فقد صنع الشاه لإجراءاته وإصلاحاته صورة غير واقعية عن طريق الأحاديث الصحفية والخطب المتناثرة هنا وهناك لجذب أنظار بعض أجهزة الإعلام الغربية ، ودفع بسخاء لبعض المراكز المهتمة بشئون إيران ، خاصة الأمريكية منها . ونجح فى إدخال هذا التصور فى أذهان العديد من الغربيين ، وهو : أنه يسعى بشكل جاد لإنجاز مجموعة من الإصلاحات الجذرية فى المجالين الاجتماعى والاقتصادى . إصلاحات - طبقًا للظاهر - نجحت فى تحويل المجتمع الإيرانى من مجتمع متخلف، شبه إقطاعى إلى مجتمع حديث ، متطور وعصرى ، وهذا ماصدقه الشاه نفسه بشكل جاد وحاد .

بعبارة أخرى ، إن مجموع الملاحظات الاستراتيچية من ناحية ، والتصور الخاص بحكومة الزعيم المصلح العصرى فى إيران من ناحية أخرى ، قد تكاتفت جميعها وجعلت من الشاه شخصية لاتتفق وشخصيته الواقعية ، ولاعلاقة لها بواقع المجتمع الإيرانى . ومثل هذا التصور الذى كانت تعتقد به وكالة المخابرات الأمريكية "سيا" حتى شهريور من عام ١٣٥٧ ش (١٩٧٨م) - أى فى الأثناء التى لم يكن يفصل إيران فيها عن الثورة أكثر من عدة شهور، أدى إلى الاعتقاد التالى :

"لن يحدث فى إيران ثورة فى أى وقت ، بل إنه لم يلاحظ حتى أية إشارات أو دلائل على دنو وقوع ثورة"(٧) .

ولم تكن "سيا" هى المؤسسة المخابراتية الوحيدة التى أخطأت فى تقديرها إلى هذا الحد فى معرفة أوضاع إيران السياسية وتقييمها ، فبعد شهر واحد قدمت أيضًا مؤسسة "تحليل مخابرات الدفاع"(٨) - التى تمد وزارة الدفاع والقوات المسلحة الأمريكية بالمعلومات - تقريرًا يقيم مكانة نظام الشاه تقول فيه :

"من المتوقع أن يستمر الشاه بنفس القوة فى الحكم خلال العشرة أعوام القادمة"(٩) . وعلى نفس النهج ، أثنى الرئيس الأمريكى چيمى كارتر على الشاه فى خطابه الشهير أثناء زيارته لإيران فى شهر دى من عام ١٣٥٦ش (١٩٧٧م)، قائلاً :

"إن إيران تعد بمثابة جزيرة ثابتة تقع فى إحدى مناطق العالم المضطربة، وأفضل ثناء يمكن أن يقال عنكم ياصاحب الجلالة وعن قيادتكم، هو مايبديه شعبكم من احترام وحب تجاهكم"(١٠) .

ومن الواضح أن جزءًا من هذا الثناء والمدح يجب أن يؤخذ على سبيل المجاملة الدبلوماسية ، إلا أن جزءًا كبيرًا منه يقوم فى الواقع على الانطباع الذى يوجد فى الغرب تجاه الشاه . هذا الانطباع غير الواقعى عن الشاه ، وهذا السراب الذى صنع له ولنظامه ، استتبعه نتائج مهمة لها علاقة بالتغيرات التى تمت فى إيران ، وسوف تكون موضع دراسة وتقييم فى الفصول التالية .

ومعارضو الشاه – الذين كانوا يشاهدون هذا الثناء والتمجيد من قبل الزعماء الغربيين – كانوا يتهمون أمريكا بالوقوف خلف الشاه كسد الأسكندر ، وبأنها تصدر إلى "أداتها" أوامرالمذابح . لكن من ناحية أخرى ، كان الشاه ومؤيدو السلطة – باستنادهم على هذا الانطباع وذلك التمجيد – يتهمون الغرب، وخاصة أمريكا، بالتخلى عن حماية الشاه دفعة واحدة ، وتهيئة أسباب سقوطه بكفهم عن حمايتهم له(١١).

والحقيقة أن الغرب – وخاصة الأمريكان – كانوا فى منأى عن الواقع داخل إيران وعن نظام الشاه ، بحيث أصبح كل فصل جديد من أزمة إيران بالنسبة لهم أكثر غموضًا من الفصل السابق له. فعمق الاستياء من الشاه ، وضعف إرادته وشخصيته ، والأهم من ذلك وهن أسس نظامه ، والطبقة العريضة من معارضيه ، وأثر الدين ودوره فى أحداث الثورة ، جميعها كانت كالمطرقة الثقيلة التى أيقظت الغرب وأمريكا تدريجيا من سراب ومنام عدة أعوام من حكم الشاه . وكل ورقة جديدة كانت تقدمها الثورة ، وكل حركة جديدة تعمل على تقدمها ، لم تصب الغرب بالحيرة والدهشة فقط ، بل جعلت الغرب وأمريكا يكفون عن معاونة الشاه ، أو وفقًا لزعم مؤيدى السلطة ،يتخلون عنه ، كما جعلت الغرب يسألون أنفسهم فى حيرة : مالذى ينبغى القيام به ؟! وكانت الأحداث تمر سريعًا لدرجة جعلت القادة الغربيين لم يكادوا يفيقون من الضربة الأولى حتى تصيبهم ضربة أخرى . والغرب الذى كان يعتبر نظام الشاه ، حتى قبل الثورة بعدة شهور ، نظامًا ثابتًا ، آمنًا ، قويا والخلاصة "جزيرة ثابتة" لم يتمكن من تحديد أبعاد الطوفان الذى كان يدنو من نظام الشاه ، ولو نرغب فى تلخيص رد فعل

الغرب – خاصة واشنطن – تجاه أزمة الثورة فى إيران فى عدة كلمات ، نقول: إنه كان عبارة عن : انعدام المعلومات ، وسوء التدبير ، والقرارات المتناقضة وأخيراً الآمال الكثيرة الواهية فى الشاه ونظامه .

وعلى عكس ما يعتقد بعض مؤيدى الثورة الإسلامية (بأن الغرب كان يصدر أوامره للشاه تباعًا فى اللحظات الأخيرة ، فيما يجب أن يفعله وعن أى شىء يمتنع ومن يعتقل ومن يضرب ومن يقيد) ، أو ما يقوله مؤيدو افتراض التآمر – خاصة مؤيدو السلطة – بأن الغرب قيد يدى الشاه وقدميه بحيث لم يتمكن من الدفاع عن نظامه بحرية ، كان تصرف الغرب فى الحقيقة لاحقا للتطورات داخل إيران وليس متزامنا معها وكان موقف الغرب إزاء أزمة إيران فى معظمه موقفا يسوده الانفعال ، فالغرب لم يستطع فى البداية أن يحدد أبعاد الطوفان الذى كان يدنو من الشاه ، وكان هذا هو أول خطأ ناشئ عن تقييمهم الخاطئ تجاه نظام الشاه . وفى الوقت الذى تَنَبَّه فيه الغرب إلى أن معارضى النظام هم طائفة جديرة بالاهتمام ، دخلوا فى ثانى تقييم خاطئ تجاه الشاه . إنهم كانوا يعتقدون أن الشاه سيتمكن من إنهاء الأزمة ، وأنه سيخرج سالمًا من المعركة بسهولة كالمرات السابقة . وفى الوقت الذى انتبه فيه الغرب أخيراً إلى أن الشاه لايستطيع القضاء على الأزمة ، كان الوقت قد انقضى ، وتحولت أزمة إيران السياسية إلى طوفان الثورة . طوفان اقتلع بسهولة كل شىء كان يراه فى طريقه من آثار النظام الشاهنشاهى القديم وكأنه عاصفة عاتية ، وألقاه بعيداً .

بعبارة أخرى ، إن الغرب حينما تمكن فى النهاية من رؤية أزمة إيران لم تكن هناك أزمة ، بل تحولت إلى حركة ثورية لم تستطع أية قوة – حتى الغرب – من الحيلولة دون تقدمها (١٢) .

وما بقى للغرب هو البحث فى : "منْ أضاع إيران ؟"(١٣) ، وهذا ماستمر خلال السنوات التالية على الثورة وكأنه لعبة ، حيث ترددت عبارة : "من يكون؟ من يكون؟ لست أنا" بين المفسرين والمحللين ومسئولى الحكومة الأمريكية .

وكان كل مسئول تنفيذى أو كل جهاز مختص يعتبر المسئول الآخر ، أو الجهاز المختص الآخر هو المسئول عن الخطأ الذى أدى إلى ضياع إيران (بالنسبة للغرب) ،

وذلك ضمن تبرئة الساحة فى هذا الأمر . فقد اعتبرت وزارة الخارجية الأمريكية المسئول عن هذا التقصير هو اللجان الاستشارية للأمن القومى التابعة لرئاسة الجمهورية . ومسئولو الأمن القومى عدوا بدورهم وزارة الخارجية ورئيس الجمهورية المسئولين عن هذا التقصير، واتهم رئيس الجمهورية الأجهزة الأمنية الأمريكية - ومن بينها وكالة المخابرات سيا - بأنها لم تتمكن من جمع معلومات دقيقة وصحيحة حول إيران . وقام جهاز المخابرات الأمريكى "سيا" بدوره باتهام أجهزة المخابرات الإيرانية - ومن بينها جهاز الساواك - بالتقصير . بينما اعتبر جهاز الساواك أن المسئول عن التقصير هو الغرب والسفارة الأمريكية فى طهران. واعتبرت السفارة الأمريكية أن برچينسكى - مستشار الأمن القومى فى عهد رئاسة كارتر - هو المقصر . وعد برچينسكى أن التقصير تم من قبل وزارة الخارجية والسفارة الأمريكية فى طهران ، وأخيراً الشاه الذى لم يكن قادراً على اتخاذ أى قرار . واعتبر الشاه التقصير من الأمريكان . واتهم الأمريكان حلفاءهم الأوروبيين . واتهم الأوروبيون الأمريكان على الرغم من علاقاتهم الوطيدة بنظام إيران على مدى ما يربو عن الخمسة وعشرين عاماً لأنهم لم يستطيعوا أن يقيموا وضع الشاه ونظامه تقييماً صحيحاً(١٤) .

* * *

إن أبعاد التقييم غير الواقعى للغرب تجاه الشاه ونتائجه ، على الرغم من الإفراط فيها إلا أنها لم تكن مبالغًا فيها بالمقارنة بتقييم الشاه وانطباعه عن نفسه وعن مكانته وعن حكمه . ففى الغرب تمكن - إلى حد ما - كل من "أريك رولو"،"فردهاليدى" ، و"منظمة العفو الدولية" ، و"مؤيدى حقوق الإنسان" وأخيراً والأهم من هذا كله جموع الطلاب الإيرانيين المقيمين فى أوروبا وأمريكا من طرح أبعاد أخرى لنظام الشاه ، لكن لايوجد هذا الأمر فى إيران ولو بشكل مختصر . والنتيجة أن سراب الصورة غير الواقعية التى صنعها لنفسه ولنظامه ، كانت أكثر هلامية بمراحل عن معتقدات الغرب تجاهه .

ففى أواسط الخمسينيات (أى السبعينيات بالتقويم الميلادى) كان الشاه قبلها بخمسة وثلاثين عامًا يؤدى مراسم القسم فى مجلس الشورى الوطنى فى شهريور من

عام ١٣٢٠ش (١٩٤١م) لتتويجه بصوت فتى رقيق ، مرتعد وكان قلقًا من حيث: هل سيقوم الغرب والروس بحمايته حتى النهاية أم لا؟ وهذه فترة جديرة بالملاحظة ، فالشاه الشاب ، قليل الحيلة ، القلق على مستقبله فى الحكم ، يتحول خلال خمسة وثلاثين عامًا إلى زعيم مقتدر وسلطان قوى ، تحول من "محمد رضا پهلوى" إلى "صاحب الجلالة والسمو وملك الملوك آريامهر" . ومنذ عام ١٣٥١ش (١٩٧٢م) وما تلاه، طبقًا لقول نيكسون وكيسنجر (والذى استطاع الغرب على أساسه تسليح حلفائهم المحليين بدلاً من تواجده العسكرى بشكل مباشر فى أطراف العالم المتباينة ومن بينها خليج فارس) ، كان الشاه يستطيع أن يمد جيشه عمليا بكل سلاح جديد متطور من ترسانة الغرب فيما عدا السلاح النووى ، وكان يشعر بازدياد قوته . والزيادة الملفتة لأسعار النفط ، خاصة تضاعفها إلى أربعة أضعاف كما كان عليه عام ١٣٥٢ش (١٩٧٢م) وماتلاه ، سمحت للشاه بشراء المدافع ، والدبابات ، والأسلحة ، والتكنولوچيا وأى شىء آخر من الغرب ، وزود إيران به .

وبعيداً عن الغرب وعن العلاقة الخاصة التى كانت للشاه مع هذه الكتلة ، فقد تمكن نظام إيران - باستخدامه طرقًا ملتوية وخلفية عديدة - من إيجاد نوع من العلاقات الطيبة والتفاهم (الذى كان يطلق عليه الروس اسم التعايش السلمى) مع الكتلة الشرقية ، والأهم من ذلك ، مع جارها القوى وخصمه التقليدى ألا وهو الاتحاد السوڤيتى السابق. [٢٦]

والاستقبال الذى كان يلاقيه الشاه فى عواصم الدول الشيوعية ، إن لم يكن أكثر حرارة من الاستقبال الذى كان يلقاه فى الغرب فلم يكن أقل منه . وعدوه على الجانب الآخر أى جمال عبد الناصر ممثل القومية والأصولية العربية، قد حل محله أنور السادات [٢٧] الذى وجه حديثه للشاه فى خطابه الرسمى (الذى أصر على إلقائه باللغة الفارسية) بـ"برادر عزيز م محمد رضا" "أى أخى العزيز محمد رضا" كما أزال نظام إيران كذلك خلافاته مع معارضه الآخر صدام حسين [٢٨] ، وكان شيوخ وأمراء خليج فارس يزورونه كل عام ويعربون عن احترامهم له .

وفى الداخل كانت قوات النظام المدنية والعسكرية تدين بالولاء للقائد العام للقوات المسلحة "صاحب الجلالة ملك الملوك آريامهر" . وبعيداً عن الجيش والقوى العسكرية

فإن ٣٠٠٠٠ شخص مجهز متدرب من "الحرس الإمبراطورى أعطوا مفهومًا ومعنى جديداً للطاعة ، وهو: "كما تنفذ أمر الله ، نفذ أمر الشاه"

وكانت القوى القضائية أيضًا خاضعة "للأوامر الملكية" . كما كانت القوة التشريعية (مجلسا الشورى الوطنى والشيوخ) أداة لينة فى يد الحكومة ، وكانت أسمى مهمة وأعظم فخر لها هو تنفيذ "النوايا الملكية" . وأخيرًا تمكن جهاز الساواك "جهاز الأمن والمخابرات الخاص بالنظام" من اقتلاع شأفة معارضى الشاه بالقوة .

إن ما جعل الشاه قادراً بالفعل على الوصول إلى هذه القوة وذلك النفوذ هو الدخل الباهظ لنفط إيران الذى ارتفع ارتفاعًا مذهلاً منذ أوائل الخمسينيات (أى السبعينيات بالتقويم الميلادى) . وكما كان يتفاخر هويدا :

"لقد بلغنا مرحلة من القوة والازدهار الاقتصادى لدرجة تمكنا من إرسال أرديتنا القذرة إلى أوروبا للتنظيف بالطائرة ! (١٥)

وعلى هذ النحو لم يكن من المبالغ فيه أن يعلن الشاه فى الشهور القليلة السابقة على الثورة بكل خيلاء وقوة : "لايستطيع أى شخص قط هزيمتى ، إننى أتمتع بتأييد جيش قوامه ٧٠٠,٠٠٠ جندى ، وكذلك تأييد كل العمال وأغلبية شعب إيران . إننى أمسك الحكم بقبضة يدى "(١٦) .

والشاه فى ذلك اليوم لم يكن يلقى شعارات ، ولم يكن يقصد إرهاب جانب معارضيه ، إنه كان يؤمن بكل كيانه بما كان يقول .

وهذا السراب أو التقييم غير الواقعى - إن لم يكن خيالاً - بشأن مكانة نظام الشاه وقوته الذى تشكل من قبل الغرب والشاه نفسه خلال أعوام متتالية ، كان ينطوى على نتائج جادة ومصير حتمى لمستقبل إيران كما سنرى من بعد .

الـهـوامـش

(١) پرویزراجی: خدمتگزار تخت طاووس (خاطرات آخرين سفير شاه در لندن) ترجمة ح . أ . مهران، مؤسسة اطلاعات ، تهران ، چاپ پنجم ، ١٣٦٨ هـ . ش .

(٢) Sick , Gary : All fall down :America Stragic Encounter With Iran " U . S , New York : Random House , 1985. p . 41 .

(٣) Ibid .

(٤) Ibid .

(٥) Ibid .

(٦) Ibid . p . 20 .

(٧) Rubin , Barry ; "Paved Wilh good intentions : The American exberience and Iran " U . S , NeW York , Oxford University press , 1980 , p . 204

(٨) Defence Intelligence Analysis.

(٩) Stempel "Inside The Iranian Revolutian", Op. cit, p.6 .
وللتأكد من انعدام المعلومات فى الأجهزة التنفيذية الأمريكية حول إيران فى الأعوام الأولى لظهور الثورة ، انظر ، "شكست شاهانه (روانشناس شخصيت شاه ، به قلم "ماروين زونيس" ، ترجمة عباس مخبر ، طرح نو ، تهران ١٣٧٠ش ، ص ٤٧٧ ، ٤٨٥ .

(١٠) Rubin : paved With good intentions" , op . cit , p . 203

(١١) انظر ، الفصل الأول ، المبحث الخاص بافتراض التآمر حول سقوط الشاه .

(١٢) Ledeen and lewis Debache . Op . cit , p .p 134 - 135 .

(١٣) كانت العبارة التى اصطلح عليها بين الأمريكان هى :
"Who lost Iran ?" والتى ترجمت إلى الفارسية : "چه كى إيران را زدست داد ؟" والهدف الأساسى منها هو الاستفسار عن الشخص المسئول عن ضياع إيران من قبضة الغرب .

(١٤) Richard Sale , Carter and Iran : from idealism to Disaster , Washington Quartrly , Autumn 1980 .

(١٥) لم يذكر المؤلف اسم المرجع .

(١٦) Rubin :"Paved with good intentions" , Op . cit , p . 206 .

كيف بدأت الأزمة ؟

كما رأينا فى الفصول السابقة ، كانت توجد وجهات نظر متباينة فيما يتعلق بأسباب ظهور أو جذور الثورة الإسلامية ، وقلما كان يوجد اتفاق فيما يتعلق بتوقيت بداية الأزمة التى أفضت فى النهاية إلى قيام الثورة . فالمجموعات المتباينة قد طرحت أوقاتاً متباينة على أنها توقيت أو نقطة البداية للثورة ومما لاشك فيه أن انتخاب وقت ما أو حدث خاص على أنه يمثل نقطة البداية للثورة أمر منوط بوجهة نظر المنتخب السياسية .

على سبيل المثال ، يعتبر الوطنيون أن نقطة البداية كانت فى شهر خرداد من عام ١٣٥٦ش (١٩٧٧م) وقتما نشر ثلاثة أشخاص من زعماء الجبهة الوطنية رسالتهم المطولة الشهيرة مخاطبين فيها الشاه (١) .

من ناحية أخرى ، يعتبر حزب "توده" أن نقطة البداية كانت فى شهر فروردين من عام ١٣٥٦ ش حيث تم خلاله اعتصام العمال عدة مرات ، وقيام المعتقلين السياسيين بالإضراب عن الطعام . بينما يؤكد مؤيدو "فدائيان خلق" بشدة - كما رأينا - على أن النضال الذى قام به المقيمون خارج الحدود ضد البلدية والعسكر فى صيف عام ١٣٥٦ش يعد الشرارة الأولى التى أدت إلى قيام الثورة . واعتبر معارضو النظام الأكثر تديناً أن نقطة بداية الثورة كانت منذ الموت المفاجئ لابن الإمام الأكبر الحاج "آقامصطفى" فى شهر آبان من عام ١٣٥٦ش.[٢٩]

ويعتبر البعض أن نقطة بداية الثورة منذ اليوم الذى تم فيه إدراج مقال جارح بجريدة "اطلاعات" تحت توقيع مستعار "أحمد رشيدى مطلق" فى شهر دى من

عام ١٣٥٦ ش ، والذى تم فيه توجيه الإهانة إلى الإمام [٣٠]. ويرى بعض المثقفين والجامعيين أن نقطة البداية ترجع إلى مواجهة جمع من أساتذة جامعة "آريامهر" - صنعتى شريف - وتصديهم لقرار النظام القائم على نقل تلك الجامعة إلى أصفهان والذى بلغ ذروته فى أواخر عام ١٣٥٦ ش ، حيث كانت هذه هى المرة الأولى - من وجهة نظرهم - التى تعارض فيها إحدى الطوائف قرار النظام بعد عشرة أو عشرين عاماً من الصمت والانقياد المطلق.[٣١]

وحول جميع نقاط البداية تلك يمكن الإشارة إلى مسألتين مهمتين ، أولهما: إن الكثير منها هو فى الحقيقة معلول وليس علة . ففيما يتعلق بأن المعتقلين السياسيين قاموا بإضراب فى شهر فروردين من عام ١٣٥٦ش (١٩٧٧م) أو أن العمال نجحوا فى القيام باعتصام ، أو أن أساتذة الجامعة تمكنوا من الصمود أمام قرارت النظام وأنهم لم يتوجهوا إلى أصفهان ، أو أن مؤيدى الإمام نجحوا فى إقامة مجالس ختم القرآن أو مجالس التأبين عقب وفاة الحاج "آقا مصطفى" ، أو أن النظام رأى نفسه فى موضع يأخذ فيه قراراً بإدماج رسالة "أحمد رشيدى مطلق" فى صحيفة "اطلاعات" ، أو أن زعماء الجبهة الوطنية وجدوا أنفسهم فى ظروف جعلتهم يشعرون بقدرتهم فى أن يخطوا رسالة نقدية مطولة إلى الشاه بعد عشرة أو عشرين عاماً من الصمت ...إلخ ، كل هذا يوضح ويبين هذه الحقيقة ألا وهى أن ثمة تغييرات قد طرأت على الأوضاع السياسية فى إيران ، وما ذكرته كل مجموعة من المجموعات السابقة على أنه "نقطة تحول " أو "نقطة بداية" ، أو "بداية الثورة" أو "بداية الأزمة" أو "الشرارة الأولى للثورة" ...إلخ ، ليس فى الحقيقة علة لظهورها ، بل هو معلول ذلك التغيير وتلك التطورات التى ظهرت فى الأجواء السياسية داخل إيران . والأخرى : إن جميعهم يشتركون فى عامل أساسى ومهم فيما يتعلق بمصطلح "نقاط التحول" - بغض النظر عن العامل أو الحدث الذى نعده نقطة البداية - هذا العامل هو أنهم جميعًا اتفقوا حول عام ١٣٥٦ش (١٩٧٧م) .

بعبارة أخرى ، توجد نتيجتان مهمتان عند البحث فى "نقاط التحول" تلك، الأولى : يبدو أن ثمة تغييرات قد طرأت على أوضاع إيران السياسية فى وقت محدد . الأخرى : أن هذا الوقت المحدد هو عام ١٣٥٦ش (١٩٧٧م) . وفيما يتعلق بالنتيجة الثانية ، أى

أن عام ١٣٥٦ش هو نقطة البداية التى أدت إلى نجاح الثورة الإسلامية فى الثانى والعشرين من شهر بهمن من العام التالى ، يبدو أنها تحتاج إلى مزيد من البحث والنقاش . فكما شاهدنا ، كانت جميع الرؤى والانطباعات المتباينة تقتفى أثر حدث ما وقع فى ذلك العام باعتباره "نقطة تحول"، وكانت جميعها تنظر إلى الثورة نظرة شمولية. على سبيل المثال ، أنهم كانوا يعدون المشاكل الاقتصادية هى أحد أسباب الثورة ، وكما شاهدنا فى الفصل الأول ، أنهم اختاروا عام ١٣٥٦ش على أنه الفترة التى بدأ يظهر خلالها آثار ونتائج تدهور النظام الاقتصادى لنظام الشاه .

أما فيما يتعلق بالمسألة الثانية ، أى تلك التغييرات التى أدت إلى ظهور "نقاط التحول" تلك فى عام ١٣٥٦ش ، فقلما يوجد اتفاق فى وجهات النظر ، وقلما توجد نظرة محددة متناسقة فى هذا الشأن .

والبحث حول هذه التغييرات وأسباب وكيفية ظهورها أو الآثار الناتجة عنها ، ونتائجها على الساحة السياسية الداخلية فى إيران يشكل فى الحقيقة عملنا الأصلى فى هذا الفصل .

وبغض النظر عما لدينا من وجهة نظر محددة خاصة بنا تجاه النظام السابق، فثمة مسألة مسلم بها وهى أن ظهور أى نوع من التغيير أو التطور السياسى - سواء كان ضئيلاً أو مهماً - يرتبط بشكل مباشر ومحدد بوجهة نظر الشاه ، والشاه فقط .

ومفتاح فهم ، أو البحث والدراسة فى تلك التغييرات التى ظهرت فى إيران فى عام ١٣٥٦ش ، والتمهيد لوقوع "نقاط التحول" تلك ، لاشك أنه يرجع إلى الشاه ، يرجع إلى : فيما كان يفكر ؟ وفيما كا ن يدور بخلده ؟ بعد ذلك يجب أن نسأل : أى الأسباب والدلائل التى يمكن أن نهتم بها باعتبارها بواعث ظهور تلك التغييرات ، مع الأخذ فى الاعتبار شخصية الشاه وحالته المعنوية ؟

لاشك أننا نستطيع طرح مباحث أخرى عديدة بدلاً من هذا الأمر ، من قبيل : كيف كان الوضع الاقتصادى لإيران ؟ إلى أى مرحلة بلغ الخلاف بين مؤيدى خلق ومعارضيهم ؟ بين الإمبريالية والوطنيين فى دولتنا ؟ بين كبار البرجوازية والبرجوازية الوطنية ؟ بين المنتمين للرأسمالية والطبقة الكادحة وطبقة العمال ؟ إلى أى مستوى

استقرت أبعاد سياسة النظام المعارضة للإسلام (وفقًا لأوامر الإمبريالية وأرباب الشاه) ؟ على أى وجه ظهرت مخططات الإمبريالية الجديدة وسياساتها واستراتيجيتها على مستوى المنطقة ؟ أى تأثير للأزمات الاقتصادية المتتالية للرأسمالية العالمية على الاقتصاد الإيرانى ؟ ....إلخ . لكن بسبب النسيج السياسى لنظام الشاه ، وبسبب أن كل شىء – خاصة القرارت والتحولات السياسية – يتم من أوله إلى آخره تحت إشراف الشاه التام وبناءً على "الإرادة الهمايونية" وطبقًا "للنوايا الملكية" ؛ لذا فنحن مضطرون فى النهاية إلى أن نقتفى أثر الشاه ، ونطلع على هذه النسخة العامة للتعرف على جميع الأنظمة التى كانت ترتكز على فكر شخص واحد ، وللحفاظ على مصلحة شخص واحد .

وقد أشرنا فى السابق إلى أن مجموع الملاحظات الاستراتيجية من جهة ، وميول الشاه ونظرته السياسية ، والاقتصادية والاجتماعية من جهة أخرى ، أوجد علاقات حميمة وخاصة – إلى حد ما – بين واشنطن وطهران . وأشرنا إلى مدى اهتمام الشاه بمثل هذه العلاقات ، وكيف كان قلقًا دومًا من التغيير المحتمل الذى قد يطرأ على هذه العلاقات ، وذكرنا فى النهاية أن هذا القلق ، أو هذا الاهتمام المبالغ فيه من قبل الشاه تجاه علاقته بواشنطن كيف يمكن أن يكون مفتاحًا لفهم التغييرات والتحولات التى شاهدنا آثارها فى عام ١٣٥٦ ش (١٩٧٧م) تغييرات وتحولات مهدت المجال لتلك الأحداث التى ذكرتها الجماعات المتباينة باعتبارها "نقطة تحول" فى تاريخ الثورة .

ونريد الآن أن نتقدم بالبحث خطوة للأمام ، ونرى كيف ظهرت هذه التغييرات وتلك التحولات ؟ وأى صلة يمكن أن توجد بين تلك الحساسية الزائدة عن الحد التى كان يبديها الشاه تجاه نظرة الغرب – وخاصة واشنطن – له وبين هذه التغييرات والتحولات؟.

قلنا من قبل : إن الشاه كان يختلف كثيرًا فى الأعوام الأخيرة من حكمه عن محمد رضا فى السنوات الأولى لحكمه ، ذلك الشاب الضعيف ، المتردد ، الذى يترقب فى خشية وأمل مستقبل مكانته ومكانة نظامه .

وعلى الرغم من وقوعه هو ومتحديه الغربيين – كما رأينا – فى المبالغة عند تقييمهم لمكانته وقدرته الحقيقية ، لكن على أية حال ، كان محمد رضا فى عام ١٣٥٦ش (١٩٧٧م) أقوى بمراحل من محمد رضا عام ١٣٢٠ش (١٩٤١م) .

لكن على الرغم من كل هذه القوة ، وعلى الرغم من علاقته بعشرات من الشخصيات الأمريكية ذات النفوذ من الساسة وأصحاب البنوك وأعضاء مجلس الشيوخ ونواب الكونجرس ، وعلى الرغم من امتلاكه كل هذه القوى المدنية والعسكرية المجهزة بأحدث المعدات الحربية ، على الرغم من سياسة القمع والقلع واعتقال المعارضين ، على الرغم من الدخول الباهظة للنفط ، على الرغم من حصوله على مكانة إحدى القوى العظمى فى المنطقة ، على الرغم من كل هذا ، كان الشاه - بشكل يدعو إلى الحيرة - قلقًا للغاية من علاقة واشنطن مع نظامه ، وهذا القلق وذلك الاضطراب الذى كان لديه تجاه التغييرات والتطورات السياسية فى واشنطن سيظل أحد الزوايا المبهمة ، ولن يوضح شيئًا عن نفسية الشاه .

بالطبع ، سوف يقول الكثيرون : إن هذا الملمح ناشئ عن كون الشاه أحد "أدوات" أو أحد "عملاء" واشنطن ، وعلى هذا النحو ، ومن المنطقى أن يكون قلقًا ممن سيكون له الحكم فى واشنطن؟ أو أى تغييرات وتطورات يمكن أن تحدث فى معسكر "الأرباب"؟ لكن الشاه لم يكن يعد نفسه "أداة" ، ولم يكن العديد فى واشنطن ينظرون إليه مثل هذه النظرة . وربما يقال : يكفى لإثبات "عمالة" الشاه و"سيادة" واشنطن أنه كان يسأل الأمريكان فى حيرة أثناء قيام الثورة : "ماالذى ينبغى القيام به ؟" صحيح أن الشاه كان يسأل الأمريكان عاجزًا ، يائسًا متحيرًا ومذهولاً "ماذا يجب أن يفعل؟ وما الذى يريدونه منه هو تحديداً ؟" بيد أن هذا الأمر قد حدث أثناء تأجج الثورة وفى الأسابيع الأخيرة لنظامه ، أى فى الوقت الذى أصاب فيه ضغط الثورة وتوسعها عمليا الشاه ونظامه بالشلل التام . فضلاً عن أنه إذا ما نظرنا بشكل أكثر دقة ، فإن الأمريكان قلما كانوا يرون أنفسهم فى موضع يصدرون منه الأوامر إلى الشاه أو يحددون له مهامه بشكل صريح وآمر باعتبارهم أربابه ، وكان عدم تحديد المهام من قبل واشنطن - كما سنرى من بعد - يعد فى الحقيقة أحد المشاكل الأساسية للشاه ، حيث إنه لم يتمكن ، أو لم يفهم ما الذى كان يبغيه الأمريكان منه فى النهاية ؟ والشىء الذى لم يستطع إدراكه ، هو تلك الحقيقة : إنه أثناء تقييم الأمر وتدبيره ومجابهة طوفان الثورة الإسلامية فى إيران ، إن لم يكن الأمريكان أكثر حيرة منه ، فلم يكونوا - على الأقل - أقل منه .

والمشكلة الأخرى لدى الشاه أنه وقع فى هذا التصور الخاطئ ، إنه كان يظن أن ثمة تغييراً جذريا ظهر فى السياسة العامة لأمريكا ، وقد عجز عن فهمه ، وفى الحقيقة أن العامل أو الباعث الأساسى الذى كان لدى الشاه حينما كان يتوجه إلى الأمريكان بسؤاله : "ماالذى ينبغى القيام به ؟" لم يكن يطلب من "الأرباب" تحديد المهمة لـ "أداة". بل كان يريد أن يعلم ماهية مكانته ومكانة نظامه، وما هية دور إيران فى هذا التغيير الذى – طبقًا لقوله – ظهر فى سياسة أمريكا فى أعقاب تولى حكومة كارتر .

ولم يكن الشاه وحده هو الذى يعتقد أن ثمة تغييرات عامة ظهرت فى سياسة أمريكا وإستراتيچيتها على مستوى العالم ، فكما شاهدنا فى الفصل الأول ، كانت مثل هذه المعتقدات لدى الكثيرين من معارضى الشاه حول أمريكا(٢).

وإذا ما تغاضينا عن المباحث النظرية السابقة ، فيبدو عمليا أن ثمة بواعث أدت إلى وجود مثل هذه النظرة القلقة من قبل الشاه وتعامل واشنطن معه ومع نظامه تتعلق بالناحية النفسية والمعنوية .

وأساسًا كلما كان يزداد نظام إيران قوة ، كلما شعر الشاه أنه أكثر تعلقًا بواشنطن . وبعيداً عن النقاط الإستراتيجية المشتركة بين طهران وواشنطن ، من قبيل "النفط ، الاتحاد السوڤيتى السابق ، خطر ظهور النظم الأصولية العربية فى منطقة خليج فارس .... وغيرها ، فقد كان يزداد الاعتماد الأساسى العسكرى لإيران على أمريكا يومًا بعد يوم . وهذا الأمر ناشئ أساسًا من نهم الشاه الذى لايقف عند حد تجاه الأسلحة الأمريكية الحديثة والمتطورة . ويبدو أنه كلما كان يحصل على مزيد من الأسلحة ، كلما كان أكثر حرصًا على زيادة ترسانته العسكرية . والأمر لايحتاج إلى القول : إن من أهم شروط الحصول على المعدات الحربية الحديثة والإستراتيچية من أمريكا هو وجود خطاب تزكية سياسى والاقتراب المتزايد للشاه تجاه أمريكا .

والأمر الثانى يتعلق بخشية الشاه المتزايدة من الاتحاد السوڤيتى السابق وخطر قوة الشيوعية .

إن وجود أكثر من ٢٠٠٠ كم من الحدود المشتركة مع الاتحاد السوڤيتى السابق ، ووجود النظم الراديكالية المتحالفة مع موسكو ، والأسوأ من ذلك ، نظم الماركسية وثوراتها المسلحة التى ظهرت تدريجيا فى المنطقة ، كل هذا كان معكراً لصفو الشاه

مهدداً له فى المحافل السلفية واليمينية الغربية ؛ لذا حظيت زيادة قوة إيران العسكرية وتدعيم الأمن الداخلى للدولة بالمكانة الأولى من أولويات الشاه ، لكنه كان فى عالمه القلق يرى أن إيران إذا ما أصبحت يومًا ما موضع تهديد جاد من قبل الشيوعية – كما حدث فى بداية حكمه – فكل مايستطيعه هو الاعتماد على مساندة الغرب .

وعامل آخر كان يقلق الشاه وهو أن يظهر – لاقدر الله – خلل فى علاقة الغرب الإستراتيجية مع إيران مع وجود برامج الشاه الاقتصادية المتطورة . ولنترك المواضع الاستثنائية ، فإن أساس البرامج الصناعية وبنيتها التحتية ، والزراعة ومشاريع إيران المتطورة ، يتلخص فى الاستفادة من التكنولوجيا الغربية والتعاون مع الغرب . ومجموع العوامل التى أحصيناها تتوفر فى الكثير من النظم ولدى العديد من زعماء دول العالم الثالث ممن يميلون إلى الغرب ، لكن قلما وجد زعيم من بينهم كان قلقًا من علاقته مع واشنطن بهذا القدر الذى لمسناه عند الشاه .

وبعيداً عن العوامل السابقة ، يبدو أننا يمكن أن نضع أيدينا على عامل آخر فيما يتعلق بالشاه ، وهوانعدام الثقة بالنفس . فعلى عكس ماكان يبدو والشاه قوى الجأش ، عظيم الهيبة ، تملأه النخوة والكبر ، كان ضعيف الشخصية ، واهن الإرادة والعزم ، عديم الثقة فى نفسه عند مواجهة الأزمات بشكل يدعو إلى الدهشة . ويمكن اعتبار أن جزءاً من ضعف إرادة الشاه ووهنه فى مواجهة الأزمات ناشئ من إصابته بمرض السرطان ومن تأثير الأدوية التى كان مضطرا لتناولها بشكل دائم . والجزء الآخر يمكن أن نعتبره بسبب تغيير الحكومة فى واشنطن ومواجهة الشاه لشخصيات قلما كان على معرفة بها فى السابق ، أو بسبب السياسات الجديدة لهذه الحكومة ، وما كان يدور فى مخيلة الشاه من حيرة وحيطة وأخيراً عدم اطمئنان تجاه واشنطن ، وما الذى كان يدور فى خلد رئيس أمريكا الجديد . وجزء آخر ربما يكون ناشئًا عن زيادة ظهور المعارضين المفاجئ الذى لم يكن متوقعًا على أى نحو قط من قبل الشاه . وجزء آخر ربما يكون ناشئًا عن فقد شخصيتين كانتا موضع ثقة الشاه ، وهما : أمير أسد الله علم ود . منوچهر إقبال اللذان كانا يلازمانه أثناء الأزمات من قبل . لكن إذا ما نحينا هذه الاحتمالات جانباً ، فثمة حقيقة واحدة لاتقبل الإنكار ألا وهى أن الشاه أبدى خوراً وضعف عزم فى أحداث الثورة ومواجهته لها[٢] .

ومن الممكن أن نضيف كذلك بعض العوامل الأخرى إلى هذه القائمة ، ومن الممكن أن ينال بعضها أهمية خاصة أكثر من البعض الآخر ، ومن الممكن ألا يكون بعضها ذا أهمية من قبل الشاه ، لكن على أية حال ، إن جميع الملاحظات السالفة الذكر (وعوامل أخرى قد تكون مجهولة حتى الآن) كان يوليها الشاه أهمية خاصة من أجل علاقته مع الغرب وخاصة واشنطن ، وكانت هذه الأهمية على نحو غير طبيعي وعجيب ، وكلما أكدنا على أبعاده فإننا لانقول جزافًا .

إن أكثر من ثلاثة عقود من العلاقات الحميمة مع واشنطن علمت الشاه أنه يستطيع أن يقر هذه العلاقة على نحو أفضل مع ساسة وزعماء الحزب الجمهورى، ولم يتأت هذ الحكم للشاه مصادفة ، فوجهات نظره ، ومطالبه وقوائمه الطويلة لشراء الأسلحة كانت تواجه دومًا بحفاوة كبيرة من قبل الجمهوريين . وفى المقابل كان الديمقراطيون ينتقدونه ويضعون العراقيل أمامه وأمام برامجه التسليحية ، وأخيرًا كانوا يسدون إليه النصائح التى تصم السمع - من وجهة نظر الشاه - بضرورة الإصلاح .

وكان الشاه يعلم جيدًا أن أصدقاءه الأمريكيين ذوى النفوذ ينفذون وينتشرون داخل الجناح الجمهورى . وفى المقابل كان هناك بعض المنتقدين بين الديمقراطيين . ووفقًا لذوى الرأى من الأمريكيين ، فإن آخر مرة اضطر فيها الشاه إلى تحمل رئيس الجمهورية الديمقراطى تعود إلى عام ١٣٤٨ش (١٩٦٩م) . ومنذ ذلك التاريخ وحتى عام ١٣٥٦ش (١٩٧٧م) لم يسيطر الجمهوريون فقط على الحكم فى البيت الأبيض ، بل إن الحكومة الأمريكية حصلت على رقم قياسى جديد خلال الثمانية أعوام تلك بسبب ميلها إلى السياسات التوسعية والمطالبة بالقوة العسكرية . وفى بدايات الثمانية أعوام تلك مكن كل من نيكسون وكيسنجر[٤] الشاه من تنفيذ جزء كبير من مطالبه العسكرية وطموحاته العالية فى أن تكون دولته إحدى القوى العظمى فى المنطقة . وبعد سقوط نيكسون نجح أيضًا هنرى كيسنجر - وزير خارجية نيكسون الذى تمتع بالقوة والنفوذ ويعد المخطط الأساسى لسياسة أمريكا الخارجية منذ أواخر الأربعينيات (أى الستينيات بالتقويم الميلادى) - فى أن يواصل سياسة تأييد الشاه ودعمه كما كان فى السابق ، وذلك خلال فترة حكم جيرالدفورد - خليفة ريتشارد نيكسون الجمهورى -

لكن منذ أواسط الخمسينيات (أى السبعينيات بالتقويم الميلادى) ، ومع تنامى فرص ترشيح الديمقراطيين فى انتخابات رئاسة الجمهورية الأمريكية ، شعر الشاه بأن ثمة غيومًا من الممكن أن تظهر فى أفق علاقته مع واشنطن. وبعيداً عن قلقه المعتاد إزاء الديمقراطيين، فهذه المرة ركز مرشحهم لرئاسة الجمهورية فى دعاياته الانتخابية حول أحد المواضيع، وكان تكرار اسم هذا الموضوع مما يثير غضبة الشاه ، هذا الموضوع هو : "حقوق الإنسان" .

وبالتأكيد لم يكن هذا الموضوع هو مصدر قلق الشاه الوحيد ، فقد ذكر چيمى كارتر – مرشح الانتخابات عن الحزب الديمقراطى – أنه سيعيد النظر فى سياسة بيع أمريكا الأسلحة والمعدات الحربية، وذلك فى حالة نجاحه واستقراره فى البيت الأبيض .

وكانت سياسة كارتر حول "حقوق الإنسان" مصدر قلق بالنسبة للشاه . وفى المقابل كان معارضوه الراديكاليون ينظرون إليها على أنها حيلة ، أو خدعة أو مؤامرة جديدة من قبل الإمبريالية الأمريكية . وكان المجاهدون – على سبيل المثال – يذكرونها على أنها "قناع حقوق الإنسان" تختفى وراءه الإمبريالية بمخالبها وأسنانها الدامية . وقد لقب السيد الدكتور إبراهيم اليزدى – أحد الرؤساء الأساسيين فى اتحاد الجمعيات الإسلامية للطلاب الإيرانيين بأوروبا وأمريكا وأحد مسئولى "ثورة التحرير" فى الخارج – هذه السياسة فى تحاليله وخطبه بالخارج بـ"جيمى – كراسى" . ورأينا كذلك أن حزب "توده" عد هذه السياسة نتاجًا لتراجع الإمبريالية أمام تقدم الجبهة المعارضة لها بزعامة الدول الاشتراكية (٥) .

لكن حقيقة الأمر هى أن سياسة حقوق الإنسان فى المعارك الانتخابية الأمريكية آنذاك لم تكن مخططًا ولاقناعًا ولاتراجعًا ، بل كانت ركوبًا للموجة التى تمكن چيمى كارتر ومؤيدوه فى الحزب الديمقراطى من خلالها من أن يرتكزوا على أمواج الرأى العام فى أمريكا . أمواج ألقاها كارتر ومؤيدوه خلال المعارك الانتخابية فى تلك الفترة فى أمريكا وعلى الرغم من التردد الشديد إلا أنهم تمكنوا من دخول البيت الأبيض . هذه الأمواج كانت فى الحقيقة رد فعل طبيعى تجاه فترة حكم نيكسون وكيسنجر (عصر الهزيمة فى ڤيتنام ، وفضيحة ووترجيت الكبرى (٦) وأخيراً الفساد وخرق القوانين والجرائم التى ارتكبها أعضاء وكالة المخابرات "سيا" خلال حرب ڤتينام سرا).

إن التفسير والتحليل الدقيق حول سياسة حقوق الإنسان ، وشرح أسباب نجاح الديمقراطيين فى تلك الانتخابات أمر خارج نطاق بحثنا . لكن بشكل إجمالى ، تمكن كارتر ومؤيدوه من تركيز إستراتيچية فى شعارات بسيطة ، من قبيل : "لن يكذب المسئولون الأمريكيون ثانية على شعبهم" ، "لن تكون سياسات أمريكا الخارجية خلف أبواب مغلقة" ، "لن يُسمح ثانية لمنظمة "سيا" بقتل البشر" ، وأخيراً ، وما نال أهمية عظمى ومكانة مهمة فى علاقات أمريكا مع الدول الأخرى - ومن بينها حلفاؤها التقليديون - هو ماعرف باسم "حقوق الإنسان"(٧) .

إن الصورة الموجودة فى مخيلة العديد من الشعب الأمريكى عن حكومة واشنطن وسياستها وزعامتها فى عهد نيكسون الممزوجة بالفساد وسوء السمعة، جعلت بعض الشعارات ، مثل : "لن يكذب زعماء أمريكا ثانية على الشعب" ، "انتهى فى حكومة أمريكا عصر إخفاء الحقائق عن الشعب" (٨) هى المواضيع المحورية للديمقراطيين خلال المعارك الانتخابية الأمريكية .

وفيما يتعلق بأن سياسة "حقوق الإنسان" كانت حيلة وخداعًا أم كانت حقيقة ؟ فهذا خارج نطاق بحثنا . لكن يوجد اليوم العديد من الأدلة والشواهد التى إذا ما استندنا إليها يمكننا القول : إن وصول الديمقراطيين إلى سدة الحكم ودخولهم البيت الأبيض فى أواخر عام ١٣٥٥ ش (١٩٧٦م) حث نظام الشاه على القيام ببعض ردود الأفعال .

ولم تكن أخلاق رئيس الجمهورية الجديد چيمى كارتر ، ولا ادعاؤه التدين، ولاتعيين الشباب أو بعض الوجوه الجديدة فى مناصب حكومة كارتر المرموقة ، ولا الميول الليبرالية أو الراديكالية للعديد منهم يمثل مصدر قلق بالنسبة للشاه . إنما ما كان يؤرقه بشدة هو جانبان فقط من سياسة البيت الأبيض الجديدة ، هما : إعادة النظر فى بيع الأسلحة والتأكيد على رعاية حقوق الإنسان . وقد عبر الشاه صراحة عن مدى قلقه واستيائه من نجاح الديمقراطيين فى الانتخابات (٩).

ولم تكن مسألة استياء نظام الشاه من الديمقراطيين بالشىء الجديد حقا ، فقد قدمت سفارة إيران فى واشنطن الأموال دومًا لصالح الجمهوريين خلال فترة انتخابات

رئاسة الجمهورية لتلك الدولة طبقًا لأوامر الشاه . وكانت مثل هذه المساعدات تقدم كذلك خلال انتخابات عام ١٣٥٥ش (١٩٧٦م) . وفضلاً عن قلق الشاه المعتاد من الديمقراطيين ، فقد جاء موضوع إعادة النظر فى طريقة تصدير الأسلحة وبيعها ليضيف سببًا آخر لهذا القلق .

ومن سوء حظ الشاه ، أن هذه السياسة احتلت ساحة السياسة الخارجية الأمريكية فى أسوأ ظروف ممكنة من ناحية مواصلة برامجه التسليحية . وفضلاً عن قائمة الطلبات العديدة التى سلمت إلى أمريكا حتى أواسط عام ١٣٥٥ش (١٩٧٦م) فيما يتعلق بمشتريات الشاه العسكرية ، فقد تلازم أيضًا مع اعتلاء الديمقراطيين الحكم إضافة بضائع جديدة تم موافقة واشنطن التامة عليها ، بدون الأخذ فى الاعتبار سياسة حكومة كارتر الجديدة فيما يتعلق ببيع الأسلحة . وكانت المطالب الجديدة فى الحقيقة استكمالاً لبرامج الشاه التسليحية القائمة على تحويل القوة الجوية والبحرية الإيرانية إلى إحدى القوى العظمى فى المنطقة ، من هذه المطالب : ١٤٠ طائرة حربية (فضلاً عن ٤٤٠ طائرة تم شراؤها فى السابق) ، بارجات وسفن حربية كانت قد أعدت لقوات البحرية الأمريكية ، رادارات ونظم إنذار حديثة متطورة لمواجهة الهجمات الجوية للعدو ، دبابات حديثة ، طائرات متطورة (من طراز الشبح)، طائرات مقاتلة كانت لاتزال فى مرحلة التصميم ، وأخيراً طائرات آواكس (١٠) .

وكانت المشكلة الوحيدة فى القائمة الجديدة هى تصدير بعض البضائع المتطورة جدا والتى لم يكن لها وجود فى القوائم السابقة .

وفضلاً عن شراء الأسلحة ، فكر نظام إيران فى جذب موافقة الأمريكان ومساندتهم لإنتاج بعض الأسلحة الأمريكية المتطورة داخل إيران (١١). غير أن مطالب الشاه الجديدة (فضلاً عن مطالبه السابقة) تواجه الآن حكومة تقول : إنها تعيد النظر فى سياسة بيع الأسلحة وتصديرها . وتفاصيل السياسة الجديدة وطريقة تنفيذها وقوانينها ليست بالطبع محل اهتمامنافى هذا المقام . لكن بشكل إجمالى، يمكن القول: إن مسألة تصدير الأسلحة وبيعها للعديد من دول العالم (ومن بينها إيران) كانت تتم فى إطار القوانين الجديدة وضوابطها فيما عدا اليابان ، وأستراليا ونيوزلندا ، فضلاً عن تعهدات أمريكا إزاء حلف الناتو العسكرى والحفاظ على الوجود الإسرائيلى(١٢) .

ووفقًا لظاهرها ، كانت هذه القوانين الجديدة - التى تجيز تصدير بعض الأسلحة موضع احتياج إيران - تقابل بموانع شديدة . من بين هذه القوانين تحديد مبلغ ٨/٦ مليار دولار سنويا لبيع الأسلحة الأمريكية (على مستوى العالم) . وطبقًا لبند آخر من هذه القوانين ، إذا ما كان تصدير الأسلحة المتطورة إلى منطقة ما فى العالم يؤدى إلى انعدام التعادل العسكرى وزيادة القوة الحربية فى تلك المنطقة ، فلن تخطو أمريكا خطوة واحدة فى طريق بيع هذه الأسلحة لتلك المنطقة . والتفسير الفعلى لهذا البند فيما يتعلق بإيران - على سبيل المثال - يمكن أن يكون : إن تصدير الأسلحة المتطورة الحديثة إلى إيران فى فترة ما أدى إلى حصول العراق أو أية دولة أخرى فى المنطقة على مثل هذه الأسلحة من إحدى القوى العظمى الأخرى ، وفى غير هذه الحالة ، وطالما ينعدم دخول الأسلحة المتطورة الحديثة إلى المنطقة ، فإن أمريكا لن تصدر أيضًا إلى الدول الصديقة الموجودة فى تلك المنطقة أية أسلحة .

وفى النهاية ، فإن تصدير الأسلحة فى إطار السياسات الجديدة كان يرتبط بعوامل أخرى ، من بينها تأثير شراء الأسلحة على الوضع الاقتصادى والتنمية فى تلك الدولة . والأسوأ من هذا - من وجهة نظر الشاه - هو وضع سياسة رعاية حقوق الإنسان فى دولة تحصل على المؤن العسكرية من أمريكا .

أما من الناحية العملية ، فلم تتعد السياسة الجديدة حدود الكلام . ونجح المسئولون الأمريكان تدريجيا وبمرور الزمن فى تنفيذ جزء كبير من مطالب الشاه بطرق مختلفة (من بينها استخدام الطرق الخلفية للبيروقراطية والاستفادة من الفروع والمؤسسات التابعة للشركات الأمريكية الكبرى والشركات متعددة الجنسيات خارج أمريكا) .

وفى الحقيقة ، إن معدل بيع الأسلحة فى عهد كارتر لم ينخفض فقط ، بل إن أمريكا ضربت رقمًا قياسيا جديداً ببيعها معدات عسكرية بأكثر من اثنى عشر مليار دولار فى العام الأول لحكمه (١٣) .

لكن تم ذوبان الثلج تدريجيا ، فبعد أن قضى الشاه شهوراً عديدة فى اضطراب وقلق فى بداية حكم الديمقراطيين ، حيث كانت السياسات الجديدة لتصدير الأسلحة

من واشنطن أكثر من كابوس بالنسبة للشاه . والسبب فى ذلك هو تلك الهالة التى أحيطت بسياسة بيع الأسلحة من قبل الديمقراطيين أثناء الانتخابات . يقول أحد كبار المسئولين فى حكومة كارتر فى أوائل حكمه [أواخر عام ١٣٥٥ش (١٩٧٦م)] :

"... هذه حكومة تختلف عن سابقاتها ، لو أن الشاه يظن أنه يستطيع (كالماضى) أن يحصل على كل مايريد فى مجال بيع الأسلحة ، فيجب أن يعد نفسه لاستقبال هذه الشوكة"(١٤) .

ومثل هذه النظرة الحادة فيما يتعلق ببيع الأسلحة إلى إيران لم تكن مقتصرة على شخص أو اثنين فقط ، بل كان يؤمن بها أيضًا بعض كبار المسئولين فى حكومة كارتر(١٥) .

والمسألة الثانية التى كانت مصدر قلق الشاه هى سياسة حقوق الإنسان التى تمارسها الحكومة الجديدة . فقد تمكنت هذه السياسة تدريجيا خلال فترة الانتخابات لرئاسة الجمهورية من التحول إلى أحد التطورات الأساسية أو إحدى النظرات الجديدة فى السياسة العامة للخارجية الأمريكية . ويتلخص أساس هذه السياسة فى : إنه من الآن فصاعداً سوف يكون الإنسان أحد الاهتمامات فى كيفية العلاقات بين أمريكا والدول المختلفة .

إن مسألة حقوق الإنسان هى فى الحقيقة انعكاس فكر أو نظرة السياسة الخارجية الأمريكية الجديدة ، ولها جذور ممتدة بين بعض القائمين بالعمل فى حكومة أمريكا الجديدة . وجزء كبير من هذه النظرة الجديدة ناشئ عن فكرة أن أمريكا هى فى الحقيقة أساس العديد من المشكلات الأخيرة على الساحة الدولية(١٦) .

وكانت شعارات : "لن تكون ڤيتنام ثانية" ، "لن يكون پينوشه(١٧) ثانية" توضح العمق السلبى والناقد من قبل مسئولى البيت الأبيض الجدد تجاه المسئولين السابقين وسياسة الجمهوريين فى عهد نيكسون وكيسنجر (١٨) . وعلى أساس النظرة الجديدة :

"يجب أن تبتعد أمريكا عن العلاقات الوطيدة التى كانت تربطها فى الماضى بالنظم الديكتاتورية ، يجب كذلك أن تتجنب واشنطن سياسة التعاون الخفى مع الحركات السرية أو الحركات اليمينية فى الدول التى تقوى فيها الحركات الراديكالية .

وكانت حكومة كارتر تسعى عمليا لتدعيم العلاقات مع الدول التى تدعى أنها تابعة لها حتى وإن كانت تعارض أمريكا علانية"(١٩) .

وفى حكومة كارتر تمكنت بعض الشخصيات من إيجاد الطريق الذى يمكن أن نطلق عليه لب فكر النظرة الجديدة ، وكان أكثرهم صيتًا "أندروويانج" مندوب أمريكا فى منظمة الأمم المتحدة . ويمكن اعتباره أول زنجى نجح فى الحصول على هذا المنصب السياسى المهم فى حكومة أمريكا ، وباعتبار أنه أحد أعوان ومعاصرى د . مارتن لوثر كينج زعيم المقاومة بالنسبة لزنوج أمريكا ، فإن جزءًا أساسيا من الأعمال السابقة ليانج - حتى قبل انضمامه إلى حكومة كارتر - قد نفذ فى المقاومة السياسية لعناصر الراديكالية فى أمريكا .

إن أفكار يانج ومؤيديه أوجدت تغييرًا جذريا فى نظرة السياسة الخارجية الأمريكية . إنه لم يؤمن فقط بضرورة إعادة نظر أمريكا فى علاقتها الحميمة بالنظم اليمينية والديكتاتورية فى العالم الثالث ، بل كان يؤمن كذلك بأن خوف واشنطن المعتاد من النظم الراديكالية - وحتى الماركسية - فى العالم الثالث لامحل له ويسوده المبالغة . وعلى العكس ، كان يؤمن بأن مصلحة أمريكا على المدى البعيد تكون فى إقامة علاقات طيبة مع النظم الماركسية الحاكمة فى أنجولا ، وكوبا ، وڤيتنام وكامبوديا . وكان "يانج" يوصى قادته ومنتقديه أن يتحلوا بالصبر لأن هذه الدول سوف تأتى على المدى البعيد إلى أمريكا لطلب العون وسوف تفر من تبعيتها للروس :

"فى ظل النظرة الجديدة فى سياسة الخارجية الأمريكية أكد "يانج" وكثيرون غيره من كبار المسئولين فى حكومة كارتر على وجوب إقامة علاقات طيبة بين أمريكا وبين جبهات التحرير فى العالم الثالث، مثل : جبهة التحرير الفلسطينية وجبهة البوليساريو . وأدت جهودهم - بلا شك - إلى ظهور أصدقاء جدد لأمريكا فى أفريقيا وبين دول العالم الثالث . لكن هذه النظرة الجديدة جعلت العديد من أصدقاء أمريكا وحلفائها التقليديين والمعتدلين ينظرون إليها بقلق شديد"(٢٠) .

وكان الشاه - بلا أدنى شك - أحد حلفاء واشنطن التقليديين ، وكان وجود "يانج" وأعوانه فى مراكز اتخاذ القرار السياسية بواشنطن بالنسبة له أكثر من كابوس عن

كونه أمراً واقعيا . وأوجدت هذه النظرة الجديدة بعض المعارضات داخل أمريكا ، لكن عدم توفيق الحكومات السابقة على كارتر وفضائحها أفسح المجال كي لايواجه الرئيس الجديد بمانع جاد :

يتلخص الدفاع الأساسي لمؤيدي السياسة الجديدة للخارجية الأمريكية فى أن أمريكا بتأييدها للنظم الديكتاتورية فى أرجاء العالم ، وببعدها عن النظم الراديكالية المتقدمة واليسارية المتطورة التى كانت تتحرك لنشر الديمقراطية والعدالة الاجتماعية قد تنازلت بشكل عملي عن مبادئها وموازينها . وتأييد واشنطن لأنظمة مثل : فرانكو فى إسبانيا ، وسالزار فى البرتغال والقادة فى اليونان (٢١) ، كما صارت النظم اليمينية والديكتاتورية المتعددة فى أمريكا اللاتينية ، مثل : البرازيل والأرجنتين نموذجاً واضحاً لهذا التنازل "(٢٢) .

إن سياسة حقوق الإنسان هى فى الحقيقة جزء من هذه النظرة الجديدة لكنه يعد الجزء الأكثر أهمية ، فضلاً عن أن بعض الملاحظات فى سياسة الخارجية الأمريكية الجديدة قد دفعت مسئولي البيت الأبيض للقيام بأبحاث معقدة ، مثل ماهية دور أمريكا أساساً فى العالم ، ماهية النظام المتطور والحكومة اليمينية ، ماهية التنمية والتقدم ، كيفية مساعدة دول العالم الثالث وأى الطرق المناسبة فى هذا الشأن ... إلخ. أما فيما يتعلق بحقوق الإنسان فقد انعدم وجود مثل هذه الأبحاث . إن ماهية حقوق الإنسان وتعريفها ومدى مصداقيتها من الأمور الأكثر وضوحاً من الناحيتين العملية والتنفيذية . أو على الأقل كانت تتطلب دراسات وأبحاثاً أقل بالمقارنة بما قيل سالفًا .

وكانت الدول تنقسم إلى مجموعتين عامتين من وجهة نظر واشنطن فيما يتعلق بتنفيذ سياسة حقوق الإنسان ، المجموعة الأولى : الحلفاء والنظم التى لها علاقات حميمة مع أمريكا . والمجموعة الثانية : تتألف من الدول المعارضة لأمريكا .

ومن وجهة نظر مؤيدى تنفيذ سياسة حقوق الإنسان، يوجد فى كل من المجموعتين أمثلة محددة لبعض الدول التى يتم فيها نقض احترام الحقوق الشخصية والاجتماعية للشعب بواسطة حكومات تلك الدول ، لكن الأمر الأكثر أهمية ، هو : كيف ينبغى أن تنفذ سياسة حقوق الإنسان عمليا كى تثمر نتائج إيجابية ؟ ومن ناحية التنفيذ ،

لم يوجد أكثر من طريقين من وجهة نظر واشنطن ، الطريق الأول : ارتباط سياسة حقوق الإنسان بالمساعدات وتصدير الأسلحة الأمريكية . بعبارة أخرى ، إن واشنطن كانت تضع العراقيل فى إرسال المساعدات الاقتصادية ، والعسكرية وتصدير أو بيع الأسلحة إلى تلك المجموعة من الدول التى لا تراعى فيها حقوق الإنسان ، وكانت توجه إليها الإنذارات .

الطريق الثانى : الضغط الدبلوماسى . حيث تقوم واشنطن بالتذكير والدعوة والتشجيع . بعبارة أخرى ، لاتقيم أية صلة أو علاقة بين المساعدات الاقتصادية وتصدير الأسلحة العسكرية إلى إحدى الدول وبين طريقة تنفيذ حقوق الإنسان بواسطة حكومة تلك الدولة .

وبالطبع كان الساسة القدامى والمحافظون ، وإجمالاً الجناح اليمينى ، يؤمنون بالشق الثانى . وبعيداً عن عدم إيمانهم الراسخ بسياسة حقوق الإنسان وطرحها على أنها إحدى سمات سياسة الخارجية الأمريكية ، أنهم لم يكونوا مطمئنين إلى : لو أن واشنطن نفذت مثل هذه السياسة بشكل جاد ، فأى نتائج يمكن أن تظهر على المستوى الدولى؟ لكن فى المقابل يوجد العديد من الوجوه السياسية الجديدة وخاصة مجموعة محدودة من حكومة كارتر ممن يؤمنون بالأسلوب الأول . فمن وجهة نظرهم ، أن استخدام المواعظ وإسداء النصح فيما يتعلق بحقوق الإنسان لن يحدث أى تغيير . فتعداد الأنظمة التى أبدت استعدادها بسبب الضغط الدبلوماسى من ناحية أمريكا فيما يتعلق برعاية حقوق الإنسان وما بذلوه من اهتمام جاد قليل للغاية من وجهة نظرهم . والنتيجة إنه على الرغم من الضجة الكبيرة التى قامت بها الحكومة الجديدة حول حقوق الإنسان فإنها جعلت من أمريكا – عمليا – أضحوكة بسبب عدم ظهور أى تغييرات على أرض الواقع .

والمشكلة التى تواجه مؤيدى تنفيذ سياسة حقوق الإنسان هى اصطدامهم بالنظم الراديكالية واليسارية ، وكانت مثل هذه النظم دومًا موضع عداء واشنطن العلنى ، وبعضها سقط بضلوع أمريكا فى الأمر . ولما كانت رعاية حقوق الإنسان لم تأخذ حقها فى مثل هذه النظم فى السابق ، وما أن رغبت الحكومة الجديدة التى تتزعم سياسة

حقوق الإنسان فى التصدى لها ، فبالتأكيد قد استمر نفس العداء والأحقاد السابقة ، فى حين أن إزالة الخصام القائم بين واشنطن ومثل هذا النوع من الأنظمة كان من بين الأهداف الرئيسية للسياسة الجديدة للخارجية الأمريكية .

بعبارة أخرى ، إن تنفيذ سياسة حقوق الإنسان فيما يتعلق بالنظم الراديكالية ، كانت فى تعارض مع عهد آخر من سياسة الخارجية الجديدة لواشنطن ، أى دورانها حول هذه الأنظمة .

وكان "يانج" يؤمن بأن إعادة النظر فى صدام واشنطن مع النظم الراديكالية سوف يزيل على المدى البعيد عدم رعاية حقوق الإنسان فى هذه الدول ؛ لأن انخفاض نفوذ أو انفصال الاتحاد السوفيتى السابق عنها وتقدم طريق وسط وتقليل حدة العداء بينهم وبين الغرب وأمريكا سيجذب تدريجيا هذه النظم إلى المحيط السياسى المعتدل الأقل توترًا ، ولن تمس حاجتها ثانية إلى استخدام الاعتقال وسياسة القلع والقمع تجاه معارضيها . لكن على فرض نجاح طريق "يانج" للحل ، فإن نتيجته كانت على المدى البعيد . فلم يكن فى استطاعة واشنطن أن تمتنع عن تنفيذ سياسة حقوق الإنسان فيما يختص بالدول الراديكالية للوصول إلى مثل هذه النتيجة .

وعمليا لم تنجح سياسة حقوق الإنسان فى الدول الراديكالية ، فأولاً : لم تكن هذه الأنظمة تحصل على السلاح أو المعدات العسكرية من أمريكا ، ولم تكن جزءًا من قائمة المستفيدين من المساعدات الاقتصادية . وبناءً عليه كان فى مقدور واشنطن الاستفادة من آلة الضغط الدبلوماسى . وفى هذا الطريق لم تكن أمريكا فى موضع يمكنها من الاستفادة من هذه الآلة ضد تلك الدول . والبعض من هذه الدول مثل كوبا لم يكن له من الأصل أية علاقات دبلوماسية مع واشنطن، والبعض الآخر كانت علاقته مع واشنطن ضئيلة للغاية على نحو كان يصعب معه الاستفادة عمليا من هذه الآلة . والأهم من هذا كله ، إن النظم الراديكالية لم تكن تعير وزنًا لعلاقاتها الدبلوماسية مع واشنطن . فحينما دفعت واشنطن بآلة حقوق الإنسان تجاهلت بعض الدول ، مثل : كوبا ، وڤيتنام ، وليبيا ، وكامبوديا وكوريا الشمالية ، ضغط واشنطن الدبلوماسى وانتقاداتها . وفى المقابل صارت الإمبريالية الأمريكية موضع لوم وإدانة أكثر من ذى قبل . والبعض الآخر أبدى ردود أفعال عنيفة وصلت إلى قطع العلاقات مع واشنطن

مثلما فعل نظام عايدى أمين فى أوغندا، وقد هدد واشنطن بالتعرض بالأذى والتعذيب الجسدى لمائتى أمريكى ممن يعيشون فى تلك الدولة . كما لم يبد الاتحاد السوفيتى السابق ودول أوروبا الشرقية أدنى اهتمام بسياسة حقوق الإنسان، وزادت موسكو - على سبيل التهكم - من قبضتها ومضايقاتها سواء على المناوئين لها أو على اليهود الذين كانوا يرغبون فى مغادرة البلاد .

وإجمالاً ، حظيت سياسة حقوق الإنسان بنجاح كبير فى النظم الديكتاتورية اليمينية التى تربطها علاقات حميمة مع واشنطن ، ومن بينها : كوريا الجنوبية ، والأرجنتين ، وأفريقيا الجنوبية ، والبرازيل ، وتايوان ، ونيكاراجوا وإيران (٢٣) .

وعلى عكس الضجة الكبيرة التى طرحتها سياسة حقوق الإنسان ، فإن تعداد مؤيديها الثابتين الحقيقيين فى حكومة كارتر لم يكن يزيد على أصابع اليدين لكن هذا النقص فى الكم عوضه الكيفية . فكثير من مؤيدى حقوق الإنسان كانوا من صفوة المفكرين والمثقفين لوجوه الزعامة الجديدة ، والعامل الثانى الذى زاد من نفوذهم وتأثيرهم هو علاقتهم الوطيدة بشخصيات تنتمى إلى الطبقة الأولى فى الحكومة ، منها: رئيس الجمهورية ، ووالترموندال **Walter Mondale** نائب رئيس الجمهورية ، وسيريوس ڤانس **Cyrus Vance** وزير الخارجية ، ووارن كريستوفر **Warren Christopher** نائب وزارة الخارجية ، وآندرويانج وبعض كبار المسئولين فى البيت الأبيض ممن ينتمون إلى الطبقة الثانية القائمة بالمهام التنفيذية .

ولم ينتم مؤيدو حقوق الإنسان إلى طبقة المثقفين والليبراليين فى الحكومة فقط . فكانت ضجة المطالبة بحقوق الإنسان توجد أيضاً فى القطب المعارض وبين المحافظين واليمينيين فى الحكومة . والشخصية الأساسية لهذا الجناح هو زيبجنيو برچينسكى **Zbigniew Bryeginski** مستشار الأمن القومى فى حكومة كارتر . وكان لهذا الجناح أسبابه للاستفادة من حرية حقوق الإنسان وهى استخدامها لمواجهة أو لبسط الحرب الأيديولوچية ضد عدو أمريكا الأول ألا وهو الاتحاد السوڤيتى السابق . فمن وجهة نظر برچينسكى أنه يجب ألا تتلاقى أمريكا والاتحاد السوفيتى قط . إنه كان يؤمن بوجوب استفادة أمريكا من حقوق الإنسان فى محاربة النظام الديكتاتورى فى الاتحاد

السوڤيتى (٢٤) ، وعلى الرغم من أن نوايا الجناح اليمينى تتنافى وفلسفة مؤيدى حقوق الإنسان ، لكن عمليا ، وبهدف مواجهة الأيديولوچية مع الاتحاد السوڤيتى ، صب اليمينيون أيضًا الماء فى ساقية حقوق الإنسان . وفى النهاية كان العامل التالى لازدهار سوق حقوق الإنسان هو تأييد بعض أعضاء الكونجرس ومجلس الشيوخ الأمريكى . والبعض منهم كان يؤيد هذه السياسة بناءً على أسباب أخلاقية ومعتقدات شخصية . فى حين كان الباعث لدى البعض الآخر هو انتهاز الفرص ، والحصول على مكانة ، والخلاصة ، الدوران فى اتجاه تلك الرياح الجديدة .

وكانت الشعبية والإقبال اللذان حظيت بهما سياسة حقوق الإنسان فى بداية حكومة كارتر باعثًا على أن تتحدث بعض شخصيات السياسة الأمريكية – ممن لم يؤمنوا بهذ السياسة – عن ضرورة احترام حقوق الإنسان فى قالب سياسة أمريكا الخارجية للاستفادة فقط من الموجة الجديدة والتلون بلونها .

على أية حال ، فإن مجموع العوامل السالفة الذكر كانت باعثًا لظهور "وحش" سياسة حقوق الإنسان ، وقلما كان فى مقدور شخص إظهار معارضته العلانية له .

وفى الحقيقة ، إن الأبحاث والتحاليل والجدال المضنى الذى لانهاية له حول حقوق الإنسان ، لم تبحث فى : هل هذه السياسة يجب أن تطرح أم لا ؟ هل يجب أن يكون هناك دور مهم فى السياسة العامة للخارجية الأمريكية أم لا؟ بل كانت المسألة : كيف وبأى معدل يجب أن تتم عبادة هذا الصنم الجميل بشكل عملى ؟!

وكانت أحد الموانع المهمة منذ البداية فى طريق التنفيذ الموفق لسياسة حقوق الإنسان هو هذه الحقيقة : لو أن أمريكا كانت ترغب فى التنازل عن تنفيذ هذه السياسة إلى حد التوصية والضغط الدبلوماسى ، فقد اضطرت حينئذ إلى إعادة النظر فى التأييد السياسى والمساعدات الاقتصادية وتصدير الأسلحة إلى الدول التى لم تراع حقوق الإنسان . ومن هنا بدأت المشكلة ، فإعادة النظر تلك من الممكن أن تضعف أحد الأنظمة المؤيدة لأمريكا . وإذا ماكانت أسس هذا النظام واهية من الأساس ، أو كانت واشنطن هى العامل الأساسى لبقاء ذلك النظام على أريكة الحكم ، فمن الممكن عندئذ أن يؤدى تغيير تأييد واشنطن إلى سقوطه عمليا .

هذه هى خلاصة البحث الذى كان يستفيد منه منتقدو كارتر وأولئك الذين كانوا يميلون أكثر إلى خط كيسنجر فى سياسة أمريكا الخارجية – وحتى الرئيس الجديد – على أنها حربتهم الأساسية فى معارضة سياسة حقوق الإنسان . أما فيما يتعلق بإيران ، لم يكن يوجد مثل هذا الاحتمال فقط ، بل على العكس ، كان مؤيدو حقوق الإنسان يؤمنون بأنه لما كان نظام الشاه يتمتع بقوة كبيرة وثبات شديد ، فبناء عليه فإن رعاية حقوق الإنسان وإبداء قدر من التغيير فى السياسات الغليظة الموجودة من المؤكد أنه لم يمكن من ظهور مشكلة للنظام . ومن هنا فإن هذه الصورة وسراب القوة الذى رسمه الشاه خلال أعوام طوال متتالية ، أدى فى النهاية إلى ضرره . ومن بين العوامل المؤثرة لظهور تلك الصورة التقارير العديدة التى قدمها ريتشارد هولمز – سفير أمريكا فى إيران فيما بين عامى ٥٢ – ١٣٥٦ش (٧٣–١٩٧٧م) – فقد حظيت تقاريره ودراساته حول الشاه ونظامه بتقدير كبير وأهمية بالغة باعتباره الرئيس السابق لوكالة "سيا" :

"استفاد مؤيدو سياسة حقوق الإنسان كثيراً من تقارير ريتشارد هولمز Richard Holmes ، ولاتمس الحاجة إلى توضيح أن الاستفادة من آلة الضغوط الاقتصادية والعسكرية ضد الشاه لم تتم بالفعل إذا كان مثل هذا التصور يوجد فى واشنطن والذى يفيد بأن نظامه تلقى ضربة أمام هذه الضغوط . لكن تقارير هولمز حول إيران قد صورت الشاه على أنه الملك القوى الذى سيطر على كل شىء سيطرة تامة . فضلاً عن أن تقييم هولمز لقوة الشاه العسكرية كان مبالغًا فيه حتى أنه – من وجهة نظره – كان يرى أن إيران إذا ماتعرضت لهجوم إحدى دول الجوار العربية الراديكالية ، فسوف تتمكن قوة الشاه العسكرية من التصدى لهذا الهجوم . وقد وقع هولمز تحت تأثير الثروة الطائلة والقوة الخارقة التى كانت تحيط فى تلك الأعوام بـ "ملك الملوك" ، مثله فى ذلك مثل كثيرين غيره من الباحثين الأمريكان والأجانب الذين كانوا على معرفة بالشاه منذ أوائل أو أواسط الخمسينيات (أى السبعينيات بالتقويم الميلادى)"[٢٥].

وإذا كانت هذه الصورة القوية التى رسمها هولمز عن الشاه تستند إلى الواقع، حيث لايوجد أى دليل على صحة تلك الصورة ، ولعل هولمز كان يرغب فى أن يضلل حكومته عمداً ، فإن قدرًا قليلاً من التوافق بالنسبة لمعارضيه السياسيين لم يستطع أن

يكون داعياً للخطر على مثل هذا النظام القوى بأى نحو قط . وهذا الشعور والاعتقاد بقوة الشاه - الذى كان كالهالة حوله فى واشنطن - تحول إلى دليل قوى بين معارضيه فى واشنطن عند البدء فى البحث والنقاش فيما يتعلق بسياسة حقوق الإنسان فى أوائل عام ١٣٥٦ش (١٩٧٧م) . من جهة أخرى ، إن طرح مسألة حقوق الإنسان قد تم فى شروط غير ملائمة بالنسبة لنظام إيران .

إن صورة "الشاه القوى" لم تكن فقط هى صورة نظام إيران التى تكونت خلال السنوات الأولى من الخمسينيات (أى السبعينيات بالتقويم الميلادى)، فثمة صورة أخرى ظهرت كذلك بموازاة هذه الصورة فى تلك الأعوام نفسها عن نظام إيران ، وهى إنه عبارة عن نظام ساحق، غليظ، بلا رحمة، يقوم بتعذيب معارضيه السياسيين بلا هوادة وعلى نطاق واسع ، يبعث بهم إلى كتائب الإعدام ويزج بهم فى سجونه المرعبة .

وعلى الرغم من أن أبعاد هذه الصورة محدودة ونادرة للغاية بمقارنتها بصورة "الشاه المصلح" و "الزعيم العصرى" ، لكنها كانت موجودة هنا وهناك فى قليل أو كثير داخل المحافل ، خاصة تلك التى تطرح فيها مثل هذه الملاحظات .

على أية حال ، حينما يدور الحديث حول القسوة والتعذيب وسوء المعاملة تجاه المعارضين والمعتقلين السياسيين ، يطرح نظام الشاه باعتباره أحد النظم التى ينطبق عليها هذا النموذج البارز لمثل هذا السلوك . هذا وقد حصلت إيران على مكانة بارزة بين الدول التى تشبه فيها رعاية حقوق الإنسان المزاح المؤلم . وقد صرح مارتين إنالز Martin Ennals - رئيس منظمة العفو الدولية - رسميا فى حديث له فى عام ١٣٥٤ش (١٩٧٥م) قائلاً :

"لايوجد هذا الوضع المخزى لحقوق الإنسان فى أية دولة من دول العالم مثلما يوجد فى إيران"[٢٦] .

بعبارة أخرى ، إن مسألة حقوق الإنسان قد تم طرحها من قبل حكومة أمريكا الجديدة فى وقت نال فيه نظام إيران أسوأ سمعة فى هذا المضمار . ومن الطبيعى أن تجلب السياسة الجديدة معها موجة من المباحثات والنقاش حول حقوق الإنسان . وقد تمت أبحاث عديدة حول مسألة حقوق الإنسان تتعلق بأبعادها وجوانبها المختلفة فى

الصحف وأجهزة الإعلام ، بين الساسة والمحللين والمفسرين السياسيين . ومن الواضح أن هذه الأبحاث كانت تدور فى الغالب حول الدول أو النظم التى كان وضع حقوق الإنسان بها غير مرغوب فيه أكثر من أية نقطة فى العالم . دول مثل: أفريقيا الجنوبية ، وإسرائيل ، وبعض دول أمريكا اللاتينية ، وإيران ، والأنظمة الشيوعية ، وبعض الأنظمة العربية وأمثلة أخرى واضحة بغض النظر عما كانت هذه الأنظمة متحالفة مع واشنطن أم فى جبهة الغرب المعارضة .

وهذا لايعنى - على سبيل المثال - أن حكومة أمريكا الجديدة كان وجدانها يضطرب إزاء عدم رعاية حقوق الإنسان فى إسرائيل تجاه الفلسطينيين . وهذا لايعنى أن واشنطن كانت ترى خطا ناريا مجهزًا تلقى فيه بجميع الأنظمة التى نالت سمعة سيئة فيما يتعلق بحقوق الإنسان . بل إنه يعنى أنه حينما دار الحديث عن حقوق الإنسان ووجوب رعايتها باعتبارها أحد أصول سياسة واشنطن الخارجية ، فبالطبع تصير بعض الدول أكثر تعرضًا للاتهام من غيرها ، بغض النظر عن ماهية رد الفعل الذى سوف تبديه واشنطن على أرض الواقع فيما يتعلق بالدول التى تشتهر بسوء السمعة إزاء حقوق الإنسان ، أو ما هية الإجراء المنذر ، أو ماهية الضغط الذى سوف تقوم بتنفيذه .

ربما أن هذه الملاحظات تبدو بديهية وبدائية أكثر من اللازم فإذا ما دار الحديث حول حقوق الإنسان (بغض النظر عن إلى أى حد يحويه هذا الحديث من خداع وحيل ، وإلى أى حد يحويه من الصدق والأصالة) فيكون دومًا احتمال الحديث عن إيران ، والأرجنتين، ومصر، وإسرائيل، والبرازيل وغيرها أكثر بكثير من الحديث عن النرويج ، وفرلندا ، والدنمارك ، وهولندا ، وسويسرا ، وإيطاليا وألمانيا .

لكن توضيح هذا الأمر الجلى يبين أنه كان من أشد الأمور ثقلاً ومن أعقد الأحاديث بالنسبة لنظام إيران وخاصة الشاه .

وكما سنرى بعد ، أن النقد الذى وجه إلى إيران باعتبارها ناقضة لحقوق الإنسان لم يكن أكثر من ذريعة للهجوم عليها . ومن وجهة نظر المسئولين الإيرانيين ، أن هذا

الهجوم كان يتم من قبل جهات محددة ، إما لأنها غضبت من فقد مكانتها الاستعمارية في إيران ، أو لأن مصالحها وأطماعها كانت تتعارض و"سياسة القومية المستقلة" .

ومن بين هذا التعارض مع الغرب سياسات إيران النفطية فى منظمة الأوبك . فقد ذكر الشاه مراراً فى أحاديثه الصحفية : "إن على الغرب أن يغير من نمط استهلاكه للنفط". إنه كان يعتقد أن الغرب باستخدامهم النفط باعتباره أحد مصادر الطاقة المولدة للحرارة (مثل الفحم الحجرى) يتسببون فى ضياع هذه المادة القيمة وتلفها . من وجهة نظره ، إنه لما كانت الذخائر النفطية غير متجددة ، فإن نمط استهلاك النفط فى الغرب سيقلل من هذه الذخائر فى العاجل ، وسوف يتسببون فى فقد العالم مثل هذه النعمة من المصادر الثمينة فى المستقبل . لذا كان الشاه يذكر الغرب بوجوب استخدام النفط فى تجهيز المواد الكيميائية والمنتجات الصناعية والبتروكيميائية بدلاً من إحراقه . فضلاً عن ذلك ، كان نظام إيران يرى أنه يتحمل المسئولية الأولى لارتفاع قيمة النفط فى أوائل الخمسينيات (أى السبعينيات بالتقويم الميلادى) . وكان الشاه يرى أن هذين العاملين - أى دوره فى ارتفاع قيمة النفط وتأكيده على تغيير نمط استهلاكه - أديا إلى معارضة العديد من العناصر له فى الغرب ممن تتعلق أعمالهم الاقتصادية بالنفط ، لذلك كان يعتقد أن الانتقادات حول سلوك نظامه إزاء مسألة حقوق الإنسان كانت حجة للانتقام من سياساته النفطية [٢٧].

والعامل الآخر الذى كان يظن الشاه أنه الباعث على هجوم المحافل الاستعمارية الغربية ضده هو نجاحه فى تحويل دولته من مجتمع متخلف شبه صناعى إلى دولة مستقلة متطورة . كذلك يمكن إضافة بعض الملاحظات والأدلة الأخرى التى تحدثنا حولها فى الجزء الخاص بـ "افتراض التآمر" فى الفصل الأول .

بعبارة أخرى ، إن الشاه لم يكن يبالى فقط بمجموع الأحداث الواقعية التى أدت إلى ظهور سياسة حقوق الإنسان عن طريق حكومة أمريكا الجديدة ، بل كان يعتبرها - طبقًا لنظرية افتراض التآمر - مؤامرة للهجوم على نظامه . إنه كان على يقين من أن سياسة حقوق الإنسان ماهى إلا مؤامرة للهجوم على نظامه، وعليه هو شخصيا . وكان يتجاهل - بشكل يثير الدهشة - هذه الحقيقة ، وهى أن ثمة أنظمة أخرى - غير نظامه - تقع أيضًا فى دائرة الاتهام .

من وجهة نظره ، إن علاقته مع الغرب - وخاصة مع واشنطن - علاقة إستراتيچية ، وبالغة الأهمية وتقتصر على فرد واحد ، بحيث لم تستطع أية ملاحظة أخرى أن تأتى وراءها .

من وجهة نظر الشاه ، أن إيران كانت مهمة بالنسبة للغرب لدرجة أن نظامه - الذى كان حارساً لمصالحهم - لايمكن أن يقع تحت طائلة النقد أو اللوم بأى وجه قط .

بعبارة أخرى ، كانت حساباته مختلفة تماماً عن الآخرين . فمن الممكن أن تجعل واشنطن الجنرال فلان بأمريكا الجنوبية ، أو رئيس إحدى الدول فى وسط أفريقيا ، أو أحد الأنظمة الشيوعية فى الكتلة الشرقية آنذاك موضع مساءلة ، لكن أية علاقة لها بـ "ملك الملوك" قائد إيران القوى ؟!

من وجهة نظر الشاه ، إنه ودولته فى مستوى آخر ، مستوى خلف العلاقات الدبلوماسية العادية مع الغرب بغض النظر عما كانت عليه الأوضاع على أرض الواقع. كان الشاه يشعر أن هذا هو نوع العلاقة التى كانت بينه وبين الغرب - وخاصة واشنطن - خلال ثلاثة عقود . وبناءً عليه ، إذا ما وقع - وهو حليف الغربى الإستراتيجى فى منطقة خليج فارس ، وحارس شريان حياة الغرب فى هذه المنطقة ، وقائد الجبهة الأولى موضع هجوم العدو (أى الشيوعية) - موضع هجوم لأى سبب - مفتعل وواه أو أحمق مثل حقوق الإنسان - فهذا يعنى أن حركة جديدة وتغيير جديد وإستراتيجية حديثة قد طرأت على الغرب .

وبناءً عليه ، فمن وجهة نظره ، أن الهجوم والنقد الذى بدأ ضده وضد نظامه تحت مسمى نقض حقوق الإنسان" هو علامة فقط ، علامة مؤامرة . لكنها فى الحقيقة كانت شيئًا آخر .

فمنذ أواخر الأربعينيات (أى الستينيات بالتقويم الميلادى) توجه العديد من معارضى الشاه الراديكاليين نحو المقاومة المسلحة . وعلى الرغم من أن الميل إلى هذا الأسلوب من المقاومة كان قد تشكل فى أعقاب سحق ثورة ١٥ خرداد من عام ١٣٤٢ش (١٩٦٣م) ، لكن يمكن اعتبار عام ١٣٤٩ ش (١٩٧٠م) هو توقيت ظهورها بشكل فعلى، والأعوام الأولى من الخمسينيات (أى السبعينيات بالتقويم الميلادى) هى فترة تأججها ،

وأن أواسط هذه الفترة هى نقطة النهاية لها . وفقدت المقاومة المسلحة مكانتها بسبب بعض النواحى الإستراتيجية والتكتيكية ووصلت فى النهاية إلى طريق مسدود . لكن هذا النوع من المقاومة أدى إلى وجود ظاهرة أخرى مهمة قلما كانت موضع اهتمام آنذاك ، واتضحت أهميتها فيما بعد .

فقد كانت معارضة الشاه قبل بداية المقاومة المسلحة تقتصر فى مجموعها على عناصر المعارضة القديمة ، مثل : حزب توده ، الجبهة الوطنية وثورة التحرير، وأقصى عدد بلغه المعتقلون السياسيون المنتمون إلى هذه المجموعات كان بضعة مئات على الأكثر . لكن مع بداية المقاومة المسلحة بلغ عدد المعتقلين السياسيين الآلاف خلال فترة تقل عن خمس سنوات . فضلاً عن أنه بسبب الطبيعة السرية والتعقيدات التكتيكية وتشكيلات هذا الأسلوب من المقاومة ، كان السافاك يستخدم شتى أنواع التعذيب بشكل مكثف للحصول على قدر أكبر من المعلومات فى أقصر وقت ممكن ، لدرجة أن استخدام التعذيب كان يتم على نحو واسع فى المراحل الأولى للاعتقال والتحقيق تجاه المعتقلين السياسيين دون أية استثناءات .

والزيادة المفاجئة لعدد المعتقلين السياسيين فى إيران خلال الأعوام الأولى من الخمسينايت (أى السبعينيات بالتقويم الميلادى) من ناحية ، واستخدام سبل التعذيب المتداولة من ناحية أخرى أدى إلى ذيوع شهرة نظام الشاه فى المحافل المهتمة بحقوق الإنسان باعتباره من أشد النظم ظلماً واستبداداً .

والعامل المهم الذى مكن من إظهار وجه الشاه على تلك الصورة هو تواجد الطلاب الإيرانيين فى أوروبا وأمريكا ، وكانت زيادة عددهم ملفتة للأنظار منذ أوائل الخمسينيات (أى السبعينيات بالتقويم الميلادى) ، ومع الارتفاع فى دخل إيران من النفط . وهذه الزيادة أدت إلى تقوية المعارضة والمقاومة ضد النظام خارج الدولة ، وإظهار أسلوب تعامل أفراد السافاك مع المقاومين فى الداخل، للرأى العام فى الخارج.

والخلاصة ، إنه من سوء حظ النظام فى إيران ، دخلت سياسة حقوق الإنسان ساحة سياسة الخارجية الأمريكية ، أولاً : بسبب الصورة التى ظهرت فى الغرب عن

الشاه وقوة نظامه الفائقة ، حيث كان يستنتج أن إبداء قدر ضئيل من تخفيف الضغط على المعارضين لايمكن أن يوجد مشكلة لمثل هذا النظام القوى الثابت .

ثانيًا (والأهم من ذلك) : أن قسوة السياسة التى نفذها النظام تجاه المعارضين خلال عدة أعوام سابقة جعلت نظام الشاه - من ناحية عدم احترام موازين حقوق الإنسان - فى زمرة الأشرار على مستوى العالم . وبالطبع ، عندما كانت تطرح مسألة حقوق الإنسان على أى نحو ، كان يذكر نظام إيران باعتباره أحد الأمثلة الواضحة التى ينطبق عليها عدم احترام حقوق الإنسان .

الهوامش

(١) انظر ، المجلد الثاني ، الفصل الأول .

(٢) رأينا كيف وقع معارضو الشاه الراديكاليون تحت هذا الوهم ، وكيف كانوا يذكرون ذلك في قوالب عدة وتفاسير مختلفة ، مثل : «تعرضت الإمبريالية لأزمة»، «بدلت الإمبريالية القناع»، «اضطرت الإمبريالية للتراجع أمام القوى المعارضة لها»، «غيرت الإمبريالية إستراتيجيتها نتيجة تجاربها في فيتنام»، «دفعت الإمبريالية بكارتر إلى الميدان وعلى وجهه قناع حقوق الإنسان»، «توصلت الإمبريالية إلى نتيجة مفادها : يجب التخلص من الشاه»... إلخ .

(٣) إن حجم المعلومات حول السمات الشخصية والنفسية للشاه جد قليلة ، وفي الواقع لاتوجد مصادر أو مراجع عديدة بين أيدينا فيما يتعلق بهذا الأمر باستثناء العمل القيم للمحقق الأمريكي "ماروين زونيس" في بحثه "شكست شاهانه" ، حيث اجتهد إلى حد ما في توضيح الزوايا المظلمة في شخصية الشاه . والأحاديث الصحفية ، والسير والآثار الرسمية التي بقيت عن الشاه لايمكن الاعتماد عليها بسبب سعيها في تقديم الشاه في قوالب خاصة حددت من قبل . والمرجع المهم الذي نشر حديثًا في هذا الشأن هو "خاطرات أمير أسد الله علم" – صديق الشاه ورفيقه ونديمه – حيث يمدنا بمعلومات كثيرة عن السمات الخاصة بالشاه [لاريب أنها تقتصر على الفترة من دي ١٣٤٧ وحتى شهر يور ١٣٥٦ش (٦٨ – ١٩٧٧م)]. انظر، گفتگو هاى من باشاه (خاطرات محرمانه أمير أسد الله علم)، ٢ جلد، طرح نو، تهران ١٣٧١ش.

(٤) تولى نيكسون رئاسة الجمهورية في أمريكا في الأعوام من ٤٨ : ١٣٥٢ ش (٦٩ : ١٩٧٣م) . أما كيسنجر فقد تولى وزارة الخارجية الأمريكية فيما بين عامي ٤٨ : ١٣٥٥ش (٦٩ : ١٩٧٦م) أي في حكومتي نيكسون وجرالد فورد .

(٥) للاطلاع على مزيد من الآراء الخاصة بمعارضي الشاه تجاه هذه السياسة، انظر المجلد الثاني، الفصل الأول.

(٦) Water gate هو اسم الفندق الذي كان فيه مقر انتخابات الحزب الديمقراطي الأمريكي عام ١٣٥٢ ش (١٩٧٣م) ، واكتشف أثناء الانتخابات أن الحزب الجمهوري المنافس قد وضع أجهزة تنصت في هذا الفندق ، وبعد تقصي الحقائق التي قامت بنشرها الصحف وبعض الأجهزة الإعلامية ، اتضح تدريجيا في الشهور التالية أن الأمر لم يكن مقصوراً على بعض الأعضاء العاديين أصحاب المناصب الدنيا من الجمهوريين ، بل إن بعض زعماء هذا الحزب كان قد تورط في هذا الأمر ، ومنهم : بعض أعوان وكبار مستشاري رئيس الجمهورية ، ورئيس اللجنة الانتخابية لرئيس الجمهورية ، ورئيس منظمة "سيا" وأخيراً والأهم من هذا كله ، رئيس الجمهورية نفسه (ريتشارد نيكسون). وهذا يعني أن وضع أجهزة التنصت والتجسس في مقر انتخابات الحزب المنافس كان قد تم على الأقل بمعرفة كبار المسئولين في البيت الأبيض . وهذا الحدث الذي ظل لفترة طويلة يتصدر الصفحات الأولى للجرائد والأخبار المحلية في أمريكا كان من أكثر الفضائح الذائعة الصيت التي تعرضت لها السياسة الداخلية الأمريكية على مدى

تاريخ هذه الدولة . وفى أعقاب التحقيق المضنى من قبل مجلس أمريكا والجهاز القضائى فى تلك الدولة ، تم الحكم على عدد من المسئولين وكبار رجال حكومة نيكسون وزج ببعضهم فى السجون ، وتعرض رئيس الجمهورية نفسه إلى انتقادات حادة عديدة من قبل أجهزة الإعلام والمحافل السياسية من ناحية . ومن ناحية أخرى ، تعرض للمساءلة من قبل المجلسين والجهاز القضائى ، وفى النهاية قدم استقالته بعد عامين من هذه الأحداث ومن خلال التحقيقات التى تمت حول أحداث "ووترجيت" عن الأنشطة السرية لأجهزة المخابرات الأمريكية اتضح أن منظمة "سيا" قامت أيضاً بالعديد من الأعمال الخارجة عن القانون فى عهد رئاسة جمهورية ريتشارد نيكسون .

(٧) Ledeen and lewis "Debacle ..", Op. cit, pp. 79-85.

(٨) Ibib.

(٩) انظر "ظهور وسقوط سلطنت پهلوى" لحسين فردوست، جلد أول، خاطرات أرتشبد سابق حسين فردوست، انتشارات اطلاعات، تهران ١٣٦٩ ش، ص٥٧٢، ص٥٧٣ . & راجى "خاطرات خدمتگزار"، ص ٢٤ .

(١٠) Airborne Early warning and command system, ledeen and lewis "Debacle", op . cit . pp 82-83 .

(١١) Ibid.

(١٢) Ibid , pp -81-82.

(١٣) Ibid, p. 84.

(١٤) Ibid, p. 75.

(١٥) Ibid.

(١٦) Ibid, p. 76.

(١٧) إشارة إلى الجنرال "أجستو پينوشه" الذى قلب نظام الحكم اليسارى للدكتور "سلڤا دورآلنده" بمساعدة وكالة "سيا" ، وأحكم نطاق اليمين الديكتاتورى بعد إعدام الآلاف من الشيوعيين ومؤيدى "آلنده" والزج بأمثالهم فى السجون .

(١٨) Ibid, p. 66.

(١٩) Ibid.

(٢٠) Ibid, p.67 .

(٢١) إشارة إلى النظام اليمينى للعسكريين فى اليونان والذى تمكن فى عام ١٣٤٥ ش (١٩٦٦م) - على إثر انقلاب عسكرى - من القضاء على حكومة "چورچ پاپاندرو" اليسارية ، ثم تولوا زمام الأمور فى الدولة بعد اتباعهم سياسة القلع والقمع تجاه اليساريين والشيوعيين .

(٢٢) Ibid, p. 67.

(٢٣) Ibid, p. 77.

(٢٤) Ibid, p. 68.

(٢٥) Ibid, p. 77.

(٢٦) The observer, 26 May, 1974 .

(٢٧) للاطلاع على رد فعل النظام إزاء تنفيذ سياسة حقوق الإنسان من قبل الحكومة الجديدة فى أمريكا، انظر الفصل التالى .

"كارتر ، وحقوق الإنسان وإيران"

إن وضع الحكومة الجديدة فى أمريكا تبعه بالطبع قلق الشاه فى طهران ، ولاشك - كما قيل من قبل - لم تكن هذه هى المرة الأولى التى واجه فيها الشاه خلال فترة حكمه مشكلة تواجد الديمقراطيين فى البيت الأبيض . فقد علمته تجاربه السابقة فى هذا المضمار وجوب التحلى بالصبر وضبط النفس كى يتمكن من إقامة علاقاته الطيبة والخاصة مع المسئولين الجدد تدريجيا مثلما كانت فى السابق (مع الجمهوريين) . وإلى أن يتم ذوبان الجليد ، وإلى أن يتم إقامة مثل هذه العلاقات ، كان الشاه يسعى للقيام فى حيطة ببعض التغييرات التى كان يعتقد أنها ستنال استحسان الرئيس الجديد . فكان يمتنع عن إظهار الجدال أو طرح وجهات النظر المختلفة . والخلاصة ، كان يسلك سياسة التحلى بالصبر والانتظار حتى تزول الغيوم وتسطع فى الأفق شمس العلاقات الحميمة مع واشنطن مرة أخرى .

يقول "لدين ولويس" :

"إن العام الأول من حكم كارتر كان يُذكر الشاه بأيام كيندى[١] يُذكره بالأيام التى كان يقع فيها رئيس إيران تحت ضغط شديد من قبل أمريكا حتى يسمح بفتح المجال السياسى ، وحتى يخفض من قائمة مطالبه العسكرية ، والخلاصة ، حتى يتواءم مع ضوابط الديمقراطيين فى أمريكا . ومثلما تراجع الشاه أمام كيندى ، وقدم امتيازات ، فإنه سعى خلال العام الأول من الحكم الجديد فى أمريكا كى يظهر الضوء الأخضر المشابه لكارتر"[٢] .

لكن على ما يبدو أن مشكلة الشاه هذه المرة كانت أكثر تعقيداً عما سبق . إنه كان يفهم لغة الرئيس كيندى ، وكان كيندى من راغبى الإصلاح ، كما كان يؤمن بوجوب المضى قدماً نحو الإصلاح للحد من نمو الشيوعية ونفوذها فى العالم الثالث ، فضلاً عن أن كيندى كان من أشد المعارضين للمعسكر الشرقى ، وهذا ماكان يمنح مزيداً من القوة للشاه . لكن كارتر لم يكن يتحدث عن الإصلاح بشكل مباشر أو غير مباشر ، وفى المقابل ، كان يتحدث عن : "الصداقة" ، و"الأخلاق" و"الإيمان" ، و"الديمقراطية" والأهم من ذلك عن "حقوق الإنسان" . وهى مصطلحات كانت على الأقل من وجهة نظر الشاه غامضة ، وعلى الأكثر بلا معنى ، ولامكان لها فى إطار السياسة الخارجية والمعادلات الدولية والعلاقات بين الشرق والغرب .

وشىء آخر كان موضع قلق الشاه حول الموقف الجديد يبدو أنه الإستراتيجية العامة لواشنطن تجاه الشيوعية . لقد كان كيندى معارضاً بشدة للشيوعية ، وكان يؤمن بالمواجهة الحاسمة معها . فمن وجهة نظره ، أن هذه المواجهة حتى ولو انتهت إلى صدام عسكرى فإن أمريكا قادرة على الصمود [مثلما أعلن فى أحداث أزمة كوبا فى عام ١٣٤٠ش (١٩٦١م)] . أما كارتر ، فلم يكن بمثل هذا القلق تجاه تقدم الاتحاد السوڤيتى فى قرن أفريقيا ، ولم يعر سيطرة القوى العسكرية التابعة لكوبا على أنجولا أدنى اهتمام ، ولم تكن التطورات فى أفغانستان وانتشار الشيوعيين بين القوى العسكرية لتلك الدولة مما يجعل أجراس الخطر تدق فى واشنطن ، ولم تستطع انتصارات الأحزاب الشيوعية فى أوروبا الغربية أن تسلب من أعين أولى الأمر فى البيت الأبيض نومها الهادئ . ومن وجهة نظر الشاه ، أن سياسة واشنطن التقليدية المعارضة للشيوعية قد حل محلها نوع من التساهل ، إن لم نقل التراجع . وكان الانتقاد الوحيد الذى وجه من قبل زعماء أمريكا الجدد إلى الكتلة الشرقية يتلخص فيما يتعلق بحقوق الإنسان .

وكان هذا الأمر موضع تأييد حكومة كارتر فى الشهور الأولى لها ، وإلا لما كان للأمريكان أية مشاكل مع معسكر الشيوعية .

على سبيل المثال ، لم يصبح نظام فيدل كاسترو – الذى دفع أمريكا للمواجهة العسكرية مع الاتحاد السوڤيتى فى عهد كيندى – الآن موضع تهديد فقط ، بل إن

واشنطن كانت راغبة فى إقامة علاقات، أو على الأقل، فى إيجاد نوع من التفاهم معه . حتى أن مندوب أمريكا فى منظمة الأمم المتحدة قد نزل عن هذا الحد ، ولم يشر فقط إلى هاقانا بإشارات تمجيد ، بل كان يرى "أن وجود القوات العسكرية الكوبية فى أفريقيا يحمل على عاتقه مهمة إيجابية لإقرار السلام والاستقرار فى المنطقة» (٣) .

ومواقف أمريكا الجديدة إزاء معسكر الشيوعية كان من الممكن أن يكون له نتائج مهمة من وجهة نظر الشاه . فكما أشرنا سالفًا ، إن أحد الأعمدة الأساسية فى علاقة الشاه مع أمريكا هو اشتراكهما فى عداء الشيوعية ، وكان الخلاف بين الشرق والغرب وموقع إيران الإستراتيجى فى خضم هذا الخلاف بمثابة الضمان بالنسبة للشاه المعادى للشيوعية . وفى ظل «الحرب الباردة» لم يحظ نظام الشاه فقط بتأييد الغرب بشكل تلقائى ، بل حظى بهذا التأييد كل نظام آخر كان يلوح براية العداء للشيوعية . لكن الآن ، فإن رئيس جمهورية الدولة التى تقع فى الخط الأول المواجه لمعسكر الشرق لم ير فقط أن "الحرب الباردة" قد انتهت ، بل أعلن صراحة :

"إن الخشية المفرطة من الشيوعية كانت تعكر صفو الولايات المتحدة فى الماضى ، ودفعتها إلى فتح الملاذ للديكتاتوريين وتأييدهم فى أرجاء العالم ، لكن لايجب أن تخشى أمريكا ثانية من الشيوعية"(٤) .

ولايبدو أن الأمر يحتاج إلى توضيح الأثر الذى وقع على الشاه عند سماعه هذا الحديث الصريح من رئيس جمهورية أمريكا الجديد . وقد صرح علانية عما بداخله من قلق واضطراب بسبب هذا التحول (من وجهة نظره) فى سياسة الخارجية الأمريكية فى أحد أحاديثه الصحفية لجريدة "نيوزويك" . وفى رده على استفسار أحد الصحفيين «أى الأحداث تخشاها فى المستقبل؟» أشار الشاه إلى ازدياد «التساهل» فى الغرب، وقال :

"لو استمر الوضع فى الغرب على هذا المنوال ، فلا شك أن المجتمعات الغربية سوف تتلاشى عن قريب تحت وطأة ضربات مطرقة الفاشية والشيوعية"(٥) .

إن تساهل أمريكا تجاه الشيوعية، فضلاً عن سياسة واشنطن تجاه الأسلحة الحديثة قد تكاتفتا وأوجدتا قلقًا شديدًا فى طهران. ويبدو أن الشاه ، أولاً : كان قلقًا من مصير قوائمه السالفة الذكر التى تتضمن مطالبه الخاصة بالأسلحة المتطورة من أمريكا .

ثانيًا: كان مضطربًا من: هل إيران الآن موضع حماية أمريكا بناءً على تعهدات الأخيرة فى الدفاع عن أراضى إيران إزاء التهديد الذى قد يقع عليها من قبل الشيوعية؟

وقد أعرب الشاه كثيراً عن هذا القلق فى أحاديثه الصحفية فى واشنطن أثناء سفره إلى أمريكا ومباحثاته مع چيمى كارتر . وردا على سؤال يتعلق بالمسائل الدفاعية وبالقلق المتنامى من قبل الشعب الأمريكى وبعض أعضاء الكونجرس بسبب تواجد الخبراء والاستشاريين العسكريين الأمريكيين فى إيران ، خاصة فى حالة نشوب الحرب فى تلك الدولة ، والاستفسار حول مشاركة الأمريكيين الفعلية فى هذه الحرب ، قال الشاه :

"إن ما أرغب فى الاستفسار عنه من الرأى العام الأمريكى هو : هل أبرمتم معنا معاهدة ثنائية أم لا ؟ ولو أنكم تحترمونها ، فيجب أن تكونوا بجوارنا إذا ما وقع أى هجوم على إيران من قبل إحدى الدول الشيوعية ، وبناءً عليه ، أى فرق إن كان البعض منكم هناك (أى فى إيران) أم لا" [٦] .

وفى سؤال مشابه حول عدم ثقة الشاه فى وفاء أمريكا أمام تعهداتها الدفاعية ، تساءل الصحفيون مع مقارنة الوضع بين إيران وڤيتنام ، قائلين :

"هل يخشى صاحب الجلالة من أن تنحى أمريكا نفسها بعيداً فى حالة وقوع هجوم على إيران ولاتقوم بأى إجراء؟" وصرح الشاه فى رده أنه لايستطيع أن يصدق مثل هذا الكلام ، ثم وجه حديثه إلى الأمريكيين مستفسراً :

"إن الموضوع الأساسى هو ماذا سيكون موقفكم وإلى أى مدى ؟ إذا كنتم لاتبدون رد فعل هنا (أى فى إيران) ففى أى مكان سوف تقومون بهذا الأمر؟ هل الحياة فى أوروبا واليابان عديمة الصلة بنا من ناحية الطاقة؟"[٧] .

وقد تناولت صحيفة رستاخيز مسألة تعهد أمريكا بالدفاع عن إيران بالبحث ، وذلك عقب حديث الشاه ، فى تحليل تحت عنوان "وجهات النظر المتبادلة بين إيران وأمريكا" ، وكتبت الصحيفة تقول إن الشاه صرح كثيراً بتوقعاته، وبقلقه وبمطالب إيران فى أحاديثه مع الصحافة المهمة فى أمريكا ، وقال :

"إن أمريكا لاتستطيع أن تفرق بين حلفائها فى أوروبا وفى آسيا ، ويجب أن تكون تعهداتها تجاه حلفائها الآسيويين بنفس القدر الذى يوجد تجاه حلفائها الأوروبيين"[٨] .

وقد عدت رستاخيز تخلى واشنطن عن تعهداتها تجاه إيران خطأ فادحاً ، وقارنت بين هذا الأمر وبين أخطاء واشنطن الأخرى التى نشأت عن عدم نظرة أمريكا المستقبلية ، مثل : صراعها فى ڤيتنام وتسليمها أمام رغبات الصين وتحرير تايوان ، واستنتجت :

"للأسف ، وبشهادة التاريخ المعاصر ، وبشهادة أحداث العقدين الماضيين ، إن ٩٠٪ من توقعات ونتائج سياسة الخارجية الأمريكية كانت خاطئة ... يجب أن تتساءلوا أليست أمريكا اليوم (بتخليها عن تعهداتها فى الدفاع عن إيران) أسيرة نفس عدم النظرة المستقبلية أيضاً؟ [٩] وفيما يتعلق بامتناع واشنطن عن تأمين الأسلحة موضع احتياج إيران ، صرح الشاه أيضاً سواء فى هذا الحديث أو فى حديثه السابق فى طهران مع أحد الصحفيين الأجانب بأن إيران سوف تؤمن الأسلحة التى تحتاجها من مصادر أخرى" [١٠] .

والتهديد لأمريكا بأن إيران سوف تسعى إلى مصادر أخرى قد تم أيضاً من قبل "أردشيرزاهدى" – صهر الشاه وسفير إيران فى أمريكا – حيث أنذر أمريكا قائلاً :

"يمكن أن تفقد أمريكا سوق إيران ذا العدة مليارات من الدولارات ، ويمكن لها الاحتفاظ بهذا السوق شريطة أن تهتم باحتياجات إيران ومطالبها وأن تتفهمها ، وإلا فمن الممكن أن يحل منافسو أمريكا محلها فى تجارة إيران الخارجية" [١١] .

وفى نفس البيان أنذر "أردشيرزاهدى" الأمريكيين بإشارته إلى البروتوكول الموقع بين الدولتين فى شهر يور من عام ١٣٥٥ش (١٩٧٦م) والذى بلغت قيمته ٥٢ مليار دولار ، قائلاً :

"إننى أتحدث صراحة ودون مواراة، يجب ألا تغلقوا أسواقكم بالتمام فى إيران" [١٢] .

لكن قلق الشاه الأساسى كان ينحصر فى سياسة حقوق الإنسان، ربما كان يؤمن – ككثير من زعماء العالم – أن هذه السياسة – فضلاً عن خطب كارتر وأحاديثه ومواعظه حول إدخال الأخلاق فى مجال السياسة الخارجية الأمريكية – ليست أكثر من برنامج دعائى أثناء فترة الانتخابات على رئاسة الجمهورية . لكن الأمر كان على النحو التالى :

إن مسألة حقوق الإنسان لم تحفظ فى الأرشيف باستقرار كارتر فى البيت الأبيض ، بل إنها حظيت بنفس القدر من الأهمية والتأكيد اللذين كانا لها أثناء فترة الانتخابات ، وكانت تتصدر أولويات العلاقات الخارجية الأمريكية . ولم تكن مشكلة الشاه فقط فى أنه كان يحكم بنظام فكر فى هذه السياسة الجديدة بشكل صحيح أو خاطئ ، بل إن المشكلة الأكثر أهمية ، والتى لم تقتصر فقط على الشاه ، هى : إلى أى مدى وإلى أى حد كانت هذه السياسة فى إطار الشعارات والدعاية ؟ وإلى أى مدى كانت جديتها ؟ بعبارة أخرى ، إلى أى مدى كان الفاصل بين الدعاية والحقيقة حول الأخلاق التى كانت تتفوه بها الحكومة الجديدة - وخاصة رئيس الجمهورية - بتلك الحرارة ؟

وفيما يتعلق بحديث رئيس جمهورية أمريكا : "لقد انقضى العهد الذى تقوم فيه أمريكا بمساندة كل ديكتاتور فى العالم بسبب خشيتها من الشيوعية" .

والاستفسار حول ما إذا كان هذا الأمر من قبيل الشعارات والدعاية أم من قبيل الإعلان الجاد عن إحدى السياسات الجديدة ؟ فهذا أمر جدير بالبحث . والخلاصة ، هل كانت أمريكا حقا على استعداد لإحداث خلل فى علاقاتها الإستراتيچية بأحد حلفائها بسبب الأخلاق وحقوق الإنسان؟

ونظرة إجمالية حول ماورد فى الصحف الإيرانية فيما يتعلق بمسألة "حقوق الإنسان" وسياسة الخارجية الأمريكية فى الشهور الأولى من حكم كارتر توضح - إلى حد ما - هذا الغموض وتلك الحيرة اللذين تملكا نظام الشاه ، مع الأخذ فى الاعتبار أن الموضوعات التى تم نشرها فى الصحف حول السياسة الخارجية فيما يتعلق بحكومة أمريكا لم تستطع أن تكون فى منأى عن فكر الشاه. وبناءً عليه فإن مثل هذا التحقيق يمكن أن يوضح قيمة نظام إيران لدى حكومة أمريكا الجديدة .

ويبدو أن ما كان يسيطر على النظام فى الشهور الأولى لحكم كارتر هو مزيج من الحيرة ، والغموض وأخيراً الحيطة . وتبين بعض المقالات التى وردت تحت عناوين" فقد كارتر حلفاءه"(١٣) ، "ماذا يريد چيمى كارتر؟"(١٤) ، «كارتر لايزال غامضًا بعد مضى مائة يوم» (١٥) هذه الحالة من الحيرة .

وبموازاة هذا الغموض ، ظهر تدريجيا نوع من الفهم الجيد لسياسة حقوق الإنسان ، تقول إحدى الصحف :

"خلال الثلاثين عامًا الأخيرة كان چيمى كارتر أول رئيس لجمهورية أمريكا يضع السياسة الخارجية والإستراتيچية جنبًا إلى جنب مع الأخلاق وحقوق الإنسان"(١٦) .

وورد فى صحيفة أخرى :

"ترغب أمريكا فى سن قانون للحفاظ على حقوق الإنسان فى أرجاء العالم وحمايتها". (١٧) وتقول فى موضع آخر على لسان كارتر :

"لما كنا أحرارًا، لانستطيع أن نقف قط أمام مصير الحرية فى أماكن أخرى من العالم"(١٨) . "تأكيدى على حقوق الإنسان هو النواة الأساسية لسياساتنا الخارجية"(١٩) .

هكذا كانت تشير الصحف إلى المشاكل التى جلبتها معها سياسة حقوق الإنسان، وكانت تقاريرها تتضمن موضوعات تدور فى الغالب حول ظهور الخلافات والمناقشات الدبلوماسية بين واشنطن وبعض حلفائها حول مسألة حقوق الإنسان .

والموضوع الأخير يتعلق أكثر بحجم التقارير ، والتحاليل والترجمات عن الصحف الغربية حول حقوق الإنسان (٢٠) .

ومن بين الصحف التى نشرت أحاديث كارتر الشهيرة فى الشهور الأولى لحكمه ، كانت صحيفة "التايمز" الصادرة فى لندن ، "ولوموند" الصادرة فى باريس، و"دى ولت" الصادرة فى ألمانيا و"لا استامپاى" الصادرة فى إيطاليا . وكان الصحفيون فى هذه الأحاديث يتتبعون على الفور أثر المشاكل الناجمة عن سياسة حقوق الإنسان ، كما تناولت كيف أن هذه السياسة – بعيداً عن رد فعل الكتلة الشرقية – ستصبح موضع غضب الكثيرين من حلفاء واشنطن وأصدقائها التقليديين ، وتجعلهم فى مواجهة أمريكا. لكن كارتر قد دافع بشدة عن هذه السياسة على الرغم من ظهور تلك المشاكل، وكان يصرح بأنه لايهدف إلى مقاومة العالم لصالح حقوق الإنسان :

"قال كارتر ضمن شرح مساعيه لتقدم حقوق الإنسان : إن هذا الموقف يتناسب وشخصية الشعب الأمريكى ، وإن هذه السياسة سوف تتبعها حساسية مفرطة". وأضاف : "إننا لانستطيع أن نغير هيكل الحكومات فى الدول الأجنبية، ولانستطيع أن نضغط بهذه المسألة كى نجعل إحدى الحكومات تتفق فى نظامها تمامًا مع نظام الحكومة الأمريكية ، لكننا نحتفظ بهذا الحق لنا ، وهو أن نتحدث عند اللزوم بحرية وبقوة عن احترام حقوق الإنسان" (٢١) .

وثالث وآخر موضوع ظهر فى التقارير والمقالات الصحفية فيما يتعلق بالحكومة الجديدة هو الإشارة إلى سياسة تخفيض بيع الأسلحة من قبل رئيس أمريكا الجديد . وهذا ما ورد فى العديد من الأخبار التى نشرت حول موضوع حقوق الإنسان وسياسة الخارجية الأمريكية (٢٢) .

ويمكن تحديد أربعة محاور عامة من بين الموضوعات التى تم نشرها حول حكومة أمريكا الجديدة فى الصحف الإيرانية خلال الشهور الأولى من حكم كارتر .

أولها وأهمها : هو ظهور تغيير جديد فى علاقات أمريكا الخارجية . وهذا التغيير ناشئ عن إيمان رئيس أمريكا الجديد بإدخال أو بالأخذ فى الاعتبار النواحى الأخلاقية فى العلاقات مع الدول الأخرى ، ومن بينها حلفاء أمريكا .

والمحور الثانى : يتلخص فى أن سياسة حقوق الإنسان من قبل الحاكم الجديد لم تكن نوعًا من الدعاية أو المناورة الدولية . بل يبدو أن الزعامة الجديدة - وخاصة رئيس الجمهورية - كانت عاقدة العزم على الصمود فى مواقفها على الرغم من ظهور بعض المشاكل فى طريق تنفيذ هذه السياسة بين واشنطن وبين بعض حلفائها .

والمحور الثالث : والذى يستنتج من المحورين السابقين ، أنه لايبدى عزم أمريكا القوى فى استمرار تأييدها التقليدى للنظم الديكتاتورية لمجرد أنها تعادى الشيوعية . وهذا المحور هو فى الحقيقة انعكاس موقف أمريكا الجديد إزاء معسكر الشيوعية الذى يتلخص فى إبداء نوع من المرونة ، إن لم نقل التراجع .

وأخيرًا يأتى **المحور الرابع** : والخاص بتصدير الأسلحة المتطورة وخاصة فى تلك المناطق التى يؤدى دخول هذا النوع من المعدات الحربية إليها إلى اضطراب فى التوازن العسكرى بسبب التنافس الذى قد يوجد بين دول تلك المنطقة .

«رد فعل نظام إيران إزاء سياسة حقوق الإنسان»

إذا ما داومنا التحقيق فى الصحف الصادرة خلال الشهور الأولى من حكم كارتر، يظهر لنا نوعان من ردود الأفعال الجديرة بالذكر . ففى البداية ، كان يوجد هذا الاعتقاد بشدة وهو أن سياسة حقوق الإنسان كانت موجة عابرة ذكرت أثناء فترة الانتخابات على رئاسة الجمهورية فى أمريكا حتى توضح إستراتيجية جديدة يتواءم معها نظام إيران . وفى الوقع أن زعماء النظام قد تقدموا خطوة عن زعماء واشنطن ، وأعلنوا أن الحديث حول حقوق الإنسان ليس بالشىء الجديد بالنسبة للإيرانيين وأنهم على علم بهذا الأمر منذ عهد بعيد (منذ عهد الهخامنشيين) ، وأعلن رؤساء النظام أن قورش ملك إيران كان فى مقدمة الساسة والزعماء الذين ابتكروا مفهوم حقوق الإنسان على مدى تاريخ العالم وقدمه للبشرية .

وأول من تحدث عن سياسة حقوق الإنسان من أعضاء النظام هو أردشيرزاهدى. فتواجده فى مقر السياسات الجديدة من ناحية ، والقوة التى كانت له فى جهاز الشاه من ناحية أخرى ، أديا إلى تمكنه من الحديث فى هذا الشأن ، يقول زاهدى فى حديث له مع صحيفة "آيندگان" فى أرديبهشت من عام ١٣٥٦ش (١٩٧٧م) فى واشنطن ، ردا على سؤال أحد الصحفيين له حول البعد الأخلاقى لحكومة كارتر ودفاعه عن حقوق الإنسان : "بداية يجب أن أذكر أن مسألة حقوق الإنسان ليست بالنظرية الحديثة ، فلو طالعنا الخطاب الأول لكل رئيس جمهورية من رؤساء أمريكا السابقين ، لرأيناه تحدث فيه عن مسألة حقوق الإنسان تفصيليا...[٢٣]

والأمر الثانى هو إذا كان الدفاع عن حقوق الإنسان بالشىء الجديد على دولة لها من العمر خمسمائة عام ، ومضى على استقلالها مائتى عام ، فهو ليس بالشىء المستحدث بالنسبة لنا نحن الإيرانيين ، حيث وضع الملك قورش الأساس له منذ ألفين وخمسمائة عام ، ولاتزال لوحاته باقية فى إيران حتى الآن تشهد على ذلك .

نحن نحترم فى دولتنا العديد من الأمور ، مثل : حرية المذهب ، والعنصر ، واللون وما أشبه . كما يوجد فى مجلسنا نواب عن جميع طوائف الشعب المختلفة، حتى أن

الأقليات الدينية لها حق التمثيل فيه فأى أسلوب أفضل يطبق حول مفهوم حقوق الإنسان يمكن البحث عنه مثلما يوجد فى إيران"(٢٤) .

كما صرح فى خطاب له فى مدينة كالج (غرب مانشستر) قائلاً : "إن إيران مهد المدنية أرض الآريين لا العرب ، كان هدفها الأساسى وأحد اهتماماتها هو شرف الإنسانية والعدالة الاجتماعية ، وسوف يكون . واستيعاب مفهوم حقوق الإنسان بالنسبة لإيران ليس بالشىء الجديد ، فقد أطلق قورش صراح دانيال منذ ألفين وخمسمائة عام ، وأصدر أوامره بأن كل من ألقى باليهود فى فم الأسد يتم إلقاؤه كذلك فى فم الأسد"(٢٥) .

إن الأبعاد التاريخية لحقوق الإنسان فى إيران بمقارنتها مع الغرب وأمريكا تصل من وجهة نظر زاهدى إلى أبعد من ذلك . فخلال سفر الشاه إلى أمريكا فى آبان من عام ١٣٥٦ش (١٩٧٧م) ، وفى أحد المؤتمرات الصحفية ، لم يقل فقط: إن "احترام حقوق الإنسان بدأ فى إيران قبل الغرب بقرون بعيدة" بل قال : "إن تاريخ إيران كان أكثر إشراقًا بمراحل من الغرب من ناحية التنفيذ ؛ لأن الإيرانيين لم يتخلوا قط عن العمل بها" (٢٦) .

وفى بدايةحكم كارتر سرت موجة لتمجيد حقوق الإنسان داخل الدولة أيضًا ، ويتلخص جزء كبير من الأحاديث والمقالات الافتتاحية والتحاليل السياسية للأجهزة الإعلامية فى النصف الأول من عام ١٣٥٦ش (١٩٧٧م) فيما يتعلق بحقوق الإنسان فى أن هذه الحقوق كانت تحترم فى إيران دومًا منذ عهد بعيد (أى منذ ٢٥٠٠ عام) ، وقد قامت ثورة الشاه والشعب وفلسفة النظام الإمبراطورى فى إيران أساسًا على مفاهيم حقوق الإنسان ، والموجة العامة التى اجتاحت إيران فيما يتعلق بحقوق الإنسان تتلخص فى مجموعها فى المحاور السالفة الذكر .

على سبيل المثال ، صرح عضو مجلس الشيوخ السيد/ جلال نائينى - الذى كان يعد من رجال النظام - خلال حديث له فى المجلس ، قائلاً : "إن مسألة حقوق الإنسان والصراع والسعى للحفاظ عليها لم يكن بالموضوع الجديد بالنسبة لشعب إيران لأن قورش الكبير ملك إيران قد أعلنها على العالم منذ ألفين وخمسمائة عام" . ثم يستنتج: "إن ثورة الشاه والشعب قد وضع أساسها فى إطار حقوق الإنسان "(٢٧) .

كما صرحت "فرح" زوجة الشاه فى حديث لها حول حقوق الإنسان فى معهد " آسپن" للدراسات الإنسانية بأمريكا وذلك فى شهر تير من نفس العام ، تقول :

"لقد أصدر قورش الكبير بيان حقوق الإنسان منذ خمسة وعشرين قرنًا ، وقد علمنا حكماء إيران خلال القرون وعبر العصور أن نقدر الإنسان . إنهم هدوا البشر كى يبحثوا فى داخلهم عن السمو عن طريق المطالعة والمراقبة"(٢٨) .

وبعد عدة أيام من نفس الزيارة إلى أمريكا ، وفى حديث لها أثناء حصولها على درجة الدكتوراه الفخرية فى العلوم الإنسانية من جامعة كاليفورنيا الجنوبية، أعلنت : "إن طريق حل مشاكل العالم المعاصر يكمن فى العودة إلى المعنويات" وأضافت : "لايجب أن نكون أسرى التطور التكنولوچى الذى لاضابط له ولا رابط" ، واعتبرت أن «أكبر مظالم العصر الحاضر هو الخلاف القائم بين الشعوب الغنية والشعوب الفقيرة»، وفى النهاية ، دعت العالم الغربى «للاستفادة من تجارب إيران فى مجال حقوق الإنسان والمصالح الإنسانية» (٢٩) .

كما أعلن الشاه فى حديث له مع إدوارد سابليه فى طهران : «إن مسألة حقوق الإنسان بالنسبة للإيرانيين أمر حيوى للغاية ، وتعد إيران أول دولة – منذ عهد قورش الكبير – خطت خطوات جادة فى طريق الدفاع عن حقوق الإنسان». ولإثبات سبق الإيرانيين فيما يتعلق بموضوع حقوق الإنسان ، أضاف قائلاً : «إن الأعمدة الأثرية التى حفر عليها بيان حقوق الإنسان لأول مرة بواسطة قورش محفوظة فى متاحف لندن ، ويوجد نسخ منها داخل الدولة»(٣٠) .

وقد تعدت صحيفة رستاخيز دعوة الشهبانو للغرب للاستفادة من تجارب إيران ، ودعت العالم كى يتعلم من إيران وذلك فى مقالها الافتتاحى تحت عنوان "إيران وحقوق الإنسان" ، تقول الصحيفة : "إن الاهتمام بالأفراد وبالحقوق الإنسانية فى إيران يسمو بمراحل عن كونه أحد الأمور السياسية والحكومية ، أو إحدى المناورات للحصول على صديق أو لسحق معارض ... وبلا أدنى شك لايوجد لدى أى شعب قط أدب غنى بهذا القدر بموضوع حقوق الإنسان مثلما يوجد فى الأدب الإيرانى ... إنه أحد الأساليب الفكرية القومية ، وسمة مميزة ، ومبدأ لايتجزأ عن الهوية الإيرانية . إن إيران قادرة

ومستعدة ، إن اقتضى الأمر ، أن تلقى دروساً قيمة فى هذا المضمار لأى شعب راغب فى التقدم المعنوى والإنسانى . إننا – دون تكبر أو غرور – لنا الأسبقية على العالم أجمع فى مجال حقوق الإنسان ، وقد أثبتنا هذا مراراً على مدى تاريخنا الطويل"(٣١).

إن تثبيت الميدالية الفخرية لحقوق الإنسان على صدر قورش ، وأسبقية الإيرانيين فى هذا المجال على مدى التاريخ ، ودعوة الغرب والعالم للاقتداء بإيران، وأخيراً إعلان استعداد إيران على المستوى العالمى لتعليم حقوق الإنسان للشعوب التى تحتاج إلى دروس فى هذا المجال ، كل هذا حل محله تدريجيا الغضب ، والانتقاد والهجوم على حقوق الإنسان فى الأجهزة الإعلامية الإيرانية. ويرجع السبب فى هذا التغيير إلى إدراج بعض المواضيع حول وضع حقوق الإنسان فى إيران ، والنقض الصارخ الواضح لهذه الحقوق ، خاصة بسبب استخدام طرق التعذيب على نطاق واسع ضد المعتقلين السياسيين ، والرقابة ، والقبض والاعتقال بشكل غير قانونى وغيرها من الأعمال المشينة التى كان يقوم بها أفراد الساواك فى الداخل والخارج والتى لاتتفق وأبسط المبادئ والمعايير الحقوقية .

واتضح تدريجيا أن طرح موضوع حقوق الإنسان من قبل حاكم أمريكا الجديد لم يكن موجة عابرة ، وتم طرح سجل أعمال الدول التى ليس لها سابق عهد فى هذا المجال، وبدأت المساءلة بسبب نقض حقوق الإنسان لهذه الدول حتى وإن كانت ضمن حلفاء واشنطن . وبمرور الوقت ، حل محل اهتمام الأجهزة الإعلامية بالتعريف بحقوق الإنسان وتمجيدها ، ووضع إيران على أحد أوجه عملة البطولة العالمية على مدى تاريخ البشرية المدون ، حل محل كل ذلك التهكم والسخرية ، وأخيراً الهجوم عليها .

فمن وجهة نظر النظام ، إن الباعث على انتقاد الغرب لإيران تحت راية حقوق الإنسان لم يكن فى الواقع حقوق الإنسان ، بل إن ثمة عوامل أدت إلى أن يتذرع الغرب بمسألة حقوق الإنسان للهجوم على إيران وتوجيه الاتهام إليها .

إن أوجه التقدم التى تمت فى إيران ، وسياستها القومية المستقلة ، وأخيراً والأهم من ذلك ، قيام نظام إيران بإصدار القرارات الخاصة بالنفط بشكل مستقل ومباشر ، ومن أمثلة ذلك ، رفع أسعاره فى منظمة الأوبك ، هذا ماعده المسئولون فى إيران ،

وكذلك الأجهزة الإعلامية الإيرانية أنه الباعث الحقيقى للهجوم الذى شنه الغرب على إيران .

وواضح أن مثل هذا الموقف قد تم فقط بموافقة الشاه وتأييده . وفى الحقيقة ، وطبقًا للمعتاد ، كان الشاه نفسه هو مبتكر هذا الاستدلال ، وبدأ من بعده كبار المسئولين فى النظام والأجهزة الإعلامية هجومهم على حقوق الإنسان .

وفى أول حديث مطول للشاه مع أحد الصحفيين الأجانب منذ اعتلاء كارتر سدة الحكم، ألقى بمفتاح الصدام الجديد مع سياسة حقوق الإنسان . فقد سأله الصحفى : "ترى ياصاحب الجلالة أى هدف خفى وراء الهجوم الموجه ضد دولتكم بشكل مستمر ؟ أقصد الكتابات و ..." ، وبدأ الشاه – الذى ربما كان يتوقع مثل هذا السؤال ، أو ربما يكون هو الذى اقترح طرحه – هجومه على الغرب ، قائلاً :

"بدأ هذا الهجوم فى الوهلة الأولى مع مسألة النفط ، حينما كنا نسعى لتغيير سياستنا الخمسينية مع ماتيه الإيطالى ، وجعلناها على نحو يكون فيها ٧٥٪ من قيمة الفائدة لنا و٢٥٪ من نصيب الطرف المقابل. ومن هنا بدأ أول هجوم على وعلى دولتى ، وعلى الرغم من مقتل ماتيه ، إلا أن الهجوم لايزال يوجه ضد دولتنا .

وحتى قبل هذا الحدث ، لم تكن هناك سابقة قط فى أن يقوم طالب إيرانى فى الخارج بمظاهرات ضد إيران ، كما لم يتم هجوم وسائل الإعلام الأمريكية والأوروبية قط على إيران .

بلاشك أنه بعد ظهور مسألة النفط بدأ الهجوم على إيران ، ولما كنا نستمر فى سياستنا بكل ماأوتينا من قوة على نحو مكنا من التحكم فى جميع الذخائر الهيدروكربونية (النفط) منذ أربعة أو خمسة أعوام ، عندئذ بلغ هذا الهجوم ذروته ، حتى تبدل إلى نفور من : لم وكيف تبدى إحدى الدول الآسيوية مثل هذه الجرأة إلى هذا الحد؟ وفيما يتعلق بكيفية تجرؤ إحدى الدول ، فقد طرحت آراء مختلفة وفقًا للمصالح الخاصة . وأقصد الاحتكار النفطى العظيم .

وفى الواقع ليس فى الأمر من شىء سوى الاستعمار . فبعد انتهاء الحرب يبدو أن الإمبريالية والاستعمار قد تم القضاء عليهما ، ومع هذا ظهرا فى شكلين مختلفين ،

أولهما : الاستعمار الأحمر (أى الشيوعية) . والآخر : المصالح الاقتصادية التى حددها الرأسماليون الغربيون لأنفسهم . إنهم يرغبون الاستمرار فى سياسة سلب ونهب الدول التى تفتقر الدفاع عن نفسها"(٣٢) .

بعد ذلك طرح الشاه موضوعًا آخر أوجد خلال عدة شهور تالية مادة دعائية غنية للأجهزة الإعلامية فى دولتنا وللقائمين بالعمل فى النظام . إنه كان يرى ، بعيداً عن النفط ، أن ثمة عاملاً آخر أفضى إلى ظهور موجة الهجوم الأخيرة ضد إيران تحت راية حقوق الإنسان ، ألا وهو غيرة الغربيين من أوجه التطور فى إيران ، يقول :

"وأحد البواعث الأخرى لهذا الهجوم هو "الغيرة" . الغيرة من : كيف تمكنت إيران خلال خمسة عشر عاماً من أن تتقدم أكثر من أية دولة أخرى فى العالم ؟ وهذا الكلام ليس بلا أساس ، ولإثباته تستطيعون أن تقوموا بالتحقيق والمقارنة ، وهذه المقارنة بسيطة للغاية ، حتى أن أعداءنا يستطيعون - لو يرغبون - أن يتحققوا من هذا الأمر"(٣٣) .

وفى أعقاب حديث الشاه طرحت موجة جديدة ، حيث كتبت صحيفة رستاخيز فى مقالها الافتتاحى تحت عنوان "أكثر السياسات واقعية" ضمن تفسير حديث الشاه القائم على الهجوم غير اللائق ضد إيران، وانعكاس غضب المحافل الإمبريالية وغيرتها. تقول : "كلما أرادت إيران أن تستفيد من حق سيادتها القومية ، بدأت المحافل الإمبريالية تحركاتها ضد دولتنا" ، ثم يشرح المقال كيف أن الاستعمار والإمبريالية كانا يسعيان دومًا لتنفيذ مؤامرة لإلحاق الأذى بإيران منذ اعتلاء رضا شاه سدة الحكم، ويستنتج :

"لكن - كما كان فى الماضى - على الرغم من تحقيق جزء من الانتصارات القليلة والظاهرية لعناصر الإمبريالية ، فإن الجولة النهائية فى جميع المراحل كانت لإيران . وانتصار إيران فى جميع هذه الصراعات هو انتصار الحق على الباطل ، ولما كانت إيران قوية تحظى بالوحدة الوطنية التى لانظير لها أكثر من أى وقت آخر ، سيكون النصر حليفها بلا شك . وأولئك الذين اختاروا طريق التحريض والكلام الهراء سيسلمون عند اصطدامهم بالواقع عاجلاً أو آجلاً"(٣٤) .

والمحور الثانى الذى طرحه الشاه فيما يتعلق بموضوع حقوق الإنسان والنقد الموجه إلى نظام إيران هو أن الأجهزة الإعلامية الغربية بدفاعها عن المتهمين السياسيين فى إيران هى فى الواقع تدافع عن الإرهاب . (٣٥) فضلاً عن ذكره التخبط العشوائى لبعض وسائل الإعلام الغربية ، فهم يكتبون كل مايرغبون (ضد إيران) وإذا ماأرسل إليهم أى تكذيب لاينشرونه قط . وقد أطلق الشاه على عملهم هذا اسم "الإرهاب الفكرى" ، وتساءل : "هل هذا جزء من بيان حقوق الإنسان؟"(٣٦)

إن "الإرهاب" و "الإرهاب الفكرى" و "غيرة الغرب من تقدم إيران" ، وأخيراً والأهم من هذا كله ، "حقد الغرب من سياسة الشاه المستقلة الوطنية إزاء النفط ومصالح إيران القومية" جميعها موضوعات اكتظت بها صفحات الجرائد خلال صيف عام ١٣٥٦ش (١٩٧٧م) وجزء من خريف نفس العام .

وفى غداة اليوم الذى تم فيه حديث الشاه مع إدوارد سابليه نشرت رستاخيز فى مقالها الافتتاحى تحت عنوان "حائل فى مواجهة الإرهاب المادى والفكرى"، تقول :

"كيف تطيح القيادة فى إيران بالإرهاب المادى داخل الدولة وفى الخارج يمارس الإرهاب الفكرى بتكاتف الأجهزة الإعلامية الغربية"(٣٧) .

وكتبت صحيفة رستاخيز فى مقال افتتاحى آخر تحت عنوان "ماذا فعلنا فى الخمسة عشر عاماً الأخيرة ؟ " ، تقول :

"لم يكن أعظم انتصاراتنا فى الخمسة عشر عامًا تلك هو التطور الصناعى والاجتماعى فقط ،فالحقيقة إن أعظم انتصاراتنا ، وما حث أعداءنا على القيام ضدنا دفعة واحدة هو إعلان السياسة الوطنية المستقلة من قبل الشاه ، وتنفيذها بشكل موفق وبمنتهى الحسم ، كى يتم إغلاق الطريق لنفوذ أى سياسة أجنبية إلى دولتنا . وتسببت فى الوقت نفسه فى زيادة العلاقات الخارجية لإيران مع دول ذات نظم سياسية متعددة . وفى ظل تنفيذ هذه السياسة تقدمت إيران للمطالبة بحقوقها المكتسبة من النفط ، والسيطرة التامة على أمور رأس المال الوطنى هذا، وتدعيم سيادتها الوطنية المطلقة على هذه المصادر الثمينة . وقد اقتدت سائر الدول الأعضاء فى منظمة الأوبك أيضاً بملك إيران ، وحدث أعظم تغيير سياسى فى التاريخ ، نعم نؤكد ونقول أعظم تغيير

سياسى فى التاريخ . والدولة التى كانت حتى الأمس موضع إغارة وتحقير ، تحدد اليوم قيمة منتجاتها الثمينة وسياسة إنتاجها وتوزيعه . والأجانب – سواء من القوى العظمى أو من الدول الصغرى – يجب أن يصطفوا فى دورهم عند شراء هذه المنتجات كأى مشترٍ عادى .

نعم إن إعلان السياسة القومية المستقلة وتنفيذها لهو أعظم حدث تاريخى وقع فى إيران خلال الخمسة عشر عاماً الأخيرة . وهى التى حثت أعداء إيران للإفصاح عن غضبهم والقيام بتلك الضجة والجلبة ؛ لأنهم لم يستطيعوا ثانية أن يتعاملوا مع شعبنا معاملة الحاكم للمحكوم ، أو الغالب للمغلوب لذا وجب عليهم أن يتعاملوا مع إيران وشعبها مثلما يتعاملون مع أية دولة أخرى متقدمة فى العالم ..والشىء الذى لم يرغبه الأعداء هو شهرتنا ، إنهم لم يرتضوا بالطبع يقظة النعرة القومية لشعبنا، إنهم يرغبون فى أن يكون ضعيفًا حقيراً وأن ينظر إليهم باعتبارهم "الملاك" ، و"الأرباب" و"السادة" كى يبادروا باستنزاف موارد ذلك الشعب . إن الشعب الذى يستعيد هويته القومية هو شعب غير مرغوب فيه من قبل المستعمر . ولما كانوا يريدون ذلك اليوم الذى يضعون فيه يد الوصاية علينا ويفرغون جيوبنا ، فهم غضبى اليوم ويقومون بهذه الضجة .

إنهم كانوا يقولون حتى الأمس : لمَ رفعتم سعر النفط الغالى الذى لابديل له؟ حتى أن أجهزة التلفاز كانت تعرض أفلاماً هجومية إنتاج هوليود ضد الدول النفطية ، لكن كان يبدو مدى ابتذال هذه الأفلام ؛ لأنها كانت مضطرة للبحث عن موضوعات أكثر خداعاً ، وحثوا بعض المؤسسات الشهيرة كى تعلم دروس حقوق الإنسان إلى دولة كانت أول من سنت قانون حقوق الإنسان ، وكان بيان ملكها قورش الكبير يتلألأ كالدر الفريد على جبين الإنسانية .

لاريب أننا لو لم نقم بتنفيذ سياستنا القومية المستقلة ، كذلك لو تم نهب مصادرنا القومية ، ولو كنا عبيداً ننصاع لأوامر المحافل الإمبريالية ، لما كنا موضع هذا السخط والهجوم . لكن سياستنا القومية المستقلة قد أهدت لنا النخوة والفخر حتى ولو لم ترض المحافل الإمبريالية والاحتكارية أو الاشتراكية والدول المؤيدة لها . فهذا نصر معنوى عظيم ، والأعظم منه ، أنه أهدى إلينا الثورة"[٣٨] .

ونشرت صحيفة اطلاعات أيضًا فى مقالها الافتتاحى تحت عنوان "إيران فى نظر الصحافة الغربية"، تقول :

"إن الصحافة فى الغرب – للأسف – تقع تحت تأثير أحداثها المحلية التى تحثها على توجيه سيل الانتقادات بشكل فجائى إلى إيران كلما أعربت عن عدم تأييدها لأحد المقترحات أو الرغبات ، ويأخذوننا بجريرة ذلك"(٣٩) .

وعلى الرغم من أن صحيفة رستاخيز هى التى تولت مهمة الهجوم على سياسة حقوق الإنسان بداية ، إلا أن الصحف الأخرى لم تتجاهل هذا الأمر . فقد قامت صحيفة كيهان أيضًا فى مقال لها تحت عنوان "الإرهاب الفكرى" بقلم السيد رسولى پرويزى بالرد والهجوم المضاد على انتقادات الغرب فيما يتعلق بوضع حقوق الإنسان فى إيران :

"بدأت الجلبة منذ اليوم الذى دار الحديث فيه عن الحقوق المكتسبة فيما يتعلق بالنفط ، وإصدار شاه إيران تصريحاته بأن إيران لن تخضع للأسعار السفيهة الغاصبة المفروضة ، وأن منظمة الأوبك على استعداد للصمود . وتحول ضوء الصداقة الأخضر إلى اللون الأحمر .... والمقصود من ذلك أن الرأي العام العالمى لم يعد فى مساره الأصلى . وكتبت شعوب العالم أن موجة الغلاء التى كانت تفرضها الدول الصناعية على الدول الفقيرة قد توقفت ، وأصبحت الآن هذه الدول الصناعية تحت وطأة الدول المنتجة للبترول. واصطدم السهم فى هذه الحرب بالحجر ، واعتبرت الشعوب التى أصابها من الاستعمار صفعات وصدمات أنهم ألقوا شباكًا جديدة . وألقى الاستعمار ثانية على وجهه بنقاب آخر ، وهكذا عدمت حناء الدول الديمقراطية والصناعية المدعية محبة البشرية لونها ، ولم ينخدع أحد ..... ففى العالم الحر الذى يتشدق بالحرية ، كانت الرياح تهب دومًا على راية حريتهم فتحفظ مصالحهم من أى ضرر ، وإذا ما نقصت مصالحهم ولو لدقيقة تغيب الحرية ورايتها ... وعندئذ تظهر ملامحهم المغلفة بالديمقراطية بشكلها الحقيقى لا المجازى ، وينكشف النقاب فترى العيون وجوهًا كريهة ، غليظة لأصحاب المصالح الاستعمارية وكأنها السيف البتار . وتتلاشى تلك الوجوه البشوشة ، ويختفى ذلك الحديث المعسول وتلك الملامح القديمة ،

ويخرج الشيطان من تحت قناع الملاك، ولاينتابكم الشك فى أن تغيير الوجوه الحرة لايكون بشكل بسيط ومباشر ! إن غيلان الفولاذ والنفط يحلقون ويخططون بشكل أكثر حكمة وحيلة وفكر ووعى ، ويتغيرون رويداً رويدا. إنهم لايتدخلون بشكل مباشر ، بل يرسلون العملاء إلى الميدان بحيث لايكون لهم هناك أثر قدم . هذا هو مايشاهد بالتمام وعلى الدوام فى الحروب النفطية ...إن حرب النفط كانت ولاتزال مرعبة .

وهؤلاء الذين يسعون إلى المنفعة وجعلوا من شعار الحرية والديمقراطية درعًا غير قابل للنفاذ ، هم أكثر شرا من ذئب الصحراء وسمك القرش ... والعمال والعملاء المستفيدون من النفط أكثرهم للأسف من وكالات الأنباء والصحف والمجلات العلمية ، أو ذلك الشيء الذى يقولون عنه هذه الأيام "الأجهزة الإعلامية" فلو لم تكن جميعها تحت السيطرة ، فجميعها تقريبًا تحت أيديهم بالتمام والكمال . والسبب واضح ، فمعظم هذه الأجهزة تعتمد ماليا على شركات مساهمة ، وأموال وامتيازات الكثير من الصحف والمجلات العالمية الكبرى ترتبط بالمؤسسات المحتكرة للنفط والفولاذ بشكل مباشر أو غير مباشر .

وقيل أيضًا : إن غيلان النفط والفولاذ غاية فى الذكاء ، ويسعون لاستغلال الاستعدادات المهمة فى العالم ...وفى كل لحظة تقتضيها الضرورة يضعون المحقن فى جسد هذا الشعب ذى الاستعداد ، ويستخدمون هذه المجموعة من المحررين والناشرين لصالح الغيلان ، وتزور أفاعى المطبوعات العالمية – التى ابتلعت آلاف الثعابين – الأخبار ويبثون الأكاذيب"[٤٠] .

ويستمر الكاتب فى تحليله ويعقد مقارنة بين صدام الأجهزة الغربية مع إيران والعرب دون أن يذكر اسمًا واحداً لأية دولة عربية . يقول پرويزى : إنه على الرغم من عدم وصول رائحة الديمقراطية إلى المشام فى بلاد العرب ، وعلى الرغم من أن بعض الحكام فيها يديرون دولهم على نمط القرون الوسطى ، لكن نظراً لأنهم أحنوا رؤوسهم أمام الغرب والتطورات النفطية ، لم يدر الحديث فى الغرب عن حقوق الإنسان فى بلاد العرب . أما فى إيران – التى يرقى نظامها ويتقدم عن غيرها بمراحل – ونتيجة لصمود نظامها فى وجه الاستعمار والإمبريالية ، فقد أصبح فى مرمى هجوم الغرب .

وفى نهاية المقال ، يتساءل الكاتب :

"إن الأجهزة الإعلامية الغربية التى تقلق على هذا النحو على حقوق الإنسان فى دولة مثل إيران لمَ تلزم الصمت إزاء دولة مثل سيلان (سيريلانكا) حيث تم إعدام آلاف الأشخاص فيها ؟!"

ويستنتج الكاتب :

"نظرًا لعدم امتلاك سيلان النفط أو أية ثروة أخرى ؛ لذا فلم يكن مهمًا بالنسبة للغرب ما الذى يحدث فى هذه الدولة ، وماذا يقع على البشر فيها ؟! لكن حينما تدخلت مصالح المؤسسات الاحتكارية النفطية الغربية ، عندئذ (مثلما رأينا فيما يتعلق بإيران) علت صيحات الغرب المطالبة بحقوق الإنسان والعدالة"(٤١) .

وبعد عدة أيام نشرت صحيفة كيهان فى مقال افتتاحى آخر تحت عنوان "الحرية والسلام فى تنوع" ما يفيد بأن الغرب يريد أن يملى مواقفه وتقديراته على العالم أجمع ، وتساءلت الصحيفة عن الذى يعطى الحق للغرب كى يقيم الآخرين وفق معاييره الخاصة :

"إن وسائل الإعلام العالمية تقتصر أساسًا على عدة مجموعات غربية كبرى ترسم تصوراتها - عن علم أو عن جهل - تجاه الشعوب المختلفة على أنها صور واقعية لتلك الشعوب ، وتنشرها فى العالم أجمع . وانحصار وسائل الإعلام هذا أدى إلى أن تقدم الدول النامية عن طريق وسطاء غربيين فقط ، وهؤلاء المصورون الغربيون قد حددوا مواقفهم فى البداية . وينقسم العالم - من وجهة نظرهم - إلى قسمين ، هما الغرب والآخرون . وعلى أساس وجهة النظر تلك فإن الغرب أسمى مظهر لنتائج البشرية ، والآخرون يقيمون فقط عن طريق مقارنتهم مع الغرب . ومع استخدام هذه النظرية ، تم رسم إيران فى العديد من الدول فى صورة غير صحيحة" (٤٢) .

وتستمر الصحيفة فى تفسيرها وترى أن ماكان يؤدى إلى ظهور الخلافات والحروب على مدى التاريخ هو إصرار فرض نموذج لشعب ما أو لمدينة ما على أقوام وشعوب أخرى .

واستناداً على الحركات المناهضة للاستعمار وغيرها من الحركات المطالبة بالاستقلال خلال الحرب العالمية الثانية يستنتج المقال أن الغرب يجب أن يعى هذا الدرس جيداً ، وهو أن فرض نموذج على دولة من دول العالم أمر ليس فى الإمكان . وفى المقابل ، إن مايضمن السلام ، والاستقرار والحرية فى العالم هو الحضور المتنوع فى الساحة الدولية، تقول الصحيفة :

"ساهمت إيران أيضًا بدورها فى هذه الجولة الدولية تجاه التنوع . فمنذ خمسة عشر عامًا كان الكثيرون يعتقدون أن إيران ما هى إلا بيرق غربى، ولم يتوقع شخص أن تقوم بالدور الأساسى فى حرب النفط التى تبعها أكبر تراجع اقتصادى للغرب فى الأعوام التالية على الحرب العالمية الثانية . والأهم من ذلك هو امتناع إيران عن اتخاذ نموذج لتقدمها من الغرب أو الشرق" (٤٣) .

وبعد طرح مسألة عدم استعداد إيران اتخاذ النموذج من الغرب أو من الشرق ، يذكر المقال نقلاً عن "والت ويتمان راستو" الاقتصادى الأمريكى ومستشار الرئيسين كيندى وجونسون :

"فى عهد رئاسة كيندى (١٣٤٠ش - ١٩٦١م) قدم الأمريكان نموذجًا كاملاً للتقدم الاقتصادى والتطور السياسى إلى إيران ، وتم رفضه من قبل نظام إيران" . وفى نفس الفترة التى تم فيها طرح النموذج الغربى من قبل أمريكا ، كتبت الصحيفة تقول :

"أعد المعسكر الشرقى أيضًا - عن طريق الاتحاد السوفيتى - أحد السيناريوهات للتقدم غير الرأسمالى ، وبعثوا بنسخة منه إلى الدول النامية ، وكان من نتائجه ظهور أنواع الاشتراكية وأقسامها (العربية ، والإفريقية، والقومية ، والإسلامية ، والآسيوية) فى العالم الثالث . لكن هذا النموذج أدى إلى نوع من الانتماء بشكل عملى".

ويستنتج المقال :

" إن هذه الإرادة التى أبدتها إيران للحفاظ على الاستقلال ، ورفضها نماذج شرقية أو غربية أدى إلى وقوعها اليوم موضع الهجوم الإعلامى على هذا النحو".

لكن وفقًا لوجهة نظر صحيفة كيهان أن هذا الهجوم لم يكن مصادفة ، بل كان الثمن الذى تدفعه إيران من أجل استقلالها فى الرأى :

"إن إيران لاتقبل قط أى نوع من أنواع الاستعمار ؛ لذا لم تستطع الخنوع فى أوقات السلام أمام أى محفل يسعى لفرض نماذجه على العالم . ومن هذا المنطلق فإن بعض الأوساط المهتمة باستخدام الأقلام المغرضة قد رسمت صورة مزيفة عن إيران . نعم ، هذا جزء من الثمن الذى كان يجب أن تدفعه إيران من أجل استقلالها الفكرى والعملى . إن الكلاب التى تسير فى إثر سادتها هى التى تحرك أذيالها طمعًا فى تدليلها ، لكن مامن حيلة لنا سوى أن نكون كما كنا من أجل بقاء شعبنا ومن أجل السلام العالمى . لكن فى الوقت نفسه علينا مسئولية ، وهى أن نخرج من حالة الدفاع ، وأن نقدم صورتنا الحقيقية للعالم " (٤٤) .

هذا التحليل الذى يفهم من خلاله هدف الغرب من النقد ومن طرح وضع حقوق الإنسان فى إيران يعود فى الحقيقة إلى عدم رغبة إيران فى قبول نموذج أو معايير غربية .

ومع رسالة الشاه فى شهر مرداد من عام ١٣٥٦ش(١٩٧٧م) بمناسبة الذكرى السنوية للثورة الدستورية ، ذكر محوراً آخر فى رده على الغرب . فقد صرح الشاه علانية ردا على نقد الغرب فيما تعلق بانعدام الحرية ونقض حقوق الإنسان فى إيران ، بأن إيران لاتقبل استيراد الديمقراطية (الغربية) :

"لاتدعو الحاجة إلى ذكر أن الديمقراطية بذلك المفهوم الذى يوجد فى إيران اليوم فقط تستطيع أن تكون مفيدة ومثمرة لدولتنا وشعبنا ؛ لأن هذه الديمقراطية هى فقط التى تسد حاجة المجتمع الإيرانى المادية والمعنوية ، وتتفق مع القيم والمعايير الثقافية والمدنية له .

إن الديمقراطية لايمكن أن تكون لنا كإحدى البضائع المستوردة ؛ لأن شعبنا مع ماله من سابقة طويلة فى المدنية والثقافة يستطيع أكثر من أى شعب آخر أن يحدد ويختار الطريق الذى يؤدى به إلى السمو والسعادة .

من وجهة نظرنا : إن هذا النوع من الديمقراطية التى تتسم بالفوضى وانحلال المعايير والضوابط الاجتماعية ليست مقبولة . ومن الأصل نحن نرى أن مثل هذه الديمقراطية لاتستطيع أن تأتى بالنتيجة المرجوة لأى شعب آخر"(٤٥) .

وأثناء حصول الشاه على الدكتوراه الفخرية من جامعة وارسو ببولندا أكد فى حديثه مجدداً على حق الشعوب فى الاختيار ، وعلى الأبعاد المتباينة للديمقراطية . وإشارة إلى هذا الحديث ، كتبت صحيفة كيهان فى مقالها الافتتاحى تحت عنوان "طريق إيران : هدف واضح" ، تقول :

"إن هذا التخيل بأن البشرية عليها أن تختار فقط بين أحد النموذجين (الشرقى أو الغربى) هو بحق لايمكن أن يكون له مؤيدون، فكل شعب ليس له الحق فقط ، بل من مسئولياته أن يجد طريقه ، وهو بهذا يساهم فى إثراء مجموعة التجارب الإنسانية"(٤٦).

وبعد عدة أيام ذكرت كيهان ثانية فى مقال آخر أن حقوق الإنسان طرحت كغطاء لفرض نظرة سياسية خاصة :

"إن المسائل المتعلقة بحقوق الإنسان ذات جانب سياسى فى كل الأحوال ، لكن لايجب أن تتدنى هذه المسائل إلى مستوى السياسات الحالية ، أو تدخل كوسيلة لمناورات خاصة فى العلاقات الدولية .

إن الدفاع عن مبادئ حقوق الإنسان لايمكن أن يستخدم كغطاء لفرض هذا النظام أو ذلك النمط السياسى الخاص على الدول المختلفة" (٤٧) .

وكما قيل من قبل ، إن الفلسفة الأساسية لهذا الاستدلال الذى ورد على مدار عام ١٣٥٦ش (١٩٧٧م) مرات عديدة على لسان المسئولين الإيرانيين وكذلك على صفحات الجرائد بأن إيران لها نموذجها الخاص ، نموذج لم يُستمد من الشرق ولامن الغرب ، بل تشكلت دعامته من قبل الشاه على أساس السمات الخاصة بإيران .

إن هدف الغرب من الهجوم على إيران ، والذى بدأ بطرح موضوع حقوق الإنسان هو فرض نموذجه مقترناً بقيمه ومعاييره . لكن بشكل عام ، تتلخص معظم ردود الأفعال إزاء انتقاد وضع حقوق الإنسان فى إيران فى أمرين آخرين ، هما :

١ - إن إيران أثارت غضبة الغرب بسبب سياستها النفطية .

٢ - استياء الغرب من تقدم إيران الصناعى وإضمارهم الحسد والغيرة بسبب ذلك التقدم .

على سبيل المثال ، تقول صحيفة كيهان فى مقال لها تحت عنوان "لم ينقضون فى الغرب ويسعدون ؟!" :

"إن خبر انقطاع التيار الكهربائى المتكرر فى إيران [٣٢] - على ما يبدو - أدى إلى ظهور بعض دور المآتم فى الغرب على شكل روضة . إن المحافل الغربية تتحدث بشوق وحماس عن مشاكلنا الناتجة عن نقص الكهرباء ، وصحافة أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية يقومون بالعزف والرقص فى هذا الشأن وكأن مايسترو خفيا يقودهم"(٤٨) .

ويستمر المقال فى عرض كيفية استخدام الصحافة الغربية أبواق دعايتها للحديث عن أن مشاكل إيران ناتجة عن أن هذه الدولة تبدى لجاجة . وعلى الرغم من وجهة نظر الغرب وإسدائهم النصح بأن إيران "أرض الزهور والبلابل" دولة ذات استعداد زراعى لاصناعى ، إلا أنها تخطو خطواتها فى الطريق الأخير :

"لاريب أن «أرض الزهور والبلابل» كانت ولاتزال تمتلك ذخائر النفط . ذخائر يجب أن يغتصبوها كى تمتلئ سماء أوروبا ذات الغيوم بدخان المصانع . نعم ، إن إحدى الدول الآسيوية المتخلفة التى لاتتلون أعين شعبها بالزرقة ، ولاشعرهم باللون الأصفر من الخطأ أن تفكر فى الصناعة .

حينما تمكنت منظمة الأوبك من الحصول على قيمة أفضل للنفط ، أخرج الغرب صوتًا جديداً ، يقول : على إيران أن تدفع دخلها من النفط - مثل بعض الإمارات - وأن تكون صندوقًا كبيراً للقمامة تجمع فيه أنواع البضائع الغربية . لكن السعى وراء الصناعة يظل ذنبًا يدعو إلى الاستياء .

نعم ، هل كل هذه الضجة والسرور والرقص والتلويح بالأيدى فى الغرب كان مصادفة ؟! هل كل هذه الأحداث لاتكون دليلاً على إضراب كبير للمحافل الإمبريالية

ضد إيران ؟! هل لم يبق فى أرجاء الغرب كله ضمير واحد يقظ يسأل: ألا يعد بيع القمامة بدلاً من البضائع، وتزييف الأمور والخداع باسم التكنولوچيا دليل على انحطاط الغرب ؟!

ليس لدينا بالفعل عيون زرقاء ولاشعر أشقر ، ولسنا منحازين لجنسنا ، لكننا نعلم جيداً أننا نستطيع أن نستمر فى طريقنا"(٤٩) .

وفى حديث آخر للشاه عام ١٣٥٦ش(١٩٧٧م) جعل موضوع "حسد الغرب بسبب تقدم إيران" أحد المحاور الأساسية لحديثه . وفى هذا الحديث – الذى أجراه معه رئيس تحرير مجلة كيهان – قال فى رده على سؤال يقوم على القيام ببعض الأبحاث – خاصة فى الخارج – حول المصاعب التى تعترض طريق الصناعة والتقدم فى إيران :

"إن بعض الغربيين يحسدوننا حتى لو تنفسنا ، فماذا يحدث إذا ما ارتفع مستوى استهلاك شعبنا ؟! على سبيل المثال ، إنهم يسعدون إذا ما انقطع التيار الكهربائى عن طهران . حسناً ، من المتسبب فى هذا ؟ إنهم أولئك الذين يسعدون أنفسهم . من العجب أن يبدوا غيرتهم من هذه المملكة إلى هذا الحد ، فكما قلت فى السابق ، لعلهم كانوا يستطيعون فيما سبق أن يأمروا هذه المملكة عنوة ، إلا أنهم الآن لايستطيعون ، وعليه فهم يسعون لإظهار عقدتهم على نسق آخر ، لم لايحق لشعب إيران أن يستهلك أكثر ؟! كيف يستطيع الفرنسى أن يتناول ٨٧كج من اللحم سنويا ، ويستهلك الأمريكى ١٣٠كج ، لكن حينما يرغب الإيرانى أن يقترب من الأوروبى فى استهلاكه للحم ، يقولون على الفور : ليس لك الحق فى تناول الطعام . ونحن نرفض هذا"(٥٠) .

وهجوم الشاه على الغرب بسبب غيرتهم من تقدم إيران جعل نظامه موضع هجوم، وبالتالى ظهرت موجة جديدة من الهجوم فى الأجهزة الإعلامية .

وقد ذكرت كيهان فى تعليقها على حديث الشاه تحت عنوان "من جيل اعتاد على الهزيمة إلى جيل اعتاد على النجاح" ، تقول : "إن التفكير هذه الأيام فى تقدم إيران على نطاق واسع، والتصور بأن دولتنا تستطيع أن تبلغ أعلى قمة ليس بالأمر الصعب . فكثير من الإيرانيين ، حتى ولو كانوا يهمهمون كالمعتاد ، ويتحدثون عن المستقبل بأسلوب الفلاسفة ، فهم يشعرون من أعماق قلوبهم أن إيران تستطيع حقا أن تصل

إلى هدفها السامى الذى يحولها من شعب قروى رُحل إلى شعب متطور عصرى ، ومعارضو إيران أيضاً رغم غيرتهم وتشبعهم بمضامين التفرقة العنصرية الموروثة ، يعلمون أن إيران إحدى الدول النامية التى تمتلك الفرصة الحقيقية للانضمام إلى زمرة الدول المتقدمة" (٥١) .

وقد عدت صحيفة أيندكان أيضًا فى مقالها الافتتاحى "الشاه والشعب ، القائد والجندى" أن معارضة الغرب وغيرتهم من تقدم إيران هو الباعث على نقدهم إلى إيران:

"إنهم لم يأخذونا بشىء (أى الغرب) ، ولذا لم يفكروا فى أحقيتنا فى الحديث حول تحديد مصير دولتنا ، فماذا يحدث لو أصبحنا أعضاء فى نادى القوى العظمى؟ وطبقًا لقول الشاه ، إنهم يضنون علينا حتى بصهر الحديد الكهنة (*) . وكانوا يقولون بلطف : إن الحديد والفولاذ يلوثان الفضاء الشاعرى "لأرض الزهور والبلابل" ! لكننا اليوم لدينا قيادة لاتريد لإيران شيئًا أقل من أن تكون دولة من الطراز الأول "أى دولة من الدرجة الأولى" ... لاريب أن الحريصين الذين يسعون لإظهار كل حديث يقع لنا فى هذا الطريق على أنه هزيمة كثيرون ، وموعدنا معهم بعد بضعة أعوام ونحن على أعتاب المدنية العظمى ! فى هذا الطريق ، نحن نتوقع مزيداً من الطعنات والضغائن من قبل أولئك الذين لايريدون القوة لإيران لأسباب عديدة ، بل يريدون لها الضعف والفاقة . لكن من الواضح الآن من سيضحك على من فى المستقبل"(٥٢) .

وعلى الرغم من أن الأمريكيين هم أحد المخاطبين الأصليين لهذه الكنايات وتلك الأقاويل غير اللائقة ، لكن قلما كان يذكر اسمهم علانية . ويعد مقال "تحت نقاب الدفاع عن حقوق الإنسان" أحد المواضع المحدودة التى تم الهجوم فيها على أمريكا بشكل مباشر وصريح ، ورد بالمقال:

"إن الحروب الأهلية وصراع الأخوة الذى كان ينشب فى العديد من الأماكن فى العالم نتيجة أعمال المستعمرين الجدد وسياساتهم لبيع المزيد من الأسلحة وأكل الجيفة

(*) إشارة إلى حديث الشاه مع صحيفة كيهان حول عدم استعداد الغرب لأن تتعرف إيران على كيفية صهر الحديد الكهنة، وذلك بهدف الحد من التوسع الصناعى وتقدم إيران.

وتلويث المياه للحصول على السمك، ومثل ذلك مما يستاء له الشعب المسالم وأى إنسان محب للعالم ، وارتكاب الغرب لكل هذه الجرائم وعشرات غيرها . والأسوأ منه ماحدث خلال الثلاثين عامًا الأخيرة من قبل تجار الموت ، والضباع ، وآكلى الجيف ورغبتهم دون حياء فى أن يظهروا الآن فى قالب رسل السلام ، المنقذين، مؤيدى حرية الإنسان . وعلت صيحاتهم من خلال أبواق الدعاية يوجهون فيها التهم بامتهان حقوق الإنسان !

تعالوا لنجعل وجهة نظر الغرب موضع دراسة من عدة نقاط ، ولنوضح عدة نماذج من سلوكهم فى الأمور الحياتية حتى يُعلم كيف يعمل أصحاب مكاتب الإنسانية المزيفون ومؤيدو حقوق الإنسان، وأى المبادئ يرغبون فى تعليمها لبقية شعوب العالم .

لقد أصاب الحرص والطمع والجشع أعين الكثيرين فى الغرب بالعمى الآن ، فهم لايرون شخصًا آخر سوى أنفسهم ، وإن كانت لديهم القدرة على الرؤية ، فإنهم لايرغبون فى أن يحيا أى شخص سواهم على هذه الأرض . لذا فلو حتى تم إغلاق العالم عليهم وأصبح ملكهم وحدهم ، فلن يرتضوا ذلك أيضًا .

وطبقًا للإحصائيات الرسمية المنشورة ، يستهلك الأمريكى من المواد الغذائية ، والملابس ، والبضائع الصناعية والاستهلاكية مايعادل خمسمائة مرة ما يستهلكه البنجلاديشى أو السودانى !

إن الأمريكى يطعم كلبه "الإستيك" (قطع لحم حمراء من فخذ البقرة) ويروى قطه وخنزيره بحليب البقر الطازج . وما يستهلكه الآن ٢٥٠ مليون أمريكى يعادل استهلاك ثلاث مليارات من شعوب العالم الأخرى ، وهذا الاستهلاك يؤدى إلى أذى الشعوب الفقيرة وحرمانها على مستوى العالم .

على سبيل المثال ، إنهم يستوردون ٢٠ مليون برميل نفط يوميا من إنتاج شعوب الشرق الأوسط وغيرها . وهذا ماينطبق على سائر الأماكن المرفهة فى أمريكا وأوروبا الغربية ، فهم من أكثر المستهلكين ومن أكثر شعوب العالم دخلاً وأقلهم عملاً .

وجدير بالذكر أن هؤلاء المدافعين عن حقوق الإنسان ، يعدون أنفسهم نموذجًا للحرية والديمقراطية وغيرها من المفاهيم الخادعة للشعوب .

إن مفهوم حقوق الإنسان يعني أن أظل فقيراً حتى يوم الدين ، بينما تحصد أنت جميع الثروات الإنسانية ، والطبيعية ، والمعدنية وكل نتاج كوني ؟ يعني ألا أملك موطئ قدم في الأرض ، بينما تزداد أنت رفاهية ويقل عملك وتخلو [illegible] من أدنى الهموم وتقيم في أفخم المنازل والشقق ؟ ، والخلاصة يعني أن تحظى أنت بكل النعم ، بينما لا يحق لي أن أمتلك ما يستر جسدي ويغطي قدمي أو حتى كسرة خبز ؟! هل مفهوم حقوق الإنسان يعني ألا يزيد دخل الفرد [illegible] أو السوداني عن [illegible] دولاراً في العام ، بينما تطالب أنت أن يبلغ دخلك السنوي [illegible] ألف دولار ؟ هل مفهوم حقوق الإنسان يعني أن تثير الحروب الأهلية وتقتل ملايين البشر دون الاستفادة من مواهبهم ؟ هل الحرية تعني من وجهة نظركم أمية أطفال العالم ، بينما تستمتعون أنتم بالدراسة في أرقى الجامعات والمدارس ذات الغرف [illegible] في [illegible] المنسقة [illegible] ؟!

سيدي وزير المالية الأمريكي ، إن كل الدخل من النفط الإيراني خلال عام كامل الواحد لا يعادل دخل أحد فروع منتجات جنرال موتورز ، فكيف تستطيع إيران في عام ١٩٨٨م بما لديها من دخل النفط الذي يوازي ٢٣ مليار دولار والتي تشتري [illegible] الأكبر منه بضائع من دولكم – أن تمثل مشكلة لاقتصاد العالم ؟!

إنكم تملكون كل شيء ، غير أنكم اعتدتم على عدة أشياء سيئة ، هي :

١ – التطفل

٢ – الشراء بسعر زهيد والبيع بأسعار باهظة .

٣– [illegible] في التجربة .

٤– عدم الوفاء والدهاء .

٥– الشروع في العمل دون دراية ، والتصنت على أعمال الآخرين التي أحياناً ما تكون ضحية عملكم ، وتصبح مصدر غضبكم .

طبقاً للإحصائيات الرسمية المنشورة ، يوجد الآن ٤٠ مليون شخص من بين ٢٠٠ مليون أمريكي يعانون من أمراض نفسية ، و٢٠ مليون من المجرمين ، وأكثر من ٥٠٪ من الأطباء لديكم مدمنون المخدرات ، والنسبة لديكم بين الأطباء الذين يتناولون المخدرات تجاوزت [illegible] الشعب هي [illegible] .

إذا كانت ناركم متأججة بسبب المساواة ، والحرية وحقوق الإنسان ، فمن الأفضل أن تلقوا نظرة على مكانة بعض الأقليات لديكم الجديرة بالملاحظة، مثل: الزنوج السود، والزنوج الحمر ، وسائر المجموعات التى ترزح تحت نير قبضات طبقات الرأسمالية وذوى النفوذ الأمريكان القاسية ، فها هى تلفظ أنفاسها الأخيرة .

عليكم أن تجيبونا ، هل هذا كله دليل على الحرية والديمقراطية السياسية ؟ لاشك أنه من آثار حقوق الإنسان ! من الممكن ألا أكون قد فهمت معنى هذه الكلمة جيداً ، ولو كان المعنى الذى أدركته هو نفسه الذى أدركتموه ، فما من خلاف فى وجهات النظر . إذا كان مفهوم حقوق الإنسان هو هذه الأشياء وتلك الأعمال التى تمارسونها الآن ، إذن فيجب أن تعلموا بضرورة تبديل المسمى ، ومراجعة اللفظ والمعنى فى معجم العلوم السياسية . فهذا النوع من الأعمال معناه "جريمة" وأولئك الذين تبدر عنهم هذه الأعمال "مجرمون" (٥٣) .

إن اتهامات "العنصرية" ، "والسعى لفرض نموذجهم " ، "والغيرة من تقدم إيران" ، "والاستياء من سياسة إيران القومية المستقلة إزاء الاستعمار " هى من بين الانتقادات التى ذكرت مراراً فى الأجهزة الإعلامية الإيرانية تجاه الغرب - وخاصة أمريكا - منذ شهر خرداد وحتى آبان من نفس العام .

وكما قيل ، إن هذا الهجوم كان فى الحقيقة رد فعل النظام إزاء انتقادات الغرب - وخاصة الأمريكان - فيما يتعلق بوضع حقوق الإنسان فى إيران . بيد أنهم أكدوا أكثر على موضوع النفط ، وعلى أن انتقاد الغرب لوضع حقوق الإنسان فى إيران هو فى الحقيقة رد فعل إزاء مساعى النظام فى إيران ونجاحه فى رفع قيمة النفط فى منظمة الأوبك ، وفرض سياسته النفطية على العالم الغربى .

وفى حديث الشاه الثالث فى ذلك العام أثناء سفره إلى واشنطن فى شهر آبان ، تحدث ثانية حول موضوع "النفط وحقوق الإنسان" ، وردا على سؤال أحد الصحفيين له : "ترى لماذا كل هذا الهجوم على البوليس السرى ومؤسسات المخابرات فى إيران - كالساواك - أو .... فى كوريا الجنوبية بسبب ما تقوم به هذه المؤسسات من أعمال

التعذيب والارتشاء ، فى حين أنهم يغضون الطرف تقريبًا عن الـ (كـ - جى - بى)(*) السوفيتية والـ (دى - جى - إى) ؛(*) الكوبية ، قال الشاه :

"دومًا ما أسأل نفسى هذا السؤال ، وأمل أن تستطيع الإجابة عليه . إننا موضع هجوم شديد فى جميع الجبهات ، وتبدأ الأحداث منذ أربعة أعوام حينما تحدثنا عن النفط . والآن تكررون أنتم والأوروبيون نفس الحديث الذى ذكرناه منذ فترة كلمة كلمة".

وقد ظهر رد فعل آخر للنظام تجاه الاتهام بنقض حقوق الإنسان فى إيران ، وذلك أثناء الاحتفال باليوم العالمى لإعلان حقوق الإنسان فى (١٩ آذار) ، فقد تحدث د. محمد باهرى - رئيس حزب رستاخيز - عن الغرب أثناء هجومه الشديد على الاستعمار ، متهمًا إياه بالتذرع بموضوع حقوق الإنسان للتدخل فى الخاص من شئون إيران . وفى أحد الاجتماعات الخاصة بالحزب تحدث باهرى طارحًا ما يتم ذكره يوميا حول أسبقية إيران فى طرح مبادئ حقوق الإنسان على لوحة مدنيتها :

"إن مضمون ثقافة النظام الشاهنشاهى هو مجموعة من الفضائل الإنسانية والبشرية . وإعلان حقوق الإنسان هو جزء من هذه الثقافة وتلك الفضائل ..... ومنذ آلاف السنين ، وقبل أن يتم إعلان حقوق الإنسان فى أواخر القرن الثامن عشر فى فرنسا .... وافق شعب إيران على بنود هذا الإعلان ومبادئه وعمل به . ولاتوجد سابقة على مدى التاريخ توضح أن إيران قبلت أو وافقت على أى تحديد غير معقول تجاه الحريات .... إن شعبنا لم يستخدم قط حقوق الإنسان على أنها قناع يخفى وجهه وراءه ... إن الإيرانى لايؤمن قط بأن حقوق الإنسان ومفاهيمها السامية هى وسيلة للتدخل فى شئون الدول الأخرى .... ومع هذا فإن حقوق الإنسان التى تتقدم اللوحة الفخرية للنظام الشاهنشاهى فى المجتمع الإيرانى أصبحت هذه الأيام وسيلة للاعتداء على كرامتنا وفخرنا القومى . وأولئك الذين يرغبون فى الاعتداء على حدود حرمتنا وكرامتنا القومية للحصول على أهدافهم غير المشروعة يتمسكون بمسألة حقوق الإنسان" (٥٤) .

(*) اسما مؤسستين للمخابرات فى الاتحاد السوفيتى السابق وكوبا .

كما صرح عضو مجلس الشيوخ السيد تربتى – رئيس اللجنة البرلمانية للدفاع عن حقوق الإنسان – فى حديث له بمناسبة اليوم العالمى لحقوق الإنسان (فى مجلس الشيوخ) قائلاً :

"إن أحد أهداف هذه اللجنة هو مواجهة المؤسسات والجماعات التى تتخذ من حقوق الإنسان غطاء لتنفيذ أغراضها وأهدافها السيئة " (٥٥) .

ويجدر بنا فى نهاية هذا الفصل طرح السؤال التالى : إلى أى حد كان الشاه ورجال حكومته وصحافة إيران يؤمنون بما كانوا يقولون فى هذا الشأن ؟ وهل الانتقادات الموجهة حول نقض حقوق الإنسان وانعدام الحريات الأولية فى إيران كانت فى الحقيقة عبارة عن مؤامرة منظمة من قبل الاستعمار والإمبريالية لمواجهة نظام الشاه وإخضاعه بسبب السياسات النفطية والتقدم الملفت للأنظار وتحويل إيران إلى إحدى القوى الصناعية وتنفيذها السياسة القومية المستقلة ؟ وهل حقا لم يستطع رجال حكومة إيران وصحافتها إدراك أن التأكيد على حقوق الإنسان كان جزءًا من السياسة الخارجية للحكومة الأمريكية الجديدة على المستوى الدولى ؟ أم أن الفكرة التى خطرت فى مخيلة طارحى هذه السياسة هى الانتقام من إيران والشاه فقط ؟

وردا على تلك الاستفسارات يجب الإشارة إلى أن المسئولين والصحافة الإيرانية لم يكونا فى منأى عما كان يحدث على ساحة العلاقات الدولية ، وخاصة فى العلاقات مع أمريكا . فقد وضحنا فى بداية هذا الفصل أن تأكيد الحكومة الجديدة على موضوع حقوق الإنسان والآثار والمشاكل الناتجة عن هذه السياسة فى علاقتها بحلفائها ، كان من جملة الموضوعات التى حظيت باهتمام بالغ فى الصحافة الإيرانية . لكن مثلما ذكرنا من قبل عند تحليل نظرية "افتراض التآمر" كانت هذه الأفكار على نحو قلما تتفق فيه مع المنطق والواقع .

على سبيل المثال ، فى عشرات المقالات الافتتاحية ، والتحاليل ، والخطب والأحاديث التى تمت خلال عام ١٣٥٦ش (١٩٧٨م) من قبل الشاه أو كبار المسئولين فى النظام والصحافة ، لم يُطرح هذا الاستفسار البسيط ولو لمرة واحدة! وإذا كانت وجهة نظر الشاه والنظام فى إيران صحيحة ، وأن بواعث الغرب فى نقدهم هى مسألة النفط ، ففى هذه الحالة ، وطبقًا للمعتاد ، يجب أن يتم هذا الهجوم فى عام ١٣٥٢ش (١٩٧٣م) عندما تضاعفت قيمة النفط إلى أربعة أضعاف، وليس بعد ذلك بأربعة أعوام!

والسؤال الأهم : إلى أى مدى كان دور إيران فى ارتفاع قيمة النفط ؟ وكذلك ادعاء النظام بأن الانتقادات الموجهة بسبب نقض حقوق الإنسان فى إيران ناتجة عن حسد الغرب من التقدم المثير للعجب فى إيران ، هو فى الوقت نفسه يثير هذا التساؤل.

وفى الحقيقة مامن شخص فى الغرب كان يرى أن إيران تمثل إحدى القوى الصناعية ، فما الذى حدث (بجريرة هذا الذنب) كما يزعم المسئولون الإيرانيون كى يضمر الغرب فى نفسه الحقد والحسد ، ثم يبديهما بحجة نقضه حقوق الإنسان فى إيران ؟

وردا على التقارير التى نشرت حول نقض حقوق الإنسان فى إيران ، تحدث نظام إيران وصحافتها عن كل شىء وعن كل شخص . تحدثوا عن غلاء النفط وانخفاض قيمة الذهب ، عن إدمان الأطباء الأمريكان والانحلال الأخلاقى للغرب، عن امتهان حقوق الطائفة الحمراء ونفى الطائفة السوداء ، عن سعى الغرب لفرض نظامه على العالم ، عن تاريخ الرق فى الغرب واستغلال العالم الثالث عن طريق الإمبريالية ، عن الهجوم على الدول بواسطة الاستعمار القديم والجديد ، عن سياسة إيران القومية المستقلة وغضب القوى العظمى من هذه السياسة ، وأخيراً تحدثوا عن سعى الغرب الحيلولة دون امتلاك إيران مصانع لصهر الحديد . تحدثوا عن كل هذا باستثناء الموضوع الأصلى لهذه التقارير ، وهو: هل هذه الاتهامات الموجهة كانت حقيقية أم لا ؟ هل أسماء الأشخاص التى وردت فى هذه التقارير وتم اعتقالهم عن طريق الساواك كان حقيقة أم لا؟ هل الادعاء باستخدام التعذيب عن طريق الساواك كان حقيقة أم لا؟

وبدلاً من ذلك قاموا بنشر حشد من الموضوعات والمسائل الفلسفية ، والتاريخية ، والاجتماعية ، والعقائدية – كما عرضناها – فى الصحافة ويبدو أن التكرار كان قادراً – ولو بشكل فكرى – على تبديل نظرية "افتراض التآمر" إلى واقع لايقبل الخدش .

ومن الممكن أن يكون هناك بعض التشكك فيما يتعلق بإلى أى مدى كان مسئولو نظام الشاه يؤمنون بالأسباب التى وردت فى الرد على انتقادات المحافل الغربية حول نقض إيران حقوق الإنسان ، لكن قلما يوجد مثل هذا الشك فيما يتعلق بإيمان الشاه بهذه الأسباب (٥٦) .

الهوامش

(١) المقصود هنا حكم چون كنيدى الذى تمكن من الوصول إلى الحكم عن طريق الحزب الديمقراطى فى انتخابات الرئاسة الأمريكية عام ١٣٣٩ ش (١٩٦٠م) .

(٢) . Ledeen and Lewis "Debacle", op. cit. p. 79

(٣) اطلاعات ، ١٠ أرديبهشت ، ١٣٥٦ ش .

(٤) جزء من حديث كارتر الشهير فى جامعة نوتردام ، كيهان ، ٢ خرداد ١٣٥٦ ش.

(٥) حديث الشاه مع رئيس تحرير مجلة Newsweek ، رستاخيز، ١٨ آبان، ١٣٥٦ ش.

(٦) حديث الشاه لصحيفة شيكاغو تريبيون ، ١٩ آبان ١٣٥٦ ش، نقلاً عن صحيفة رستاخيز ، ٢٤ آبان ١٣٥٦ ش .

(٧) نفسه .

(٨) رستاخيز، ٢٤ آبان ، ١٣٥٦ ش.

(٩) نفسه .

(١٠) حديث الشاه مع إدوارد سابليه فى طهران ، نقلاً عن صحيفة "آيندگان"، ٣١ خرداد ١٣٥٦ ش.

(١١) اطلاعات ، ٧ خرداد ١٣٥٦ ش.

(١٢) نفسه .

(١٣) رستاخيز، ٨ فروردين ١٣٥٦ ش.

(١٤) رستاخيز، ١٠ فروردين ١٣٥٦ ش.

(١٥) رستاخيز، ١ أرديبهشت ١٣٥٦ ش.

(١٦) اطلاعات ، ٢٥ فروردين ١٣٥٦ ش.

(١٧) رستاخيز، ١٠ فروردين ١٣٥٦ ش.

(١٨) رستاخيز، ٢٣ فروردين ١٣٥٦ ش.

(١٩) رستاخيز، ١٥ تير ١٣٥٦ ش.

(٢٠) وردت فى صحيفة رستاخيز ، ٨، ١١ فروردين ، ٣١ خرداد ، وصحيفة كيهان، ٢٢ ، ٢٨ خرداد ، ١٤، ٢١ تير، ٢ مهر ، وصحيفة آيندگان ، ٢٤، ٢٥ مهر من عام ١٣٥٦ش.

(٢١) رستاخيز، ١٣ أرديبهشت ١٣٥٦ ش.

(٢٢) ورد فى صحيفة رستاخيز، ٧ ، ٢٤ ، ٣١ أرديبهشت ١٣٥٦ش، كيهان، ٢٢،١٩ خرداد ١٣٥٦ش.

(٢٣) يوضح هذا الجزء من رد زاهدى أنه كان يؤمن - كغيره من المسئولين داخل المملكة - بأن طرح موضوع حقوق الإنسان من قبل كارتر لم يكن أكثر من دعايات وتكرار للأكلشيهات المتداولة.

(٢٤) أيندگان ، ١٨ أرديبهشت ، ١٣٥٦ش.

(٢٥) رستاخيز، ١٨ أرديبهشت، ١٣٥٦ش.

(٢٦) نفسه ، ٢٤ آبان ، ١٣٥٦ش.

(٢٧) رستاخيز، ١٧ خرداد، ١٣٥٦ش.

(٢٨) نفسه ، ١٣ تير ، ١٣٥٦ش.

(٢٩) نفسه، ١٦ تير، ١٣٥٦ش .

(٣٠) أيندگان، ٣٠ خرداد، ١٣٥٦ش .

(٣١) رستاخيز، ١٣ تير، ١٣٥٦ش.

(٣٢) حديث الشاه للصحفى والمحلل الفرنسى إدوارد سابليه، كيهان ٣٠ خرداد ١٣٥٦ش.

(٣٣) نفسه .

(٣٤) رستاخيز، ٣٠ خرداد ١٣٥٦ش.

(٣٥) حديث الشاه مع إدوارد سابليه، كيهان، ٣٠ خرداد ١٣٥٦ش.

(٣٦) نفسه .

(٣٧) رستاخيز، ٣١ خرداد ١٣٥٦ش .

(٣٨) رستاخيز، ٢ تير ١٣٥٦ش.

والمقصود هنا الثورة البيضاء أو ثورة الشاه والشعب . (المترجم)

(٣٩) اطلاعات، ١٤ تير ١٣٥٦ش .

(٤٠) كيهان ، ٧ تير ١٣٥٦ش .

(٤١) نفسه.

(٤٢) كيهان، ٢٣ تير ١٣٥٦ش .

(٤٣) نفسه .

(٤٤) نفسه .

(٤٥) رستاخيز، ١٥ خرداد ١٣٥٦ش.

(٤٦) كيهان، ٦ شهريور ١٣٥٦ ش.

(٤٧) كيهان، ١٠ شهريور ١٣٥٦ش.

(٤٨) كيهان، ١ شهريور ١٣٥٦ ش.

(٤٩) نفسه .

(٥٠) كيهان، ٢١ شهريور ١٣٥٦ ش.

(٥١) كيهان، ٢١ شهريور ١٣٥٦ش.

(٥٢) آينده‌گان، ٢٣ شهريور ١٣٥٦ش.

(٥٣) اطلاعات ، ٣٠ مهر ١٣٥٦ش.

(٥٤) رستاخيز، ٢٠ آذر ١٣٥٦ ش.

(٥٥) اطلاعات، ٢٠ آذر ١٣٥٦ش.

(٥٦) لمزيد من التفاصيل حول نظرة الشاه إلى أحداث أزمة ثورة إيران الإسلامية ، انظر الجزء الثاني ، الفصل الثاني.

الفصل الخامس

« الانفتاح السياسى »

لم يكن الهجوم أو التصريحات غير اللائقة من قبل النظام والأجهزة الإعلامية ضد الغرب حول موضوع حقوق الإنسان إلا أحد وجهى العملة الخاصة برد فعل إيران . والوجه الآخر لها ، والذى كان يفوق الوجه السابق بمراحل من حيث الأهمية ، هو التطورات السياسية التى سرعان ما بدلت إيران بشكل نسبى.

ولإدراك عمق وجدية هذه الإجراءات ، يكفى فى البداية أن نلقى نظرة على التغييرات التى طرأت على وضع المعتقلين السياسيين خلال عام ١٣٥٦هـ .ش (١٩٧٧م) . فقد أشرنا سالفًا إلى كيفية ارتفاع عدد المعتقلين السياسيين فى إيران فى أقل من خمسة أعوام من بضع مئات إلى عدة آلاف معتقل مع بداية نشاط الجماعات الفدائية فى أوائل عام ١٣٥٠هـ .ش (١٩٧١م) . وفضلاً عن طبيعة المقاومات المسلحة ، يوجد عاملان آخران أديا إلى هذه الزيادة الملحوظة ، أولهما :

إن جهاز السافاك نحى جانبًا الأحكام المخففة (الأقل من العامين) منذ أواخر عام ١٣٥٢هـ .ش (١٩٧٣م) ، ومنذ بداية عام ١٣٥٣هـ .ش (١٩٧٤م) تم تنفيذ الأحكام القاسيةالتى تراوح بين عشرة إلى خمسة عشر عامًا أو المؤبد تجاه المتهمين الذين لم يرتكبوا أى عمل إجرامى بالفعل ، وكان أقل حكم يصدر ضد المعتقلين السياسيين هو ثلاث سنوات . أى أن المتهمين الذين لم يكن لهم من جريرة سوى مطالعة كتاب ما أو قراءة أحد بيانات المعارضة يتم الحكم عليهم بالسجن لمدة ثلاث سنوات .

والعامل الآخر : عبارة عن الحيلولة دون إطلاق سراح السجناء الذين انتهت مدة أحكامهم . فقد اكتشف جهاز السافاك تدريجيا أن بعض المعتقلين السياسيين الذين

تم القبض عليهم خلال عامى ٥٠ - ١٣٥٢هـ .ش (٧١ - ١٩٧٣م) وكانوا على اتصال بالمجموعات الفدائية وطبقت عليهم أحكام مخففة ، يتصلون ثانية بهذه الجماعات بعد إطلاق سراحهم . وإذا ما كان اتصالهم فى البداية مع الجماعات الفدائية يتسم بالسطحية ، فإنهم يصبحون أعضاءً مؤثرين فيها بعد إطلاق سراحهم . ولما كانت مطاردة السجناء الذين تم إطلاق سراحهم ومراقبتهم كل على حدة تعد من الصعوبة بمكان بالنسبة لجهاز الساواك ، ونظرًا لعدم تمكن جهاز الساواك أيضًا من الاطمئنان التام إلى تحديد السجين الذى سوف يتجه إلى النشاط المسلح بعد إطلاق سراحه ، والآخر الذى سوف يبتعد عن المسائل السياسية إلى الأبد ؛ لذا اختار مسئولو الأمن فى الدولة طريق الحل الأسهل ، وامتنعوا تمامًا عن إطلاق سراح المذنبين الذين انتهت فترة أحكامهم . وتم هذا الأمر تقريبًا منذ بداية عام ١٣٥٤هـ .ش (١٩٧٥م) .

والمعتقلون الذين انتهت فترة أحكامهم ، انتقلوا ثانية إلى سجن «أوين» عن طريق جهاز الساواك مع صدور «قرار الاعتقال» . وقد أعد الساواك سجنًا خاصا لهذا النوع من المساجين ، وعُرف المعتقلون السياسيون باسم «ملى كش» - أى قاتلو الوطن - وبلغ عددهم فى أواخر عام ١٣٥٥هـ .ش (١٩٧٦م) ما يقرب من الألف شخص.

والمشكلة الأخرى التى واجهها جهاز الساواك هى اتصال المعتقلين السياسيين بمن هم خارج السجن عن طريق زائريهم . فعلى الرغم من السيطرة التامة والتضييق المفرط حول أمر الزيارة ، إلا أن بعض السجناء نجحوا فى تبادل المعلومات مع من بالخارج عن طريق زائريهم . وقد أوضحت التجربة للساواك أن قناة الاتصال تتم أساسًا عن طريق أقارب المساجين الشباب (أى الأخوة والأخوات) ، ومن هنا رأى الساواك الحل فى قصر الزيارة على الأب، والأم والزوجة. ومنذ أواسط عام ١٣٥٤هـ.ش (١٩٧٥م) لم يستطع أى عضو من أعضاء أسرة السجناء القيام بالزيارة باستثناء الأب ، والأم والزوجة (ولا شك أن السجين كان فى إمكانه مراسلة أقاربه) .

كان هذا فيما يتعلق بالسجناء الذين انتهت فترة أحكامهم ، وكانوا يعيشون فى سجن القصر . أما بالنسبة للسجناء الذين كانوا يعيشون فى سجن «أوين» ، أو أولئك الذين يقضون فترة التحقيق فى سجن «كميته» [1] فلم يكن لهم فى الأصل أى ترتيب خاص بالزيارة .

وقلما كان يسمح المحققون ومسئولو السجن فى «أوين» أو «كميته» بالزيارة، وكثيراً ما منعت الزيارة تماماً عن بعض السجناء على مدار العام . وكان يتم استخدام شتى ألوان التعذيب بشكل منتظم وعلى نطاق واسع فى مراحل التحقيق ، وبعد المحاكمة وصدور الحكم كان من المفروض ألا يكون هناك مبرر للقيام بتعذيب المتهم ، لكن التعذيب كان يتم أيضاً داخل السجن كنوع من العقاب على السجناء الذين قاموا بارتكاب خطأ ما من وجهة نظر مسئولى السجن .

ولا يمكن وصف الوضع الغذائى للسجناء ، خاصة لدى المحتجزين فى سجن القصر ، فكان مسئولو السجن يمنعون السجناء من استلام الأطعمة من أقاربهم للضغط عليهم ، ولم يُسمح لهم أيضاً بشراء احتياجاتهم على نفقتهم الخاصة .

ولم يكن الوضع الصحى والعلاج بالشىء الجيد أيضاً ، وكثيراً ما تم رفض مطالب السجناء المرضى المتكررة للانتقال إلى مصحة السجن لإجراء الفحوصات. والسجين الذى يتعرض لمرض ما ، عليه أن ينتظر لساعات حتى يأتيه الرد فى النهاية . وكان يتم تحديد عدد معين من السجناء المرضى أسبوعيا للذهاب إلى مصحة السجن ، وإذا زاد عددهم عن الحد الذى أقره مسئولو السجن فلم يكن يسمح بالذهاب إلى المصحة إلا للعدد المحدد دون إضافة .

وكان وضع الكتاب ، والاطلاع واستخدام الأجهزة الإعلامية على نفس السياق . فكان السجناء محرومين تماماً فى سجن «أوين» و «كميته» من قراءة الكتب ، واقتناء أدوات الكتابة ، والصحف ، ومراسلة من هم خارج السجن . وكانت وسيلة الاتصال الوحيدة بينهم وبين العالم الخارجى فى سجن «أوين» هى جهاز التلفاز ، وكان استخدام المذياع ممنوعاً تماماً بسبب إمكانية استقبال الإذاعات الأجنبية .

بيد أن الوضع كان على نحو أفضل داخل سجن القصر ، ففضلاً عن التلفاز، كان السجناء يحصلون كل ليلة على إحدى الصحف ، فضلاً عن السماح لهم باقتناء الكتب الدراسية والعلمية .

ولما علم مسئولو السجن بوجود عدد من الكتب غير الدراسية - التى كانت بلا شك باقية عن السنوات السابقة - منعوا الكتب غير العلمية كنوع من العقاب . فمن

وجهة نظرهم ، أن كل كتاب فى حوزة السجناء هو بلا شك ضار ويحوى موضوعات غير مناسبة .

لكن كل هـذه المضايقات تغيرت منذ أواخر عام ١٣٥٥هـ .ش (١٩٧٦م) بشكل لا يصدق . فقد نشرت الصحف فى ١٢ بهمن من نفس العام عنوانًا بالبنط العريض يقول : «بأمر الشاه ، لن يتم التعذيب فى إيران ثانية» . وكتبت صحيفة كيهان ردا على «منظمة العفو الدولية» - التى اتهمت النظام فى إيران فى أحدث تقريرلها باستخدام التعذيب ضد المعتقلين السياسيين - تقول :

«ما من شك أنه كان يوجد فى إيران بعض الأمور التى تطلبت استخدام التعذيب. وقد عرف أن تيمور بختيار(٢) (الذى كان يقتل بحذائه ، وتم طرده من الجيش) على أنه أحد القائمين بالتعذيب وأنه من ذوى السمعة السيئة ، وكان أحد أسباب طرده هو هذا الموضوع . لكن هذه الإجراءات السابقة لا يجب أن تؤخذ على أنها «ذنب أولى» أو حجة للهجوم الشرس وإلقاء التهم الواهية ضد إيران اليوم (٣) .

وحين كان يتم السعى كى يكون استخدام التعذيب ضد السجناء فى إيران تذكاراً عن الماضى ، وإلقاء هذا الذنب على عاتق التاريخ وتحت أقدام تيمور بختيار الذى خرج من إيران منذ ما يقرب من خمسة عشر عامًا ، كتبت الصحف عناوين بالبنط العريض تقول : «إن سجون إيران مفتوحة لزيارة الأفراد المحايدين» وذلك بعد يومين من إعلان الكف عن أعمال التعذيب فى إيران . ولنتغاض عن ذكر التحسن النسبى فى وضع السجن (من حيث الصحة ، والغذاء ، والعلاج ، والإمكانيات الجديدة الإضافية للسجناء ، والسماح ثانية بالزيارة للأقارب من الدرجة الأولى ، ودخول الكتب ، وتوقف العنف والتعذيب ...... إلخ) لأن هذه التغيرات على الرغم من كونها مهمة ، إلا أنها لا تحظى بنفس القدر من الأهمية إذا ما تم مقارنتها بالموجة التى بدأت بإطلاق سراح السجناء .

ففى كل عام كان يتم العفو من قبل الشاه عن عدد من مذنبى المحاكم العسكرية وذلك فى مناسبات خاصة . وهذه المناسبات هى : ٢٨ مرداد [ذكرى الانقلاب الذى أدى إلى سقوط حكومة د . مصدق وعودة الشاه إلى أرض الوطن عام ١٣٣٢هـ .ش (١٩٥٣م)] ، والرابع من شهر آبان (يوم ميلاد الشاه) وعيد النيروز . وأحيانًا كان يتم العفو أيضًا فى التاسع من شهر آبان (يوم ميلاد ابن الشاه ولى العهد السابق) .

وكان المدانون السياسيون بشكل عام يشكلون جزءًا ضئيلاً من عدد المتهمين فى المحاكم العسكرية، أما الباقون فكانوا عبارة عن : مهربى المخدرات، ومهربى الأسلحة ، واللصوص المسلحين ، وأعضاء القوات المسلحة والقوة العسكرية الذين ارتكبوا بعض الجرائم . وكان العفو يشمل السجناء غير السياسيين ؛ لأن العديد من السجناء السياسيين لم يطلبوا العفو ، حتى ولو كانوا قد طلبوه ، فلم يكن يُسمح بإطلاق سراحهم دون موافقة السافاك .

وفى الوقت الذى كان يتم فيه العفو عن المئات ، نجد أن عدد المعتقلين السياسيين الذين تم إطلاق سراحهم لم يكن يزيد عن عدد أصابع اليد . فلم يبلغ عدد المعفو عنهم فى العام أكثر من عدد أصابع اليد الواحدة . وعدد المعتقلين السياسيين الذين تم العفو عنهم فيما بين عامى ٥٠ - ١٣٥٥هـ ش (٧١ - ١٩٧٦م) بمناسبة ذكرى ٢٨ مرداد ، و٤ آبان وعيد النيروز لم يزد عن ثلاثين شخصًا . لكن الأمر اختلف دفعة واحدة منذ شهر بهمن من عام ١٣٥٥هـ .ش (١٩٧٦م) ، حيث تم أول تغيير فى ١٤ بهمن حينما أعلنت الصحافة بعناوين بارزة وبصورة كبيرة للسجناء الذين أطلق سراحهم على الصفحات الأولى عن خبر إطلاق سراح ٦٦ سجينًا «مخالفًا للأمن» ، (٤) وقد تم إطلاق سراحهم «بقرار عفو ملكى بمناسبة الذكرى الخمسين للحكم الشاهنشاهى البهلوى ودفع الخطر عن الشاه» (٥) .

واقترن عام ١٣٥٦هـ .ش (١٩٧٧م) بإطلاق سراح عدد كبير من المعتقلين السياسيين ، وإذا ما كان قد تم إطلاق سراح ٦٦ سجينًا فى السابق فى إطار عرض يدل على «ندم السجناء عن أعمالهم السابقة» (حيث تم جمعهم فى أحد الأحاديث وقام واحد منهم مهللاً بمدح الشاه والثناء عليه) ، لكن الأمر اختلف فى عام ١٣٥٦هـ .ش (١٩٧٧م) حيث لم يكلف النظام نفسه مشقة نصب خيام هذه العروض .

وقد بدأت الموجة الأولى فى ذكرى ٢٨ مرداد . ففى السنوات السابقة كان عدد المعفو عنهم فى هذه المناسبة اثنين أو ثلاثة ، ولم يزيدوا عن خمسة أشخاص بأى حال من الأحوال . أما فى هذا العام قد تم العفو عن ٣٤٣ سجين سياسى ، وأخرجوا من السجون . وهذا الرقم هو أضعاف ما تم إطلاق سراحه على مدى ستة وثلاثين عامًا من حكم الشاه .

ويجدر بنا استثناء عدد سجناء حزب توده الذين تم القبض عليهم مع زوال المؤسسة العسكرية للحزب فى عام ١٣٣٤هـ . ش (١٩٥٥م) ، وتم العفو عن كثير منهم بعد ذلك .

وكانت الموجة الثانية بعد شهرين فى الرابع من آبان ، حيث تم إطلاق سراح ١٣١ سجين سياسى . والأمر الجدير بالملاحظة فى هذا المقام ، أن النظام كان يواجه مشكلة النقص فى المناسبات التى يتم فيها إطلاق سراح السجناء السياسيين . فمع انتهاء الرابع من آبان انتهت المناسبات . وفى الوقت الذى كان يعد فيه الساواك ملفات أخرى للمتهمين السياسيين على وجه السرعة ، كان النظام يبتدع مناسبات جديدة بين مشاعر عدم التصديق من قبل المعارضين . كان أول هذه المناسبات ١٩ آذر (اليوم العالمى لصدور بيان حقوق الإنسان) ، و٢٤ اسفند [ذكرى ثورة رضا خان فى عام ١٢٩٩هـ.ش (١٩٢٠م)] وأخيراً ٢٧ اسفند (يوم ميلاد رضا شاه) . ووفقاً لترتيب هذه المناسبات «المستحدثة» تم إطلاق سراح ٢١ ، و٤٠ ، و٢٦ سجيناً سياسيا .

وعلى هذا النحو تم إطلاق سراح ٥٦١ سجين سياسى خلال عام ١٣٥٦هـ.ش (١٩٧٧م) ، فضلاً عن إلغاء قرار الاعتقال العام والخاص بقاتلى الوطن – ملى كش – وتم إطلاق سراحهم زرافات زرافات .

والمنظمات الدولية المشرفة على حقوق الإنسان ووضع السجناء السياسيين لم يكن يسمح لها قط بزيارة سجون إيران على الرغم من الإصرار المتكرر فى السابق ، والآن يتوجهون إليها بعد أعوام عديدة من الانتظار . فقد قدم إلى إيران مارتين آنالز **Martin Annals** – رئيس منظمة العفو الدولية – فى شهر خرداد من عام ١٣٥٦هـ .ش (١٩٧٧م) وتقابل مع الشاه . وبعد أسبوع أو اثنين من هذا اللقاء قدم إلى إيران ويليام باتلر **William Butler** ويصحبته عدد من كبار أعضاء «اللجنة الدولية للمحققين» للنظر فى كيفية المحاكمات والتحقيق فى وضع السجناء السياسيين . وفى السادس من شهر تير قام نواب عن الصليب الأحمر الدولى بزيارة عامة لسجناء إيران . وفى شهر بهمن تم الإعلان عن قيام الصليب الأحمر بزيارة إيران للمرة الثانية لتفقد أحوال السجناء بها ، ونشر خبر هذه الزيارة على صفحات الجرائد بالبنط العريض ، وتم الإشارة إلى

حديث رئيس اللجنة الدولية للصليب الأحمر «إن كبار المسئولين فى إيران يرغبون فى هذه الزيارات» .

وتستنتج صحيفة «آيند گان» فى مقالها الافتتاحى تحت عنوان «تعهدات إيران الجادة» ضمن مباهاتها بأن إيران إحدى الدول المعدودة التى تسمح للمنظمات الدولية بزيارة سجونها ، أن هذا دليل على أمر واقع وهو أن إيران قد أخذت تعهداتها الدولية مأخذ الجد فى هذا الشأن(٦) .

وكانت الخطوة التالية التى تمت فى شهر مرداد من نفس العام هى تغيير أسلوب الدفاع عن المتهمين فى المحاكم العسكرية (ويشمل أيضاً المتهمين السياسيين) . وكان الوضع قبل ذلك يمكن المتهمين فى المحاكم العسكرية من الاستعانة بالمحامين العسكريين فقط ، ولكن مع الموافقة على القانون الجديد (فى مجلس الشيوخ) تمكنت هذه النوعية من المتهمين - للمرة الأولى - من الاستعانة بمحامين عاديين أثناء محاكمتهم . وكان الإجراء المهم الذى تبع ذلك هو محاكمة المتهمين الذين تم القبض عليهم بجريرة اشتراكهم فى المظاهرات أو فى الأنشطة المعادية للنظام فى المحاكم العادية .

ومع تنفيذ سياسة «المجال المفتوح» الجديدة ، لم يتم فقط تبرئة ساحة العديد من المتهمين أو الحكم عليهم بدفع غرامات نقدية ، بل إن بعض محاميهم أجلسوا النظام على كرسى الاتهام بدلاً من المتهم ، وطالبوا بمحاكمته(٧) .

وأحاديث الشاه فى هذا الشأن توضح إلى أى مدى حظى هذا التغيير فى وضع السجناء السياسيين باهتمام النظام . ففى حوار للشاه مع صحيفة «شيكاغو تريبيون» فى شهر آباد من نفس العام ، سأله أحد الصحفيين صراحة ودون مواراة عن السجناء السياسيين وحقوق الإنسان والتعذيب ، قائلاً: «ربما تكون أكثر الانتقادات الموجهة إلى صاحب الجلالة حدة من قبل المؤسسات الدولية ذات الثقل هى ما تتعلق بحقوق الإنسان . فسيادتكم متهم باستخدام ألوان التعذيب وسحق المعارضين السياسيين الذين لم يلجأوا إلى استخدام أساليب العنف ، لكن بين أيدينا الآن دلائل تشير إلى أن حكومة إيران قد سلكت مسلكاً أكثر ملائمة فى هذا الخصوص . ما السبب فى تغيير هذا المسلك ؟ » (٨) .

وعلى الرغم من أن الشاه فى رده على حديث الصحفى قد اعترض على عدم استخدام المعارضين أساليب العنف ووصفهم بأنهم إرهابيون يتسمون بالقسوة والعنف ، إلا أنه أعلن صراحة : «لقد ذكرنا منذ عام أنه لن يتم استخدام التعذيب ثانية تجاه أى نوع من الجرائم أيا كان» (٩) .

وفى نفس الحديث اقترح الصحفى أن تتم زيارة سجناء إيران لإثبات حديث الشاه حول توقف أعمال التعذيب تجاههم وتحسين أوضاعهم ، ولإثبات أيضاً أنهم لا يزيدون عن ٢٢٠٠ سجين وفقًا لما ذكره الشاه من قبل ، وقد أجاب الشاه بشكل حاسم وحازم « .... من الذى يتهمنا ؟ وبأى حق ؟ لو أن موضوع احترام مبادئ حقوق الإنسان وتنفيذها يعنى كرامة الأفراد وضمان حقوقهم الاقتصادية ، فإننى أطلب منك أن تشير لى على دولة تفضلنا فى هذه النواحى» .

وفى حديث آخر له أثناء سفره إلى أمريكا وقيامه بالتباحث مع چيمى كارتر ، وردا على السؤال : «هل كان موضوع حقوق الإنسان ضمن مباحثاتكما (أى الشاه وكارتر) ؟ » أجاب الشاه قائلاً :

«رغم أن المباحثات فى هذا الشأن لم تتم بشكل رسمى ، لكننى أوضحت الإجراءات التى تمت بشأن تحسين أوضاع أولئك الذين تم سجنهم لأسباب ما»(١٠) .

وبموازاة التغييرات الملحوظة فى وضع السجناء السياسيين فى الدولة ، وإطلاق سراح المئات منهم والانخفاض الملموس فى استخدام طرق التعذيب ضدهم، أظهر «الانفتاح» الجديد آثاره على مستويين آخرين . أحدهما قلة الاعتقال وإمكانية إبداء وجهات النظر الناقدة بشكل نسبى . وبموازة هذا التغيير، كان إدراج بعض الأخبار عن نشاط معارضى النظام مظهراً آخر «للانفتاح الجديد» .

وفيما يتعلق بقلة الاعتقالات والسماح بإبداء وجهات النظر الناقدة ، يجب التأكيد على معدلها النسبى من ناحية ، وعلى ماهية الانتقادات الموجهة من جهة أخرى . ولم يكن الكف عن القيام بالاعتقال هو الذى جعل المعارضين يشعرون أنهم يتمتعون بالحرية كاملة . وإمكانية توجيه النقد ضد أعمال النظام لم يكن يعنى أن باستطاعة أى شخص توجيه أى نقد أو إبداء وجهة نظر معارضة لسياسات النظام أو لرجال الحكومة

والمسئولين بلا وجل أو خوف . لكن فى كل الأحوال فإن نفس هذا المعدل والمقدار المعين لإبداء الرأى جدير بالملاحظة إذا ما قورن بالوضع فيما مضى ، مع الأخذ فى الاعتبار أن النظام والمسئولين فى المملكة كانوا فى السابق يقرنون أعمالهم دوماً بألفاظ وألقاب من قبيل : «قلما يوجد لها نظير ، بلا نظير ، ثورية ، مصيرية ، تاريخية» وما إلى ذلك ، حتى أنهم ظنوا أن التطورات الاجتماعية والاقتصادية فى إيران كانت أرقى من المعجزات الاقتصادية لألمانيا واليابان بعد الحرب وأكثر إبهاراً منها !

وإمكانية توجيه النقد أو إبداء الرأى والإشارة إلى بعض الأعمال غير الصحيحة هو فى حد ذاته تغيير مهم . ولا شك أن النواحى السياسية لم تكن هى المهيئة لظهور هذا التحول بمفردها . فبعض المشاكل الاقتصادية التى ظهرت ، ومن بينها ، بل ومن أهمها انقطاع التيار الكهربائى المتكرر فى النصف الأول من عام ١٣٥٦هـ ش (١٩٧٧م) ، وبعض السلبيات ، وفشل بعض المشاريع الحكومية ، والغلاء وبعض الأمور الأخرى المشابهة جعلت «معجزة القرن الاقتصادية» - وهو المصطلح الذى أطلقه الشاه ورجال نظامه على أوجه التطورات فى إيران - موضع نقد . لذا فإن المسئولين - ضمن منحهم الآمال الجديدة فيما يتعلق بـ «الانفتاح» وإعلانهم عن إمكانية توجيه النقد إلى برامج الدولة - كانوا فى الوقت نفسه يحذرون من ضرورة أن تتم هذه الانتقادات الموجهة مع الأخذ فى الاعتبار نتائج العشرة أو الخمسة عشر عاماً الأخيرة فى إيران والتى عُرفت : بالتاريخية ، المصيرية ، التى لا نظير لها ، التى لا سابق لها والتى تفوق الخيال .

ويمكن أن نتتبع الإشارات الأولى حول «الانفتاح» فى حديث أمير عباس هويدا رئيس الوزراء فى شهر تير من عام ١٣٥٦هـ .ش (١٩٧٧م) وذلك فى اجتماعه بنادى الإذاعة والتليفزيون مع الصحفيين والكتاب والعاملين بالأجهزة الإعلامية ، فقد صرح هويدا فى ذلك اللقاء أثناء تقديره لمكانة القلم وحق الحرية فى الفكر مؤكداً على ضرورة تمتع القلم بالحرية ، يقول :

«جميعنا يرغب فى أن يعيش داخل مملكة تتمتع بحرية القلم . إن من المنطق والعدل أن يميز الشعب بين ما هو صحيح وما هو غير صحح ، وليس من مهام

الحكومة أن توجه الأقلام إلى ناحية ما ، وتملأها بنوع واحد من مداد الفكر ووجهة النظر . إن قلم الشخص الذى يتمتع بالفكر ويعلم على أى نحو أفضل يكون هذا الفكر فى خدمة الدولة ، لا يجب أن يخشى النقد ، وعليه أن ينتقد فى محيط ثورى ، ويتقبل النقد الصحيح ويرد على النقد الخاطئ ... فإن حرب الأفكار هى التى تنتهى دومًا بفكرة واحدة أفضل ...

للأسف ، إننا لم نستطع خلال سنوات طوال أن ننفذ وجهات نظر قائدنا (أى الشاه) على الوجه الأكمل فى بعض الأمور . فقد جلست بالفعل جماعة وأخذت قرارها فيما إذا كان هذا الفيلم سيئًا أم جيدًا . فهل سمح لهم مسئول أو عدة مسئولين إداريين أن يمنعوا الإبداع الفنى ؟ أى تخصص لهذه الجماعة كى تقيم فكر أحد الأشخاص بأنه صحيح أو غير صحيح ؟ وينطبق هذا على الشاهنشاه حينما دعا جميع أفراد الشعب لإبداء الرأى والفكر ... ونحن نؤمن بأن النقد هو حق للشعب ، وإذا فقدنا قدرة الرد على نقد الشعب ، فسوف نفقد مكاننا فى الثورة (١١) .

إن المملكة التى تمكنت فى فترة وجيزة من الانتقال من نقطة الضعف إلى مركز القوة بقيادة ملكها ، كيف تخشى النقد ؟ .... إن حق الاختلاف فى الرأى والفكر من الحقوق الأساسية لكل شخص فى الثورة ...» (١٢) .

وقد تبع حديث هويدا موجة فى الصحف حول «حق النقد» ، و«ضرورة إبداء وجهات النظر المتباينة» و«أهمية تبادل الأفكار» من أجل ظفر أهداف الثورة وتقدمها على نحو أفضل . ومن أمثلة ذلك ما كتبته صحيفة «كيهان» فى مقالها الافتتاحى تحت عنوان «آفاق جديدة حول حرية القلم» ، تقول الصحيفة :

«يعد التأييد الحاسم من قبل رئيس الوزراء تجاه حرية القلم والإبداع الأدبى والفنى عاملاً مؤثرًا فى تحقيق هدف الحوار الديمقراطى فى الدولة . وإن منح الواقعية لهذا الحوار وقبول مبدأ «الوحدة دون تبعية أو ذوبان» سوف يسد أحد أهم احتياجات المجتمع المعاصر ...

إن عدد الطلاب والتلاميذ فى الخمسة عشر عامًا الأخيرة فى أرجاء إيران بلغ المليون بصعوبة ، واليوم بلغ هذا الرقم حوالى ١٢ مليون ... منذ خمسة عشر عامًا كان

معظم الإيرانيين يعيشون حياة القرون الوسطى ، وكان الغذاء هو الموضوع الذى يطرح عليهم قبل أى شىء . والآن أصبح المجتمع الإيرانى مجتمعًا مدنيا معاصرًا ، وسرعان ما أدرك شعبنا ضرورة اقتران التقدم المادى بالتقدم المعنوى والثقافى . وفى الحقيقة ، إن نجاح ثورة الشاه والشعب أدى إلى ضرورة القيام بالبحث الحر ، والنقد ، وتبادل الأفكار والآراء والمقارنة الحرة للنظريات المتباينة أو حتى المتعارضة فى جو يسوده الهدوء والأمن .

إن «الرعايا» كانوا يشكلون غالبية شعب إيران حتى الخمسة عشر عامًا السابقة ، وكانت «الرعية» تحت إحصاء واحد . واليوم يشعر الإيرانيون بأنهم مواطنون أحرار ، والنتيجة أنهم – على عكس «رعايا» الأمس – لا يقبلون أى شىء دون استفسار .

ويمكن حث المواطنين الأحرار بقبول هذا البرنامج أو ذاك فقط عن طريق البحث ، والتشجيع والإقناع ... إن العقل ، والشعور والدراية لا يمكن التصور بأنها قاصرة على كبار المسئولين فى الدولة ، فجميع الإيرانيين لديهم الحق بالتساوى فى إبداء وجهات نظرهم فيما يتعلق بالأمور العامة ... وقد أوضح رئيس الوزراء فى حديثه أن كل فكر أو رأى يتمتع بالحرية ، طالما أنه لا يصيب روح الوطنية فى إيران بالأذى . وعلى أساس هذا التأكيد ، لن تحد آفاق البحث والحوار الحر الصادق .

إن بعض البيروقراطيين قد لا يحبذون حرية الفكر والرأى ، ويجب أن نسأل : لمَ ؟ ..... إن ما ينمو فى غياب البحث والنقد الحر طائفتان من الناس فقط ، الأولى : تلك التى لديها شىء تريد إخفاءه . والأخرى : تتمثل فى أولئك الذين يخفون قلة بضاعتهم وفقر فكرهم تحت عباءة «الرقابة» ..... وحرية القلم والبيان لم تصبح من قبيل التجمل فى إيران اليوم ، بل هى إحدى الضروريات الحياتية» (١٣) .

وقدمت صحيفة رستاخيز تحليلاً أيضًا حول حديث هويدا فى مقالها الافتتاحى تحت عنوان «مجتمع الحوار» مفاده أن الحرية لم تكن ضرورية فى الماضى بسبب البساطة فى شكل المجتمع ، أما فى المجتمعات الحالية فمن الضرورة بمكان «وجود حرية البيان والقلم» بسبب مشاكل تلك المجتمعات الخاصة ، تقول الصحيفة :

«إن كل مجتمع يبغى التقدم والاستقرار ...... عليه أن يخلق الجو الملائم لحرية البيان والقلم . ليس من العبث أن نطلق على عهد ثورتنا الوطنية «عهد الحوار» مقتدين بقائد مجتمعنا الأعلى (أى الشاه) .... إذا ما كان النقد واللوم والشكوى فى إطار الحد المعقول ، فيجب أن تقبل جميعها وأن تصحح . أما إذا كان هذا بعيداً عن العقل والصحة فيجب أن يرد عليه»(١٤) .

كما أكد أمير طاهرى – رئيس تحرير صحيفة كيهان – فى حديث له تحت عنوان «دور الصحافة فى المجتمع الإيرانى» على ضرورة «الانفتاح» يقول :

«إن صحافة إيران لديها من الإمكانيات والاستعدادات ما يمكنها من طرح المسائل الاجتماعية التى تعكس الواقع . ويجب الاستفادة من هذه الإمكانيات بأقصى حد كى يتحقق شعار «التضامن بدون تبعية» .... إننى سعيد لأننا نتحدث اليوم فى هذا الشأن ؛ لأن الإمكانيات التى توجد فى الوقت الراهن للصحافة لم تكن موجودة منذ عام أو اثنين» (١٥) .

وبعد بضعة أيام من حديثه مع مراسلى الأجهزة الإعلامية ، أكد هويدا مجدداً على موضوع التمتع بالحرية فى حديث مطول له مع صحيفة كيهان ، يقول :

«إن مجتمعنا قد وصل إلى مرحلة البلوغ ، ويستطيع أن يدرك قيمة توجيه النقد .... نحن نؤمن بحرية القلم والبيان ونحترمها ، وهذا هو ما أكد عليه الشاهنشاه مراراً» (١٦) .

وضمن إدانة رئيس الوزراء للنقد غير البناء ، والأخذ بالظاهر عند بعض المثقفين والهجوم على الغرب بسبب رغبتهم فى تصدير فسادهم إلى إيران ، يقول :

«نحن لا نمنع أى شخص من إبداء وجهة نظره . إن إيران نمت بالقدر الكافى وقويت بالدرجة التى تمكنها من الاستفادة من النقد الموجه إليها» (١٧) .

* * *

ويجب أن يعد شهر مرداد من عام ١٣٥٦هـ .ش (١٩٧٧م) نقطة تحول . فمنذ أوائل هذا الشهر قدمت جميع الصحف داخل الدولة وكذلك الإذاعة والتلفزيون العديد من التحاليل والموضوعات حول «ضرورة النقد البناء» ، «ضرورة حرية الفكر والبيان» وعناوين أخرى من هذا القبيل . ويمكن اعتبار هذا الشهر هو شهر حدوث النقاش بين رجال الدولة والصحافة فيما يسمى بـ «الحوار».

فقد تشبعت الصحف وأحاديث المسئولين فى المملكة بألفاظ وعناوين من قبيل : «الحوار الوطنى» ، «ضرورة الحوار» ، «ثقافة الحوار» ، «مجتمع الحوار» و«النقاش والحوار» .

وكانت هذه الجولة تحظى باهتمام بالغ من قبل رؤساء حزب رستاخيز . ففى الثالث من هذا الشهر ، وفى حديث مطول للسيد هوشنج الأنصارى - وزير الاقتصاد والمالية ومنسق الجناح «النشط» فى حزب رستاخيز - مع المسئولين عن الأمور السياسية والحزبية فى صحيفة رستاخيز ، وأثناء رده على سؤال يتعلق بـ «الانفتاح» و«حدود الأنشطة السياسية وثغورها» ، وبعد الإشارة بشكل تفصيلى إلى أوجه التطور الخارقة والملفتة للأنظار فى إيران ، صرح قائلاً :

«لقد وصلت إيران اليوم بعد مضى فترة وجيزة إلى مستوى دول العالم المتقدم ، وعرفت كنموذج مضىء لأوجه النجاح الاقتصادى فى العصر الحاضر ، ونشاطها فى المجالات السياسية يجب ألا يستثنى من هذه القاعدة ، فعندما تزداد رؤية الشعب السياسية وحنكته ، يزداد بالتالى ميدان الأنشطة السياسية له بشكل تلقائى . وعلى أية حال ، فالحرية السياسية سوف تفتح براعمها فى إطارالنظام الاجتماعى للدولة باعتبارها أحد الأهداف الأساسية لثورة إيران . وقد صرح الشاهنشاه بأن كل نوع من الحرية مباح فى هذا النظام فيما عدا حرية الخيانة» (١٨) .

وحول الاستفسار عن : هل يحتاج الوصول إلى الأهداف السامية للثورة فى مجال الحوار إلى «الانفتاح» و «الحرية» بشكل فعلى ؟ أجاب قائلاً : «هذا صحيح بالتمام ، فلو انعدم وجود حرية البيان والفكر ، فكيف نستطيع أن تحدونا الآمال فى تفتح الأفكار وانتقاء الأفضل منها ؟! بلا شك يجب أن تكتب الأقلام وتتحدث الألسنة

وبعبارة أخرى تبادل الأفكار والتجارب - حتى تستطيع هذه الكتابات وتلك الأقوال - وبعبارة أخرى تبادل الأفكار والتجارب - أن تمهد سبل الوصول إلى أهداف الثورة الواضحة . أريد أن أؤكد على أن ثورة إيران كانت منذ البداية تسعى لإيجاد مثل هذا الانفتاح .... وإذا ما قبلنا بأن حق المعرفة هو أحد الحقوق السياسية المسلم بها لكل إيرانى فى عهد الثورة ، فيجب أن نصر على أن تقوم أيضاً الصحافة وسائر الأجهزة الإعلامية بدورها كاملاً مستفيدة من هذا الحق .

إن إيران اليوم دولة عالمية ، ولن تعد دولة محلية ؛ لذا يجب على شعبها أيضاً أن يطلع على العالم وما يدور فيه وعلى سياسات إيران فى الساحة العالمية. كذلك فإن الحريات السياسية بالمفهوم الذى أوضحته [19] تعنى أن تكون الصحافة وجميع الأجهزة الإعلامية مرآة تتجلى فيها آراء الشعب وأفكاره ، وأن تقبل المسئولية دون توقف تجاه الملكة وأهداف الثورة» [20] .

وقد لاقى حديث أنصارى رد فعل شديد فى صحافة إيران ، وكان يزين الصفحات الأولى لها . فقد ملأت صحيفة كيهان صفحتها الأولى بعناوين بالبنط العريض ، تقول فيها : «يستطيع الشعب أن يتمتع بالحرية السياسية ، يجب أن تكتب الأقلام وتتحدث الألسنة» [21] .

وكتبت صحيفة آيندگان عنواناً كبيراً تعليقاً على هذا الحديث ، تقول : «النقد مشعل لإنقاذ المسئولين التنفيذيين من الظلمة» [22] .

وكتبت صحيفة اطلاعات أيضاً فى مقالها الافتتاحى تحت عنوان «الألسنة والقلم»، تقول :

«أى شخص هل يمكنه أن يعارض المبدأ الذى يقول : لا تقدم لأي مجتمع دون وجود صحافة حرة ؟! لا شك أن القلم الحر واللسان الحر يستطيعان العمل على استمرار هذا التقدم . وقد أثبت التاريخ لنا أن المجتمعات الكبرى المرفهة التى تحظى بأفضل القدرات سرعان ما اندثرت بسبب انعدام حرية البيان وحرية القلم ...

يجب أن يجتث الخوف الذى لا أساس له عند بعض المسئولين تجاه اطلاع الصحفيين على الوقائع المختلفة . يجب أن تختفى هذه الروح التى ظهرت لدى المسئولين وتجعلهم يظنون بأن ما يكتبه النقاد قد أُملى عليهم من قبل أعدائهم . لو أن

معدل النقد يبدو ضئيلاً ونادراً فى صحافة اليوم ، فهذا ليس دليلاً - على عكس ما يتخيل بعض المسئولين - على كمال الأمور ....

من ناحية أخرى ، إن شعبنا - وللأسف - يهرب من الحوار والمشاركة فى تبادل وجهات النظر حول المسائل المتنوعة وذلك بسبب بعض الأسباب ذات الجذور التاريخية، ويقولون فى بعض المواضع ، مثلهم مثل الإيرانيين منذ ستين أو سبعين عاماً ، (الرأس التى لا تُؤلم ، لا تُربط بالمنديل) وعليه يجب قبل أى شىء أن يعلم الشعب» (٢٣).

وبعد بضعة أيام من حديث أنصارى، صرح عبد المجيد مجيدى - وزير الدولة المشرف على إدارة الميزانية والتخطيط وزعيم الجناح «التقدمى» لحزب رستاخيز - فى حديث مشابه قائلاً :

«كانت حرية البيان والرأى من الحقوق المسلم بها لشعب إيران ولا تزال . والعناصر التى تمنع الحرية هى عناصر معارضة للثورة» (٢٤) .

وقد أحدث حديث مجيدى موجة أخرى من الحوار حول الحرية و «الانفتاح» الجديد . وكتبت صحيفة كيهان فى مقال لها تحت عنوان «البلوغ الاجتماعى وضرورة الدفاع عن حرية البيان والقلم» تقول :

«إن جولة الحوار التى تم طرحها منذ سنوات باعتبارها ضرورة اجتماعية تشكلت تدريجيا فى النهاية ... وقد تم طرح العديد من الآراء حول مسألة النقاش فى المجتمع الإيرانى اليوم .... وتقوية موضوع الحوار وضرورة المشاركة المتنامية للشعب فى المسائل القومية هى نتيجة مباشرة للتغييرات التى طرأت على المجتمع الإيرانى فى الخمسة عشر عاماً الأخيرة ...

ويجب أن نؤكد كذلك على هذه الحقيقة ، وهى أن مجتمع إيران اليوم يختلف عن نظيره منذ خمسة عشر عاماً اختلافاً تاما ... ففى إيران اليوم ، وعلى عكس العهد السابق على الثورة - أى الثورة البيضاء - لا يقتصر قبول المشاركة المؤثرة والفعالة فى دائرة الحوار على فئة قليلة تمثل النخبة ؛ لأن نعمة التربية والتعليم قد خرجت من إطارها المحصور على أقلية صغيرة فى الخمسة عشر عاماً الأخيرة ... إن أخطاء وسوء استغلال بعض الأفراد محدودى النظر لمجال الحوار الجديد لا يجب أن يتسبب

في أن يكون هذا المبدأ موضعًا الشك ... حتى لو أننا جعلنا شخصًا ما موضع هجوم على نحو غير منصف يدخل فى نطاق الأغراض أو عدم الشعور بالمسئولية ، فيجب أيضًا أن يكون لدينا ذلك القدر من ضبط النفس كى نتمكن من الاستمرار فى الدفاع عن حرية البيان والقلم" (٢٥) .

وحول نفس الموضوع ، وجهت صحيفة كيهان فى مقالها تحت عنوان «الأمان من يد المثقفين» بقلم حسن باقر زاده - مدير مؤسسة توس للنشر - لومًا رقيقًا إلى إدارة التحرير والرقابة (٢٦) .

وتغيير الحكومة فى أواسط شهر مرداد (تعيين د. جمشيد آموزگار بدلاً من هويدا) لم يحدث تغييرًا فى موضوع «الانفتاح» بل زاد من التأكيد عليه .

وقد أوردت صحيفة كيهان فى مقال لها تحت عنوان «سيدى رئيس الوزراء، ما الذى يريده الشعب منك ؟ » حديثًا الدكتور/ محمود عنايت حول ضرورة الحرية ومبدأ تقبل النقد الحكومة باعتباره أهم التوقعات من قبل الشعب تجاه الحكومة الجديدة ، وقد ورد فى الحديث :

« ... إن أعظم دور النقد هو ظهور الإحساس بالمسئولية تجاه الأحداث .. وأكبر ضرر لكبت الرأى وصمت النقد هو ظهور التمرد والاستبداد بين المسئولين. إن الشعب الذى يتمتع بالرقى والحياة فى الدنيا هو الذى يقدر النقد وتبادل الأفكار والآراء ... وللأسف إن بعض المسئولين قد أبدوا فى الآونة الأخيرة حساسية إلى حد ما تجاه النقد ، فقلما تجرأ شخص وقام بنقد سلبياتهم ومخالفاتهم الواضحة .. وقد بلغ الأمر إلى حد ذكر سلبيات الأجهزة على أنها إيجابيات» (٢٧) .

وقد صرح وزير الاستخبارات الجديد «داريوش همايون» أثناء لقائه بكبار المسئولين فى وزارته بأن «نشر الأخبار بحرية من الضرورة بمكان» (٢٨) .

وسرعان ما وجد الانفتاح طريقه أيضًا إلى المجلس ، فقد تحدث النواب عن «ضرورة النقد البناء» ، «إنجاز الإصلاحات» و «عدم ثقة الشعب فى المسئولين» . وصرح قلة منهم بعدد من الموضوعات التى لم يكن يُسمح بطرحها من قبل بأى وجه قط. وفى خطاب له وجه هولاكو رامبد - المتحدث الرسمى باسم الدولة فى حكومة

آموزگار – حديثه إلى أولئك الذين – من وجهة نظره – يحولون دون تبادل الأفكار والآراء ، قائلاً :

«إن اليساريين المنحرفين واليمينيين اللصوص لم يتركوا صوت النواب يصل إلى مسامع الشعب» (٢٩) .

وأثناء أخذ الثقة فى حكومة آموزگار الجديدة دار حديث حاد أيضًا من قبل نائب أو اثنين . فقد وجه صديق اسفند يارى – أحد النواب – حديثه إلى المسئولين ، قائلاً : «اتركوا الشعب يفصح علانية عن الأمور التى يتحدث عنها فى الخفاء همسًا» (٣٠) .

كما صرح د. حسين الطيب – أحد النواب – قائلاً :

«إن فساد الجهاز الإدارى فى المملكة ، وسرقة كبار المسئولين تتبعه حالة معنوية سلبية وعدم إيمان ... إن ما قام اللصوص ببلعه يجب أن نخرجه من حلوقهم ، ويجب أن تحاسبهم العدالة الوطنية على أخطائهم ..» (٣١) .

ولا تمس الحاجة إلى توضيح بأن كل ما تم ذكره من أحاديث وإبداء الآراء والمقالات وظهور سياسة «الانفتاح» لم يكن ليتم إطلاقًا دون رغبة الشاه وموافقته. وبعيداً عن تصاريح الشاه فى أحاديثه مع الصحافة الأجنبية (٣٢) بخصوص الكف عن استخدام التعذيب فى إيران ، والتغييرات الجذرية التى تمت بشأن وضع السجناء السياسيين ، فقد صرح فى حديث له مع صحيفة كيهان فى شهريور ، قائلاً : «ليس لدينا أى اعتراض فيما يتعلق بالحرية» (٣٣) .

وبعد ثلاثة أسابيع من هذا الحديث ، أعلن الشاه فى حديث له بمناسبة الدورة الجديدة لمجلس الشيوخ ، قائلاً :

«يتم التخطيط لإيجاد ديمقراطية سياسية حقيقية فى إيران» (٣٤) .

وبهدف التحميس إلى سياسة «الانفتاح» وإيجاد الحوار وإمكانية توجيه النقد إلى المسئولين ، حذر الشاه مسئوليه فى خطاب له بمناسبة مراسم تعيين هيئة رئاسة المجلسين (الشورى الوطنى والشيوخ) ، قائلاً :

«ليس لدينا الحق فى خداع شعبنا ، إنه لمن الخيانة أن نقدم للشعب الوعود الواهية» (٣٥) .

ويقول أيضًا فى حديث له مع رئيس تحرير مجلة «نيوزويك» ردا على سؤال يتعلق بحقوق الإنسان والمعارضين :

«نقول ونوضح للعالم أجمع إننا سوف نتحمل المعارضين حتى بلوغهم حد الخيانة ... لقد أدخلنا بعض التغييرات فى قوانيننا كى تُمنح لأفراد الشعب إمكانية أكثر للدفاع عن أنفسهم وحقوقهم المكتسبة ، وحتى يتم التعامل داخل السجون بأسلوب أفضل مع السجناء ...» (٣٦) .

وأخيراً، وعلى الرغم من ظهور بعض المشاكل السياسية (كثورات قم وتبريز)، (٣٧) صرح الشاه فى شهر اسفند من نفس العام ، قائلاً :

«لقد عزمنا على منح الحريات بشكل أكثر» (٣٨) .

* * *

لقد اقترن الإعلان عن سياسة «الانفتاح» ، «الحرية السياسية» و «مشاركة الشعب والحوار» بظهور السؤالين التاليين :

أولاً : إلى أى مدى ستكون حدود الحريات الممنوحة ؟

ثانيًا : كيف يجب أن يكون أساس «الحرية» وإطارها فى إيران ؟

بعبارة أخرى ، الآن حيث يدور الحديث حول الحرية السياسية والديمقراطية، أى نوع من الديمقراطية الذى يحظى بالاهتمام ؟ هل الديمقراطية والحرية التى يراها النظام هى بنفس المفهوم لدى الغرب تجاه هاتين الكلمتين ؟

وبالنظر فى أحاديث المسئولين وكتابات الصحف يتضح أنه على الرغم من التصريح بموضوعات عديدة ، إلا أن النظام لم يعين الشكل أو الإطار المحدد فيما يتعلق بحدود الديمقراطية وأسلوبها .

إن الموضوعات التى تم ذكرها لم تزد عن كونها كلامًا عاما ولعبًا بالكلمات والألفاظ البراقة . وفى مجموعها يمكن تحديد محورين فقط من بين جبل هذا الكلام

العام . ففيما يتعلق بالسؤال الأول - إلى أى مدى تكون حدود الحرية ؟ - كان رد مسئولى النظام عبارة عن أن القانون هو الذى يعين هذه الحدود .

أما الأكلشيه الأكثر تداولاً والذى كان يستخدمه المسئولون ، هو : «الخيانة توضح حد الحرية» (٣٩) .

بعبارة أخرى ، يحظى أصحاب الأنشطة السياسية بالحرية طالما أنها لا تؤدى إلى خيانة الدولة والنظام .

ولا تمس الحاجة إلى توضيح إلى أى حد كان هذان الإطاران مبهمين ، ولم يزيدا عن كونهما أكلشيهات فى يد النظام .

وفيما يتعلق بأى نشاط سياسى ، اجتماع ، ندوة ، بيان ، حديث ، حركة لمعارضى النظام ، كتاب ، تحليل ، فيلم ، شعر ، صورة ، قصة ومقال يدخل فى إطار خيانة الدولة والنظام ، وأى منها يخرج عن هذا الإطار . فتحديد هذا الأمر يعد أساساً من مسئوليات القوة القضائية فى الدولة طبقًا للدستور (النيابى) .

ومن هنا تبدأ المشكلة ، فمع الأخذ فى الاعتبار أن «الانفتاح السياسى» لم يكن له سابق تجربة فى إيران ، وكان يفتقد أساساً إلى الأدوات والمؤسسات اللازمة للتحقيق فى الدعاوى القانونية والسياسية ؛ لذا لم يكن فى الإمكان أن يكون شيئًا مميزًا بشكل عملى .وفى الحقيقة ، إن النظام فى طرحه محاكمة المتهمين السياسيين فى المحاكم العسكرية [منذ انقلاب ٢٨ مرداد عام ١٣٣٢هـ .ش (١٩٥٣م)] قد أبعد قوة الدولة القضائية عن التحقيق فى الدعاوى السياسية بشكل رسمى وعملى . وعلى الرغم من تولى الضباط ممن درسوا العلوم القانونية والقضائية بعض الإدارات فى المحاكم العسكرية، إلا أنهم لم يكونوا فى الواقع أكثر من عملاء لجهاز السافاك . فجهاز السافاك هو الذى كان يحدد معدل أحكام المتهمين . وجميع إجراءات محاكمة المتهم السياسى - المحكوم عليه بعشرة أو خمسة عشر عامًا أو حتى بالسجن المؤبد أو الإعدام - لم تكن لتستمر أكثر من عدة دقائق أو ساعة واحدة على الأكثر .

والمشكلة الأخرى التى كانت تواجه قوة النظام القضائية هى عدم استقلالها عن القوة التنفيذية ، وإعمال نفوذ رؤساء النظام بهدف الإشراف على الأنشطة السياسية .

وعلى الرغم من أن الدستور ومبدأ فصل القوى كان قد أعلن استقلال السلطة القضائية، ولكن إذا ما نحينا الاستثناءات جانبًا ، فلم تكن السلطة القضائية أكثر من تابعة للحكومة وأداة لتنفيذ رغباتها .

ولم تكن ديمقراطية «الانفتاح» غير محددة من حيث التنفيذ فقط ، بل كانت غامضة ومبهمة من ناحية المحتوى أيضًا . وكان مسئولو النظام والشاه يتمتعون بشيء من الصراحة فيما يتعلق بأن «ديمقراطية إيران» تختلف عن ديمقراطية الغرب ، لكنهم لم يكونوا بمثل هذه الصراحة فيما يتعلق بالكيفية . والمسألة الوحيدة التى صرحوا بها هى أن «الديمقراطية الإيرانية» تخلو من عيوب ونقاط ضعف وسلبيات الديمقراطية الغربية . وقد صرح الشاه فى رسالته بمناسبة الذكرى السنوية للثورة الدستورية فى شهر مرداد من عام ١٣٥٦هـ .ش (١٩٧٧م) ، قائلاً :

«إن الديمقراطية المستوردة (أى الغربية) لا تشعر بآلامنا» ، وقد وصف الشاه فى نفس الرسالة الديمقراطية الغربية على أنها فوضى وانحلال فى الموازين والضوابط الاجتماعية . ولم يعتبرها مضرة فقط على إيران ، بل كان يؤمن بأن هذا النوع من الديمقراطية لن يستطيع أن يؤتى نتائجه المرجوة فى أى مجتمع آخر. فمن وجهة نظر الشاه أن «الديمقراطية الإيرانية» تختلف عن نظيرتها الغربية ، يقول : « ..... ومع مالها من جانب سياسى والحفاظ على الحريات الشخصية والاجتماعية ، فهى تحظى كذلك بمزايا ديمقراطية واقتصادية واقتصاد ديمقراطى وعدالة اجتماعية . وعليه ، فإن الفرد الإيرانى فى أى مكان ومن أية طبقة (اجتماعية) يستفيد من الحد الأقصى من الامتيازات التى يمكن أن يستفيد بها أى فرد فى أرقى المجتمعات الحالية العالمية ..... بدون السماح بتدخل القوى المخربة والمدمرة فى هذه الحرية البناءة» (٤٠) .

وبعد عدة أيام من هذه الرسالة ، وفى حديث له مع صحيفة كيهان ، وردا على سؤال يتعلق بكيفية التغيير فى هيكل الدولة السياسى ، أدان الشاه مجدداً الديمقراطية الغربية ، وقال :

«إن بعض المجتمعات تضع عدة أسماء لعدة أحزاب على واجهتها على سبيل التجمل فقط ، وأنتم ترون بأم أعينكم فى أى طريق قد سقطوا ، وسوف ترون ما هى نهايتهم» (٤١) .

ويقول الشاه فى نفس الحديث : «إن على إيران أن تحدد طريقها» . وفى حديث آخر ، وردا على سؤال يتعلق بالنظام الحزبى فى إيران وتعدد الأحزاب فى الغرب ، يقول الشاه : «إن الأجنحة الحزبية لرستاخيز غير مضطرة لخداع الشعب على عكس الأحزاب فى المجتمعات الغربية التى تضلل شعوبها وتمنحهم الوعود الواهية لمجرد النجاح فى الانتخابات» (٤٢) .

ولم يبين الشاه كيف تفضى الديمقراطية الغربية إلى حالة من الفوضى ، وكيف أن الأحزاب والجماعات السياسية فى تلك المجتمعات تقوم باستغلال الشعب وخداعه بدلاً من خدمته ، وذلك على عكس «ديمقراطية إيران» ونظام رستاخيز الحزبى الذى لا يخلو فقط من هذه العيوب ، بل يسعى لخدمة مصالح الشعب وتأمينها . وعلى النقيض ، قدم رؤساء حزب رستاخيز توضيحات كثيرة فى هذا الشأن ، ومن بينهم السيد هوشنج الأنصارى - زعيم الجناح «النشط» فى الحزب - حيث حل هذا اللغز فى حديثه المفصل فى شهر تير . وخلاصة استنتاجه (الذى يجب فى الحقيقة أن يكون خلاصة استنتاج غيره من قادة النظام وكذلك الشاه نفسه) ، هو : إنه على عكس المجتمعات الغربية ، كان يوجد فى إيران ديمقراطية اقتصادية قبل وجود الديمقراطية السياسية . وافتقار الديمقراطية الاقتصادية فى المجتمعات الغربية أدى إلى قيام الجماعات الضاغطة - فى قالب الأحزاب والتشكيلات السياسية - بالصراع مع بعضها البعض للحصول على النفوذ والمصالح الخاصة .

لكن انعدم وجود هذا المفهوم لتلك الظاهرة فى إيران (بسبب وجود العدالة الاجتماعية) ، يقول :

«إن ظهور التوتر والأزمة فى الديمقراطية الغربية ناتج عن التعارض فى المصالح ؛ لأن النظام القائم على أساس مصالح الجماعات الضاغطة سيؤدى حتماً إلى تعرض تلك المصالح للخطر والتدهور . وقد رأيتم نماذج عديدة من هذا التدهور الذى يهدد النتائج الاقتصادية والاجتماعية بالخطر فى تلك الدول (أى الدول الغربية)،. وفى إيران، وفى ظل المبادئ الثلاثة لحزب رستاخيز [٣٣] ، لا توجد جماعات ضاغطة تبغى سحب الدولة إلى طريق تتحقق من خلاله مصالحهم الاقتصادية ، ولا توجد مصالح خاصة

تبغى الاستفادة من الحريات السياسية لنيل أهدافها الشخصية ؛ لذا فإن إيران فى منأى عن خطر التدهور الذى ذكرته فى الدول الأخرى» (٤٣) .

وعلى أية حال ، فإن ما هو أهم من المباحث النظرية فيما يتعلق بحدود وكيفية أو محتوى «الانفتاح» و «الديمقراطية الإيرانية» هو كيفية تنفيذ هذه الديمقراطية وإطارها العملى ، بغض النظر عما تحظى به «الديمقراطية الإيرانية» من محاسن . والمسألة الأساسية هنا ، هى : إلى أى مدى كان يتمكن معارضو النظام ومنتقدوه من التمتع بالحرية ؟ وما هو رد فعلهم إزاء «الانفتاح» ، وكذلك رد فعل النظام تجاههم ؟ والإجابة على هذه الأسئلة هى التى تشكل محتوى الفصل التالى . ولكن قبل القيام بطرح رد فعل المعارضة تجاه التطورات الجديدة وسياسة الانفتاح ، يجب بداية أن يكون لدينا تعريف تمهيدى حول وضع معارضى الشاه ، من كان يمثلهم ؟ وأى الأحزاب، والجماعات ، والشخصيات والعناصر التى كانت توجد فى أعقاب سياسة «الانفتاح» فى عام ١٣٥٦ هـ .ش (١٩٧٧م) وعلى أى نحو كانوا يعيشون ؟

الهوامش

(١) كان عبارة عن «لجنة مشتركة مضادة للعمليات الإرهابية» ، تأسست بمشاركة كل من : جهاز الساواك ، وجهاز المخابرات المحلى ، والجيش وقوات حرس الحدود فى عام ١٣٥١هـ . ش (١٩٧٢م) لمقاومة العناصر الفدائية . وعلى الرغم من اشتراك عدة مجموعات فى هذه اللجنة إلا أن جهاز الساواك هو الذى كان يقوم بالدور الأساسى فى أعمال المطاردة ، والمراقبة ، والاعتقال ، والتحقيق ، وفى أوقات كثيرة كان يحدد مدة أحكام المتهمين . وكان المتهمون والمقبوض عليهم بتهم سياسية يتعرضون داخل سجن «كميته» – الذى كان فى الواقع معتقلاً أو سجناً مؤقتاً – للتحقيق والتعذيب .

(٢) هو أحد العسكريين المؤثرين فى أحداث انقلاب ٢٨ مرداد عام ١٣٣٢هـ . ش (١٩٥٣م) وعين حاكماً على طهران فى السنوات التالية على الانقلاب ؛ لذا حمل على عاتقه مهمة أساسية وهى اعتقال العديد من معارضى النظام ومحاكمتهم . وتلك الفرقة من القيادة العسكرية التى رأسها بختيار للقيام بأعمال القلع والقمع تجاه معارضى النظام تحولت بعد ذلك إلى «جهاز الأمن والمخابرات» وبالطبع رأسه بختيار باعتباره أول رئيس لجهاز الساواك . وفى أعقاب خلافاته مع الشاه حول الحكم تم نفيه خارج البلاد فى عام ١٣٤١هـ . ش (١٩٦٢م) ، ثم توجه إلى العراق وسعى فى مقاومة النظام؛ لذلك تم قتله داخل الأراضى العراقية بيد عملاء جهاز الساواك .

(٣) كيهان ، ١٢ بهمن ١٣٥٥هـ . ش .

(٤) كان النظام يعتقد بعدم وجود سجن سياسى فى إيران ، وأنه لم يتم اعتقال شخص واحد داخل السجون بجريرة عقيدته ، وعليه أطلقوا على المعتقلين السياسيين اسم المذنبين أو المتهمين المخالفين للأمن الذين يجب أن يودعوا السجون بسبب الجرائم التى ارتكبوها والتى من شأنها إحداث الخلل فى أمن الدولة ونظامها أو إلحاق الخطر بها .

(٥) المقصود هنا هو واقعة إطلاق الرصاص على الشاه فى ١٥ بهمن من عام ١٣٢٧هـ .ش (١٩٤٨م) أثناء زيارته لجامعة طهران . فعلى الرغم من توجيه عدة رصاصات تجاه الشاه بوساطة الجانى (ناصر فخرايى) ، إلا أن الشاه نجا من الموت .

(٦) آيندگان ، ٢٥ بهمن ١٣٥٦هـ . ش .

(٧) انظر ، المجلد الثانى ، الفصل الأول .

(٨) آيندگان ، ٢٤ بان ١٣٥٦هـ . ش .

(٩) نفسه .

(١٠) حديث الشاه الصحفى فى واشنطن ، آيندگان ، ٢٨ آبان ١٣٥٦هـ . ش .

(١١) يعنى الثورة البيضاء.

(١٢) كيهان ، ١٤ تير ١٣٥٦هـ . ش، والمقصود هنا ثورة الشاه والشعب .

(١٣) كيهان ، ١٥ تير ١٣٥٦هـ . ش .

(١٤) رستاخيز ، ١٦ تير ١٣٥٦هـ . ش

(١٥) كيهان ، ٢٣ تير ١٣٥٦هـ . ش .

(١٦) نفسه .

(١٧) نفسه .

(١٨) رستاخيز ، ٣ مرداد ١٣٥٦هـ . ش .

(١٩) للاطلاع على مفهوم الحريات السياسية من وجهة نظر السيد أنصارى ، انظر الجزء الأخير من هذا الفصل .

(٢٠) رستاخيز ، ٣ مرداد ١٣٥٦هـ . ش .

(٢١) كيهان ، ٣ مرداد ١٣٥٦هـ . ش .

(٢٢) آيندگان ، ٤ مرداد ١٣٥٦هـ . ش .

(٢٣) اطلاعات ، ٤ مرداد ١٣٥٦هـ . ش .

(٢٤) كيهان ، ١٣ مرداد ١٣٥٦هـ . ش ، والمقصود هنا الثورة البيضاء .

(٢٥) نفسه .

(٢٦) كيهان ، ١٨ مرداد ١٣٥٦هـ . ش .

(٢٧) نفسه .

(٢٨) نفسه .

(٢٩) اطلاعات ، ٢٣ تير ١٣٥٦هـ . ش .

(٣٠) رستاخيز ، ٣١ مرداد ١٣٥٦هـ . ش .

(٣١) كيهان ، ٢ شهريور ١٣٥٦هـ . ش .

(٣٢) انظر الفصل السابق .

(٣٣) كيهان ، ٢ شهريور ١٣٥٦هـ . ش .

(٣٤) رستاخيز ، ١٥ مهر ١٣٥٦هـ . ش .

(٣٥) رستاخيز ، ٢٥ مهر ١٣٥٦هـ . ش

(٣٦) رستاخيز ، ١٨ آبان ١٣٥٦هـ . ش .

(٣٧) انظر المجلد الثانى .

(٣٨) اطلاعات ، ٢٨ اسفند ١٣٥٦ هـ . ش .

(٣٩) انظر أحاديث : هويدا (كيهان ٢٣ تير ١٣٥٦هـ . ش) ، أنصارى (رستاخيز ٣ مرداد ، ١٨ آذر ١٣٥٦هـ . ش) ، الشاه (كيهان ١٨ آبان ١٣٥٦هـ . ش) ، اطلاعات ٢٨ اسفند ١٣٥٦هـ . ش، مقال السيد محمود جعفريان بعنوان «حدود النظم والحرية» ، رستاخيز ١٢ آذر ١٣٥٦هـ . ش .

(٤٠) كيهان ، ١٥ مرداد ، ١٣٥٦هـ . ش .

(٤١) كيهان ، ٢٢ مرداد ١٣٥٦هـ . ش .

(٤٢) اطلاعات ، ٢٨ اسفند ١٣٥٦هـ . ش .

(٤٣) رستاخيز ، ٣ مرداد ١٣٥٦هـ . ش .

الفصل السادس

"أنماط المعارضين مع بداية الثورة"

لكى يتم الإدراك الجيد لرد فعل معارضى نظام الشاه إزاء التغييرات التى ظهرت يجب بداية أن نحصل على صورة إجمالية لوضع هذه القوى المعارضة فى مشارف عام ١٣٥٦هـ .ش (١٩٧٧م) .

ويمكننا تقسيم معارضى النظام آنذاك إلى مجموعتين أساسيتين . المجموعة الأولى : تتضمن المخالفين التقليديين للنظام ، والتى سرعان ما أفل نجمها منذ عام ١٣٤٢هـ .ش (١٩٦٣م) . ورغم ما كان لها من حضور على الساحة منذ هذا العام وما تلاه ، إلا أن هذا الحضور كان اسماً فقط خارج حدود التنفيذ .

والمجموعة الأخرى : تتضمن تلك الطائفة من المعارضين التى ظهرت تدريجيا وقويت شوكتها فى الدولة فى أعقاب سحق ثورة ١٥ خرداد وزيادة الاعتقالات منذ عام ١٣٤٢هـ .ش (١٩٦٣م) وما تلاه .

بعبارة أخرى يمكن تقسيم معارضى الشاه فى مشارف عام ١٣٥٦هـ .ش (١٩٧٧م) إلى طائفتين محددتين . أولاهما : تمثل أولئك الذين كان لهم وجود قبل عام ١٣٤٢هـ .ش (١٩٦٣م) . والأخرى : تمثل جماعة المعارضين الذين ظهروا على الساحة السياسية فى إيران منذ هذا العام وما تلاه . وكان سعى المجموعة الأولى مركزًا بشكل أكثر فى المقاومة بالطريق السياسى وداخل إطار الدستور . وهؤلاء المعارضون – الذين كانوا يمثلون : بعض العناصر اليسارية (حزب توده) ، والوطنيين (الجبهة الوطنية) ، والوطنيين المتدينين (نهضة التحرير) – لم يعتبروا قوة فعالة جديرة بالاهتمام داخل

البلاد فى الأعوام التالية على عام ١٣٤٢هـ .ش (١٩٦٣م) . فالقيود الصارمة والاعتقال الديكتاتورى من قبل الشاه قد ضيق الساحة السياسية فى الدولة إلى حد انعدم فيه وجود مساحة صغيرة أو إمكانية قليلة لإبداء المعارضة أو القيام بنشاط من قبل المعارضين . ويعد حزب توده من أهم طوائف المعارضةالثلاث لنظام الشاه من حيث الكم والكيف .

ففى أعقاب احتلال إيران من قبل الحلفاء (أمريكا ، وإنجلترا ، والاتحاد السوفيتى السابق) فى فترة الحرب العالمية الثانية فى شهريور عام ١٣٢٠هـ .ش (١٩٤١م) وسقوط رضا شاه ، سرعان ما تغير الفضاء السياسى للدولة . ومع انكسار جو الرعب والوحشة الديكتاتورية لرضا شاه تذوق مئات السجناء ، والمنفيون والهاربون السياسيون طعم الحرية . وكان من بين السجناء السياسيين الذين تم إطلاق سراحهم جماعة عرفت بـ «٥٣ فرداً» ، كانت تضم خمسين فرداً ونيفًا من الماركسيين الذين شكلوا جماعة استخبارية بزعامة د. تقى أرانى لكن تم التعرف على نشاطهم منذ الوهلة الأولى واعتقلت جماعتهم .

وكان بعض أعضاء هذه الجماعة من الشيوعيين القدامى فى إيران الذين ترجع سابقة نضالهم إلى نشاطهم داخل النقابات العمالية الإيرانية فى بدايات حكم رضا شاه قبل أن يفكك هذه التشكيلات ويزج بزعمائها داخل السجون . وكان معظمهم من الدارسين الذين عادوا إلى إيران بعد إنهاء دراستهم فى أوروبا . وقد توفى د. أرانى داخل السجن ، وأسس الباقون النواة المركزية لحزب توده بعد إطلاق سراحهم فى شهرى مهروآبان من عام ١٣٢٠هـ .ش (١٩٤١م) . ونجح حزب توده – أحيانًا كثيرة بحماية الروس – خلال فترة وجيزة فى تطوير تشكيلاته ومؤسساته والعمل على توسيعها . وعلى الرغم من أن حماية الروس كانت تعد إحدى الدعامات الأساسية لحزب توده ، لكن لا يجب أن تكون هذه الحقيقة مانعًا لاعتبار صمود حزب توده ونموه السريع كان نتاج هذا العامل وحده، فقد نجح حزب توده منذ بداياته فى اجتذاب طبقات اجتماعية عديدة إليه ، وهى طبقات ظهرت ونمت نتيجة للتطورات التى تمت فى عهد رضا شاه . وعلى الرغم من أن هذه الطبقات قد أخذت مكانتها من الناحية الاقتصادية ، إلا أنها ظلت عقيمة من الناحية السياسية فى عهد رضا شاه ، وكانت

بعيدة عن هويتها الاجتماعية الخاصة . وتمكنت هذه الطبقات وللمرة الأولى فى إطار حزب توده من الإعلان عن وجودها السياسى .

وكان المنضمون إلى الحزب يمثلون آلاف العمال ، وموظفى الدولة ، والمعلمين ، والكتاب ، والنساء ، والممرضين ، والأطباء والمحامين من أجل الحصول على حقوقهم السياسية والاجتماعية التى حرموا منها حتى ذلك اليوم . ونجح حزب توده فى التعبير عن فكر ، ورغبات وآمال طبقات المدينة الجديدة تلك .

من ناحية أخرى ، بدخول الحزب فى نضال مستمر ومتعدد الجوانب ضد الهيئة الحاكمة بهدف تحسين الأوضاع الاقتصادية ، وأوضاع العمل وتأمين الحقوق النقابية والاجتماعية لهذه الطبقات ، تمكن من أن يكون قاعدة لتحقيق قوة الطبقات التى حرمت حتى ذلك العهد من حقوقها النقابية ، والمدنية والاجتماعية .

ومع التأكيد على شكل النضال السياسى ، والاجتماعى والاقتصادى وعدم طرح بعض الألفاظ ، من قبيل : الميتافيزيقا ، المادية التاريخية وجميع المباحث الفلسفية ، فقد نزع حزب توده سلاح معارضيه أيضًا الذين كانوا يريدون الإساءة إلى الواجهة الاجتماعية للحزب من هذا الطريق .

وأخيرًا ، فإن علاقة زعامة الحزب بالاتحاد السوفيتى السابق قلما كانت تطرح على مؤيدى الحزب باعتبارها انقيادًا أو استسلامًا .

والصورة التى كانت لدى العديد من الإيرانيين آنذاك عن الاتحاد السوفيتى السابق هى أنه نظام اشتراكى راق يرفع راية النضال ضد الفاشية والرأسمالية العالمية . نظام – على عكس القوى الأوروبية الأخرى –لم يكن له أى مطامع استعمارية ، بل كان يخطو خطوات جادة لتقديم المساعدات والحقوق المكتسبة للدول المستعمرة والمتخلفة . وفى ذروة قوة الحزب فى الأعوام السابقة على انقلاب ١٣٣٢هـ .ش (١٩٥٣م) كان يضم مئات الكوادر المحنكة والتشكيلات، وآلاف الأعضاء وعشرات الآلاف من المؤيدين ، وكان تحت إمرته عشرات الصحف اليومية ، والأسبوعية والشهرية بشكل مباشر أو غير مباشر ، كما كان يستحوذ عمليا على طبقة العمال الشباب فى إيران . وفى الجامعات كان الطلاب المؤيدون لحزب توده يشكلون القوة

السياسية الرئيسية ، فضلاً عن انضمام العديد من الدارسين ممن كان لهم نشاط سياسى إلى الحزب .

بالإضافة إلى ما سبق، كان حزب توده يحتكر كذلك الآداب والفنون داخل الدولة . فكثير من الشعراء والكتاب المشهورين فى إيران ، إما أنهم كانوا أعضاء فى حزب توده ، وإما أنهم كانوا وثيقى الصلة به .

وأخيراً ، نجح الحزب عن طريق «مؤسسته العسكرية» فى أن يضم إليه العديد من ضباط الجيش المثقفين المستنيرين ، وذلك ضمن إيجاد تشكيلات منظمة ونفاذها داخل قوى الدولة العسكرية . إلا أن هذا كله انهار مع انقلاب ٢٨ مرداد ١٣٣٢هـ.ش (١٩٥٣م) ، ولم يستطع حزب توده العودة ثانية إلى سابق مجده فى أعقاب الضربات الشديدة التى تلقاها فى عام ١٣٣٤هـ .ش (١٩٥٥م) مع زوال مؤسسته العسكرية .

وبعيداً عن موجة القلع والقمع الشديدة تجاه الحزب فيما بين عامى ٣٤-١٣٣٥هـ.ش (٥٥ - ١٩٥٦م) ، والتى دفعت بالآلاف من أعضائه إلى المحاكم العسكرية ، فإن مجموع أعمال الحزب فى فترة قوته من ناحية ، وضعفه وسكونه وسياسة التسليم من قبل زعمائه فى مواجهة الانقلاب من ناحية أخرى ، أدى إلى فقد الحزب قدراً كبيراً من شعبيته بين المثقفين والعناصر الراديكالية المعارضة للنظام .

وفى الأعوام التالية على الانقلاب ، واجه الحزب حملة اعتقالات موسعة من قبل النظام من ناحية . ومن ناحية أخرى ، واجه مجموعة من الاستفسارات من قبل مؤيديه حول كيفية مواجهة زعامة الحزب للانقلاب ، والسياسات الحزبية فى عهد حكومة د. مصدق ، وهى استفسارات ظلت فى الغالب دون جواب .

بالإضافة إلى ما سبق ، اضطر الباقون من زعماء الحزب إلى مغادرة الوطن والإقامة الجبرية فى أوروبا الشرقية . والابتعاد عن إيران مما أضاف مزيداً من المشاكل على حشد المشاكل التى كانت موجودة بالفعل لدى الحزب .

وما تبقى من حزب توده - الذى كان صرحاً قويا ذا نفوذ فيما بين عامى ٢٠-١٣٣٢هـ.ش (٤١ - ١٩٥٣م) - كانوا عبارة عن فئة قليلة ضعيفة عرفت باسم

«تشكيلات طهران» مؤلفة من عدة عشرات من الأفراد فى طهران ، وأصفهان ومصانع النفط بمنطقة خوزستان ، وكان اتصالهم مع بعضهم البعض يتم على نحو ضعيف .

وعشرات الصحف الموالية للحزب انخفض عددها خلال هذه الأعوام إلى نشرتين باسم «ملحق الشعب» و «شعلة الجنوب» ، كان يقوم بإصدارهما الباقون من أعضاء الحزب فى الأعوام التالية على الانقلاب . ولم ينشر من «ملحق الشعب» - الصادرة فى طهران - سوى أعداد محدودة للغاية تقترب من العشرين عدداً ، أما «شعلة الجنوب» - الصادرة فى خوزستان - فلم تكن أكثر توفيقًا من سابقتها .

بموازاة كل هذه المشاكل . كانت الضربة القاصمة التى تلقاها الحزب بعد ذلك هى نفاذ الساواك داخل «تشكيلات طهران» . ولما لم يستطع جهاز الساواك - الذى كان يتتبع أثر «تشكيلات طهران» - القيام بأى إجراء ، فبدلاً من اعتقال أعضاء هذه الشبكة وضعها تحت المراقبة ، وتمكن من التسلل إلى اليساريين باجتذاب تعاون أحدهم ، ويدعى «عباس شهريارى» ليكون بمثابة حلقة الوصل التى تمكنه من التعرف على الوجوه الجديدة غير المعروفة فيها وتسهيل عملية القبض عليهم . وعلى الرغم من اكتشاف المناضلين فى النهاية أن «تشكيلات طهران» يتم إدارتها تحت إشراف الساواك ، إلا أن إدراكهم هذا تم فى وقت كانت تمكنت فيه هذه الشبكة المدنسة من إلقاء العديد منهم فى شباك النظام ، وكان من بين هؤلاء : بيژن جزنى وعباس السوركى. [٣٤]

والمشكلة الأخرى التى واجهت حزب توده - خاصة منذ أواسط الأربعينيات (أى الستينيات بالتقويم الميلادى) وما بعد - هى ظهور نوع جديد من العلاقات بين نظام الشاه وأوروبا الشرقية ، خاصة الاتحاد السوڤيتى السابق .

وبغض النظر عن وجهة نظر زعماء الأحزاب الشيوعية فى أوروبا الشرقية تجاه نظام الشاه ، فإن ثمة علاقات جديدة كانت تدل على حماية المعسكر الاشتراكى وتأييده لهذا النظام . حتى ولو كانت العلاقات الاقتصادية ، والعقود التجارية ، والأنواع الأخرى من اتفاقيات التعاون طويلة الأجل ، ودعوة الشاه وكبار مسئولى النظام وأسفارهم الرسمية إلى دول أوروبا الشرقية وحصول الشاه على درجة الدكتوراه

الفطرية في جامعات وارسو وبوخارست من الأمور المثيرة للاهتمام ، إلا أن تصدير الأسلحة إلى نظام الشاه لم يكن مطابقًا لأي نوع من الادعاءات ومواقف الأحزاب الشيوعية المناهضة للإمبريالية .

ومع أن حزب توده كان يمتلك خطة مستقلة عن أحزاب الدول الشيوعية الشرقية في استراتيجيته العالمية ، إلا أن علاقته الصادقة والأخوية ببقية الأحزاب مع النظام لم يستطع أن يحل معضل حسابات حزب توده . لكن المشكلة التي ظلت تلازمه كالمرض الوراثي منذ ميلاده في عام ١٣٢٠ هـ ش (١٩٤١م) هي علاقته بالحزب الشيوعي الروسي .

فلم يعتبر حزب توده أن معارضة أو نقد سياسات وأعمال الحزب الشيوعي التابع للاتحاد السوفيتي السابق بمثابة الإثم الذي لا يغتفر فقط ، بل كان يعد توجيه هذه السياسات بمثابة رسالة ثورية . وعليه كان الحزب مضطرًا لملاحظة حضور الشاه ، وبقائه في قصر الكرملين وتصدير الأسلحة السوفيتية إلى إيران على أي نحو كان وبكل سيئة كانت في مقابل السياسات المناهضة للإمبريالية للمعسكر الاشتراكي .

أدت هذه الظروف جميعها إلى نقد حزب توده قاطعة من بين كل معارضي النظام في الداخل أو في الخارج . وما كان يحمي الحزب خلال تلك الأعوام ويجعله متميزًا إلى حد ما ، هو انضمام الناصريين ، إلى الوحدة الحزبية التي كانت تدافع بحماسة حتى النهاية عن الحزب وأعماله ، ومنهم : أرمان ، وشيفيشتري ، وإلهي سياسات ، وميشري وأمينيا ... وانفصل معهم جميعًا ... خسرو روزبه . وقد جدد الحزب خلال هذه الأعوام طبع مذكرات ... خسرو روزبه عدة مرات .

كما كان السجناء السياسيون كذلك من مفخرات الحزب ، ومنهم : علي عمويي ، ويحيا شلتوكي ، وأصف رزم ديده ، وصابر محمد زاده ، وعلي خاوري ، وپرويز حكمت جو ، وصفرخان قهرماني السجين السياسي الذي حطم الرقم القياسي على المستوى العالمي باعتقاله لفترة خمسة وعشرين عامًا . ويسعى الحزب كي يغطي مشاكله ومصائبه العديدة جانبًا ويخفي أعماله وزيفاته في ظل تألق الأسماء الأكثر نفوذًا ممن تم إطلاق النار عليهم أو زُج بهم داخل السجون . لكن لم يستطع اسم دكتر أراني ، ولا مذبح خسرو

روزبه الحماسى ، ولا ذكر مقاومة الأعوان فى السجن أن يعيد القيمة والشعبية السابقة إلى جسد الحزب الذى فقد الروح . فالجماعات والعناصر اليسارية التى ظهرت على الساحة فى الأربعينيات (أى الستينيات بالتقويم الميلادى) كان يجمعها عامل مشترك أساسى على الرغم من تعددها . وبعيداً عن حزب توده وإدانة رؤسائه وكذلك صورة الحزب ، لم يكن المنتمون إلى توده - كغيرهم من المعارضين - فى مأمن من لهيب نيران اعتقالات النظام فى الأعوام التالية على عام ١٣٤٢هـ.ش (١٩٦٣م) . ومجموع العوامل السالف ذكرها لم يجعل من حزب توده قوة معارضة بشكل عملى حتى الأعوام الأخيرة من نظام الشاه المواكبة لظهور «الانفتاح» .

ولم يكن المعارضون الآخرون كذلك فى ظروف أفضل من حزب توده فى أعتاب «الانفتاح» وعلى الرغم من أن الجبهة الوطنية «نهضت ملى» لم تتعرض لأعمال القلع والقمع بعد انقلاب ٢٨ مرداد مثلما حدث مع حزب توده ، إلا أنها لم تستطع أن تقوم بحركة ما فى معارضتها للنظام .

وقد أدين د. مصدق فى المحكمة العسكرية بثلاثة أعوام بتهمة خيانة الدولة، وكان يعيش كسجين فى أملاك أسرته فى محلة أحمد آباد بقزوين بعد انتهاء فترة الحكم وحتى وفاته فى شهر اسفند من عام ١٣٤٥هـ.ش (١٩٦٦م). وتمكن د. حسين فاطمى - وزير الخارجية واليد اليمنى لمصدق - من الاختفاء عدة شهور بعد الانقلاب ، لكن تم القبض عليه فى النهاية وأدانته المحكمة العسكرية بالإعدام. ووابل رصاص د. فاطمى كان يزين المقالات الافتتاحية الحادة العنيفة فى صحيفة «باختر امروز» ضد البلاط ، وخاصة الشاه وأخيه أشرف.

وباستثناء هذين الشخصين ، فإن البقية من أعضاء حكومة مصدق ومؤيديها تم إدانتهم بأحكام مخففة ، وتم إطلاق سراح بعضهم بعد عدة أشهر من الاعتقال .

والبعض الآخر من «الجبهة الوطنية» ممن ابتعدوا عن حكومة مصدق فى الشهور الأخيرة لها ، وانضموا إلى جبهة معارضى مصدق ، لم يحصلوا كذلك على ما كانوا يأملون. فقد لزم كل من المرحوم آية الله كاشانى، والدكتور مظفر بقائى، وحسين مكى ، وحائرى زاده وغيرهم داره فى الفترة التالية على الانقلاب .

وفى الأعوام الأولى من الانقلاب كانت «حركة المقاومة الوطنية» تعد مركز ثقل المقاومة ضد النظام ظاهريا . لكن فى الحقيقة ، لم يتمكن هذا التشكيل من إظهار أية «حركة» أو «مقاومة» ، ولم يبلغ عدد أعضائه الأساسيين النشطين أكثر من عشرين شخصاً .

وفى الفترة من النصف الثانى لعام ١٣٣٢هـ .ش (١٩٥٣م) وحتى أواخر الثلاثينيات (أى أواخر الخمسينيات بالتقويم الميلادى) كانت أهم الأنشطة «لحركة المقاومة» مقتصرة على إصدار عدة بيانات والسعى غير الموفق فى إصدار صحيفة تحت عنوان «راه مصدق» – أى طريق مصدق – وأدى التغيير فى الأحوال السياسية للدولة ، وتخفيف الضغط من قبل النظام تجاه المعارضين منذ أواسط عام ١٣٣٩هـ .ش (١٩٦٠م) إلى تجمع الباقين من «الجبهة الوطنية» فى عهد مصدق ثانية . وسعت «الجبهة الوطنية الثانية» التى تشكلت آنذاك لإعادة الحياة ثانية إلى «الجبهة الوطنية» . وعلى الرغم من تهيئة الأجواء بالقدر المطلوب لاستئناف نشاط «الجبهة الوطنية» مع تولى د. على أمينى زمام الحكومة عام ١٣٤٠هـ.ش (١٩٦١م) ، لكن لم يستطع الوطنيون أن يخطوا خطوات مؤثرة فى تجديد حياتهم السياسية فى قالب «الجبهة الوطنية الثانية» بسبب انعدام الاستراتيچية الملائمة من جهة ، والخلافات الداخلية من جهة أخرى .

والمشكلة الأخرى للوطنيين تكمن فى صدامهم مع حكومة د. أمينى. فحين كان أمينى منهمكًا بعراكه العلنى مع الشاه ، وبالطبع كان على استعداد لقبول أى نوع من المساعدات فى هذه المعركة ، إلا أن «الجبهة الوطنية» لم تكن على استعداد لمعاونته ، وأدى سقوط أمينى فى عام ١٣٤١هـ .ش (١٩٦٢م) إلى نقل السلطة مرة أخرى إلى الشاه بشكل كامل . وعلى الرغم من أن الشاه قد سلك سلوك المداراة تجاه «الجبهة الوطنية» بوساطة رئيس وزرائه أمير أسد الله علم ، لكنه زاد من ضغوطه على المعارضة بشكل تدريجى ، خاصة فى أعقاب سحق ثورة ١٥ خرداد عام ١٣٤٢هـ.ش (١٩٦٣م) ، ولجأت الجبهة الوطنية إلى العزلة عمليا منذ عام ١٣٤٤هـ.ش (١٩٦٥م) .

وكانت الجبهة الوطنية تعانى تشتتًا وعدم تنسيق من الداخل ، حيث كانت العناصر الشابة الراديكالية من مؤيدى الجبهة تقوم بنشاط واسع ، فى حين كانت

العناصر المحافظة تميل أكثر إلى اتباع السياسة المعروفة باسم «الصبر والانتظار» إلى أن يزول الصدام المباشر مع النظام . وأدى تعدد الآراء ، وعدم الاتفاق فى اتخاذ سياسة محددة والتجمد فى زعامة الجبهة إلى إعلان زعماء «الجبهة الوطنية الثانية» استقالتهم . وعلى هذا النحو انتهى عمرها قبل أن تتمكن من أن تخطو خطوة واحدة محددة فى نضالها ضد الشاه فى قالب اتخاذ خطة واحدة بشكل عملى ، وأيضاً قبل أن تتمكن من حل بعض مشاكلها ونقاط ضعف تشكيلاتها .

وأدى السعى والمباحثات الطويلة بين زعماء وكبار أعضاء الجبهة الوطنية إلى تشكيل «الجبهة الوطنية الثالثة» عام ١٣٤٤هـ.ش (١٩٦٥م) . لكن بعد هذا التشكيل الجديد لم تتحقق أيضاً الآمال المرجوة .

وبعيداً عن أن المشاكل والأمور السابقة لم يتم حلها ، وأن الجبهة مازالت تعانى من عدم التوافق الفكرى ، ومن عدم التخطيط ، والأهم من ذلك ، من افتقار الزعامة ، فإن الشاه كان يعود تدريجيا إلى الساحة أقوى مما سبق بإلقائه الأزمة التى بدأت منذ عام ١٣٣٩هـ.ش (١٩٦٠م) وراء ظهره واستخدامه سياسة القلع والقمع تجاه معارضيه وإخراج القوىَ من حلبة المصارعة . وفى ظل الظروف الجديدة لم يعد فى مقدور الشاه تحمل معارضة الوطنيين على أى نحو قط.

وتكاتفت المشاكل الداخلية للجبهة الوطنية من ناحية ، وظهور موجة الاتجاه إلى الدين - التى بدأت تدريجيا منذ أعوام فى الجامعة - من ناحية أخرى ، وأدى انفصال ذلك الجناح ، الذى كان يتسم بالتدين والميل بشكل كبير ، إلى اتخاذ مواقف راديكالية فى الصدام مع النظام عن الجبهة الوطنية فى عام ١٣٤٠هـ.ش (١٩٦١م) ، وقام بتشكيل جماعة جديدة باسم «نهضة تحرير إيران» (نهضت آزادى إيران) وعلى الرغم من أن أتباعها كانوا أكثر توافقًا من «الجبهة الوطنية» إلا أنهم عانوا كذلك من العديد من المشاكل التى واجهت «الجبهة الوطنية» . فكانوا كالجبهة الوطنية لا يمتلكون برنامجاً ملائماً محدداً فى نضالهم ضد النظام . وكانوا كالجبهة الوطنية يقتصر محيط نفوذهم على طبقة الدارسين والطلاب . فعلى الرغم من تدين زعامة «نهضة التحرير» إلا أنها لم تستطع إيجاد التأييد اللازم لها بين الطبقات المتدينة مثل طبقة أهل السوق وطبقة رجال الدين . وأخيراً كانت «نهضة التحرير» تماثل «الجبهة الوطنية» فى أن منطقة نفوذها لم تكن تتعدى حدود طهران .

ومواقف مؤيدى «نهضة التحرير» الحادة ضد النظام ، خاصة موقفهم من استفتاء بهمن ١٣٤١هـ .ش (١٩٦٢م) ، تبعه اعتقال رؤسائهم[١] . وقد تمت إجراءات محاكمتهم عام ١٣٤٣هـ .ش (١٩٦٤م) ، وأغلق ملف «نهضة التحرير» عمليا بإدانة رؤسائها بأحكام مشددة .

إن ظهور «الجبهة الوطنية الثانية» و «الجبهة الوطنية الثالثة» فى غضون عام أو عامين لهو دليل على فشل الوطنيين فى تقديم خطة ملائمة ومؤثرة فى معارضتهم للشاه. وبشكل إجمالى لم تكن «الجبهة الوطنية» فى الفترة التالية على الانقلاب سوى اسم ، وأسطورة أو خاطر سياسى أكثر من كونها عنصر معارضة متوائمًا ومؤثرًا ضد الشاه .

ومع عودة الشاه إلى أريكة الحكم وميل النظام بقوة إلى الأساليب الديكتاتورية وسحق المعارضين منذ عام ١٣٤٢هـ . ش (١٩٦٣م) وما تلاه – سواء من الجناح المذهبى أو من غيره – اضطروا إلى التزام الصمت والانزواء . والبعض اختار الإقامة فى الخارج ، والبعض الآخر – أتباع النهضة – تم إطلاق سراحهم تدريجيا وأجبروا على التزام الصمت ، والبعض تمسك علانية بسياسة «الصبر والانتظار» : «انتظار» الظروف الملائمة لمقاومة الشاه ، و«الصبر» حتى بلوغ هذا الوقت . وبسبب استفادتهم من التعليم العالى . عمل بعض الوطنيين بالمحاماة والحقوق ، وبعضهم بالأعمال الإنتاجية ، والبعض الآخر بالزراعة وفلاحة البساتين . أما القلة منهم الذين كانوا يمثلون أساتذة الجامعات فقد آثرت طريق السلامة ، والتزمت الصمت ، وانشغلت بالتدريس والعملية التعليمية . وجناح السوق من الوطنيين – سواء المنتمين إلى نهضة التحرير أو إلى الجبهة الوطنية – كان لهم نفس المصير ، باستثناء أهل السوق الذين انضموا إلى المجاهدين . وأهل السوق المشاهير المعارضون للنظام ، انشغل معظمهم فى الأعمال ذات المصالح العامة فى الفترة التالية على عام ١٣٤٢هـ.ش (١٩٦٣م) .

وفى الحقيقة كان «الانفتاح» فى عام ١٣٥٦هـ.ش (١٩٧٧م) نداءً يستدعى المعارضين ثانية إلى ساحة المجال السياسى بعد أعوام عديدة من العزلة والتقاعد السياسى .

المعارضون بعد عام ١٣٤٢هـ.ش (١٩٦٣م)

خلال الأعوام التى أجبر فيها معارضو الشاه التقليديون على الصمت ، بدأ شكل آخر من المقاومة ضد الشاه فى التكوين . وفى حين كان يبدو أن المقاومة ضد الاستعمار فى إيران قد بلغت نهايتها مع النجاح المنقطع النظير لانقلاب ٢٨ مرداد عام ١٣٣٢هـ.ش (١٩٥٣م) ، وإخماد ثورة ١٥ خرداد عام ١٣٤٢هـ.ش (١٩٦٣م) ، إلا أن الثورات المناهضة للإمبريالية قد نالت نجاحًا ملفتًا للأنظار فى مناطق عديدة من العالم. وكان الجيل الراديكالى الجديد - الذى ظهر بعد عام (١٩٥٣م) - يرى أن المقاومات «التحررية» فى الصين ، وكوبا ، وڤيتنام ، والجزائر ومصر قد استطاعت توجيه ضربات مؤلمة إلى الإمبريالية العالمية . وكان هذا النسل يرى أن رمز هذه الانتصارات هو الزعامة الصحيحة ، وتنفيذ إستراتيچية ومخططات أصولية والتمسك بالأيديولوچية الثورية فى مسيرة نضالهم ، وهذه السمات انعدم وجودها بين معارضى نظام الشاه بعد عام ١٣٤٢هـ.ش (١٩٦٣م) ، وهذا ما أدى إلى الهزائم المتتالية للمقاومة ضد الاستعمار فى إيران .

ومذابح الشعب الوحشية أثناء إخماد ثورة ١٥ خرداد ، وسياسة قلع وقمع المعارضين بشكل موسع فى الشهور التالية على الثورة أدى بالقطع إلى دخول العناصر الراديكالية الشابة فى طائفة المعارضة مما استوجب تغيير نمط النضال وأسلوبه .

ومن بين المقاومات المناهضة للإمبريالية ، والثورات الجديدة التى قامت حتى ذلك الحين ، كانت ثورة كوبا أكثر تأثيرًا من غيرها على الطبقة العنيفة من المقاومين فى إيران . فمن وجهة نظرهم ، كان الشكل العام للنضال فى كوبا يتشابه بشدة مع نظيره فى إيران من جهات عديدة . فكان يوجد هناك أيضًا نظام قوى ينتمى بشكل تام إلى الإمبريالية الأمريكية ، أخمد المقاومات الشعبية بالقوة ، لكن فى ظل إعادة النظر بشكل أساسى فى أسلوب المقاومة ، نجح شعب كوبا فى قلب النظام المستبد التابع لباتيستا وسط دهشة العالم وعدم تصديقه، على الرغم من احتضان الإمبريالية الأمريكية له . من وجهة نظرهم ، إن فى الإمكان للشعب هزيمة نظام الشاه بالتمسك بالأساليب الأصولية فى سير المقاومة ضد هذا النظام ، مثلما أثبتت التجربة الموفقة فى كوبا .

والإحساس باليأس تجاه المقاومة الذى نما فى إيران آنذاك من ناحية ، وتأثير المقاومات المظفرة المناهضة للإمبريالية خارج إيران من ناحية أخرى ، سرعان ما اجتذب جيل المقاومة الجديد فى الأربعينيات (أى الستينيات بالتقويم الميلادى) إلى تقليد الأساليب الثورية .

والانجذاب نحو المقاومة المسلحة ترسخ فى آن واحد لكن بشكل مستقل مع فكرة تغيير أسلوب المقاومة ضد الشاه بين القوى اليسارية والقوى الدينية .

وكانت القاعدة الاجتماعية الأساسية للمناضلين الذين اتجهوا إلى المقاومة المسلحة هى الأوساط الجامعية . فبعد عدة أعوام من الصمت أعاد الانفتاح السياسى النسبى فيما بين عامى ٣٩ – ١٣٤٢هـ .ش (٦٠ – ١٩٦٣م) ازدهار الأنشطة السياسية داخل الحرم الجامعى . والعديد من الأشخاص الذين كان لهم دور كبير فى تكوين المقاومة الطلابية ، هم الشبان الباقون من حزب توده ، ومن بينهم بيژن جزنى طالب قسم الفلسفة بجامعة طهران ، والذى يمكن اعتباره الأب الروحى لخط المقاومة المسلحة فى إيران . وجزنى – الذى تم اعتقاله سابقًا عدة أشهر أثناء تصفية حزب توده عام ١٣٣٤هـ .ش (١٩٥٥م) – زج به فى السجن ثانية فى عام ١٣٣٤هـ .ش (١٩٦٤م) بسبب تزعمه لحركة الاعتصامات والمظاهرات الطلابية . وبعد انتهاء فترة السجن عاد إلى الجامعة ، وأثناء دراسته كان يتابع موضوع إعادة النظر فى أسلوب المقاومة ضد الشاه . وجزنى – الذى فقد إيمانه بحزب توده تمامًا فى أعقاب رد فعله حيال انقلاب ٢٨ مرداد – أبدى ميلاً شديداً لقراءة كتب الماركسيه واللينينية بأمريكا اللاتينية ، ووضع النطفة الأولى لإحدى الجماعات المهتمة بالدراسة والمطالعة للأفكار الماركسية وكان برفقته طالب آخر من رفاق عهد النضال يدعى حسن ضيا ظريفى خريج كلية الحقوق والعلوم السياسية بجامعة طهران .

وكان ظريفى – مثل جزنى – من النشطاء فى الجناح الشاب لحزب توده أثناء سنى دراسته . وانفصل أيضًا – مثل جزنى – عن حزب توده فى أواسط الثلاثينيات (أى الخمسينيات بالتقويم الميلادى) بسبب يأسه من رد فعل الحزب إزاء أحداث انقلاب ٢٨ مرداد وما تلاه . وجماعة جزنى وظريفى – التى لم تزد عن العشرين فرداً – كانت جماعة تقوم بالمطالعة وتقدم تحليلا جديداً عن الوضع الاقتصادى ، والاجتماعى

والسياسى فى إيران فى ظل الماركسية واللينينية ، ويعد مصطلح برجوازية كمبرادور – الذى راج كثيراً بين الماركسيين فى أمريكا اللاتينية – أساس تحليل جزنى للمجتمع الإيرانى . فمن وجهة نظره ، إن الطبقة الحاكمة فى إيران تتبع النظام الرأسمالى العالمى ، وهى عميلة وراعية للإمبريالية فى إيران ، وصلة «برجوازية كمبرادور» فى إيران بالإمبريالية هى صلة وثيقة . بمعنى أن الهيئة الحاكمة فى إيران تسعى فقط لتأمين مصالح الإمبريالية الاقتصادية ، والسياسية والاجتماعية . وعلى غرار الماركسيين فى أمريكا اللاتينية ، كان جزنى يطلق على الهيئة الحاكمة أو على طبقة الرأسمالية المحلية فى إيران اسم «برجوازية كمبرادور» ، وهى من وجهة نظره ، تخلو من الصفات ، والخصوصيات والسمات المعروفة لطبقة البرجوازية (٢) .

كان جزنى يؤمن بأن طبقة العمال تحظى بمكانة خاصة فى المقاومة المناهضة للنظام، لكن دور الكادحين فى المقاومة ضد «برجوازية كمبرادور» يتم عن طريق «حزب پيشاهنگ» – أى حزب الطلائع – الذى من مهامه تشكيل طبقة العمال وإرشادهم .

من وجهة نظر جزنى أن حزب توده – على الرغم من توافر الظروف الملائمة – لم يتمكن من القيام بدور الطلائع تجاه طبقة العمال بسبب ضعفه وأخطاء رؤسائه العديدة . ولم تكن نظرة جزنى للأحزاب وجماعات المقاومة الأخرى أفضل من نظرته إلى حزب توده . وبشكل عام ، كان يعد جميع هذه المقاومات فاقدة للتكوين ، والإستراتيجية الأصولية والزعامة المناسبة(٣) . غير أن أهم تأثير لجزنى على العناصر الراديكالية هو تعريفهم على فكرة التسليح ، حيث يرى عدم إمكانية قيام القوى الراديكالية المعارضة للنظام بأى نشاط سياسى فى ظل سيادة «برجوازية كمبرادور» . ولما كانت الإمبريالية تتدخل مباشرة فى حالة ضعف أو احتمال هزيمة «برجوازية كمبرادور» ، لذلك لا يوجد سوى طريق واحد لتكوين ثورة تحررية ، وهو تأسيس مقاومة شعبية مسلحة تنضم إليها جميع قوى الشعب للعراك المسلح ضد الإمبريالية (٤) .

وقد راجت آراء جزنى بين القوى الراديكالية خلال الأعوام من ٤٥ – ١٣٥٥هـ .ش (٦٦ – ١٩٧٦م) ونالت تأييداً كبيراً بينهم . ويمكن اعتباره أكبر داع وملهم لليساريين المحدثين فى إيران [اليساريون الذين ظهروا على الساحة فى إيران فى الفترة التالية

على ٢٨ مرداد من عام ١٣٣٢هـ .ش (١٩٥٣م)] . كما يمكن مساواة دوره فى هذه الفترة من حياة اليساريين فى إيران بدور د. تقى أرانى فى العشرينيات (أى الأربعينيات بالتقويم الميلادى) وتأثيره على حزب توده . وعلى الرغم من أن الأهمية الأساسية لجزنى كانت تتمثل فى تقديمه الآراء والتحاليل الجديدة ، إلا أن جماعة جزنى وظريفى كانت تتقدم ناحية الاستعداد والتخطيط للعمليات المسلحة بموازاة الاطلاع والتحليل .

وقد تعرف جزنى أثناء تواجده فى السجن على ماركسى شاب يدعى عباس السوركى وهو من الباقين من حزب توده . وكان السوركى أيضًا – كظريفى – من أهل الشمال وانضم إلى جماعة جزنى وبصحبته ما يقرب من العشرين شخصًا من معارفه ورفاقه . وانضمام فريق السوركى إلى جماعة جزنى على الرغم من أنه زاد من قدراتها من حيث الكم والإمكانيات العملية ، إلا أن أحد أتباع السوركى، ويدعى ناصر آقايان – الذى خضع للساواك وهو فى السجن – أطلع المسئولين العسكريين بأمر هذه الجماعة ، وبدأ الساواك حملة القبض على أعضائها فى الوقت الذى كان يستعد فيه جزنى لتنفيذ أولى عملياته وهى السطو على مصرف فى شمال طهران فى عام ١٣٤٦هـ.ش (١٩٦٧م) .

ونجح الساواك فى القبض على جميع عناصر تلك الجماعة باستثناء عدد ضئيل . وكان على أكبر صفائى فراهانى وحميد أشرف من بين أولئك الذين أخفق الساواك فى القبض عليهم ، ولقد لعبا دورًا مهمًا فى العمليات التالية للمقاومة المسلحة . وفى حين ظل حميد أشرف فى إيران ، وقام بجهد كبير لتجميع شتات الجماعة فى ظل ظروف صعبة ، تمكن صفائى فراهانى من الخروج من إيران عبر العراق برفقة أحد أعضاء الجماعة الآخرين ويدعى صفائى آشتيانى. ومن هناك توجه إلى إحدى القواعد الخاصة بالمقاومة الفلسطينية التابعة لجناح چورج حبشى الماركسى ، وتلقى صفائى التدريبات العسكرية لمدة عام ، وشارك فى عمليات مع الفلسطينيين ، ثم عاد إلى إيران فى أواخر عام ١٣٤٨هـ .ش (١٩٦٩م) ، وشكل خلية جديدة فى أوائل عام ١٣٤٩هـ .ش (١٩٧٠م) بمساعدة حميد أشرف الذى تمكن خلال هذه الفترة من تجميع بقايا أعضاء جماعة جزنى ، ونجح أيضًا فى إعداد رسالة تحت عنوان «آنچه يك انقلابى بايد بداند» – أى ما يجب أن يعرفه الثورى – تدور حول المقاومة المسلحة وكيفية تنفيذها .

وتم تقسيم الجماعة الجديدة منذ البداية إلى مجموعتين ، هما : «تيم شهر» و «تيم جنگل» - أى فريق المدينة وفريق الغابة - وتولى حميد أشرف رئاسة «فريق المدينة» ، بينما تولى صفائى رئاسة «فريق الغابة» فضلاً عن رئاسته للخلية الجديدة بشكل عام .

وعلى الرغم من أن بعض أعضاء هذه الجماعة كانوا يميلون أكثر إلى بدء المقاومة المسلحة فى المدن والقرى ، إلا أن صفائى كان يرى أن أفضل نقطة لبدء المقاومة المسلحة هى غابات إيران الشمالية ، وتم انتخاب منطقة جيلان لبدء العمليات بسبب وجود سابقة للمقاومة المسلحة فى هذه المنطقة (ثورة أتباع جنگل) [٣٥]، وزيادة الوعى السياسى والاجتماعى لأهل الشمال بمقارنته مع غيره فى مناطق إيران الأخرى .

وكانت المهمة الأساسية «لفريق المدينة» - تيم شهر - هى إعداد الإمكانيات الإستراتيجية والمعدات العسكرية اللازمة «لفريق الغابة» - تيم جنگل - وأخيراً ، وبعد الانتهاء من المطالعة والدراسة الأولية ، توجه صفائى وبرفقته خمسة من أعضاء «فريق الغابة» إلى الشمال فى أواسط صيف عام ١٣٤٩هـ .ش (١٩٧٠م) ، واستقروا جميعاً فى ارتفاعات منطقة «سياهكل» بعد انضمام ثلاثة آخرين إليهم .

وطبقًا للخطة المقترحة ، تقرر أن يبدأ «فريق الغابة» عملياته فى أوائل الربيع وأوائل صيف عام ١٣٥٠هـ .ش (١٩٧١م) ، فكان صفائى يرى أن الظروف الطبيعية لهذه المنطقة تكون ملائمة فى هذا التوقيت من العام ، والأهم من ذلك ، أن صدى العمليات الفدائية سوف يتردد بسبب تواجد المصطافين فى المدن الشمالية وتنقلهم فيها . وأثناء قيام «فريق الغابة» بتدعيم مركزهم ، يقوم «فريق المدينة» بالاستيلاء على عدة بنوك .

لكن أدى اعتقال أحد أعضاء «فريق المدينة» فى طهران إلى مواجهة الفدائيين لأزمة خطيرة . ففى أعقاب اعتقال هذا العضو ، تم هروب عدد آخر من أعضاء «فريق المدينة» ، ووقع بعضهم فى قبضة الساواك . وبالقبض على هؤلاء الأعضاء ، وبحصول الساواك على معلومات دقيقة عن بقية الأعضاء ، كان أقصى ما يقوم به «فريق المدينة» يتلخص فى محاولته الهرب من مخالب الساواك، ولم يكن من السهل أو فى الإمكان القيام بأى عمل آخر ، وتعذر حماية المعدات الإستراتيچية والعسكرية الخاصة «بفريق الغابة» .

ونقل حميد أشرف - الذى نجح للمرة الثانية فى الهروب من قبضة السافاك - نبأ القبض على أعضاء «فريق المدينة» إلى صفائى ، مما جعل الأخير فى موقف لا يحسد عليه باعتباره قائد الفدائيين والمسئول عنهم .

وأخيراً ، ومع تقدم العمليات ، هاجم الفدائيون قاعدة خاصة بقوات حرس الحدود فى منطقة «سياهكل» مساء يوم التاسع عشر من شهر بهمن عام ١٣٤٩هـ .ش (١٩٧٠م) ، وأثناء قتلهم المدافعين عن القاعدة ، استولوا على الأسلحة الموجودة فيها . وهذا الهجوم الذى تم من قبل الجماعات الراديكالية يُذكر على أنه نقطة تحول فى تاريخ النضال ضد نظام الشاه .

وفى الفترة من ١٩ : ٢٨ بهمن ، كان مصير جميع أعضاء «فريق الغابة» إما القبض عليهم ، أو القضاء عليهم أثناء القتال مع القوى الحكومية أو الهروب.

وقد بعث النظام بقوى عسكرية مكثفة إلى المنطقة ، كما وجه الشاه بأخيه الأمير غلام رضا إلى المنطقة كى يطلعه على تطور الأحداث بنفسه . ومن بين الأعضاء التسعة الأساسيين «لفريق الغابة» تم قتل اثنين فى الاشتباكات ، بينما تم القبض على السبعة الآخرين ، وكان صفائى من بينهم ، حيث تم القبض عليه وعلى اثنين آخرين بواسطة أهالى القرية التى لجئوا إليها ، وتم تحويلهم إلى السلطات .

ونتيجة لإعدام السبعة الباقين من «أعضاء الغابة» فى أقل من شهر بعد اعتقالهم ، انعدم وجود أية معلومات مباشرة أو تحليل أو رأى فى ذلك الشأن. فعلى سبيل المثال . ليس معلوماً هل كان الباعث الأساسى للهجوم على قاعدة «سياهكل» هو إنقاذ أحد المنتمين إلى «فريق الغابة» الذى تم القبض عليه منذ عدة أيام ؟ وكيف يدخل أعضاء الفريق قرية تُهيئ أسباب اعتقالهم دون أن يكون لديهم معلومات مسبقة عنها؟ ولمَ يقرر صفائى الهجوم بالرغم من حلول فصل الشتاء واشتداد البرودة ؟ ومن الأساس لمَ يقرر صفائى بدء العمليات فى نفس الفترة التى ينتهى فيها أمر «فريق المدينة» بدلاً من تأجيلها ؟

وكما قيل من قبل ، إن الرد أو البحث فيما يتعلق بالأسئلة السالفة الذكر يمكن أن يكون فى إطار الحدس والتخمين بسبب افتقاد المعلومات الأولية حول هذه الجماعة .

فربما كان صفائى متأكداً من أن الساواك سيقتفى أثرهم إن آجلاً أو عاجلاً ، وأنه سيتحرك للقبض عليهم . وفى هذه الحالة ، إما أن يعتبر «فريق الغابة» كل البرنامج المعد وكأنه لم يكن ، ويؤجل بدء العمليات إلى أجل غير مسمى ، وإما أن يبدأ العمليات رغم عدم ملائمة الظروف المناخية ، قبل أن يتمكن الساواك وقوى النظام العسكرية من اقتناص الفرصة لضرب الفدائيين .

وخطر الاعتقال قبل أن يتمكن صفائى من البدء فى الحركة ، من المحتمل أنه كان يثير لديه خاطراً آخر جعل ذهنه مشغولاً به فى تلك الظروف . ومثل هذا الاحتمال لا يمكن قبوله بالنسبة لشخص مثل صفائى الذى قضى أكثر من عشر سنوات من عمره مختبئاً وفى حالة بين القتال مع مسئولى الدولة العسكريين أو الهرب منهم على أمل ذلك اليوم الذى يتمكن فيه من القيام بالعمليات .

إن الكف عن العمليات أو تأجيلها إلى أجل غير معلوم ، والأسوأ من هذا كله ، خطر الاعتقال دون القيام بأى إجراء (تماماً كما حدث فى انهيار جماعة جزنى قبل ذلك بأربعة أعوام) من الممكن أن يكون قد حث صفائى على التقاعد . لكن على الرغم من عدم ملائمة الوقت ، إلا أنه لبى نداء آمال عدة أعوام ، وهاجم قاعدة «سياهكل» .

والشىء الذى يجب ذكره بكل ثقة هو أن جميع الفدائيين لم يهتموا كثيراً برد فعل النظام ، وعليه كانوا يعتقدون أن بإمكانهم القتال مع القوى العسكرية والهروب بعد ذلك ثم العمل على استمالة عدد كبير من أهالى المنطقة أو حتى مناطق الدولة الأخرى إليهم. لكن جاء رد فعل النظام عنيفاً للغاية ، حيث تم حصار المنطقة المحيطة بـ «سياهكل» خلال عدة أيام ، وتوجهت إليها عشرات الطائرات المروحية ومئات الأفراد من الكوماندوز والقوات الخاصة ، فضلاً عن وحدات من قوات حرس الحدود والشرطة والساواك . وكان ضغط القوى العسكرية شديداً بحيث لم يسمح للفدائيين بالقيام بأية مناورة أو أية حركة .

وكان النظام قد اشتاط غضباً بسبب السطو على البنوك فى طهران والهجوم على «سياهكل» ؛ لذا قام بإعدام ستة من الأعضاء الأصليين «لفريق الغابة» وسبعة من أعضاء الصف الأول فى «فريق المدينة» وذلك بعد اعتقالهم بفترة لم تزد عن الشهر .

وأدين المتهمون فى الصفوف التالية بالحبس لفترات تتفاوت من عامين إلى المؤبد . وبإعدام ثلاثة عشر شخصاً ، وأعلن النظام فى أبواق دعاياته هزيمته للإرهاب وتمكنه من القضاء عليه .

ومن الناحية العسكرية ، فقد منيت واقعة «سياهكل» بالفشل الذريع بشكل عملى ، بعد أن استمر التفكير ما يقرب من ثمانية أعوام بهدف التخطيط للمقاومة المسلحة ، وانقضت عدة أعوام فى التدريب ، وتم الإعداد لها وتهيئة أسبابها خلال عام أو اثنين ، ثم منيت بالهزيمة وحكم عليها بالزوال فى أقل من أسبوع من بدايتها .

لكن من الناحية الفكرية ، كان حادث «سياهكل» أملاً وافتخاراً لجيل المقاومة التالى على عام ١٣٤٢هـ .ش (١٩٦٣م) يبلغ صداه الأماكن البعيدة ، كان يبدو وكأنه نافذة صغيرة فى نهاية النفق المظلم لمقاومة الشاه بعد ما يقرب من ثلاثة عقود من الهزيمة والانكسار .

فى مثل هذه الأجواء والظروف كان يعتبر حادث «سياهكل» - على الرغم من فشله - نقطة تحول ، ويمثل أحد الإنجازات المهمة . ولم يحقق أى عنصر من عناصر المقاومة السياسية تلك النتيجة العظيمة الحقيقية التى حققها حادث «سياهكل» . وفى حين أن الحادث فى حد ذاته كان يستطيع أن يُلقن المناضلين دروساً عديدة (وأعظمها طرح نظرية المواجهة المسلحة) لكن ما نسب إليه من تمجيد وتعظيم وتقديس ، وما نظم من أجله من مدح حماسى ، جعل من «سياهكل» أسطورة يجب أن تظل موضع هذا التمجيد وذلك التعظيم .

وفى نفس الفترة التى ظهرت فيها جماعة جزنى ، كانت تتشكل جماعة أخرى مشابهة بعيداً عنها ، شكل النواة الأصلية لها ثلاثة طلاب مشهديون فى طهران ، وعلى عكس جماعة جزنى التى ينتمى مؤسسوها إلى حزب توده ، ينتمى مؤسسو الجماعة الثانية - وهم أمير پرويز پويان [٣٦] والأخوان مجيد ومسعود أحمد زاده [٣٧] - إلى أسرة متدينة . وكان لأسرة أحمد زاده فى مشهد سوابق وطنية ودينية وموقف مؤيد لـ د. مصدق . وقد شكل پويان والأخوان - أثناء فترة دراستهم الثانوية - جمعية إسلامية نشطة فى مشهد ، لكن بدخولهم الجامعة وتواجدهم داخل ساحة النضال

الطلابى فى أواسط الأربعينيات (أى الستينيات بالتقويم الميلادى) توجه ثلاثتهم إلى الماركسية لاستخدام فكرهم الثورى منها .

ولم تختلف نظرية الجماعة الثانية عن نظيرتها الأولى فى اختيار خط المقاومة المسلحة ، والشيء الذى كان يميزهما هو تأكيد الثانية بشكل أكبر على دور «الطلائع الثورية» باعتبارها السباقة إلى النضال المسلح ، فضلاً عن تأكيدها بشكل أكبر على الطبقة المثقفة ودورها فى المقاومة المسلحة أكثر من تأكيدها على الطبقة العاملة . وقد نشأ هذان الاختلافان فى الواقع بسبب الاختلاف الخفى الذى يوجد فى أسلوب تعرف هاتين الجماعتين على الماركسية . فقد تعلم جزنى وأعوانه مبادئ الماركسية واللينينية فى فراش حزب توده ، وكانت أفكارهم حولها فى إطار الماركسية واللينينية الكلاسيكية التى تسيطر على الأحزاب الشيوعية فى أوروبا الشرقية. أما هذه الجماعة الثانية فإنها تقع تحت التأثير الشديد للعناصر الماركسية فى أمريكا اللاتينيةالتى تختلف تماماً عن الماركسية المسيطرة على أوروبا الشرقية .

وأهم هذه الاختلافات ما كان يتعلق بأسلوب المقاومة وأحداث الثورة . فحين كان تأكيد الماركسية واللينينية الكلاسيكية الأصلى منصبا على طبقة العمال باعتبارها محور الثورة وعمودها الفقرى ، كان تأكيد الأدب الثورى فى أمريكا اللاتينية (المتأثرة بأفكار أرنست جيفارا ، فيدل كاسترو، ريتشى دبره وكارلوس ماريكلا) بشكل أكبر على ما كان يتم التأكيد عليه فى الأدب الثورى الماركسى فى إيران ، والذى عُرف باسم «الطلائع الثورية» .

ولم تستطع المقاومات التى تمت من قبل طبقة العمال القيام فى البداية بدورها الثورى خلال أحداث الثورة ، ووقعت هذه المهمة على عاتق «الطلائع الثورية» ، ومرد ذلك إما أن يكون عدم التطور الصناعى ، أو ضغط الحاكم ، أو عدم إمكانية القيام بمقاومات نقابية أو ضعف زعامة اليسار . وقد دفع «الطلائع» بفدائيتهم بثورة بهمن .

ووجه الاختلاف الآخر الذى كان بين الماركسية الكلاسيكية وماركسية أمريكا اللاتينية هو أسلوب العمل المسلح . ففى الماركسية اللينينية الكلاسيكية كان على «الطلائع» مهمة السعى فى تدريب ، وإعداد وتشكيل طبقة العمال عن طريق الحزب

(أى الحزب الشيوعى) ، وقيادة الثورة يتم بوساطة هذه الطبقة (على غرار نظام الجديد لينين فى ثورة روسيا) . وفى الماركسية اللينينية فى أمريكا اللاتينية يقوم دور الطلائع بشكل أكثر فى إيجاد المقاومة المسلحة عن طريق الحرب التطوعية فى المدن ، وهذا ما عُرف بين مناضلى إيران الراديكاليين باسم «جنگ چريكى شهرى» - أى حرب المدن التطوعية - وقد حظيت بإقبال شديد عليها .

وقد راجت هاتان النظرتان بين جماعتى (جزنى - ظريفى) و (أحمد زاده - پويان) . وكما أشرنا من قبل ، كان حزب توده هو المعبد الفكرى لجزنى ورفاقه ، فإن المقاومة المسلحة فى معجم عقيدتهم كانت مخططاً للوصول إلى المقاومة الأساسية التى تتشكل من طبقة العمال . وفى حين كانت المقاومة المسلحة عند جماعة (أحمد زاده پويان) فى قالب «حرب المدن التطوعية» هى أشمل بمراحل من أن تكون مخططاً ، لكن نجد فى الواقع عنوان الرسالة الشهيرة لأحمد زاده - التى اعتمدت عدة أعوام على التدريب النظرى للنضال المسلح - هو «مبارزهء مسلحانه هم استراتژى هم تاكتيك» - أى النضال المسلح إستراتيجية ومخطط - ونرى كذلك عنوان رسالة أخرى بقلم پويان ، يقول «ضرورت مبارزهء مسلحانه ورد تئورى بقا» - أى ضرورة النضال المسلح ورفض نظرية البقاء - وكانت هاتان الرسالتان جزءاً من التعاليم الأساسية والمهمة لجماعات المقاومة الراديكالية فى النصف الأول من الخمسينيات (أى السبعينيات). وترجع أهميتهما إلى ادعائهم بأن الأخيرة كانت موضع استفادة الجماعات الفدائية الماركسية خارج حدود إيران باعتبارها تعاليم سياسية (٥) .

وقبل حادث «سياهكل» ، تمت الاتصالات بهدف إدماج هاتين الجماعتين ، غير أنها لم تأت بأية نتائج ، والسبب الأساسى لفشلها هو أن جماعة (أحمد زاده - پويان) كانت تصر بشدة على الخط المسلح فى قالب «حرب المدن التطوعية» فى حين كان إصرار صفائى أكثر على القيام بعمليات فى المناطق القروية . ومع مقتل صفائى ، تولى حميد أشرف [٣٨] رئاسة جماعة جزنى ، وبهذا التغيير لم تعد هناك أية موانع لإدماج الجماعتين .

وعلى الرغم من امتلاك أشرف الاستعداد الجيد للالتحام مع القوات العسكرية والفرار منها ، وذلك من الناحية العملية ، إلا أنه من الناحية النظرية لم يكن بمثل هذا

الاستعداد فى التقيد بنموذج محدد أو طرح النظريات . ورسالته بعنوان «جمعبندى سه ساله» - أى نتاج ثلاث سنوات - والتى كانت تقييمًا للمقاومة الفدائية خلال الأعوام ٥٠ - ١٣٥٣هـ.ش (٧١ - ١٩٧٤م) ، لم تنل القبول الشديد فى المحافل الراديكالية وذلك على عكس مؤلفات جزنى ، وأحمد زاده وپويان . وبناءً عليه ، فمع إدماج الجماعتين فى شهر فروردين من عام ١٣٥٠هـ.ش (١٩٧١م) ألقت آراء أحمد زاده وپويان بظلالها على مجموع أفكار التشكيل الجديد الذى أطلق عليه اسم «سازمان چريك هاى فدايى خلق ايران» - أى منظمة المجاهدين من فدائى شعب إيران - وتصدرت خطة المقاومة المسلحة فى إطار حرب المدن التطوعية لوحة أهداف المنظمة بشكل عملى .

وكلما أصر النظام على إظهار قدرته فى اقتلاع شأفة الإرهاب بإعدامه ثلاثة عشر شخصًا من رؤساء فريقى «المدينة والغابة» ، بادر فدائيو الشعب فى المقابل لإبطال ادعاءاته . فقد نجح الفدائيون فى شهر فروردين من اقتحام قسم الشرطة فى قلهك الكائن فى شارع الحكومة وبعد إلحاق الخسائر بالحرس هناك، ظفر ببعض أسلحتهم . والحادث التالى تم بعد هذه الواقعة بعدة أسابيع ، وكان أكثر مراراة فى حلق الشاه من الناحية السياسية ، ففى شهر ارديبهشت ، نجح الفدائيون أيضًا فى اغتيال الفريق فرسيو - رئيس المحكمة العسكرية - أمام منزله بطلقات نارية .

وقد ألحق هذان الحادثان صدمة نفسية عنيفة لأجهزة النظام المخابراتية وخاصة الساواك أكثر من أى حادث آخر نجح فيه الفدائيون (٦) .

وبناءً على ما سبق ، فقد تزامن تأسيس منظمة «چريك هاى فدايى خلق» منذ أوائل عام ١٣٥٠هـ.ش (١٩٧١م) مع فترة تشديد نشاط الساواك ومضاعفة المطاردة والمراقبة ليل نهار لاقتفاء أثر أعضاء هذه المنظمة . ومساعى الساواك المستمرة فى أواسط عام ١٣٥٠هـ ش (١٩٧١م) أثمرت فى النهاية ، ونجحت القوى العسكرية فى التعرف على منزل لفريق الفدائيين كان يعيش فيه أمير پرويز پويان . وسقط هذا المقر الأساسى للفدائيين فى يد الساواك بعد عدة ساعات من إطلاق النيران فى المنطقة ، وكان پويان - وهو أحد اثنين من العقول المدبرة للمنظمة - من بين الذين تم قتلهم أثناء

الالتحام مع قوات الشرطة . وبعد عدة أسابيع ، وفى أعقاب التحريات المكثفة ، نجح الساواك فى القبض على الأخوين أحمد زاده وبعض كبار المسئولين فى المنظمة .

وفى عام ١٣٥٠هـ .ش (١٩٧١م) الذى أعلنه مجاهدو «فدائى خلق» بأنه بداية النضال المسلح فى قالب حرب المدن التطوعية ، كان فى الحقيقة العام الذى فقدت فيه المنظمة العديد من زعمائها وكوادرها ممن كانوا فى الصفوف الأولى . وباستثناء عام ١٣٥٥هـ . ش (١٩٧٦م) الذى تفككت فيه المنظمة فإن أكبر قدر تحمله الفدائيون من الخسائر كان فى عام ١٣٥٠هـ .ش (١٩٧١م) .

وبإعدام الأخوين أحمد زاده ، والأخوين عباس وأسد الله مفتاحى - من زعماء المجاهدين - يبقى فقط حميد أشرف الذى نجح للمرة الثالثة فى الهروب من مخالب الساواك .

ومنذ عام ١٣٥٠هـ .ش (١٩٧١م) حينما أعلنت المنظمة رسميا عن وجودها ، وحتى أواسط عام ١٣٥٥هـ . ش (١٩٧٦م) حينما نجح الساواك فى القضاء عليها بإلحاقه الضربات المتلاحقة ضدها ، قام الفدائيون عدة مرات بعمليات داخل المدن ، من أهمها اغتيال بعض الأفراد من القادة الأمنيين والعسكريين واستخدام القنابل والسطو على البنوك . وكان الجزء الرئيسى من جهد الفدائيين منصبا على الاختباء والفرار من مطاردة مسئولى الساواك التى كانت تتم ليل نهار .

وبعيداً عن طهران ، نجح الفدائيون كذلك فى تبريز ، ومشهد ، وإصفهان وشيراز فى تشكيل بعض الخلايا ، وكانت معظم العناصر المكونة لها من الطلاب القاطنين فى هذه المدن . وبالإضافة إلى مجاهدى «فدائى خلق» ، فكرت بعض الجماعات الماركسية الأخرى (ذات الميول المتباينة ومن بينها المائوئية) [٣٩]، مثل : «ستارهء سرخ» ، «آرمان خلق» ، «جبهة آزادى بخش خلقهاى ايران» و «گروه فلسطين» [٤٠] فى استخدام المقاومة المسلحة أيضًا، لكن تم التعرف عليها جميعًا منذ بداية نشاطها بواسطة جهاز الساواك، واعتقل أعضاؤها. وكانت هذه الجماعات صغيرة فى الغالب ، فلم يزد عدد كل منها على عشر أو عشرين فرداً باستثناء الجماعات المعروفة باسم «سيروس نهاوندى» حيث بلغ عدد أعضائها إلى ما يقرب من المائة شخص.

* * * * *

لم يكن الميل تجاه المقاومة المسلحة منذ عام ١٣٤٢هـ .ش (١٩٦٣م) وما تلاه قاصراً على المعارضين من اليسار . فقد اتجه كذلك المناضلون الدينيون إلى استخدام السلاح خلال الأربعينيات (أى الستينيات) . وأول جماعة اتجهت إلى هذا الأسلوب هى جماعة «هيئتهاى مؤتلفه اسلامى» - أى المجالس الإسلامية الائتلافية - وتصل سابقة النضال لدى بعض أعضائها إلى الأعوام ٢٠ - ١٣٣٢هـ .ش (٤١ - ١٩٥٣م) وإلى عهد آية الله كاشانى و «فدائيان اسلام» .

وانضم البعض أيضًا إلى دائرة النضال السياسى منذ أوائل الأربعينيات (أى الستينيات بالتقويم الميلادى) مع بداية نشاط الإمام السياسى .

وإذا ما نظرنا من الناحية الاجتماعية ، نجد أن طبقات الحرفيين وتجار السوق فى طهران هى التى شكلت أعضاء هذه الجماعة ، وأنهم كانوا على صلة وثيقة كذلك ببعض رجال الدين ، فضلاً عن صلتهم بجماعة «هيئتهاى مؤتلفه» . وكانت أقوى أنواع هذه الصلات هو ما تم مع حجة الإسلام محيى الدين الأنوارى .

وكان الخط المسلح لجماعة «مؤتلفة» يفتقد ذلك المعنى والمفهوم الذى كان لدى جماعات الفدائيين. فكانت جماعة «مؤتلفة» - مثلها فى ذلك مثل جماعة «فدائيان خلق» - تنظر إلى النضال المسلح باعتباره وسيلة طبيعية للقضاء على العدو أكثر من إستراتيجية لإيجاد ثورة شعبية مسلحة ، كما كانت تقوم - مثلها فى ذلك أيضًا مثل «فدائيان اسلام» - بإعداد قائمة تتضمن أسماء قادة النظام ممن يجب اغتيالهم .

وأول عملية لجماعة «مؤتلفه» - وكانت آخرها أيضًا - هى اغتيال حسن على منصور - رئيس الوزراء آنذاك - فى شهر بهمن من عام ١٣٤٣هـ .ش (١٩٦٤م) ، وبعد عدة أسابيع من عملية الاغتيال تم التعرف على جميع أعضاء الجماعة البالغ عددهم ٢٠ فرداً وقبض عليهم جميعًا ، وأعدم أربعة منهم ، هم : محمد البخارى ، رضا صفا الهرندوى ، مرتضى نيك نژاد والحاج صادق أمانى . وكانت إدانة الثلاثة الأول بسبب اشتراكهم فى عملية الاغتيال ، أما أمانى فقد أدين بسبب زعامته لتلك الجماعة ، وحكم على الباقين من زعماء «مؤتلفه» بالسجن المؤبد ، وهم : الحاج مهدى العراقى ، الحاج هاشم أمانى (شقيق صادق أمانى) ، حبيب الله عسكر أولادى مسلم

أبو الفضل الحيدرى ، محمد تقى كلافچى وعباس مدرسى فر . كما حكم على حجة الإسلام محيى الدين الأنوارى بالسجن لمدة خمسة عشر عاماً ، وأدين الباقون بأحكام مخففة وتم إطلاق سراح بعضهم (٧) .

والجماعة الثانية التى ظهرت فى الساحة بموازاة جماعة «مؤتلفه» ولكن بشكل مستقل عنها ، هى جماعة «حزب ملل اسلامى» - أى حزب الشعوب الإسلامية - وسعت هذه الجماعة لإيجاد تشكيلات سرية مقاومة لنظام الشاه من خلال برنامج متعدد المراحل ، وتمت الموافقة فى جزء من هذا البرنامج على ضرورة النضال المسلح ضد النظام ، غير أن السافاك استطاع منذ البداية رصد عمل هذه الجماعة - أى فى عام ١٣٤٤هـ .ش (١٩٦٥م) - واستطاع كذلك تعقبهم والقبض عليهم جميعاً خلال أسابيع قليلة قبل نجاحهم فى القيام بأية عمليات .

وأدين السيد كاظم البجنوردى بالسجن المؤبد ، والباقون من زعمائها تم إدانتهم بأحكام مشددة ، ومنهم : محمد مير صادقى ، وأبو القاسم سرحدى زاده ، وسيد محمود وهاشم آية الله زاده . وكان حجة الإسلام الشيخ محمد جواد حجتى كرمانى من بين المتهمين وحكم عليه بالسجن عشر سنوات . ومن بين ما يقرب من الثمانين عضواً من أعضاء الجماعة الذين تم القبض عليهم ، أدين خمسة وخمسون فقط ، وتم إطلاق سراح الباقين (٨) .

وعلى الرغم من التزام أعضاء «حزب الشعوب الإسلامية» والمؤيدين له بالإسلام - مثلهم فى ذلك مثل جماعة «مؤتلفه» - إلا أنهم يختلفون عنها من ناحية التركيبة الاجتماعية . فكما أشرنا سالفاً ، كانت طبقة التجار والطبقة المتوسطة من أهل السوق هى التى تمثل عضوية جماعة «مؤتلفه» ، لكن ما كان يشكل الغالبية العظمى من «حزب الشعوب» هم الطلاب والحاصلون على الشهادات المتوسطة ؛ لذا فإن الشباب فى «حزب الشعوب» كانوا يفتقدون التجارب السياسية ، على عكس الكثيرين من أعضاء «مؤتلفه» الذين كان لهم سابق عهد فى طريق النضال .

والجماعة التالية التى ظهرت على الساحة وكانت أقل بمراحل من الجماعتين السابقتين هى جماعة «جبهة آزاديبخش مردم ايران» - أى جبهة تحرير شعب إيران -

واختصارها «جاما» . وعلى عكس الجماعتين السابقتين كانت النسبة العظمى من أعضاء جاما تتشكل من طبقة المفكرين وممن أنهوا دراستهم الجامعية. ووجه الاختلاف الثانى بينها وبين سابقتيها من ناحية ميولهم الوطنية ، قيامهم بترجمة بعض المؤلفات الأجنبية حول النضال المسلح . وقد تم اكتشاف أمر أعضاء «جاما» أيضًا - كالجماعات السابقة - قبل نجاحها فى القيام بأى نشاط سياسى أو أى عمل مهم ، وألقى القبض على جميع أعضائها عام ١٣٤٤هـ .ش (١٩٦٥م) .

وأخيراً ، ومع ظهور منظمة المجاهدين فى عام ١٣٥٠هـ .ش (١٩٧١م) انضم إليها بعض أعضاء جماعة «مؤتلفه» ممن أدينو بأحكام مخففة أثناء القبض عليهم فى عام ١٣٤٣هـ .ش (١٩٦٤م) أو ممن لم تتم محاكمتهم ، ومنهم : سيد أسد الله اللاجوردى ، صادق إسلامى ، الحاج مهدى شفيق ، الحاج مرتضى اللاجوردى والحاج أسد الله دامچيان .

وكانت النهاية مماثلة أيضًا لنهاية «حزب الشعوب» ، ففضلاً عن قيام الباقين من كلتا الجماعتين بتأسيس تشكيلات تحت مسمى «حزب الله» فى أواخر الأربعينيات (أى الستينيات بالتقويم الميلادى) ، لكن تم اكتشاف أمرهم والقبض عليهم قبل أن يتمكنوا من القيام بعمليات مؤثرة .

ونجحت منظمة «المجاهدين» فقط من بين الجماعات الدينية التى تشكلت بعد عام ١٣٤٢هـ . ش (١٩٦٣م) وسلكت خط المقاومة المسلحة فى تكوين التشكيلات المناسبة والصمود حتى النصف الأول من الخمسينيات (أى السبعينيات بالتقويم الميلادى) وقتما بلغ هذا النوع من النضال ذروته .

وعلى عكس مؤسسى «فدائى الشعب» الذين كانوا ينتمون فى الغالب إلى الأسر الطهرانية أو الشمالية (باستثناء أحمد زاده وپويان) ، كان جميع المؤسسين الأوائل للمجاهدين (باستثناء الرضويين وناصر صادق) من أهل المدن . وعلى عكس جماعة «فدائيان» التى قامت - إلى حد ما - من بين الأسر غير الدينية المنتمية إلى حزب توده، كان المجاهدون ينتمون إلى أسر دينية من الطبقات المتوسطة . وأخيراً ، وعلى عكس جماعة «چريك هاى فدايى» التى كان لها - إلى حد ما - سابق عهد بالنضال من خلال

تشكيلات الشباب فى حزب توده ، وكان معظمهم من النشطاء فى النضال الطلابى خلال الأعوام ٣٩ - ١٣٤٢هـ.ش (٦٠ - ١٩٦٤م) ، لم يكن من بين المجاهدين من لهم سابق عهد بالنضال السياسى باستثناء عدد ضئيل منهم .

وقد توصل المجاهدون - مثلهم فى ذلك مثل جماعة «فدائيان» - إلى نتيجة مفادها ضرورة إعادة النظر فى قوالب النضال السابقة وطرح خطط جديدة ، وذلك تحت تأثير إخماد ثورة ١٥ خرداد وإحباط المقاومات السابقة المناهضة للنظام .

وكان محمد حنيف نژاد ، وسعيد محسن ، وأصغر بديع زادگان من بين المؤسسين الأوائل لجماعة المجاهدين . وقد اكتسب الأول والثانى التجربة السياسية فى فراش «نهضت آزادى» - أى نهضة التحرير - أثناء دراستهما فى جامعة طهران فى الأعوام من ٣٩ - ١٣٤٣هـ.ش (٦٠ - ١٩٦٤م)، وتم القبض على حنيف نژاد وبصحبته عدد آخر من أعضاء «نهضت آزادى» عام ١٣٤١هـ.ش (١٩٦٢م) وأطلق سراحه بعد تسعة أشهر من الحبس . ثم عاد إلى الجامعة (كلية الزراعة بكرج) وأنهى دراسته ثم التحق بالخدمة العسكرية . وقد وضع حنيف نژاد حجر الأساس للجمعية الإسلامية فى كلية الزراعة جامعة طهران أثناء دراسته ، وكان بعض الطلاب بالكلية الفنية بنفس الجامعة من العناصر النشطة داخل هذه الجمعية . ولم يكتسب المجاهدون فقط تعليماتهم الأساسية الأولية من جماعة «نهضت آزادى» ، بل إن الأفكار الدينية لزعماء هذه الجماعة - خاصة آية الله طالقانى والمهندس بازرگان - قد أوجدت آفاقًا جديدة فى نظرتهم الإسلامية . وكانت الغالبية العظمى من المجاهدين تتشكل من المترددين على مسجد هدايت فى الأعوام الأولى من الأربعينيات (أى الستينيات بالتقويم الميلادى) إلى أن تم إغلاقه بوساطة النظام (٩) .

وموضوع التأكيد على العلم والفكر العلمى - الموجود فى أفكار المهندس بازرگان ومؤلفاته الدينية - أقنع المجاهدين بعدم وجود تعارض بين التعاليم والمعتقدات الدينية وبين النتائج والقوانين العلمية . وقد تمكنوا - مثل المهندس بازرگان ود. سحابى - من إلباس بعض المعتقدات الدينية رداء العلم (والنتيجة أنهم بينوا صحة تلك المعتقدات على أساس علمى) وأصبح هذا الأسلوب هو الأسلوب الأمثل الذى يتخذ تجاه الأصول الدينية والإطار العام للمعتقدات الإسلامية .

من ناحية أخرى ، فإن أفكار آية الله طالقانى - سواء فى مؤلفاته ، مثل «مالكيت در إسلام» أو «حكومت إسلامى» ، وسواء فى قالب تفاسيره للقرآن الكريم - حثت المجاهدين على الاعتقاد بأن الإسلام هو دين العدالة الاجتماعية والنضال السياسى ، وأنه يتواءم وجميع مقتضيات العصر الاجتماعية . بعبارة أخرى ، إن الإسلام الذى راج من وجهة نظر زعماء «نهضت آزادى» هو أيديولوچية علمية تمنح الأمل فى الحرية ، والمساواة والعدالة الاجتماعية . والنظرة الحديثة ، أو بتعبير آخر ، إعادة النظر التى ظهرت فى الفكر الدينى للمجاهدين صارت أكثر شمولاً بشكل تدريجى من أفكار معلميهم الأوائل وآرائهم .

وللتوسع فى الشكل والرؤية ، سعى المجاهدون تدريجيا فى توضيح بعض الآراء المؤيدة للماركسية وإدماجها فى قالب المعتقدات الإسلامية ، وذلك بإلهام من الأفكار الماركسية الرائجة بين العناصر الراديكالية المعارضة للنظام وبتأثير منها . وقد وضح فى أفكار المجاهدين ومؤلفاتهم تتبع النظريات الماركسية التى تتعلق بالتكامل الاجتماعى ، والمعارضة ، والجدال ، والمادية التاريخية وغيرها ، وقويت تدريجيا وانتشر تداولها . وأبدى المجاهدون تقاربًا شديداً مع الماركسية - خاصة فى الاقتصاد - وجعلوا نظرية ماركس «ارزش اضافى» - أى القيمة الإضافية - التى وردت فى مؤلفه الشهير «سرمايه» - رأس المال - أساسًا لاقتصادهم الإسلامى رغم وجود الاختلافات بين آرائه وبين الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والروايات (١٠) .

ولما كان المجتمع فى إيران مجتمعًا شبه إقطاعى ، وشبه مستعمر ، والنظام الذى يحكمه من نوعية برجوازية كمبرادور التى تنتمى بشكل كامل إلى الإمبريالية العالمية ، وفى مقدمتها أمريكا ، لذلك فإن الطريق المؤثر معه هو استخدام الخط المسلح فقط . وكان هدف المجاهدين من النضال - كأتباع ماركس - القضاء على قاعدة الإمبريالية الأمريكية فى إيران ، وإيجاد مجتمع متساو لايُستغل فيه الفرد على أى نحو قط داخل أى إطار . وقد أضاف المجاهدون مصطلح «موحد» على المجتمع الذى يخلو من التمييز الطبقى .

وبمرور الأيام ، زاد تأثير الثقافة الماركسية بين القوى الراديكالية المعارضة للنظام - سواء من اليساريين أو من رجال الدين - خلال فترة الأربعينيات والنصف الأول من الخمسينيات (أى الستينيات والسبعينيات بالتقويم الميلادى) وذلك عن طريق المجاهدين.

والجزء الخاص بالتعاليم والمعتقدات الدينية الإسلامية التى تتفق بشكل مباشر أو بطريق الاجتهاد والتفسير مع مبادئ الأفكار الماركسية صار موضع تأكيد المجاهدين ومن تعاليمهم . وفى المقابل ، فإن المبادئ الإسلامية وأحكامها التى لا تتفق والأدب الماركسى أو الأفكار الثورية الرائجة المسيطرة على طائفة المناضلين الراديكاليين - وبعضها يعارض تماماً هذه الأفكار - فقد تم طرحها جانباً ولم تجد لها طريقًا فى أيديولوجية المجاهدين . وتم الاعتراف رسميا بمبادئ الماركسية باعتبارها «علم النضال» أو «علم تكامل المجتمع» ، وتم إزالة الفروق بين هذه الرؤية وبين الإسلام عمليا .

وفى ظل جو الاعتقال المعتم ، و«مكافحة المقاومة» ، ومن الناحية الفكرية، العمل على الحد من تمكن الحاكم من طوائف المناضلين الراديكال ، كانت تُطرح رؤية واحدة فقط ألا وهى مواجهة الإمبريالية الغاشمة المستغلة التى كان نظام إيران أحد تجلياتها.

بعبارة أخرى ، إن المقاومة ، والمقاومة فقط هى التى تتميز بالأصالة ، وبالطبع كانت رؤى المقاومة وأفكارها تتميز بالقيمة والأصالة . ولما كانت الماركسية هى التى حملت على عاتقها أكبر وأهم دور فى المقاومة ضد الإمبريالية - من وجهة نظر مناضلى إيران فى الأربعينيات (أى الستينيات بالتقويم الميلادى) - فبناءً عليه ، ومن الطبيعى ، اتخذت الأفكار الماركسية القيمة والأصالة من تلقاء نفسها .

إن كل شىء فى الواقع لم يكن فى نفس أهمية الهدف السامى والتاريخى لمقاومة الإمبريالية ، وفى مقدمتها الإمبريالية الأمريكية الإجرامية . وإن أسمى رسالة لقوى المقاومة وأهمها هى محاربة ذلك الشيطان ، وبالطبع كان أعظم افتخار من نصيب الشعوب التى استطاعت الصمود فى مواجهة الإمبريالية الأمريكية والاستعمار ، ومنها: شعوب ڤيتنام ، والصين ، وكوبا والجزائر . وكان أسمى وسام فخرى تم وضعه من قبل الراديكاليين على صدر الثوريين قد منح لأولئك الذين تمكنوا من قيادة شعوبهم إلى

النصر فى صراعهم ضد الإمبريالية ، وهم : ماو ، ولينين ، وهوشى مين ، وكاسترو وتشه جيفارا .

والخلاصة، كان نظام الشاه وأربابه الأمريكان مظهراً ونموذجاً للشيطان والبغاة . وبالطبع كلما تم الصمود فى مواجهة الإمبريالية الأمريكية كلما استحقت الشعوب الثناء ، لذلك سرعان ما تأصلت آداب اليساريين وثقافتهم بين القوى الدينية المناضلة .

ومع انتهاء أمر الزعماء المجاهدين وكوادرهم الأوائل فى عام ١٣٥٠هـ .ش (١٩٧١م) صار الميل أكثر تجاه الماركسية ، وشكلت الآثار والمؤلفات الماركسية جزءاً جديراً بالاهتمام من برنامج المنظمة التعليمى فى الأعوام الأولى من الخمسينيات (أى السبعينيات بالتقويم الميلادى) ونمت الازدواجية الفكرية بين الإسلام والماركسية التى تأصلت تدريجيا فى المنظمة .

وأخيراً بلغ هذا التضاد نقطة نهايته، وتم حله مع خروج الإسلام من المنظمة . ففى شهر تير من عام ١٣٥٤هـ .ش (١٩٧٥م) ، أعلن رؤساء المنظمة المعتقلون رسميا وبشكل صريح فى حديث تليفزيونى أنهم من أنصار الماركسية وقد سلحوا المنظمة بالفعل بأيديولوچية الماركسية وعقائدها . وصرحوا بأنهم كانوا يتبعونها لأعوام طوال وأنهم كانوا يلقنون أعضاء المنظمة وكوادرها دروساً تتعلق بالأفكار الماركسية تحت مسمى «الماركسية علم النضال» أو تحت غطاء التعاليم الإسلامية .

ووسط ذهول المشاهدين ودهشتهم - خاصة مئات المسلمين الذين كانوا يعتقدون بأنهم ألقوا بأنفسهم تحت أقدام المنظمة - اعترف زعماء المنظمة فى نفس الحديث بقيامهم بقتل أعضاء المنظمة الذين بقوا على وفائهم للإسلام وأبدوا اعتراضهم حيال ماركسية الزعامة .

إن تغيير العقيدة داخل منظمة المجاهدين ، وكذلك آثار وكوارث هذا التغيير على الثورة - خاصة على القوى الدينية - كان من الموضوعات التى ظهرت آثارها منذ عام ١٣٥٤هـ .ش (١٩٧٥م) وما تلاه . فكما أشرنا فى الفصل السابق ، تمكن المجاهدون من الحصول على نفوذ كبير بين القوى الدينية المناضلة ، وصاروا سبباً لوجود الحركة الراديكالية الموسعة بين هذه القوى . ومنذ فترة التشكيلات عام ١٣٤٤هـ .ش (١٩٧٥م)

كان المجاهدون - مثلهم مثل جماعة جزنى - يعتقدون أن المقاومات السياسية السابقة ضد نظام الشاه قد تجرعت الهزيمة بسبب عدم وجود الأيديولوچية الثورية من ناحية ، وافتقاد الزعامة الثورية المتوافقة من ناحية أخرى ؛ لذا عزم المجاهدون على ما يلى :

أولاً : تدوين الأيديولوجية الثورية للمناضلين .

ثانيًا : القيام بالتعليم السياسى أو «بإعداد الكوادر» عن طريق المنظمة .

وأخيراً : عد المجاهدون أن الخط المسلح هو الطريق الأصولى البعيد الأمد لاجتذاب مجاميع الشعب وتعبئتهم لمقاومة الشاه .

وفى نفس فترة تدوين «الأيديولوچية الثورية» بدأت نواة المجاهدين الأولى لاكتساب العضوية و «إعداد الكوادر» .

وكان أهم نشاط للمجاهدين فى الأعوام الأولى للتشكيل هو التثقيف والدراسة بهدف تدوين «الأيديولوچية الثورية» واجتذاب أفراد جدد .

ومن بين الأفراد الذين انضموا إلى المنظمة ، قام اثنان ، هما : أحمد رضائى وعلى ميهن دوست بدور بارز فى تشكيل أيديولوچية المنظمة وتدوينها ، وكان رضائى هو المسئول عن الإعداد والميزانية داخل المنظمة ، أما ميهن دوست فكان طالباً بالكلية الفنية بالجامعة .

وبعيداً عن هاتين الشخصيتين ، قام محمود عسگرى زاده - خريج كلية التجارة والاقتصاد جامعة طهران - بدور أساسى فى تدوين آراء المنظمة الاقتصادية . وبشكل عام ، يمكن اعتبار حنيف نژاد وأحمد رضائى هما العقل المدبر لمؤسسى جماعة «المجاهدين» الأوائل .

وقد فكر المجاهدون فى تعلم الأساليب العسكرية والتدريب عليها منذ أواخر الأربعينيات (أى الستينيات بالتقويم الميلادى) بشكل تدريجى حينما توجه ستة منهم إلى فلسطين للقيام بالتدريبات العسكرية فى أعقاب الاتص[illegible] مع مكتب منظمة التحرير الفلسطينية بدبى ، وانضمامهم إلى أحد معسكرات الفدائيين هناك (فتح) . ولكن شرطة دبى ألقت القبض على هؤلاء الستة ظنا منها أنهم من طائفة المهربين ، وزجت بهم داخل السجون .

ونظراً لعدم تمكن المجاهدين من الإفصاح عن هويتهم الحقيقية زاد شك المسئولين العسكريين فى دبى وقرروا إعادتهم إلى طهران ، وتحويلهم إلى مسئولى إيران العسكريين . وخشى المجاهدون من تعرف السلطات العسكرية فى طهران على هويتهم وعلى هدفهم الأصلى ؛ لذا قاموا باختطاف الطائرة وهى معلقة فى السماء وهبطوا بها فى مطار بغداد .

وارتابت السلطات العراقية فى أمر هؤلاء الستة وذلك بعد خداع السلطات الأمنية الإيرانية فى حادث اغتيال تيمور بختيار الذى تم من قبل ، وعليه وقعت عليهم أعمال التعذيب حتى يفصحوا عن هويتهم الأصلية . وفى النهاية ، نجح المجاهدون – بفضل تدخل السلطات الفلسطينية – فى الوصول إلى إحدى القواعد الفلسطينية بالأردن . وبالطبع لم تكن هذه الأمور بالشىء الخفى عن أعين سلطات الأمن فى إيران .

والعضو الآخر الذى انضم إلى الستة المجاهدين هو أصغر بديع زادگان الذى تم تعيينه فى هيئة التدريس بالكلية الفنية بسبب تميزه الدراسى خلال سنى دراسته ، وحصل على بعثة دراسية إلى فرنسا لنيل درجة الدكتوراه ، وبعد توجهه إليها ، خرج منها خفية ، وتوجه إلى أحد المعسكرات الفلسطينية (فتح) .

ولم يكن «للمجاهدين» أوجه شبه مع جماعة «الفدائيين» فى الناحية الفكرية فقط ، فثمة تشابه بينهم وبين الفدائيين فى أسلوب نهايتهم . فقد التقى حنيف نژاد وناصر صادق بأحد سجناء حزب توده ويدعى شاه مراد دلفانى وذلك خلال تواجدهما فى السجن فيما بين عامى ٤١– ١٣٤٢هـ .ش (٦٢ – ١٩٦٣م) . وقد تم القبض على دلفانى – من أصل كردى – لصلته بنشاط حزب توده فى منطقة كردستان ، وقضى فترة داخل السجن . بيد أنه كان يتعاون مع جهاز السافاك خلال هذه الأيام ، أو من المحتمل أن يكون هذا التعاون قد تم بعد إطلاق سراحه ، وعندما تردد عليه ناصر صادق لتهيئة الأسلحة ، أطلع دلفانى جهاز السافاك ، لكنه تقاعس عن القبض عليه وقتئذ بسبب ظهور جماعة جزنى وانشغاله بصدها ، إلا أنه كان يراقب تحركاته بدقة حتى تمكن من معرفة أعضاء الجماعة الواحد تلو الآخر .

وأخيراً ، وبعد عودة الأعضاء الذين كانوا قد سافروا إلى الخارج للتدريب ، وسع الساواك من نطاق عمليات البحث والتفتيش فى شهريور من عام ١٣٥٠هـ .ش (١٩٧١م) ، ونجح بعد أسبوع واحد فى القبض على مايربو عن الثمانين شخصاً من أعضاء المجاهدين وزعمائهم . وتم اعتقال جميع الكوادر الأساسية للمنظمة باستثناء أحمد رضائى ، وتم إعدامهم جميعاً بعد عدة أشهر ، بينما قتل أحمد رضائى بعد عام فى أحد الاشتباكات المسلحة مع قوات الساواك .

وكان من المفترض أن تؤدى ضربة عام ١٣٥٠هـ .ش (١٩٧١م) بمجرد بدايتها إلى زوال المجاهدين ، لكن ثمة عاملاً أدى إلى تقدم المنظمة على الرغم من تجرعها ضربة قوية وانحصارها على عدة مستويات ، هذا العامل هو التأييد والاستقبال الحافل الذى لاقاه المجاهدون بين القوى الدينية الراديكالية . فعلى خلاف ما حدث لجماعة الفدائيين «چريك هاى فدايى» التى كانت تستمد عناصرها من بين الطبقات الطلابية ، تمكن المجاهدون – بسبب الصورة الدينية التى أخذت عنهم – من كسب نفوذ لهم بين أهل السوق ورجال الدين والتجار ، فضلاً عن طبقة الطلاب والخريجين . وكان المجاهدون بين هذه الطبقات بمثابة قوة، شابة ، باسلة وثورية تغلبت على جو الاعتقال ، والرعب والخوف الذى أوجده الساواك ، وهاجمت النظام باسم الإسلام . ومن وجهة نظر العديد من المؤيدين الذين جعلوا منازلهم ، وحياتهم ووجودهم تحت إمرة المنظمة، أن المجاهدين قد ألقوا بنور التشيع الثورى والإسلام المناضل فى ظروف تملك فيها اليأس من معارضى النظام .

وفى حين كان يبدو أن القوى الماركسية هى فقط التى تجرأت على كسر هذا الصمت ، قام المجاهدون بلا مداراة وبنثر دمائهم بمناهضة فرعون العصر . إنهم كانوا مدعاة لفخر العديد من المناضلين الدينيين ومباهاتهم .

لا ريب أنه وسط هذا كله، وفى نفس الوقت الذى ازداد فيه انتشار آراء المجاهدين كانت توجد عناصر وشخصيات دينية يثقل عليها – على الأقل – قبول هذه الأفكار والمعتقدات الدينية ، إن لم نقل كانوا ينفرون منها . لكن الظروف كانت على نحو يبدو من خلاله أن أهم الأهداف وأسماها هو النضال ، والنضال ضد نظام الشاه فقط .

وفى مثل هذه الظروف ، فإن طرح المسائل الأيديولوچية حول المجاهدين أثناء النضال ضد نظام الشاه الموالى لأمريكا ، لو لم نقل إنه عمل شاذ ومريب ، فهو على الأقل حركة غير مناسبة وفى غير أوانها . لكن قدسية المجاهدين قد تحطمت فى أعقاب اعترافات زعماء المجاهدين المعتقلين فى صيف عام ١٣٥٤هـ.ش (١٩٧٥م) القائمة على ماركسية المنظمة .

والشىء الذى زاد من غضب القوى الدينية وكان كالملح على جروحهم ، لم يكن فقط ماركسية زعامة المنظمة منذ أعوام سابقة أو الإمكانيات والتجهيزات التى وضعت تحت إمرتها باسم الإسلام لمجرد نشر مبادئ الماركسية ، بل كان مواجهة عدد من المجاهدين الذين أعلنوا عن تضامنهم من داخل السجون مع الزعامة الجديدة فى أعقاب إفشاء نبأ تغيير موقف المنظمة ، حيث تخلوا عن معتقداتهم الدينية وأعلنوا رسميا انتماءهم إلى الماركسية . وكان بعضهم ينتمون إليها بالفعل قبل الإعلان عن موقف الزعامة ، إلا أنهم لم يفصحوا عن ذلك خشية على مصالحهم . والبعض الآخر كان مؤمنًا بالولاء إلى الزعامة وملتزمًا بها؛ لذا فلا ريب أن يكون تغيير موقف الزعامة مدعاة لإظهار الطاعة لها ، والآن لم يعد فى مقدور القوى التى كانت تعادى آراء المجاهدين منذ أمد بعيد أن تمتنع عن إبداء معارضتها علانية .

والعامل التالى الذى أدى إلى ظهور التوتر والتشتت بين السجناء السياسيين الدينيين هو المعلومات الكثيرة التى أفشى بها وحيد افراخته – أحد زعماء المجاهدين الماركسيين – إلى السافاك . وكان افراخته قد تم القبض عليه فى أحداث عام ١٣٥٤ش (١٩٧٥م) ، وأثناء استجوابه أبدى خور عزم شديداً واعترف على عشرات المؤيدين والأفراد الذين كانوا يمدون يد العون إلى المنظمة . وكانت آية الله طالقانى ، وآيه الله منتظرى ، وحجة الإسلام لاهوتى وحجة الإسلام هاشمى رفسنجانى من بين أولئك الذين تم القبض عليهم فى أعقاب اعترافات افراخته .

وكانت التطورات التى حدثت فى المنظمة ، والضربة التى وجهت إليها من الداخل فى عام ١٣٥٤هـ . ش (١٩٧٥م) شيئًا مهمًا ومذهلاً بالنسبة لجهاز السافاك الذى لم يتخيل إمكانية تحققها حتى فى المنام . ولإثبات ما تم وقوعه ، وجه السافاك بالعديد

من أعضاء المجاهدين وكوادرهم ممن كانوا يعيشون داخل السجون لزيارة رؤساء المنظمة المعتقلين . وكان عدم تعاون القوى الإسلامية مع المنظمة، والاختلافات الداخلية، وأخيراً حجم المعلومات الكثيرة التى وقعت فى يد الساواك مما أدى إلى سرعة قضاء الساواك على المنظمة ، وخلال بضعة شهور ، تم القبض على بقايا عناصر المنظمة - سواء الماركسيين أو المسلمين - بيد الساواك، ولم يعد للمنظمة أى نشاط مرة أخرى منذ أواسط عام ١٣٥٥هـ.ش (١٩٧٦م) . ونجح المجاهدون قبل تصفيتهم - كما نجحت من قبل جماعة الفدائيين - فى القيام بعدة عمليات تفجيرية ، فضلاً عن اغتيالهم بعض الشخصيات العسكرية والأمنية التابعة للنظام . كما نجح الباقون من المجاهدين الماركسيين فى القيام ببعض عمليات الاغتيال قبل اعتقالهم عام ١٣٥٥هـ . ش (١٩٧٦م) ، ومن بين الذين تم اغتيالهم اثنان من المستشارين العسكريين الأمريكان فى طهران. [٤٢]

* * * * *

إن مجموع التطورات التى حدثت داخل منظمة المجاهدين ، والأحداث التى وقعت فى عام ١٣٥٤هـ . ش (١٩٧٥م) خلفت آثاراً سيئة على جميع العناصر الدينية .

وحالة الحيرة ، والغضب من أعمال رفقاء الماركسية وأعوانهم ، والشعور باليأس بسبب الهزائم المتزايدة التى تحملها النضال المسلح ، والأهم من هذا كله، المشاكل والمسائل الأيديولوچية التى واجهتها المنظمة أدت إلى دفع القوى الإسلامية المناضلة - سواء من المجاهدين أو من القوى الدينية المستقلة - إلى حالة من الجمود العميقة . وأول الأسئلة التى طرحت كانت تتعلق بالعلاقة العامة التى كانت موجودة حتى ذلك الحين بين القوى الإسلامية والقوى الماركسية ، فمن وجهة نظر العديد من التيارات الإسلامية أنهم أبدوا تعاوناً صادقاً تجاه الماركسيين لصالح النضال ، على الرغم من معارضة البعض .

لكن فى أعقاب أحداث ١٣٥٤هـ . ش (١٩٧٥م) تم الشعور بأن الماركسيين فى مجموعهم كانوا يستفيدون من التيارات الإسلامية كلما اقتضت مصلحتهم ذلك . وحتى

قبل دخول المجاهدين السجن فى عام ١٣٥٠هـ . ش (١٩٧١م)، فعلى الرغم من قلة التيارات الإسلامية، إلا أنها حافظت على حدودها مع الماركسيين ، ولكن الحشد المفاجئ لآلاف السجناء الماركسيين والمسلمين الجدد الذين سقطوا فى القيد مع بداية المقاومة المسلحة من ناحية ، وقسوة الظروف داخل السجن من ناحية أخرى ، وأخيراً خطورة المقاومة ، أوجد نوعًا من الاتحاد والتضامن بين القوى الماركسية والقوى الإسلامية داخل السجون.

والاختلاط الذى تم بين السجناء الماركسيين والإسلاميين – الذى أطلق عليه المجاهدون «الاتحاد الإستراتيچى» – تحقق عمليا فى شكل الحياة المشتركة ، والجلوس على رأس مائدة واحدة ، وتقسيم كل شىء وجميع المسئوليات بشكل مشترك .

وجميع السجناء – سواء الدينيين أو اليساريين – كانوا أعضاء «كميون» – أى هيئة مشتركة – وحرم من هذه العضوية السجناء الذين ارتدوا عن عقيدتهم وهدفهم وطالبوا النظام بالعفو ، ولم يشاركوهم حياتهم . وكان للمجاهدين دورهم الأساسى فى إيجاد هذه الهيئة المشتركة مع الماركسيين ، وسيطرت هذه الإستراتيچية على الرغم من معارضة بعض رجال الدين لها .

ومن ناحية أن اليد الغالبة داخل السجون كانت يد المجاهدين ؛ لذا لم تفلح المعارضات التى تمت ضد ما يسمى بـ «الاتحاد الإستراتيچى » ، لكن فى أعقاب تطورات عام ١٣٥٤هـ . ش (١٩٧٥م) أنهت العديد من القوى الإسلامية أمر «الاتحاد الإستراتيچى » مع الماركسيين .

وفى الواقع ، إن الانزعاج من أعمال الماركسيين ظل يتنامى لدرجة جعلت بعض التيارات الدينية تعتقد أن النضال ضد الماركسيين يفوق النضال ضد النظام من حيث الأهمية .

وعلى الرغم من هذا ، عارض مسعود رجوى ومؤيدوه – ممن كانوا يتزعمون المجاهدين داخل السجون – الانفصال عن الماركسيين ، وظل يؤكد على «الاتحاد الإستراتيچى» والحياة المشتركة معهم . فضلاً عن ذلك ، بررت المنظمة إدانة الزعامة الماركسية ولم تكن على استعداد لذمها أو مقاطعتها علانية .

لم تكن الزعامة على استعداد فقط لقبول فكرة أن موجة الميل إلى الماركسية فى المنظمة كانت دليلاً على وجود المشاكل الفكرية الجذرية داخل المنظمة ، بل كانت تعد هذه الأحداث حركة لبعض العناصر الانتهازية التى تمكنت فى ظل الظروف الخاصة التى وقعت ، من الاستفادة بإمكانيات المنظمة ، وأى شىء آخر سوى هذا كان من وجهة نظر زعامة المجاهدين فى السجن انحرافًا عن الهدف الأصلى ، ألا وهو النضال ضد النظام .

ومن وجهة نظرهم ، كان طرح المسائل العقائدية يعنى صب المياه فى ساقية العدو، لكن الحقيقة هى أنه حتى مع رد الفعل المختصر الذى أبدته زعامة المجاهدين فى السجن حيال ماركسية المنظمة ، إلا أنه أعاد الحياة إلى الميل نحو الماركسية . ومصطلح «ابورتونيزم» – أى الانتهازية – الذى كان يستخدمه المجاهدون لوصف زعامة المنظمة الماركسية ، هو فى الحقيقة أحد مرادفات الماركسية الأخرى . ويمكن إدراك معناه الحقيقى فى إطار الفكر الماركسى ، بغض النظر عن : هل من الأساس كان استخدام لفظ «ابور تونيست» وإطلاقه على زعامة المنظمة الماركسية صحيحًا فى حد ذاته أم لا ؟

غير أن استدلال جميع المجاهدين حول وجوب التغاضى عن كل شىء أمام النضال ، وسعيهم فى إزالة ما حدث ، لم يأت بفائدة . وظلت توجيهات زعامة المجاهدين غير مجدية بالنسبة للعديد من التيارات الدينية المحبطة من أعمال الماركسيين . وفى النهاية ، امتدت الخلافات أيضًا إلى رجال الدين داخل السجون. فكان بعضهم يؤيد المعارضة أو المواجهة العنيفة متعاونين فى ذلك مع الماركسيين ، بينما كان البعض الآخر أكثر اعتدالاً فى طريقة المواجهة ، ومنهم : آية الله طالقانى ، وآية الله منتظرى ، وحجة الإسلام لاهوتى ، ومهدوى كنى وهاشمى رفسنجانى . فكانوا يؤمنون بوجوب تحجيم المسلمين – سواء داخل السجون أو خارجها – فى تعاونهم مع الماركسيين . بعبارة أخرى ، إن رأيهم حيال الانفصال أو إنهاء ما يسمى بـ «الاتحاد الإستراتيجى» ورد خلال الفتوى الشهيرة التى أصدرها رجال الدين داخل السجن فى أوائل عام ١٣٥٥هـ . ش (١٩٧٦م) ، حيث أنهت الحياة المشتركة مع الماركسيين .

وزعيم المجاهدين فى السجن الذى بذل قصارى جهده للحيلولة دون إصدار الفتوى السابقة ، على الرغم من إدانته لها ، إلا أنه فى الوقت نفسه كان يرى نفسه ملتزماً بمراعاتها ظاهريا على الأقل .

وكان إصدار الفتوى والانفصال الذى حدث بين التيارات الإسلامية والماركسية جزءًا من آثار ضربة عام ١٣٥٤هـ . ش (١٩٧٥م) . والأثر الثانى لها هو ظهور الفرقة والانقسام بين القوى الدينية داخل السجون . فقد انفصلت عنها تماماً بعض شخصيات المجاهدين المستقلة ، من أمثال : المرحوم على رجائى ، والمهندس عزت الله سحابى وبهزاد نبوى . وشكل البعض الآخر جماعة أخرى ، والتفوا حول لطف الله ميثمى أحد زعماء المنظمة غير الماركسيين الذى فقد بصره فى حادث انفجار قنبلة كان يعدها بنفسه .

والجماعات المتفرقة الصغيرة مثل «صلواتيون» و «اعتراضيون» - أى المصلون والمعارضون - كانت من الجماعات التى انفصلت عن المجاهدين .

ولم يكن حال التيارات الإسلامية خارج السجون يسير على نحو أفضل ، فقد تألفت جماعات كثيرة قليلة العدد فى أماكن شتى ، مثل : «منصورون» ، «فلق» ، «حديد» ، «فجر اسلام» ، «موحدين» ، «صف» ، «مقداد» ، «أبوذر» ، «مهديون» ، «الفلاح» وغيرها . ولم يزد معظمها عن بضعة أفراد يتجمعون فى إحدى المدن . وبعضها كان يضم عناصر جديدة ، والبعض الآخر كان يضم الباقين من المجاهدين الذين لم يقدموا أى تغيير أيديولوچى ، وظلوا على مواقفهم الإسلامية .

وبشكل عام لم تستطع هذه الجماعات القيام بدور مهم فى النهضة ، ولم يتعد نشاطها إصدار بعض البيانات المحدودة داخل نطاق مدنها ، وتم القبض على العديد من أعضائها قبل أن يتمكنوا من القيام بأى نشاط .

ولم تكن أوضاع التيارات الماركسية وأحوالهم فى هذه الفترة أفضل من أوضاع التيارات الإسلامية . فقد نجح الساواك منذ أواخر عام ١٣٤٥هـ . ش (١٩٦٦م) خلال قيامه بسلسلة من العمليات الدقيقة المنظمة فى اكتشاف أكثر من عشر قواعد ومنازل خاصة بمنظمة «الفدائيين» وقام بهدمها . والعمليات الأخرى التى كانت تتم فى آن واحد فى كل من: طهران، والكرج، وقزوين، بلغت ذروتها فى ربيع عام ١٣٥٥هـ.ش (١٩٧٦م).

وفى شهر تير فى نفس العام ، وخلال الحصار والاشتباك الذى تم فى أحد هذه المنازل بمدينة الكرج ، سقط حميد أشرف - زعميم المنظمة الذى كان فى حكم الأسطورة للقوات الأمنية - فى يد الساواك بعدما يقرب من عشرة أعوام من المطاردة والفرار .

وفيما يتعلق بكيفية نجاح الساواك فى إلحاق الضربات المتتالية ، واكتشاف منازل المنظمة الواحد تلو الآخر ، وقيامه بتدميرها خلال بضعة شهور ، فهذا أمر لا يزال يكتنفه الغموض حتى وقتنا هذا . ولعل الباعث على هذا النجاح هو التحريات التى قام بها جهاز الساواك فى صيف عام ١٣٥٤هـ . ش (١٩٧٥م) ، والمعلومات الغزيرة التى حصل عليها فى أعقاب تصفيته لأعضاء منظمة المجاهدين ولعل التقدم الذى أحرزه ، والتجارب التى مر بها منذ أواخر عام ١٣٤٩هـ.ش (١٩٧٠م) هو الذى أدى إلى تمكنه من أن يكون صاحب اليد العليا فى صراعه مع الفدائيين ومطارداته المتلاحقة لهم .

والأهم من بواعث ظهور هذه الضربات ، هو تأثيرها على حركة النضال المسلح . فهذه الضربات لم تفن فقط زعامة منظمة «الفدائيين» ، بل واجه النضال المسلح بشكل عام الانكسار عمليا مع تصفية المنظمة . ولم ينته فقط خط جماعة جزنى فى قالب حركة «سياهكل» فى السابق ، لكن يبدو الآن أن النضال لم يأت بأية فوائد بعد أكثر من خمس سنوات من المقاومة والمطاردة والهروب فى قالب حرب المدن المطابق لآراء أحمد زاده وپويان . وعلى الرغم من التضحيات الجمة من قبل «الطلائع» وعلى الرغم من إعدام مئات الفدائيين ، وعلى الرغم من الزج بألفين أو ثلاثة آلاف من «الطلائع» فى السجون ، إلا أن النظام لم يستطع أن يوجه ضربة قاصمة حيال عمليات الفدائيين ، كما لم تظهر حركات بين صفوف الكادحين وطبقة العمال ، والوصول بها إلى حد الثورة الشعبية المسلحة .

وفى الواقع ، إنه فى شهر تير من عام ١٣٥٥هـ . ش (١٩٧٦م) حيث قام النظام بتصفية البقية الباقية من أعضاء المقاومة المسلحة ، وبعد ما يقرب من عشرة أعوام من انتشار موجة استخدام الخط المسلح بين المعارضين ، فإن نظام الشاه إن لم يكن أقوى فى العشرة أعوام السابقة ، فهو على الأقل لم يكن أكثر ضعفاً وقلقاً .

* * * * *

وموجة الاستفسار حول «ما الذى ينبغى عمله ؟ » التى انتشرت بين التيارات الدينية الراديكالية منذ عام ١٣٥٤هـ . ش (١٩٧٥م) ، سرت كذلك بشكل تدريجى فى العام التالى بين التيارات الماركسية . وصحب صيف عام ١٣٥٥هـ . ش (١٩٧٦م) الساخن معه حشداً من الأسئلة المتنوعة حول مستقبل النضال . وفى حين كانت التيارات الدينية تتعرض للعديد من الأسئلة حول «ما الذى ينبغى عمله ؟ » فى أعقاب الميل إلى الماركسية داخل منظمة المجاهدين ، كان السؤال لدى التيارات الماركسية : هل يمكن الاعتقاد بإنهاء خطر سير النضال المسلح ؟ ومثلما حدث داخل القوى الدينية، فإن الاستفسار حول «ما الذى ينبغى عمله ؟ » صحب معه موجة من الفرقة والانقسام بين القوى الماركسية .

وإذا ما تغاضينا عن ذكر العناصر والفرق الصغيرة ، نجد أن الحركة الماركسية الجديدة فى إيران قد انقسمت منذ أوائل الأربعينيات (أى الستينيات بالتقويم الميلادى) إلى أربعة عناصر أساسية ، ثلاثة من بينها نشأت من داخل منظمة الفدائيين «چريك هاى فدايى خلق» . وتضم المجموعة الأولى بعض أعضاء هذه المنظمة وكوادرها الذين توصلوا تدريجيا - حتى قبل ضربات عام ١٣٥٥هـ.ش (١٩٧٦م) - إلى نتيجة مفادها أن خط الاستخدام المسلح يحتاج إلى إعادة النظر بشكل أساسى .

وفى الواقع ، إنه منذ عام ١٣٥٣هـ . ش (١٩٧٤م) لم تستطع المنظمة عمليا القيام بأية حركة باستثناء عملية واحدة أو عمليتين ، وكان ضغط السافاك على الفدائيين ومطاردتهم واعتقالهم يتم بشكل مستمر وعلى نطاق واسع لدرجة جعلت الجزء الأساسى من قوة الفدائيين يستنفذ فى الهروب من مخالب القوى العسكرية والحفاظ على البقاء .

وقد زادت ضربات عام ١٣٥٥هـ . ش (١٩٧٦م) من تردد بعض كوادر الفدائيين واستفسارهم حول الخط المسلح . وفى النهاية ، وبعد العديد من المباحثات ، أطلقت هذه المجموعة على نفسها اسم «فدائيان منشعب» - أى الفدائيون المنفصلون - وانفصلت عن المنظمة ، وكان ذلك فى أواخر عام ١٣٥٥هـ . ش (١٩٧٦م) .

وفى المقابل ، كانت توجد جماعة أخرى من «فدائى خلق» لم تؤمن فقط بانتهاء مسيرة النضال المسلح ، بل كانت أفكار الثوريين بأمريكا اللاتينية فى قالب نظريات

پويان وأحمد زاده - من وجهة نظرها - هى الطريق الوحيد للخلاص وإيجاد ثورة شعبية مسلحة مقاومة للإمبريالية الأمريكية فى إيران . وبناءً عليه ، رأت أن الحل يكمن فى استمرار المقاومة المسلحة ، والمقاومة المسلحة فقط . وكان ميل أعضائها وإيمانهم بالنضال المسلح عميقًا إلى حد جعلهم يتابعون النضال المسلح ضد النظام الإسلامى حتى بعد نجاح الثورة الإسلامية ، حينما توجهوا إلى منطقة كردستان بزعامة أشرف دهقانى . [٤٣]

والجماعة الثالثة ، على الرغم من التزامها من حيث المبدأ بالنضال المسلح ، إلا أنها تخلصت تدريجيا من آراء أحمد زاده وپويان ، ومالت بشكل أكبر إلى آراء جزنى التى تطرح نظرية استخدام السلاح على أنها جزء من النضال وليس النضال كله . بعبارة أخرى ، رأت هذه الجماعة تدريجيا ضرورة الاهتمام بأنماط النضال الأخرى ، ومن بينها وأهمها ، النضال السياسى فى قالب واضح بين القوى المعارضة للنظام مثلما يهتم بالعمليات المسلحة، وأن تنحيتها جانبًا (على النحو الذى كانت تقوم به المنظمة فى الماضى) لهو من الخطأ .

بعبارة أخرى ، مزجت هذه الجماعة بين النضال السياسى والنضال المسلح وجعلته بديلاً عن خيار النضال المسلح فقط . ومثل هذا الخط يمكن طرحه أكثر فى شكل نظرى ، لكن من الناحية العملية ، لم يكن فى الإمكان دمج العمل السياسى والعمل المسلح معًا فى منظمة واحدة وتحت مظلة تشكيل واحد فى وقت أحكم فيه الساواك سيطرته على الأوضاع بشكل تام .

وقد تعرضت هذه الجماعة أيضًا إلى التشعيب فيما بعد تحت مسمى «اكثريت» و«اقليت» عندما تخلى بعض الأعضاء فى النهاية عن حزب توده .

والجماعة الرابعة تضم بعض الماركسيين المستقلين عن منظمة «الفدائيين» والعديد من الماركسيين المنفصلين عن منظمة «المجاهدين» . وهذه الجماعة لم تدن فقط استخدام الخط المسلح ، بل عدته حركة غير ماركسية ، وبرجوازية تافهة تسعى كى تحل محل حزب طبقة العمال . وكانت الأزمة الفكرية بين أعضاء هذه الجماعة تفوق نظيرتها لدى جماعة «الفدائيين». وفى أعقاب المباحثات المكثفة بين أعضائها وكوادرها،

قسم المجاهدون الماركسيون أنفسهم إلى ثلاث جماعات، كان لكل منها دلائلها فى عدم جدوى استخدام الخط المسلح ، كما كان لكل جماعة أيضًا نظرتها الخاصة حول السؤال التالى «ما الذى ينبغى عمله؟» وأدت المباحثات المطولة إلى خروج بعض الأعضاء من المنظمة وقدم الباقون استقالتهم فى النهاية (١١) .

واحتفل السجناء السياسيون بعيد النيروز عام ١٣٥٦هـ . ش (١٩٧٧م) فى ظروف كان يتدهور خلالها حال عدد كبير من القوى الراديكالية . ففى خارج السجن تلاشت هذه القوى وتم تصفيتها . وفى داخل السجن، ألقت أمواج الفرقة ، والانقسام ، والخلافات الداخلية ، والأهم من هذا كله، الحيرة الناشئة من انتهاء أمر الخط المسلح ، بظلالها الثقيلة على رؤوس السجناء .

وقد امتدت آثار «الانفتاح السياسى» - الذى ظهرت بوادره منذ أواخر عام ١٣٥٥هـ . ش (١٩٧٦م) داخل السجون - فى أبعاد أوسع خلال عام ١٣٥٦هـ.ش (١٩٧٧م) ، حينما بدأت أبواب السجون تُفتح على مصراعيها منذ أواسط عام ١٣٥٦هـ.ش (١٩٧٧م) وسط دهشة السجناء وذهولهم . وكانت تطورات النهضة تسير مسرعة إلى حد جعل السجناء السياسيين - الذين تم إطلاق سراحهم - يتقدمون فى معية عناصر النهضة الثائرة دون أن يجدوا المجال أو الفرصة كى يكون لهم تأثير خاص على الثورة . فلم يكن لديهم أى تشكيلات أو تنظيمات فى الخارج تمكنهم من إيجاد حشد أو تأسيس تشكيل خاص فى الثورة عن طريقها . ولم تكن الأوضاع والأحوال السياسية والاجتماعية للمجتمع - الذى تواجدوا فيه من جديد بعد ابتعاد دام عدة أعوام - تتشابه مع تلك الأوضاع التى قاموا خلالها بالنضال . والشىء الأكثر حيرة وإثاره من هذا التغيير وهذه الظروف الجديدة هو استطاعتهم التقدم فى معية حشود الشعب .

والحقيقة ، إن أبواب السجون بدأت تفتح فى الوقت الذى انقصمت فيه ظهور القوى الراديكالية تحت سؤال «ما الذى ينبغى عمله ؟ » بعد الكف عن استخدام المقاومة المسلحة .

وقد توصل الجميع إلى هذه النقطة ألا وهى ضرورة استخدام فكرة إستراتيجية واحدة طويلة الأمد فى النضال ضد نظام الشاه فقد تؤتى نتائجها بعد عقد أو عقدين

(النتائج التى لم يحصل عليها بعد عقد كامل من المقاومة المسلحة) . لكن فى الوقت الذى كان يفكر فيه الراديكاليون فى إعداد برنامج طويل الأجل ، كان النضال قد بدأ من مكان آخر . فكان البعض يخطط لإعداد برنامج طويل الأمد لنشر التعاليم السياسية بين طبقة العمال ، فقد كان البعض يفكر فى إحياء حزب طبقة العمال ، كما كان البعض يفكر فى انطلاق الثورة من قبل القرويين ، مثلما تم فى ثورة الصين ، وكان البعض يصر على استخدام خط أمريكا اللاتينية والاقتداء بتجربة ثورة كوبا ، وكان البعض يرى ضرورة البدء من الغابات الشمالية ، بينما رأى البعض أن نقطة البداية يجب أن تكون من الجبال الجنوبية .... إلا أن الثورة بدأت من مكان آخر . لم تبدأ من الغابات الشمالية ، ولا من المرتفعات الجنوبية، ولا من القرى، ولا من المدن ، ولا بحرب الفدائيين فى المدن ، ولا بإحياء طبقة العمال ، بل بدأت من المساجد .

ولم يكن لشكلها ، ولا لخطها ، ولا لأسلوبها ، ولا لزعامتها ، ولا لإعدادها وإستراتيچيتها أدنى علاقة أو تشابه مع أفكار ، وقوالب وأنماط القوى الراديكالية الفكرية .

ولم يتول زعامتها أيضًا «طلائع الثورة» ، ولا «حزب طبقة العمال» ، ولا «البرولوتاريا» ، ولا «قوى الشعب المتقدمة» ولا «المنظمات الثورية» ، إنما تولى زعامتها أشخاص نجحوا فى صنع شعار سياسى يتصدره لفظ الجلالة «الله أكبر» . وأعلنت الإذاعة فى النهاية : «هذا صوت شعب إيران» و «سقط الشاه والنظام الشاهنشاهى الذى كان له من العمر ٢٥٠٠ عام» .

* * * * *

لكن لم يؤد أى شيء مما سبق إلى قيام الراديكاليين والقوى الثورية بتقييم أصولى عن الماضى ونتائج مسيرة نضالهم وأفكارهم . ولم يقتصر الأمر على هذا فقط ، بل سعى المناضلون الراديكاليون - سواء من الماركسيين أو من المجاهدين - ليتصدروا أريكة أمواج الثورة ، ولم يعتبروا أنفسهم مساهمين فى إيجاد الثورة فقط ، بل أفرطوا فى مبالغتهم حول هذا الأمر ، وادعوا أنهم حالوا دون استسلام زعامة الثورة ، وأنهم

أنقذوا الثورة من خطر الاستسلام بفرضهم النضال المسلح على زعامة الثورة. وأخيراً، كانوا هم الذين أوضحوا أن طريق الخلاص يكمن فقط فى النضال المسلح ، وقد بالغت كل من جماعة «الفدائيين» وجماعة «المجاهدين» فى العامين التاليين على نجاح الثورة (حينما لم يفقدوا بعد إيمانهم بها) حول مشاركتيهما فى الثورة ودوريهما التاريخى فى انهيار نظام الشاه عن طريق استخدام النضال المسلح .

وها هى منظمة «الفدائيين» تصف دورها فى إيجاد الثورة فى أحد المواضع على النحو التالى :

«لقد استخدمت منظمة «چريك هاى فدايى خلق ايران» أقصى طاقتها أثناء احتدام النضال لشعب وطننا البطل لنشر وزيادة المقاومة ضد الإمبريالية الديمقراطية فى الوطن ، وفضحت أمر العناصر الاستسلامية التى كانت تريد جعل دماء شهداء الشعب وثيقة لأهدافها الوصولية ، وقامت بطردها . كما عملت على الارتقاء بأنماط النضال لدى الشعب ، وأدت مهمتها التاريخية الشاقة عن دراية وبفدائية» (١٢) .

ولم تدَّع المنظمة فقط أنها أفشت أمر العناصر الاستسلامية ، وأنها ارتقت بأساليب النضال لدى الشعب ، بل قالت إنها هى التى أملت عليهم شكل النضال ، وقامت بهذا العبء بمفردها ، على الرغم من معارضة جميع القوى الأخرى التى كانت تسعى فى حث أفراد الشعب على الاستسلام :

«كنا نقول للشعب منذ بداية احتدام النضال ضد الإمبريالية الديمقراطية:

«إن طريق الخلاص الوحيد هو القتال المسلح» . كنا نقول : «يجب إبادة الجيش المناهض للشعب» . كنا نتصدى لكل القوى الراغبة فى بقاء جيش آريامهر الجديد حتى تسنح له الفرصة ويعد قواته لسحق ثورة الشعب وإبادتها . وفى الأيام التى كان يصوب فيها الجيش طلقاته النارية الوحشية على حشود الشعب فى الشوارع والضواحى .... كنا نقول للشعب إزاء هذه الجرائم : «إن الجيش عدونا» ، «إن الجيش وسيلة للقيام بمذابح ضد الشعب» و «إن الجيش ليس فى معية الشعب ...» (١٣) .

وقد وصلت مبالغة أعضاء «چريك هاى فدائى» إلى أبعد من ذلك ، وادعوا أن نضالهم ضد الجيش يمتد منذ فترة حكومة شريف إمامى ، أى منذ أواخر شهر مرداد عام ١٣٥٧هـ . ش (١٩٧٨م) :

«إن هجومنا المسلح جعل من الفلك السيار والثابت لحكومات شريف إمامى ، وأزهرى وبختيارى – التى أمرت بمذابح الشعب – موضع سهامنا ، فى وقت تملكت فيه الخشية من قلوب الكثيرين أثناء احتدام الثورة الشعبية ، وتسليح الشعب والقيام بالاشتباك المسلح . وكانوا يقولون : «إن الجيش أخ لنا» وكنا نقول: «الأخ لا يطلق النار على أخيه ، الجيش ليس أخًا لنا ، الجيش عدونا»(١٤) .

وإذا كانت المقاومة المسلحة قد باءت بالفشل ولم تصل إلى نتيجة فى عالم الواقع ، إلا أن مجاهدى فدائى خلق قد حولوها إلى حقيقة فى عالم الخيال . فقد تحدثت المنظمة دفعة واحدة عن مئات الآلاف من مؤيديها (نعم مئات الآلاف) الذين تولوا مهمة الترويج للنضال المسلح فى كافة أرجاء الدولة فى عهد الثورة: «تولى مئات الآلاف من مؤيدى منظمة «چريك هاى فدايى خلق ايران» مهمة الدعوة إلى شعارات «طريق الخلاص الوحيد هو النضال المسلح» و«يجب إبادة الجيش المناهض للشعب» ، وأوصلوا تلك الشعارات إلى الملايين من أفراد الشعب البائسين» (١٥) .

وبعد أن قام الفدائيون بشرح تفصيلى لدورهم الحساس والمصيرى فى الثورة وكيف كانت قواتهم على أهبة الاستعداد لمواجهة الجيش فى الشهور الأخيرة ، خاصة أثناء المسيرات العظيمة التى تمت فى تاسوعاء وعاشوراء ، يعرضون فى النهاية «دورهم التاريخى» خلال الأيام الأخيرة للثورة ، قائلين :

«استعدت منظمة «چريك هاى فدايى خلق ايران» أثناء هجوم قوات الحرس الخاص على مخفر للقوات الجوية لإخماد مقاومة الحرس الخاص والهجوم على المخافر وأقسام الشرطة . وقد وضع التاريخ مسئولية كبيرة على عاتق المنظمة فى الحادى والعشرين من شهر بهمن عام ١٣٥٧هـ . ش (١٩٧٨م) ، مسئولية تحملتها منظمتنا بكل فخر . ففى الحادى والعشرين من شهر بهمن ، قامت المنظمة – بمناسبة الاحتفال بالذكرى السنوية لحادث «سياهكل» ، وميلاد المنظمة – بحشد كل القوى التابعة لها فى

جامعة طهران ، وكان هذا اللقاء فرصة تاريخية لتوجيه رفاق النضال إلى جبهة القتال ضد الجيش، والاستيلاء على مخافر العدو ، وفى ٢١ بهمن ملأ أريج عطر الثورة فضاء طهران حينما أمسك بعض زعماء المنظمة بالسلاح فى أيديهم بجانب الصفوف العظيمة لمسيرة الفدائيين، وطالبوا رفاقهم بالتأهب لإخماد مقاومة الحرس الخاص والهجوم على المخافر ... وفى الوقت الذى كانت تدعو فيه العناصر الرجعية الأهالى فى الشوارع والضواحى بالتزام الهدوء ، كان فدائيو الشعب يدعونهم إلى المخافر لفتح حصون الجيش المناهض للشعب وهم يتقدمونهم ويسيرون بجوارهم جنباً إلى جنب»[١٦] .

ومثلما فعل فدائيو الشعب ، خلط المجاهدون أيضاً الصالح بالطالح لإيجاد نوع من العلاقة بين النضال المسلح والتطورات التى تمت فيما بين عامى ٥٦ - ١٣٥٧هـ.ش (٧٧ - ١٩٧٨م) :

«بعد ثورة ١٥ خرداد الدامية وإبادة الشعب بطرق وحشية من قبل نظام الشاه ، أظلمت الرؤية أمام المقاومة خاصة أمام المثقفين ثم تبعهم مجاميع الشعب ، وفتحت المنظمات الثورية المسلحة طريق النضال الجديد ... وأبلى الثوريون الأصلاء فى هذه الفترة بلاءً حسناً ضد النظام فى صراع غير متكافئ وقبلوا الشهادة عن طواعية ، لكنهم انهزموا بسبب القدرات العسكرية الطاغية للنظام، وهم بذلك أدوا دورهم بشكل جيد فى تعبئة قوى الشعب الدفينة لقلب النظام»[١٧] .

ومثلما فعل فدائيو الشعب ، كان أيضاً للمجاهدين فى عهد الثورة دورهم فى إحباط إجراءات وميول «زعماء الثورة الاستسلاميين» :

«انتهى عيد الفطر فى عام ١٣٥٧هـ . ش (١٩٧٨م) بحشد عظيم لأهالى طهران ، وعلى الرغم من ميلهم إلى الاستسلام ، حيث إنهم طالبوا الأهالى بالعودة إلى دُورهم بعد انتهاء مراسم الصلاة إلا أن طائفة من الشباب «يقصد المجاهدين» اتجهت ناحية وسط المدينة حاملة الشعارات السياسية ، وسرعان ما تجمع مئات الآلاف من الأهالى وانضموا إليهم ، وانطلقت الحشود تجاه الجنوب . وفى يوم الخميس من نفس الأسبوع ، قامت مظاهرات شعبية تضم الملايين بفضل أولئك الشباب ، على الرغم من معارضة جميع الزعماء السياسيين والدينيين»[١٨] .

والمجاهدون الذين أداروا محرك الثورة على هذا النحو، باستمرارهم فى التحليل، يصلون إلى رسالتهم التالية، أى البدء فى العمليات المسلحة. ووفقًا لأقوالهم إن الشعب كان يصيح بصوت واحد فى أعقاب مذبحة ١٧ شهريور، قائلاً: «أيها الزعماء، أيها الزعماء، مدونا بالسلاح» (١٩).

«لكن ثمة مصلحة أخرى كانت فى فكر الزعماء، إنهم كانوا دومًا أسرى الفكر المضنى والنوم القلق، تحدوهم الآمال فى اليوم الذى تنتهى فيه جميع المشاكل والمصائب دون إراقة قطرة دم واحدة بيمن وجود منقذى القدر، وأن يتحقق مرادهم. وهؤلاء «العظماء» الذين تركوا الشعب وأطفاله البؤساء فى أحلك ظروف الاعتقال والديكتاتورية بمفردهم، وانزووا فى جحورهم، يبدون الرحمة الآن ،ويتقدمون لسلوك الطريق الطاهر لسياسة الإمبريالية الجديدة، ويسحبون ثورة شعبهم الأصيلة إلى مذبح كارتر لحقوق الإنسان» (٢٠).

لكن، مثلما يحبط البطل فى القصص الرومانسية جميع مؤامرات ودسائس وسحر وشعوذة الأشرار والشياطين والوحوش فى آخر لحظة بفضل تضحيته وشجاعته الفريدة، ويجعلها كالنقش على الماء، نرى ذلك أيضًا فى هذه القصة: «إن أسطورة المجاهد والفدائى التى اختفت لأعوام طوال فى أعماق الناس ووجدانهم، تستعيد الروح الآن فى شكل العمليات الفدائية الثائرة، وتبطل سحر وشعوذة المتاجرين والجهلاء بدماء الشعب الطاهر» (٢١).

وهكذا يستمر الصراع بين «البطل» وبين «القوى الشيطانية». ويصيح الشعب فى المسيرات مطالبًا بالسلاح، غير أن الزعماء الاستسلاميين لا يستجيبون لمطالبه، وفى النهاية يلجأ الشعب - الذى ضاق ذرعًا من تباطؤ الزعماء وتكاسلهم - إلى طلائعه الثورية:

«إن الشعب الذى ضاق ذرعًا من استسلام الزعماء، يصيح فى طلائع الشعب المسلحة، قائلاً: «أيها المجاهد، أعد السلاح للعراك ضد هذا النظام الفاسد»، «لقد نفذ صبرنا، وحل عهد الثورة» (٢٢).

ومثلما أنقذ الفدائيون الثورة حينما انشغل «التجار والمحسنون» بالتفاهم مع السفارة الأمريكية ، تطرق المجاهدون كذلك إلى نفس الموضوع :

«بعد مؤتمر «جواد يلوب» اتفق الإمبرياليون على التضحية بالشاه – ذلك الخادم لأعوام طويلة – على أمل إيجاد ثغرة للحفاظ على مصالحهم ، وعقدوا الآمال حول الليبراليين والرجعيين والانتهازيين والاستسلاميين الذين عقدوا صفقة مع الجنرالات الأمريكيين على ميراث دماء شهداء الشعب ، وسايروا أعوان «هويزر» والمستشارين العسكريين فى التبعية لسياسة برچينسكى «الانتقال الهادئ» حول نقل الحكم بشكل سلمى ... لكن حشود الشعب كممت أفواههم وهذيانهم هذا فى شهر المحرم الحسينى تحت شعار «طريق الخلاص الوحيد هو طريق الجهاد المسلح» ، «أيها المجاهد ، تقدم بالشعب» (٢٣) .

والمشكلة فى هذا التحليل ليس فى عدم وجود سياسة باسم «الانتقال الهادئ» فى عالم الواقع ، سواء كانت من صنع وافتعال برچينسكى أو أى شخص آخر . وليست فى أن برچينسكى كان يسعى فى الحقيقة حتى اللحظات الأخيرة كى يحكم الشاه ، وإنه لم يكن – على عكس ما كان يدعى المجاهدون – يسعى لنقل السلطة بشكل سلمى على أى نحو قط . فما الذى حدث كى يقدم اقتراحاً فى هذا الشأن ؟

فعلى الأقل ، كانت المشكلة فى التحليل السابق هى تأخير وتقديم زمن الأحداث . فطبقًا لما قاله المجاهدون «إن الليبراليين والانتهازيين قد عقدوا صفقة مع الجنرال «هويزر»على ميراث دماء شهداء الشعب ، إلا أن حشود الشعب لكمت أفواههم بلكمة شديدة» . نجد على أرض الواقع أن شهر المحرم كان يوافق شهرآذر ، فى حين أن الجنرال «هويزر» كان قد قدم إلى إيران فى شهر دى (أى بعد شهر المحرم بما يقرب من شهر) . وطبقًا لما قاله المجاهدون : «جلس مع الليبراليين للنقاش حول نقل السلطة بالطريق السلمى» . فلعلنا نتخيل من ذلك أن مجاميع الشعب كانت تعرف مسبقًا أن الجنرال «هويزر» قادم إلى إيران بعد شهر كى يتباحث مع الليبراليين (وفقًا لقول المجاهدين) ؛ لذا مضوا ليتقدموا هذه المباحثات فى ظل توجيهات رواد الشعب (المجاهدون) ، وسددوا ضربة قوية إلى هذه المباحثات ، بشعاراتهم الثورية الساحقة ،

وأحبطوا تآمر الإمبريالية . واضطر «أبطال القصة» ثانية للاستعداد إنقاذاً للثورة ، وأحبطوا مؤامرة أخرى «حينما رغب الزعماء الاستسلاميون إنهاء الثورة برحيل الشاه»[٢٤]. لكن صارت مؤامرة الأشرار تلك كالنقش على الماء بفضل «شجاعة المجاهدين والفدائيين الأسطورية» [٢٥] .

وفى ٢٠ بهمن من عام ١٣٥٧هـ . ش (١٩٧٨م) ، وقتما كان النظام يعلن الحكومة العسكرية فى تمام الساعة الرابعة بعد الظهر (كما يزعم المجاهدون، كى يتمكن الحرس الخالد من سحق قادة القوات الجوية بمضى الأهالى إلى ديارهم) كان الاستسلاميون يسعون للانحراف بالثورة ، وطالبوا الأهالى بأن يتفرقوا ، إلا أنهم لزموا أماكنهم»[٢٦].

وأخيراً ، حل يوم النهضة والثورة ، اليوم الذى استجاب فيه الشعب البطل إلى نداء المجَاهدين والفدائيين :

«فى هذا اليوم اتجه شعبنا المغوار إلى طريق الجهاد المسلح ملبيًا النداء القديم «احملوا الروح على كفكم» واعتبر أنه من السهولة بمكان تحقيق قلب نظام الشاه الطاغوتى ومحو السلطة الإمبريالية باستخدام القوة الثورية . وخلال أحداث المقاومة الشعبية الدامية فيما بين عامى ٥٦ – ١٣٥٧هـ . ش (٧٧ – ١٩٧٨م) ، وفى أحداث ٢٢ بهمن ١٣٥٧هـ . ش (١٩٧٨م) كان لشعبنا المغوار دوره العميق والمؤثر فى الحركة المسلحة فى الأعوام الأخيرة ، دور شهدت به الأوساط الثورية»[٢٧] .

* * * * *

لا يبدو مع الشرح المكثف الذى تم فى الصفحات السابقة حول كيفية ظهور مسيرة النضال المسلح ونهايته أن الحاجة ماسة لتقييم هذه الادعاءات . ولو افترضنا أن الأمر كان على هذا النحو، وأن زعامة النهضة كانت تفكر فى الاستسلام والخيانة ، فإن ادعاءات المجاهدين والفدائيين لا يمكن أيضًا أن تكون صحيحة ؛ لأن معدل إيمان الشعب بالعناصر الراديكالية لم يبلغ حد الإصغاء لتوجيهات وأوامر هاتين المنظمتين بدلاً من التبعية لزعماء النهضة .

وأخيراً ، لوكانت كل هذه الافتراضات صحيحة على أرض الواقع ، أى أن الزعماء كانوا يفكرون فى الاستسلام ، وأن الشعب كان يثق تمامًا فى الجماعات

الراديكالية ، وأنه كان على استعداد تام لأن يكون تابعًا لها ، فلم تحل أيضًا مشكلة هذه الادعاءات المبالغ فيها ؛ لأن أيا منها لم يكن فى مقدوره القيادة . فقد اعترف المجاهدون وكذلك الفدائيون فى إصدارات أخرى لهم نشرت بعد الثورة بأن ضربات عامى ٥٤ - ١٣٥٥ ش (٧٥ - ١٩٧٦م) التى لحقت بمنظمتيهما كانت مؤثرة لدرجة أفضت بها إلى حد الزوال .

بعبارة أخرى ، فمن الأساس ، وعلى أرض الواقع ، لم يكن تحت إمرة المجاهدين ولا الفدائيين لا التنظيم ولا التشكيلات ، ولا الإمكانيات ولا أية قوة خلال عام ١٣٥٦هـ.ش (١٩٧٧م) وجزء كبير من عام ١٣٥٧هـ . ش (١٩٧٨م) ممن يمكنهم من أن يكون لهم دور مؤثر فى أحداث الثورة . وقد وصف الفدائيون الضربات التى وجهت إلى المنظمة فى النصف الأول من عام ١٣٥٥هـ . ش (١٩٧٦م) بأنها «أقوى ضربة وجهها العدو إلى المنظمة» : «فى الثامن من شهر تير من عام ١٣٥٥هـ . ش (١٩٧٦م) حلت أقوى ضربة من قبل العدو على هيكل المنظمة ، وأدت سلسلة الضربات التى تمت خلال عام ١٣٥٥هـ. ش (١٩٧٦م) إلى شهادة كوادر الزعامة وذوى الخبرة من أعضاء المنظمة ، وواجهت المنظمة نقصاً فى الكوادر المحنكة بشكل جاد» (٢٨) .

وقد اعترف المجاهدون صراحة بأن ضربات عام ١٣٥٤هـ . ش (١٩٧٥م) قد أصابت المنظمة بالشلل :

«لقد أغارت العناصر الانتهازية (٢٩) على جميع إمكانيات المنظمة التعليمية والعسكرية والإعلامية الأساسية . وكنا نقع تحت وطأة المطاردة والضربات العسكرية لتشكيلات العناصر الانتهازية حتى أواخر عام ١٣٥٥هـ.ش (١٩٧٦م) التى أدت إلى دفع المنظمة إلى حافة الزوال ثانية ، فضلاً عن استشهاد العديد من أفضل عناصرها»(٣٠).

وقد وصل موسى خيابان - العضو رقم ٢ فى مؤسسة المجاهدين بعد الثورة - إلى أبعد من هذا ، وقال أثناء الإعلان عن ترشيح زعيم المنظمة مسعود رجوى فى أوائل انتخابات لرئاسة الجمهورية :

«إن أصعب مسئولية حملها أخونا مسعود على عاتقه ، وكان ضغطها أكثر بمراحل من ضغوط السافاك وتعذيبه ، تتعلق بعام ١٣٥٤هـ . ش (١٩٧٥م) وما تلاه ،

أى بعد الضربة التى وجهها الانتهازيون اليساريون إلى المنظمة ، والتى تم إعلانها وكشف الحجاب عنها بعد ذلك . وفى الحقيقة إن منظمتنا قد تلاشت بسبب هذه الضربة وما أعقبها من تأثيرات» (٣١) .

بعبارة أخرى ، اعترف الفدائيون بأن ضربات عام ١٣٥٥هـ . ش (١٩٧٦م) كانت باعثًا لفقد كادر الزعامة وأكثر أعضاء المنظمة خبرة وحنكة ، وواجه المجاهدون أيضًا منظمة فانية بعد عام ١٣٥٤هـ . ش (١٩٧٥م) ، ومن تبقى كان عبارة عن أعضاء كلا المنظمتين وكوادرها ممن كانوا يعيشون فى السجون ، حيث تم إطلاق سراحهم بشكل تدريجى خلال شهرى آذر ودى من عام ١٣٥٧هـ . ش (١٩٧٨م) . وفى الواقع ، كان زعماء كلتا المنظمتين هم آخر الأفراد الذين أطلق سراحهم فى أواخر شهردى فى زمن حكومة شاهپور بختيار . أى أن كوادر الزعامة فى كلتا المنظمتين تم إطلاق سراحهم قبل نجاح الثورة بأقل من شهر . وفى ظل هذه الظروف التى تم القضاء فيها على الفدائيين فى الخارج وتجريدهم من أية قوة وقد تم إطلاق سراح كوادر الزعامة الأصلية لكلتا المنظمتين قبل الثورة بأقل من شهر فقط ، فليس معلومًا رغم كل ما سبق ، كيف قامت الثورة عن طريق «فدائى خلق» والمجاهدين ؟! كيف اعترض المجاهدون على عودة الأهالى إلى ديارهم بعد أداء صلاة عيد الفطر عام ١٣٥٧هـ . ش (١٩٧٨م) على الرغم من إصرار «الاستسلاميين» وبدلاً من ذلك ، توجهوا بهم إلى وسط المدينة وقاموا بمظاهرات عيد الفطر ؟! كيف تمكن المجاهدون من دفع ثورة بهمن فى وقت كان يسعى فيه الزعماء الاستسلاميون لانحراف الأهالى عن الاستمرار فى الثورة ويقومون بالتباحث مع الجنرال «هويزر» الأمريكى لتنفيذ «اقتراح برچينسكى» ؟! وكيف تمكن الفدائيون أيضًا من جعل وحدات الجيش الثابتة والسيارة هدفًا لهم فى عهد حكومة شريف إمامى ؟! وحينما قام «التجار والمحسنون» بالتعامل مع أمريكا ، كيف كانوا يفرضون القهر الثورى والنضال المسلح بمنظمتهم وتشكيلاتهم التى «تحظى بتأييد مئات الألوف» بدلاً من استسلام العناصر الليبرالية لنظام الشاه الموالى للإمبريالية ولجيشه المناهض للشعب ؟! كيف تحركت قوات «الطلائع» فى ٢١ بهمن لإبادة جيش الحرس ، وقادت الشعب ، وملأت فضاء طهران برائحة الثورة العطرة ؟ والمشكلة هنا أن الفدائيين حينما يتحدثون عن شهدائهم خلال هذه الفترة ، فلا يزيد الإحصاء عن العدد اثنين ، رغم ما كان لديهم من جدول أعمال قاسٍ ومضن !! (٣٢)

وبعيداً عن إحصاء خسائر «فدائى الشعب» فى عهد الثورة ، فإن فهرست البيانات الصادر من قبل المنظمة فى هذه الفترة يمكن أن يكون الفيصل فى مقارنة مزاعم المنظمة مع الواقع . فخلال عام ١٣٥٦هـ . ش (١٩٧٧م) انعدم وجود أية بيانات . وفى الخمسة شهور الأولى من عام ١٣٥٧هـ . ش (١٩٧٨م) لم تصدر المنظمة أكثر من أربعة بيانات . ومن مجموع السبعين بياناً التى أصدرتها المنظمة فى العام السابق على نجاح الثورة ، يوجد فقط أربعة وثلاثون بياناً يتعلق بفترة التسعة شهور الأولى[٣٣] .

وبمطالعة مضمون هذه البيانات يبدو بوضوح على أى نحو كان نشاط «فدائى الشعب» فى غضون عام ١٣٥٧هـ . ش (١٩٧٨م) ، فضلاً عن أن نشر هذه البيانات فى التسعة شهور الأولى من عام ١٣٥٧هـ . ش (١٩٧٨م) وتواترها فى العدة أسابيع الأخيرة السابقة على الثورة يدل على كيفية سير نشاط المنظمة فى عهد الثورة .

والخلاصة ، وعلى الرغم من مزاعمهم ، إن العناصر التى ظهرت منذ عام ١٣٤٢هـ.ش (١٩٦٣م) رغم استخدامها للخط المسلح ، لم تكن وقت ظهور «انفتاح النظام السياسى» فى عام ١٣٥٦هـ . ش (١٩٧٧م) فى وضع يمكنها من إبداء أية حركة تجاه هذه السياسة . وقد ظهر مثل رد الفعل هذا من قبل طائفة أخرى من معارضى النظام ، طائفة كانت تلزم بالفعل الصمت والسكون، وتسلك سياسة «الصبر والانتظار» فى الأعوام التالية على عام ١٣٤٢هـ . ش (١٩٦٣م) .

* * * * *

وبعيداً عن المعارضين التقليديين والراديكاليين الذين ظهروا بعد عام ١٣٤٢هـ.ش (١٩٦٣م) فقد ظهر نوعان آخران من المعارضين على مشارف «الانفتاح السياسى»، هما: رجال الدين والمناضلون فى الخارج.

ويصل تاريخ معارضة بعض رجال الدين لنظام الشاه إلى ما قبل الأربعينيات (أى الستينيات) ، لكن ظهور الإمام الخمينى فى ساحة المجال السياسى فى إيران أوائل الأربعينيات (أى الستينيات) والذى أدى إلى ثورة ١٥ خرداد عام ١٣٤٢هـ.ش (١٩٦٣م) كان نقطة تحول وفصلاً جديداً فى الشكل العام للعلاقات بين النظام ورجال الدين .

وقد أشرنا فى الفصل الأول إلى بعض النتائج المهمة التى أظهرها نضال الإمام على المستوى العام للنضال [٣٤]، من بينها ظهور جيل جديد من رجال الدين سعى بعد نفى الإمام خارج إيران فى شهر آبان من عام ١٣٤٣هـ . ش (١٩٦٤م) لاستمرار المواجهة التى كانت قائمة بين قم والنظام . لكن بسبب سيادة جو الاعتقال وصعوبة إبداء المعارضة ضد النظام ، فقد اقترن نشاط هذه الجماعة بالطبع بالعديد من المشاكل ومحاولات الإبادة المتزايدة .

وبعيداً عن صعوبة ظروف النضال ، يضاف سبب آخر كان مانعًا فى طريق جهود هذه الطائفة من رجال الدين . وهو أن المراجع ورجال الدين ممن هم فى الصفوف الأولى بمدينة قم كانوا لايحبذون مثل هذا النوع من النشاط . إنهم لم يكونوا على استعداد قط لإبداء أى نوع من التأييد للحركات السياسية فى الحوزة ولو بشكل ضمنى أو بطريق غير مباشر ، بل كانوا يحاولون عرقلة هذه الحركات فى بعض الأحيان . وثمة مواضع عديدة اضطر فيها النشطاء من المعارضين فى الحوزة للعمل خفية وعلى نطاق ضيق تحت الضغط المباشر من قبل المراجع أو مؤيديهم ، واضطروا أحيانًا إلى الانصراف عما عزموا عليه بسبب هذه الاعتراضات التى بلغت حد التهديد.

ومع هذا ، وعلى الرغم من أن مؤيدى الإمام لم يتمكنوا من الاستمرار فى المعارضة التى أوجدوها منذ عام ١٣٤٠هـ . ش (١٩٦١م) ، وتحويل قم عمليا إلى قاعدة ضد النظام ، إلا أنهم من ناحية أخرى ، كانوا مانعًا لعودة الأجواء التى كانت تسيطر على قم وطهران قبل ظهور الإمام . وتم وضع الحوزات العلمية - خاصة فى قم - على القائمة السوداء منذ عام ١٣٤٣هـ . ش (١٩٦٤م) ، ولم يستطع أى مرجع أو أى رجل دين فى الصفوف الأولى أن يقيم علاقة مع النظام ، ومن أقام مثل هذه العلاقة فى الأعوام التالية على عام ١٣٤٣هـ.ش (١٩٦٤م) فقد أى نوع من القاعدة الشعبية له.

وبشكل عام ، كانت معارضة رجال الدين تفتقد التنسيق والإعداد فى الأعوام التالية على عام ١٣٤٣هـ . ش (١٩٦٤م) ، وغالبًا ما كانت تتم معارضتهم للنظام بشكل متفرق وفى قالب المعارضات الفكرية [٣٥] . ومع ذلك ، نتج عن هذه المعارضات منع

بعض رجال الدين من اعتلاء المنبر ، وكان بعضهم يعيش فى المنفى ، وزج بفئة قليلة منهم داخل السجون .

ومع ظهور المجاهدين فى أوائل الخمسينيات (أى السبعينيات بالتقويم الميلادى) اتصل بهم بعض رجال الدين الراديكاليين من مؤيدى الإمام . وكانت هذه الطائفة تحظى بتأييد كبير فى أوج شعبية د. شريعتى .

وأكبر الحركات التى تمت فى الحوزة كانت فى عام ١٣٥٤هـ . ش (١٩٧٥م) ، بمناسبة الاحتفال بذكرى ثورة ١٥ خرداد وأدت إلى اعتقال عشرات الطلاب وعدد من المعلمين ، وحكم على بعضهم بالسجن لمدة عامين .

وكانت أكثر نقاط المناضلين المعارضين من رجال الدين قوة هى تبعيتهم التامة للإمام . فضلاً عن أن بعض مؤيدى الإمام من رجال الدين ، على الرغم من عدم كونهم من «آيات الله» ، إلا أنهم كانوا يمثلون جزءًا من طبقة مدرسى الحوزات العلمية ، وكانوا من صفوف رجال الدين العليا ، وذلك فى عام ١٣٥٦هـ . ش (١٩٧٧م) . وهذان العاملان - أى التبعية الكاملة للإمام ووقوع بعض مؤيدى الإمام فى الصفوف العليا لطبقة رجال الدين وطبقة مدرسى الحوزات- أديا إلى إيجاد شبكة من مؤيدى الإمام على مستوى الدولة ، مثلها مثل أية منظمة قوية ، تمكنت من تحريك عجلة الثورة ، على الرغم من عدم امتلاك زعامة الثورة - ظاهريا - الحزب أو التشكيلات المتجانسة .

وفى الحقيقة كان رجال الدين فى المنفى أو داخل السجون يشكلون الجزء الأول من المعارضين الذين أدى بهم «الانفتاح السياسى» إلى حل القيود التى كانت تغل هذه القوى من قبل . وتمكن العشرات من رجال الدين الذين أطلق سراحهم أو الذين عادوا من المنفى فيما بين عامى ٥٦ - ١٣٥٧هـ . ش (٧٧ - ١٩٧٨م) من عقد الاجتماعات فى كل مدينة ومحافظة داخل المساجد والتكايا ، وقاموا بحركة نشطة .

وفى ظل الانفتاح السياسى فى الشهور الأخيرة من عام ١٣٥٦هـ.ش (١٩٧٧م) ، والنصف الأول من عام ١٣٥٧هـ . ش (١٩٧٨م) قلما تمكن النفى من منع إبداء المعارضة من قبل رجال الدين . فالعديد منهم - ممن كانوا يعيشون آنذاك فى المنفى - من أمثال : آية الله سيد على خامنه اى فى ايرانشهر ، وآية الله مشكينى فى كاشمر ،

ومكارم الشيرازى فى چابهار ، ومحمد جواد حجتى كرمانى فى ايرانشهر ، وربانى املشى فى شهر بابك ، وربانى الشيرازى فى كاشمر ، ومحمد اليزدى فى بندر لنگه ، ومعاد يخواه فى سيرجان ، وصادق خلخالى فى رفسنجان ، وكرامى فى شوستر وحسين كرمانى فى سقز .... قلما تعرضوا للمصاعب فى اتصالهم بالأهالى أو فى علاقتهم برجال الدين الآخرين .

من ناحية أخرى ، دخل رجال الدين الذين كانوا يعيشون فى أعتاب «الانفتاح» ، من أمثال : آية الله طالقانى ، وآية الله منتظرى ، وآية الله قمى ، وحجة الإسلام لاهوتى ، وهاشمى رفسنجانى ، وموسوى خوينى وغيرهم فى بوتقة النضال بشكل طبيعى بعد إطلاق سراحهم ، وكان الإمام محورهم .

ومنذ أواسط عام ١٣٥٦هـ . ش (١٩٧٧م) كوّن رجال الدين المؤيدون للإمام فى طهران تشكيلاً فيما بينهم تحت مسمى «روحاينت مبارز» – أى رجال الدين المناضلون – ومثّل المرحوم آية الله د. بهشتى الشخصية الأساسية فى هذا التشكيل .

فضلاً عن ذلك ، كان المرحوم الأستاذ مطهرى ، والدكتور مفتح ، والدكتور باهنر ، وآية الله مهدوى كنى ، وآية الله خسرو شاهى ، وعبد المجيد إيروانى ، وهاشمى رفسنجانى ، وناطق نورى ، ومعاد يخواه ، ومهدى كروبى وهادى غفارى من أعضاء جماعة «روحانيت مبارز» والملتفين حولها .

وكان التخطيط للمسيرات ، والخطب فى المساجد ، وإعداد الشعارات ، وبشكل عام ، قيادة الحركة يتم أساساً عن طريق «روحانيت مبارز» .

بعبارة أخرى ، فى الوقت الذى كانت تواجه فيه العديد من القوى المعارضة بعض المشاكل ، مثل : افتقاد الزعامة ، وضعف التشكيلات ، وعدم التوافق الفكرى والفرقة والانقسام ، والأهم من هذا كله ، «ما الذى ينبغى عمله ؟ » ، كان رجال الدين يحظون بميزة مهمة هى وجود الإمام وامتلاك شبكة من رجال الدين فى أرجاء الدولة كافة .

وقد دار حديث طويل بين العناصر الدينية المعارضة مع بداية الثورة حول دور المرحوم الدكتور شريعتى ، لكن كان دوره فى الواقع ينصب أساسًا فى قالب الموجة

الفكرية التى ظهرت مع بداية نشاطه فى حسينيات الإرشاد فى النصف الثانى من الأربعينيات (أى الستينيات بالتقويم الميلادى) ، تلك الموجة التى بلغت ذروتها فى الأعوام الأولى للثورة خلال الخمسينيات (أى السبعينيات) خاصة مع اعتقال د. شريعتى عام ١٣٥٢هـ . ش (١٩٧٣م) . ولم يوجه شريعتى خطابه إلى النظام بشكل مباشر فى أى من خطبه أو كتاباته ، ولم يؤسس تشكيلاً أو جماعة أو طائفة ، ولعل أسلوبه هذا كان سببًا فى عدم اهتمام النظام به فى البداية، وفضلاً عن خطبه ومؤتمراته فى حسينيات الإرشاد ، تمكن شريعتى من إلقاء خطبه فى العديد من الجامعات بدعوة من الجماعات الطلابية الإسلامية . وحينما أدرك النظام أية نار يشعلها شريعتى تدريجيا، لم يكن فى الإمكان إخمادها .

وخطأ الساواك الثانى هو أنه كان يتوهم أن معارضى شريعتى من داخل طبقة رجال الدين سوف يهجمون على «حسينيات الإرشاد» ويغلقونها وهذا الأمر سوف يحل للساواك مشكلة الظاهرة المسماة بشريعتى . والأهم من ذلك ، أن القضاء عليه بيد عناصر دينية ينفى تلك الحالة من القداسة والإحساس بوقوع الظلم التى قد تنشأ مع إغلاق الحسينيات بيد الساواك .

وفى النهاية ، إن مثل هذه المواجهة مع شريعتى ، فضلاً عن إحداثها المعارضات، والمناقشات والمواجهات بين الجناح الدينى ، ستكون أيضًا موضع استفسار وشك وشبهة تجاه أفكاره من قبل بعض مؤيديه . غير أن الأحداث المتعلقة بشريعتى مضت على نحو آخر . فأولاً : كان المعارضون الأقوياء لشريعتى يتألفون بشكل عام من القوى أو من الشخصيات التى لم تحظ بالثقة والشهرة بين العناصر الدينية ، فى حين لم يكن رجال الدين المشهورون أصحاب النفوذ على استعداد للتصدى لشريعتى أو مواجهته بشكل مباشر . وأخيرًا : كانت تؤيده كذلك طائفة من تشكيل «روحانيت مبارز» . والشىء الذى كان يصعب من إمكانية النضال أو المواجهة ضد على شريعتى هو تلك الحماية والتأييد الواسع الذى كانت تبديه طبقة الدارسين الدينيين والطلاب تجاهه .

وعلى أية حال ، فبعد أن تيقن جهاز الساواك تدريجيا من عدم إمكانية القضاء على شريعتى بين المعارضين الدينيين له ، دخل معترك العمل بنفسه ، وألقى القبض

عليه ، ومنع مؤلفاته ، وأغلق حسينيات الإرشاد . وعاش شريعتى ما يقرب من عامين فى سجن انفرادى دون أن يستطيع الساواك توجيه اتهام محدد إليه .

لعل مسئولى الساواك كانوا يأملون فى حثه على التعاون مع النظام تحت ضغط الاعتقال !

وبعد إطلاق سراحه فى عام ١٣٥٤هـ . ش (١٩٧٥م) ، وفى وقت انعدم فيه إمكانية القيام بأى نشاط ، وكان تحت مراقبة الساواك ، قرر شريعتى أن يرحل عن البلاد ، إلا أن النظام عارض ذلك ، ونجح فى النهاية فى الهروب من البلاد مستخدماً اسم عائلته - مزينانى - ولكن بعد فترة قصيرة قضاها فى كل من فرنسا وإنجلترا (عند بناته) وافته المنية فى شهر خرداد من عام ١٣٥٦هـ. ش (١٩٧٧م) وقتما كانت سياسة «الانفتاح» بادئة فى التكوين ، وبعد وفاته ، اتهم معارضو النظام مؤيدو شريعتى الساواك بقتله ، لكن لم يتم الحصول قط على أى مستند - سواء قبل الثورة أو بعدها - يدل على ضلوع النظام فى موته . ومن المحتمل أن موته المفاجئ غير المتوقع كان على أثر سكته قلبية ألمت به .

والنظام الذى كان يبذل قصارى جهده فى حياة شريعتى لعله يتمكن من حثه على التعاون معه ، ويستفيد من اسمه وشهرته ، ويقلل من ضغط العناصر الدينية الراديكالية ضده ، لم يفقد الأمل كذلك بعد وفاته ، وداوم مسعاه . وكان هدف النظام أن يبين خلال تشييع جنازته - التى أذاع نبأها أيضًا - أن آراء شريعتى وأفكاره لا تتعارض والنظام . وقد دارت حرب خفية بين المسئولين الإيرانيين فى لندن وبين أسرة شريعتى وأصدقائه فى الخارج بسبب استلام جثمان شريعتى ، بينما كان لا يزال فى ثلاجة المستشفى العام بمدينة ساوسهامبتون **Southampton** جنوب إنجلترا . وأخيراً نجح أصدقاؤه فى الحيلولة دون استلام المسئولين الإيرانيين لجثمانه ، وتم دفنه فى الضريح الزينبى بسوريا ، بفضل اتصالات صادق قطب زاده بالمسئولين هناك . وتم دفنه بجوار مزار السيدة التى اجتذبت شريعتى إليها بحماسة مقاومتها ، وعظمة روحها وعمق شخصيتها .

وفيما يتعلق بأى تأثير لموت شريعتى المفاجئ والسريع على مؤيديه وعلى الفكر الذى طرحه ، فهذا أمر جدير بالبحث، ولا شك أنه قلما تم البحث والنقاش فيما يتعلق

بتأثيره الفكرى على النواحى السياسية . ومع الأخذ فى الاعتبار هذه الحقيقة ألا وهى أن شريعتى لم يؤسس حزبًا ولا جماعة ولا تشكيلاً ولا تنظيمًا (بغض النظر عن إيمانه بهذا الأسلوب أو عدم إيمانه به) . يتضح أنه لم يكن فى استطاعة أى شخص آخر أن يكون له نفس القدرة والتأثير من بين العناصر المعارضة . أما مؤيدوه – سواء من بين «روحانيت مبارز» – وسواء من بين العناصر الدينية والسياسية الأخرى ، مثل : نهضت آزادى – أى نهضة التحرير – ، جاما – أى جبهة تحرير شعب إيران – وجنبش مسلمان مبارز – أى حركة المسلمين المناضلين – فقد تابعوا الإمام خلال الثورة من ناحية الزعامة السياسية .

* * * * *

والجماعة الأخيرة من جماعات المعارضة التى ظهرت على مشارف ١٣٥٦هـ . ش (١٩٧٧م) ضمت المناضلين وعناصر المعارضة الموجودة خارج الدولة . وتمتد بدايات المعارضة ضد نظام الشاه فى الخارج إلى الأعوام التالية على انقلاب ١٣٣٢هـ . ش (١٩٥٣م) . ولم يكن للمعارضة فى الخارج الثقل المطلوب نظرًا لقلة أعداد الطلاب الإيرانيين خارج البلاد آنذاك . غير أن الازدهار الاقتصادى الذى تحقق نتيجة ارتفاع دخل النفط الإيرانى خلال النصف الأول من الأربعينيات (أى الستينيات) عمل على ارتفاع أعداد الطلاب الإيرانيين فى أوروبا وأمريكا . وإذا كانت الدراسة فى الخارج قبل ذلك العهد تعد أحد الامتيازات الاجتماعية ، وكانت تنحصر فى الغالب على طبقة الأعيان والأشراف فى المجتمع، إلا أنه منذ أوائل الأربعينيات (أى الستينيات) تمكن العديد من أسر الطبقات فوق المتوسطة (أى التجار ،وأهل السوق ، والمتعلمين ، ومديرى وموظفى المناصب العليا فى الحكومة والقطاع الخاص ، وكبار العسكريين وغيرهم) من إرسال أبنائهم إلى الخارج للدراسة .

وقد زاد هذا الاتجاه زيادة ملحوظة خاصة منذ أوائل الخمسينيات (أى السبعينيات بالتقويم الميلادى) عندما تضاعف دخل النفط الإيرانى دفعة واحدة إلى أربعة أضعاف . وبموازاة الزيادة فى عدد الطلاب بالخارج ، كانت الظروف السياسية فى الداخل تتجه

نحو الاختناق ، وكانت النتيجة ، أولاً : إمكانية القيام بالنشاط خارج الدولة فقط ، وذلك منذ أواسط الأربعينيات (أى الستينيات) . ثانيًا : إن إذاعة الأنباء الخاصة بإبادة المعارضين وقمعهم فى الداخل هيأ الأسباب للطلاب المناضلين فى الخارج وحثهم على القيام بالأنشطة السياسية. وكانت بداية النضال المسلح وزيادة الضغوط التى لا حد لها من قبل الساواك للقبض على المعارضين مما زاد من تفاعل النشطين فى الخارج وحثهم على القيام بالنشاط على نطاق واسع . واستخدام التعذيب والإفراط فيه ، والزيادة السريعة فى عدد السجناء السياسيين وأعمال الساواك الأخرى جعل المعارضين فى الخارج يسعون بشكل أقوى لعرضها وإفشائها أمام الرأى العام فى الغرب .

وكان معظم الطلاب الإيرانيين قبل الأربعينيات (أى الستينيات) يتجهون إلى فرنسا أو المناطق الناطقة باللغة الفرنسية مثل : سويسرا وبلچيكا وتأتى إنجلترا فى المرتبة الثانية . وبناءً على ذلك كان من الطبيعى أن تتكون النواة الأولى للحركات الطلابية فى الخارج فى فرنسا أولاً ثم فى إنجلترا . وفى البداية ، كانت التشكيلات الطلابية مقتصرة بشكل أكثر داخل حدود بعض الدول الأوروبية ، لكنها توسعت تدريجيا ، واتصلت بالاتحادات الطلابية فى الدول الأوروبية المختلفة، وكان هذا التحول هو نقطة البداية لتكوين التشكيلات التى عرفت باسم «الاتحاد العالمى للدارسين والطلاب الإيرانيين» (الاتحاد الوطنى)(٣٦) .

ومع زيادة عدد الطلاب الإيرانيين فى ألمانيا منذ أوائل الأربعينيات (أى الستينيات) تحولت هذه الدولة تدريجيا إلى مركز أو قاعدة أصلية للاتحاد ، ثم تلتها أمريكا . وساعد عدد الطلاب الإيرانيين المتواجدين فى أمريكا على إيجاد تشكيلات للطلاب الإيرانيين فى هذه الدولة ، وكانوا من أهم العناصر داخل الاتحاد. وبعد ألمانيا وأمريكا، ثمة عناصر جيدة كانت توجد فى إيطاليا والنمسا. وفى الأعوام المواكبة للثورة، أصبح الطلاب الإيرانيون فى الهند ، والفلبين وتركيا من أهم العناصر داخل الاتحاد وأنشطها .

وكان نواب التشكيلات المختلفة داخل الاتحاد يجتمعون مرة كل عام فى إحدى الدول ، ويقومون بانتخاب خمسة منهم لتمثيل مجلس إدارة الاتحاد لمدة عام ، وكان مجلس الإدارة هذا يتولى المهام التنفيذية داخل الاتحاد .

كما كان للاتحاد صحيفة شهرية ثابتة بعنوان «١٦ آذر» [٣٧] ، وفضلاً عن إصدار بعض النشريات الأخرى التى ضمت العديد من المسائل المتعلقة بالنواحى الاجتماعية ، والسياسية ، والاقتصادية فى إيران ، وكان من بينها نشرية تحت عنوان «نامهء پارسى» - أى الرسالة الفارسية - كانت تصدر فى مواعيد مختلفة ، ويفصل بين العدد والآخر عدة شهور .

* * * *

كان الاتحاد - وفقًا لظاهره - عبارة عن تشكيلات طلابية ، وضعت لائحتها مؤسسة نقابية . لكن - على أرض الواقع - كان النشاط النقابى ، أو بالأصح ، ماهية الاتحاد النقابية تقف عند حد الكلام ووضع اللائحة . فمنذ البداية ، سار الاتحاد فى خط سياسى بالكامل ، ولم ينجز أى نشاط آخر سوى النشاط السياسى .

وبعيداً عن الظروف السياسية والاجتماعية المسيطرة على إيران ، والتى لم تكن تسمح بالطبع للقيام بهذا الدور ، إلا أن ظروف الحياة والدراسة فى الغرب كانت على نحو قلما يحتاج فيه الطلاب الإيرانيون إلى تشكيلات أو اتحادات نقابية بهدف تأمين حقوقهم النقابية .

وسرعان ما أوجد الخط السياسى للاتحاد آثارًا ، وخصالاً وسمات خاصة به داخل هذه المؤسسة . فمنذ بدء ظهوره ، ظهرت عناصر سياسية مختلفة على الساحة السياسية ، وكانت العناصر الأولى للنشطين فى الاتحاد والتالية لها تتألف من : مهدى خانبابا طهرانى ، محمد على (همايون) كاتوزيان ، أمير طاهرى ، أحمد ساعى ، منوچهر ثابتيان ، گيومرث زرشناس ، خسرو شاكرى ، بهمن نيرومند ، منوچهر هزار خانى ، ويدا حاجبى ، چنگيز پهلوان ، هوشنگ توكلى ، كورش لاشايى ، سيروس گلشاى ، حسن ماسالى ، داريوش شيروانى ، حميد عنايت ، هما ناطق ، ناصر پاكدامن ، صادق قطب زاده ، على شريعتى ، محمد نخشب ، پرويز نيكخواه ، جمشيد نخشب ، داريوش سالم ، منوچهر گنجى ، جمشيد أنور ، أبو الحسن بنى صدر ...... وعشرات غيرهم ممن كانوا أعضاءً فى تشكيلات وتنظيمات سياسية مستقلة قبل

التحاقهم بعضوية الاتحاد ، ومن هذه التنظيمات : حزب توده ، والجبهة الوطنية ، ونهضة التحرير، والقوة الثالثة، وحزب إيران الوطنى وأتباع د. خنجى وأتباع د. خليل مكى ... والنتيجة ، ومنذ البداية ، كانت أهم سمات الاتحاد : الانقسام ، والمنافسة الجماعية والتباين فى الأسلوب . وأول خلاف فى الاتحاد هو ما وقع بين أتباع حزب توده وأتباع خليل مكى أو «القوة الثالثة» ، ثم تلاه الخلاف الذى دار بين أتباع الجبهة الوطنية والآخرين ، ثم حل الدور على الماركسيين وتلته خلافات أخرى .

وفى الأعوام الأولى من عمر الاتحاد ، كانت الخلافات الأسلوبية بداخله تتم فى الغالب استمرارًا للعناصر المعارضة داخل الدولة ، لكن بالقضاء على هذه العناصر فى الداخل ، زالت الخلافات الناتجة عنها فى الخارج تدريجيا ، وحلت محلها عناصر أخرى جديدة .

وفيما يتعلق بـ : هل كان الاتحاد السوڤيتى (السابق) اشتراكيا إمبرياليا ، وعليه لا توجد خلافات أصولية بينه وبين الإمبريالية الأمريكية ؟ وهل يجب إحياء حزب توده أم حزب العمال الجديد ؟ وهل يجب تطابق الثورة فى إيران مع نموذج ثورة الصين وآراء ماوتوسى تنج القائمة على محاصرة المدن عن طريق القرى؟ أم يجب أن تطابق خط سير الماركسيين فى أمريكا اللاتينية؟ أم تتخذ من ثورة كوبا نموذجًا لها ؟ وهل يجب أن تفصل طبقة العمال صفوفها منذ البداية عن صفوف البرجوازية الوطنية؟ أم يجب أن يتم هذا الانفصال فى مراحل الحركة التالية ؟ وهل يجب أو هل يمكن أن يقوم القرويون فى إيران بدور الزعامة فى الحركة الثورية ؟ أم أن هذه المهمة يجب أن تلقى على عاتق طبقة العمال فقط ؟ وهل يستطيع القرويون أن يتحدوا عنوة بالطبقة العمالية أم لا ؟.وهل إيران تعبر الآن من مرحلة الإقطاع إلى مرحلة الرأسمالية ؟ وهل كانت السمة الأساسية للمجتمع الإيرانى هى أنه مجتمع شبه إقطاعى - شبه صناعى؟....

كل هذه الاستفسارات والخلافات نشأت منذ أواسط الأربعينيات (أى الستينيات) حتى أوائل الخمسينيات (أى السبعينيات) .

ومع بداية النضال المسلح والتطورات التى تلته ، ألقت العناصر المناضلة داخل الدولة (كما كان الحال فى أوائل الأربعينيات - أى الستينيات) ثانية بظلالها على

الاتحاد فقد تمكن أتباع «منظمة فدائى الشعب» من الحصول على المناصب الحيوية فى زعامة الاتحاد، تبع ذلك نقل الخلافات الداخلية الخاصة بتنظيم الفدائيين إلى الاتحاد . ووقع التنافس بين أتباع «فدائيان منشعب» - أى الفدائيون المنفصلون - وأتباع جزنى وأحمد زاده وبين جماعات الاتحاد الأخرى .

وفى النهاية ، ونتيجة لاحتدام الخلافات الداخلية فيما بين عامى ٥٤ - ١٣٥٥هـ . ش (٧٥ - ١٩٧٦م) انفصل بعض أعضاء الاتحاد عنه ، وكونوا فى أمريكا جماعة باسم «كنفدراسيون احيا» - أى اتحاد الأحياء - وعلى الرغم من افتقاد الاتحاد إلى إطار أو خطة أيديولوچية محددة طبقًا للائحته ، إلا أن الماركسيين كانوا يشكلون بداخله العناصر الفعالة أو التى تحتل الصفوف الأولى وذلك منذ الأعوام الأولى لتكوينه. كما كان معظم الذين يتم انتخابهم فى مجلس الإدارة من الماركسيين ، أو على الأقل من المؤيدين للماركسية .

ولا تمس الحاجة إلى توضيح إلى أى حد استنفذت هذه الخلافات الجزء الأساسى من قوة الاتحاد وقدرته . لكن فى الوقت نفسه لم يكن فى الإمكان تفادى وجود الخلافات السياسية بداخله . فقد كان الإطار المكون له على نحو يتيح بتسرب أفكار الجماعات السياسية الأخرى إليه . فكان ثمة انفتاح فى تشكيلات الاتحاد ، بمعنى أن كل فرد كان يستطيع الالتحاق بعضويته . وهذا ما أدى إلى تمكن أتباع الساواك من النفاذ إليه بكل يسر وسهولة تحت مسمى الطلاب .

والمسألة الأخرى التى كانت دومًا موضع اهتمام منتقدى الاتحاد هى تعاون بعض أعضائه والنشطين به مع نظام الشاه بعد عودتهم إلى إيران ، سواء فى صورة شخصيات ، مثل پرويز نيكخواه ، وكورش لاشايى ، وسواء فى قالب عناصر ، مثل : د. منوچهر گنجى وأمير طاهرى ، وسواء فى صورة الأعضاء الذين انشغلوا بحياتهم الخاصة فى هدوء بعد العودة إلى إيران وخضوعهم للساواك(٣٨) .

وكما ذكرنا من قبل ، كان هيكل الاتحاد على نحو يمكن الأعضاء من الانضمام إليه دون أن يكون لهم صفات خاصة ؛ لذا كان من الطبيعى أن يستسلم البعض من هذا الحشد الهائل للنظام ، وأن يبدى تعاونًا معه . فضلاً عن أن الفترة من الانضمام

إلى الاتحاد وحتى العودة إلى إيران قد امتدت إلى حوالى عشر سنوات وخلال العشر سنوات كان للعديد منهم تجاربه الخاصة ، وانتقل بعضهم من مرحلة حياتية إلى مرحلة أخرى . ومع هذا حمل الاتحاد على عاتقه مسئولية مهمة فى النضال الطلابى فى الخارج ، خلال سنى تكوينه التى دنت من العقدين .

صحيح أن الجماعات والعناصر السياسية التى انضمت إلى الاتحاد كانت تفتقد التوافق والوحدة ، إلا أنها اتفقت جميعًا فى إدانتها لنظام الشاه وسعيها لكشف ماهيته المدمرة الديكتاتورية فى الخارج . ومن الواضح أن الاتحاد لو كان قد حظى بالوحدة ، والتوافق ، والأهم من هذا كله ، الواقعية من قبل الأعضاء والمسئولين فيه تجاه إيران وتطوراتها ، لكان قد قام بدور أكثر تأثيرًا فى الثورة . لكن بسبب عدم توفر هذه العناصر ، تلخص دوره - على الحد الأقصى- فى عكس الظروف السياسية داخل إيران فى الخارج . وهذا هو الإنجاز الذى حققه الاتحاد .

وفى أعتاب «الانفتاح السياسى» فى إيران ، استطاع الاتحاد خلال سنى نشاطه، أن يكون صورة سلبية للشاه ولنظامه على نحو اقترنت فيه هذه الصورة داخل بعض المحافل الغربية ببعض المصطلحات ، من قبيل : الساواك ، والتعذيب، وافتقاد الحرية ، والسجناء السياسيين وانتهاك حقوق الإنسان .

* * * * *

وبعيدًا عن الاتحاد ، ظهرت فى الخارج حركة طلابية إسلامية أيضًا ، كانت تختلف فى بعض النقاط مع الاتحاد . وقد تمثلت أهم هذه الاختلافات فى خط ظهورها المنحنى ، حيث كان يتطابق مع نمو القوات الدينية فى الداخل فيما بين الأربعينيات والخمسينيات (أى الستينيات والسبعينيات بالتقويم الميلادى) . ففى بداية تكوين الاتحاد كان الدينيون يشكلون بعض العناصر النشطة فيه، من أمثال : د. شريعتى ، وصادق قطب زاده ، وأبو الحسن بنى صدر وغيرهم، لكن سرعان ما تخلى الدينيون عن الاتحاد .

وفى الواقع كان النشاط فى الخارج فى أوائل الأربعينيات (أى الستينيات) وحتى الأعوام الأخيرة من هذا العقد يقتصر على الاتحاد ، لكن سرعان ما تبدل هذا الوضع فى أوائل الخمسينيات (أى السبعينيات) . فكلما ضعف الاتحاد نتيجة للخلافات والصراعات الداخلية ، فى المقابل كانت تزداد النهضة الإسلامية قوة على نحو كان يتقدم فيه الدينيون بالعديد من الأنشطة والحركات فى الخارج بشكل يفوق غيرهم من غير الدينيين أو من أعضاء الاتحاد ، وكان ذلك فى السنوات المواكبة لظهور الثورة .

وبعيداً عن الأسباب الأخرى ، فثمة دليل أساسى لهذا الاختلاف يعود إلى كيفية الوحدة والتماسك لدى الحركة الإسلامية بالمقارنة مع ما كان موجوداً داخل الاتحاد .

والسبب الأساسى لنضج العناصر الدينية من بين الطلاب فى الخارج هو الإقبال الدينى الذى امتدت جذوره حتى السنوات المواكبة للثورة فى إيران [٣٩] .

وكان أحد المؤسسين الأوائل للجماعة الإسلامية فى الخارج هو المرحوم محد نخشب الذى بدأ نشاطه السياسى فى فترة العشرينيات (أى الأربعينيات) داخل حزب «ملت ايران» - أى شعب إيران - إلا أنه انفصل عنه بسبب تعاون هذا الحزب مع حزب توده ، وأسس تشكيلاً آخر تحت عنوان «نهضت خداپرستان سوسيالست» - أى ثورة الاشتراكيين المؤمنين - بمساعدة بعض مؤيديه ، من أمثال: رحيم عطايى ، وعباس سميعى ، ومنصور عطايى والمرحوم الدكتور كاظم سامى . وكان هذا التشكيل قليل العدد من ناحية الكم ، بيد أنه لعب دوراً مهمًّا من الناحية النظرية ومن ناحية تأثيره الفكرى على القوى السياسية والدينية .

وطبقًا لقول آبراهاميان ، يجب أن يعد نخشب أول مفكر سياسى سعى لإيجاد نوع من العلاقة بين مبادئ الشيعة والاشتراكية الأوروبية [٤٠] .

وقد قضى نخشب فترة فى السجن بعد انقلاب ٢٨ مرداد عام ١٣٣٢هـ.ش (١٩٥٣م)، ثم سافر إلى أمريكا بعد إطلاق سراحه ، وعمل بالتدريس فى جامعة تكساس .

وبسبب ميوله الدينية ، وعلى الرغم من تعاونه مع الجبهة الوطنية والاتحاد فى الأعوام الأولى لتكوينه ، فقد وضع حجر الأساس لأول جماعة طلابية إسلامية خارج الدولة ، وكانت فى أمريكا .

ومع اعتزال نخشب النشاط السياسى ، أصبح الدكتور إبراهيم اليزدى العقل المفكر والأصلى للجماعة . وكان الجيل الأول من الطلاب الذين انضموا إلى الجماعة فى النصف الأول من الأربعينيات (أى الستينيات بالتقويم الميلادى) يتشكل فى الغالب ممن كان له سابق عهد بالأنشطة الطلابية السياسية داخل إيران قبل توجههم إلى أمريكا .

وكان د. إبراهيم اليزدى عضواً فعالاً فى الحركة الطلابية منذ فترة دراسته بكلية الطب بجامعة طهران ، كما كان من زمرة الكوادر الطلابية فى جماعة «نهضة التحرير» منذ تأسيسها فى شهر أرديبهشت عام ١٣٤٠هـ . ش (١٩٦١م) ، وبعد إتمامه الدراسة الجامعية وتوجهه إلى أمريكا فى عام ١٣٤٢هـ.ش (١٩٦٣م) بدأ نشاطه فى الجماعة الإسلامية .

وكان المرحوم مصطفى چمران أحد النشطين الآخرين المؤسسين للجماعة الإسلامية فى أمريكا ، وله سابق عهد فى النضال مثله مثل د. اليزدى ، حيث كان أحد النشطاء فى الجماعة الإسلامية بالكلية الفنية بجامعة طهران أثناء فترة دراسته فى النصف الثانى من الثلاثينيات (أى الخمسينيات بالتقويم الميلادى) ، بالإضافة إلى تعاونه أيضًا مع جماعة «نهضة التحرير» . ونظراً لوجود المهندس بازركان بالكلية الفنية ، كان چمران فى فترة دراسته من تلاميذه المتأثرين بفكره، ومن المترددين على مسجد هدايت، ومن الملتزمين بتفاسير المرحوم آية الله طالقانى للقرآن الكريم . وبعد إنهاء دراسته الجامعية ، توجه چمران إلى أمريكا لاستكمال دراساته العليا وحصل على درجة الدكتوراه بتقدير امتياز من جامعة بروكلى الشهيرة .

وكان چمران يتمتع بشخصية مميزة من بين عناصر القوى الدينية ، وبعد إنهاء دراسته فى أمريكا ، غادرها ، وتوجه إلى لبنان بعد أن حصل على دورة تدريبية عسكرية بمصر فى أواسط الأربعينيات (الستينيات بالتقويم الميلادى). وفى لبنان أوقف حياته لشيعة جنوب لبنان المحرومين ، وتمكن من تقديم الخدمات التعليمية والصحية لهم بتأسيس مؤسسة «أمل» ، وبمساعدة آية الله صدر (حيث تزوج د. چمران من أخته) . وبعيداً عن الخدمات الاجتماعية ، اجتهد كذلك فى إعداد الشيعة وتدريبهم عسكريا ، وكان النشاط السياسى والنضال العسكرى من سمات چمران الخاصة .

والسمات الأخرى له إنه كان إنسانًا عارفًا ، نزيهًا ، عازفًا عن الدنيا ، عاشقًا بكل كيانه ، ربانيا ، وتقيا .

كما كان كل من صادق قطب زاده وأبو الحسن بنى صدر من النشطاء الآخرين من بين العناصر الدينية فى الخارج. فبعد خروج قطب زاده من إيران عام ١٣٤٣هـ.ش (١٩٦٤م) التحق بقسم اللغات فى جامعة واشنطن ، وكان يعد من العناصر المؤيدة والمساندة للحركات الطلابية فى أمريكا . وبعد أن تم الصدام بينه وبين أردشير زاهدى سفير إيران فى أمريكا ، تم طرده من أمريكا على إثر ضغط السفارة الإيرانية على المسئولين الأمريكان ، وتوجه إلى فرنسا .

وبعيدًا عن أنشطته داخل التشكيلات الطلابية ، فقد تعرف قطب زاده على العديد من الشخصيات السياسية وزعماء الأحزاب الراديكاليين والديمقراطيين فى فرنسا ، فضلاًعن سعيه للاستفادة من الخلاف الواقع بين بعض الأنظمة العربية وبين نظام الشاه ، ومن أمثلة ذلك توطيد علاقته مع المسئولين فى دمشق ، ومع حافظ الأسد شخصيا ، وهوارى بومدين رئيس جمهورية الجزائر . ومع ما كان يتسم به چمران من انطواء وهدوء ، إلا أن قطب زاده كان على النقيض ، حيث تمتع بشخصية صاخبة وروح ثائرة ، ودومًا كان يسعى لاكتساب علاقات جديدة مع العديد من الأفراد والشخصيات ؛ لذا تمكن من تكوين صداقات مع العديد من الشخصيات والعناصر الأوروبية الغربية المناهضة لنظام الشاه .

وإذا كان د. اليزدى محللاً سياسيا ، وكان د. چمران من العارفين المناضلين الهادئين ، وكان قطب زاده من العناصر النشطة دوليا ، فقد اشتهرت الشخصية الرابعة فى الحركة الطلابية الإسلامية بالخارج - أبو الحسن بنى صدر - بطرح فكرة «الحكومة الإسلامية» ونظرية «الاقتصاد الموحد» .

وكان بنى صدر من النشطين داخل الحركة الطلابية فى جامعة طهران خلال الأعوام ٣٩ - ١٣٤٢هـ . ش (٦٠ - ١٩٦٣م) ، وبعد إتمام دراسته توجه إلى فرنسا ودرس الاقتصاد والعلوم السياسية فى جامعة السوربون الشهيرة . وكغيره من النشطاء الدينيين الآخرين ، انشغل فى بداية دخوله فرنسا بالاتحاد ، وانضم إلى

عضوية مجلس إدارته باعتباره نائبًا عن الطلاب داخل الدولة . لكنه – كغيره أيضًا – انفصل عن الاتحاد بعد فترة وجيزة .

وبعيدًا عن التباين فى السمات الشخصية ، كان لكل شخصية من هذه الشخصيات الأربعة أسلوبها المنفصل عن الآخرين من ناحية النشاط السياسى والدينى . فلم يكن قطب زاده من أنصار النضال الجماعى أو الحزبى، ولم يكن يحتمل الالتزام أو القوانين التنظيمية . أما بنى صدر فكان يرى نفسه فى قالب المفكر طارح النظريات خلف الإطار الجماعى والتشكيلات ؛ لذا لم يبد ميله علانية للتعاون السياسى – الدينى الجماعى. وكان قطب زاده هو الوحيد المؤيد للعمل الجماعى، كما يمكن اعتباره الوحيد من زمرة زعماء العناصر الدينية فى الخارج بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة .

وثمة اختلافات محددة بين هؤلاء الأربعة أيضًا فيما يتعلق بالتعاون مع الجماعات الأخرى ، فالتجارب المريرة التى مر بها چمران مع الجماعات غير الدينية – خاصة اليساريين – أدت إلى معارضته الشديدة للماركسية ، وعدم ثقته فى الجماعات غير الدينية .

وعلى الرغم من افتقاد د. اليزدى لتلك الحساسية المفرطة التى كانت لدى چمران تجاه العناصر غير الدينية ، لكن بشكل عام ، لم يبد ميله الشديد للتعاون مع هذه الجماعات ، ولم تتعد دائرة نشاطه حدود الجماعة الإسلامية والعناصر الدينية .

وعلى عكس هاتين الشخصيتين ، كان بنى صدر يتعاون بشكل تام مع الوطنيين حتى وإن كانوا غير دينيين . ولم يكن قطب زاده أيضًا من المؤمنين بتحديد دائرة النشاط داخل العناصر الدينية ، وكان أصدقاؤه العرب والأوروبيون فى الغالب من العناصر غير الدينية .

كما كانت علاقتهم بالاتحاد محورًا آخر يتجلى فيه أسلوب رؤيتهم . فحينما انعدم نشاط يزدى وچمران داخل الاتحاد ، كان قطب زاده وبنى صدر من زعمائه فى الأعوام الأولى لسفرهم إلى الخارج . وإن كان كل منهما قد انفصل عنه من بعد .

وبعيدًا عن هؤلاء الأربعة ، كان تكوين العناصر الدينية فى الخارج مدينًا إلى شخصيتين أخريين ، هما : د. شريعتى و د. بهشتى رحمة الله عليهما . هذا وقد حصل

شريعتى على الليسانس من الدرجة الأولى من جامعة مشهد ، وطبقًا للقوانين آنذاك كان يستحق الحصول على منحة دراسية من قبل وزارة العلوم ، إلا أن المسئولين امتنعوا فى البداية عن منحه إياها بسبب سوابق اعتقاله وسجنه وعلاقته بالوطنيين . وبعد فترة ، تمت الموافقة على المنحة ، وسافر إلى الخارج ، والتحق بالدراسة فى جامعة السوربون بفرنسا عام ١٣٣٩هـ . ش (١٩٦٠م) فى قسم الاجتماع .

وفى الأعوام الأولى لدراسته تعاون مع الاتحاد على نطاق واسع ، وكتب مقالات عديدة خاصة بنشريات الاتحاد والجبهة الوطنية تحت اسم مستعار «شمع»، لكنه – كغيره من العناصر الدينية الأخرى – سرعان ما انفصل عن الاتحاد واعتزل نشاطه . وبعد ذلك ، وضع حجر الأساس لتشكيلات دينية عرفت بعد ذلك باسم «نهضت آزادى خارج از كشور» – أى نهضة التحرير خارج الوطن – وتزامنت فترة إقامته فى فرنسا مع قيام ثورة الجزائر ، وأبدى ميلاً كبيراً لنضال شعب الجزائر ضد الفرنسيين ، وتقابل مع زعماء الجزائر الثوريين . وكما كان الحال لدى قطب زاده وچمران ، مال شريعتى أيضًا إلى العناصر المناضلة فى العالم العربى ، ويتلخص أكبر حجم لنشاطه السياسى فى تعاونه مع جبهة التحرير الجزائرية .

وكان أكبر تأثير لشريعتى على النضال الإسلامى فى الخارج يعود إلى الأعوام التالية على عودته إلى إيران وبداية موجة فكرية بدأت من حسينيات الإرشاد . وتزامنت فترة إقامته فى الخارج مع الفترة التى لم تكن العناصر الدينية هناك قد تشكلت بعد ، وكانت القوى غير الدينية هى التى تتقدم حاملة راية النضال ضد النظام خارج الحدود . وعلى الرغم من وضعه لحجر أساس جماعة «نهضة التحرير خارج الوطن» إلا أن دوره من خلالها يتلخص عند حد وضع حجر الأساس ، وداوم أشخاص آخرون النشاط خاصة بعد عودة شريعتى إلى إيران . وقد توجه د. بهشتى فى عام ١٣٤٤هـ . ش (١٩٦٥م) إلى ألمانيا ليتولى مقام الإمامة فى مسجد مدينة هامبورج ، وتزامنت الأعوام التى قضاها إمامًا للمسجد مع تأجج حركة الاتحاد فى ألمانيا . وقد وضع د. بهشتى خلال إقامته فى ألمانيا الأساس الأول لجماعة البحث والدراسة . ومع ازدهار أمر العناصر الإسلامية منذ أواخر الأربعينيات (أى الستينيات بالتقويم الميلادى) كانت هذه الجماعة تشكل البنية التحتية لتشكيلات أكثر نشاطًا عرفت باسم «اتحاديه

انجمنهای إسلامی إروپا ، گروه پارسی زبان» – أی اتحاد جماعات أوروبا الإسلامية ، الجماعة الناطقة باللغة الفارسية – وكانت هذه التشكيلات – التى كانت تتألف فى الحقيقة من جماعة الطلاب الإيرانيين الإسلامية فى ألمانيا – تصدر نشرية باسم «إسلامی مكتب مبارز» – أی الإسلام مكتب النضال – بشكل غير منتظم – بعد ذلك اتصل بها نشطاء الحركة الطلابية الإسلامية فى كل من النمسا وإنجلترا . وتشكل أول اجتماع للجماعات الإسلامية بألمانيا وإنجلترا فى عام ١٣٤٩هـ . ش (١٩٧٠م) فى مدينة هامبورج الألمانية .

وبموازاة تكوين الجماعات الإسلامية فى أوروبا ، ظهرت حركات مماثلة فى أمريكا ، حيث شكل النشطاء الإسلاميون هناك جماعة باسم «اتحاديهء انجمن هاى إسلامى أمريكا وكانادا» – أى اتحاد الجماعات الإسلامية بأمريكا وكندا – وكان د. اليزدى يمثل الشخصية المحورية فى هذه الجماعة ، فضلاً عن وجود العديد غيره فى زمرة النشطاء داخل الجماعة الإسلامية بأمريكا ، منهم : داود بانكى ، وحسن غفورى فرد ، وهادى نژاد حسينيات ، وجمشيد حق گو ، وكمال خرازى ، وعلى أصغر بهزاد نيا ، ومحمود نعمت زاده ، وعلى أفروز ، وفرخ مروستى، ومحمود قندى ، وحسن عباسپور ، ومحمد على نجفى وعلى صادق طهرانى .

وبالمقارنة مع نشاط الجماعة الإسلامية فى أوروبا ، كانت الجماعة الإسلامية فى أمريكا أكثر نشاطًا وفاعلية . وقد تم دمج هاتين الجماعتين فيما بعد تحت مظلة تشكيل واحد باسم «اتحاد الجماعات الإسلامية بأوروبا وأمريكا» ، وكان للعناصر المقيمة فى أمريكا اليد الطولى أيضًا فى هذا التشكيل .

وكما ذكرنا سالفًا ، إن السبب الرئيسى لازدهار الجمعيات الإسلامية فى الخارج هو موجة الاتجاه إلى الدين والإقبال عليه التى انتشرت داخل الدولة . لكن بعيداً عن هذا السبب العام ، فثمة عامل آخر كان داعيًا لنمو نشاط القوى الإسلامية فى الخارج وهو وجود خريجى الجامعات المحلية الذين توجهوا إلى أوروبا وأمريكا لاستكمال دراساتهم العليا . والعديد منهم – ممن كانوا متأثرين بالحركات الدينية المتنامية بين الطلاب فى جامعات طهران ، وأمير كبير ، وصنعتى شريف ، وشهيد بهشتى والعديد

من جامعات المحافظات الأخرى فى الأعوام السابقة على الثورة - حينما توجهوا إلى أوروبا وأمريكا بهدف الدراسة ، انضموا إلى الجماعات الإسلامية . وكانت الحرية التى حظى بها هذا النوع من العناصر بمقارنتها بما كان داخل إيران من جانب ، والفكرة حول النشاط الدينى على أنه لم يكن نشاطًا سياسيا أو معارضًا للنظام من جانب آخر، مما أدى إلى انضمامهم إلى العناصر الدينية .والتنسيق والاتحاد اللذان كانت تحظى بهما القوى الإسلامية بالمقارنة مع ما كان لدى العناصر غير الدينية ، يمكن أن يكونا عاملاً آخر للاتجاه المتنامى نحو الحركات الدينية بالمقارنة مع نظيرتها غير الدينية.

وفضلاً عن الجماعات الإسلامية ، ظهرت تشكيلات إسلامية أخرى تحت اسم «نهضت آزادى أزكشور» ، وكما يتضح من اسمها ، أنها كانت تابعة ، أو كانت جزءًا من «نهضة التحرير» التى كانت تقوم بنشاطها خارج البلاد . وعلى الرغم مما كان لزعمائها من صفات كالسالف ذكرها ، إلا أنهم لم يكونوا كذلك على أرض الواقع . فقلما كانت توجد صفات مشتركة بين هذه التشكيلات وبين جماعة «نهضة التحرير» فى الداخل أو نظيرتها فى الخارج سوى فى الاسم ، واشتراك بعض العناصر الأولى المؤسسة ممن كان لها نشاط سابق فى حركات المقاومة الوطنية ونهضة التحرير ، من أمثال : د. إبراهيم اليزدى وعباس أمير انتظام ، ود. مصطفى چمران ود. شريعتى .

وكانت «نهضة التحرير خارج الوطن» تابعة لمنظمة المجاهدين أكثر من كونها إحدى شعب «نهضة التحرير فى الخارج» . وقد تزامن عهد نشاطها مع الفترة التى عدمت «نهضة التحرير فى الداخل» أى نشاط لها، ولم تكن على قيد الحياة السياسية . فالغالبية العظمى من أعضائها تم إطلاق سراحهم، وانشغلوا بشئون حياتهم الخاصة . وتزامنت هذه الفترة - التى بدأت منذ أوائل الخمسينيات (أى السبعينيات) - مع فترة عنفوان حياة المجاهدين السياسية .

والرسالة الشهيرة «پيام مجاهد» - أى رسالة المجاهد - المتحدثة باسم «نهضة التحرير فى الخارج» ، لم تكن تعكس فقط رسالة المجاهدين اسمًا ، بل كانت تعكسها أيضًا من حيث المحتوى والموضوع .

ومع هذا اختلفت جماعة «نهضت التحرير فى الخارج» مع جماعة «المجاهدين» فى أمرين مهمين ، أولهما : مواجهة كل منهما لرجال الدين . فلم يؤمن المجاهدون برجال

الدين لا من ناحية الزعامة السياسية ولا من ناحية الزعامة الدينية ، وكان لديهم هذا الاعتقاد حتى قبل اتجاه المنظمة نحو الماركسية . فزعيم المنظمة فى نظرهم لابد وأن يكون زعيمًا سياسيا ، أما الزعامة الدينية والمعنوية لرجال الدين لم تكن تشغل حيزًا كبيرًا فى إطار معتقدات المجاهدين . وإن كان لابد من الزعامة الدينية (بعيدًا عن الزعامة الأيديولوچية) فكان يكفيهم زعامة المنظمة .

غير أن الأمر كان مختلفًا لدى جماعة «نهضة التحرير فى الخارج» ، فكان د. يزدى ومؤيدوه - سواء فى قالب نهضة التحرير أو فى قالب تشكيل الجماعات الإسلامية - ينظرون إلى الإمام الخمينى على أنه مرجع تقليد وزعيم سياسى ودينى . وكان اليزدى متعلقًا به بشكل شخصى خلال فترة الأربعينيات والخمسينيات (أى الستينيات والسبعينيات) وكثيرًا ما كان يسافر إلى النجف لزيارته ، فضلاً عن حرصه على بدء مناقشات الاتحادات الطلابية وجلساتها برسالة الإمام . وبالإضافة إلى اليزدى ، كان صادق قطب زاده يتوجه إلى النجف أيضًا للقاء الإمام .

والاختلاف الآخر بين الجماعتين ، هو الاتجاه نحو الماركسية . فعلى عكس المجاهدين فى الداخل ، حيث كان العديد من زعمائهم ، وكوادرهم وأعضائهم ينتمون إلى الماركسية ، لم يكن الأمر على هذا النحو فى الخارج . ولا شك أن الكثيرين من العناصر الدينية فى الخارج قد اتجهوا إلى الماركسية فى أعقاب التغيرات الداخلية التى طرأت على منظمة المجاهدين عام ١٣٥٤ هـ.ش (١٩٧٥م) ، لكن بالمقارنة مع الهيكل الأساسى للعناصر الطلابية الدينية فى الخارج ، كان هذا العدد ضئيلاً فى مجموعه .

وفيما يتعلق بالاستفسار عن : لمَ قويت موجة الاتجاه نحو الماركسية بين القوى الدينية الراديكالية فى الداخل على نقيض القوى المماثلة فى الخارج ؟ فهذه ظاهرة مهمة جديرة بالبحث والتمحيص . ولعله من بين العوامل المؤدية إلى ذلك أن المحيط الانفتاحى الذى حظيت به العناصر الدينية فى الخارج بمقارنته بنظيره الانغلاقى الخانق داخل إيران ، من الممكن أن يكون أحد العناصر المكونة لهذا الاختلاف .

كذلك نجد أن الأمر يختلف تمامًا بين الدينيين فى الخارج ونظرائهم فى الداخل فى مواجهة كل منهما لزعامة المنظمة الماركسية . فالعناصر الدينية فى الخارج لم تدن

فقط هذه الحركة بشدة وتعدها أكثر خسة من عملاء النظام ، بل أعلنتها مصداق «النفاق» الكامل ، وعدت زعماء المنظمة الماركسيين «منافقين» . فى حين أن المجاهدين فى الداخل - كما أشرنا - لم يكونوا على استعداد للهجوم على زعامة المنظمة الماركسية أو إدانتها (سوى فى قالب الألفاظ والمصطلحات السياسية ، من قبيل : الانتهازية واليسارية) . وقد نشرت العناصر الدينية الموجودة فى الخارج دراسات جادة وصريحة حول هذه الحركة ، منها : «زور عليه عقيده» ، «توطئة يا تحول» و «منافقين أزديدگاه ما» ، أى «العنف ضد العقيدة ، «مؤامرة أم تغيير» و «المنافقون من وجهة نظرنا» .

وغالبًا ما كان مقر «نهضة التحرير فى الخارج» هو أمريكا ، ولم تكن تختلف كثيرًا مع الجماعة الإسلامية من حيث الزعامة والعضوية ، وكان للدكتور اليزدى الأقدمية والزعامة فى كلا التشكيلين . وكانت الجماعة الإسلامية فى الغالب عبارة عن تشكيلات منفتحة ، فى حين كانت «نهضة التحرير» - بسبب ماهيتها السياسية - تعمل بشكل سرى .

وعلى الرغم من التباين الذى تم ذكره بين جماعة «المجاهدين» والقوى الدينية فى الخارج ، لكن بشكل عام ، يجب الإذعان بعدم تمكن القوى الدينية من الوصول إلى أبعد من أفكار د. شريعتى والمجاهدين من الناحية الفكرية . وعلى الرغم من الإمكانيات المتاحة لها من مصادر ومراجع ، لكن قلما يلاحظ تغيير أو نتيجة جديدة فى تحاليلها السياسية والاجتماعية . وكانت تكرر نفس الأحاديث السابقة ، وتدور فى نفس المدار السياسى الفكرى السابق .

والنتيجة ، ومع ارتفاع موجة الانقلاب ، لم تبد هذه القوى دورًا مهمًا من الناحية الفكرية ، إنما كانت تابعة للأحداث . وهذا لا يعنى نفى مساعيها وخدماتها فى الخارج خلال عهد الثورة ، فقد كان تماسك أعضائها ووحدتهم - بمقارنته بما كان لدى القوى غير الدينية - باعثًا لتمكنها من القيام بخدمات جليلة تجاه الثورة . وبشكل عام ، يمكن على هذا النحو وصف أوضاع القوى المعارضة لنظام الشاه فى الفترة المواكبة لظهور «الانفتاح السياسى» فى أوائل عام ١٣٥٦هـ . ش (١٩٧٧م)، فالمعارضون الراديكاليون

الذين ظهروا بعد عام ١٣٤٢هـ . ش (١٩٦٣م) خرجوا من الميدان عمليا فى عام ١٣٥٥هـ . ش (١٩٧٦م) . والباقون من هذه العناصر ممن كانوا يعيشون داخل السجون ، كانوا يواجهون مشكلة «ما الذى ينبغى عمله ؟ » مع انتهاء أمر المقاومة المسلحة. وبعيداً عن أزمة «ما الذى ينبغى عمله ؟ » ، فقد عانت المعارضة الراديكالية من احتدام النقاش ، والخلاف والتشعيب المتعدد بحيث لم يكن فى الإمكان تجنب هزيمة النضال المسلح .

ومعارضو الشاه التقليديون (حزب توده ، والجبهة الوطنية، ونهضة التحرير والعناصر المماثلة) أجبروا على التزام الصمت عمليا منذ أواسط الأربعينيات (أى الستينيات) مع تنامى موجة الاعتقالات .

وكان الوضع فى الخارج يسير على نحو أفضل ، إلا أن القوى غير الدينية هناك عانت أيضًا من الخلافات والانقسام المتنامى ، ولم يتمكن الجناح اليسارى من إيجاد قوة تتوافق والإستراتيجية المحددة والزعامة الموحدة ، وعلى الرغم من ندرة تعرض القوى الدينية فى الخارج لمثل هذه النوعية من المشاكل ، إلا أنها كانت بالفعل تابعة للعناصر الراديكالية الدينية فى الداخل ، دون أن تتمكن من إعداد حركة مستقلة من الناحية الفكرية .

وبنظرة عابرة على الطوائف العريضة لقوى المعارضة ، يتضح أنه حينما كان يظهر تغيير فى أوضاع الدولة السياسية ، كانت توجد قوتان لهما القدرة أكثر من غيرهما على إظهار رد الفعل ، هاتان القوتان هما : الوطنيون ورجال الدين . الأولى لأن جزءاً كبيراً من قوتها كان حرا ، فضلاً عن امتلاكها قوة التمييز ومعرفة التطورات المحلية والعالمية أكثر من الآخرين ، أما القوة الثانية والمتمثلة فى رجال الدين فبسبب تمتعهم بالزعامة والتشكيل الجيد (كما سنعرض لذلك فى المجلد الثانى تفصيليا) . وهكذا سرعان ما اجتذب «الانفتاح السياسى» الوطنيين ورجال الدين إلى ساحة الصراع السياسى العلنى ضد النظام .

الهوامش

(١) كان الاستفتاء يدور حول قبول أو رفض إصلاحات الشاه الستة والتى عرفت من بعد باسم «الثورة البيضاء». وكانت أهم مبادئها : الإصلاح الزراعى ، حق النساء فى التصويت ، تأسيس جيش مدرب ، مشاركة العمال فى أرباح المصانع وتأميم الغابات .

(٢) للاطلاع على وجهات نظر جزنى فى هذا الشأن ، انظر رسالته بعنوان "جمع بندى مبارزات سى سالة أخير إيران وتحليل موقعيت اقتصادى فعلى جامعه" ، انتشارات سازمان چريك هاى فدايى خلق إيران، تهران ١٣٣٥ ش، ص٧١ : ١٥٢ .

(٣) للاطلاع على وجهات نظرجزنى حول توده والجماعات والأحزاب الأخرى، انظر تاريخ سى ساله إيران .." جلد ١، ٢ انتشارات سازمان فدايى خلق إيران.

(٤) للاطلاع على وجهات نظر جزنى بشأن المقاومة المسلحة، انظر رسالة" چگونه مبارزه مسلحانه توده إى مى شود" انتشارات سازمان چريك هاى فدايى خلق إيران.

(٥) نقلاً عن (حماسهء مقاومت) بقلم أشرف دهقانى ، انتشارات سازمان چريك هاى فدايى خلق إيران ، تهران ١٣٥٧هـ . ش .

(٦) كانت أجهزة النظام الاستخباراتية والأمنية فى ذلك الوقت تعمل كل منها بشكل منفصل عن الآخر، وكانت مطاردة الفدائيين ومقاومتهم تتم عن طريق أجهزة الشرطة وقوات حرس الحدود، والركن الثانى للجيش وأخيراً السافاك. وفى أعقاب الصدمات والأحداث المختلفة التى وقعت بين هذه القوى منذ عام ١٣٥٠ش (١٩٧١م) قرر الشاه التنسيق بين هذه الأجهزة بشأن مقاومة «الإرهابيين»؛ لذا أنشأ فى عام ١٣٥١ش (١٩٧٢م) "لجنة مشتركة مناهضة للإرهاب" بمشاركة الأجهزة العسكرية والأمنية المعنية، وعهد إلى هذه اللجنة بجميع الأمور المتعلقة بمقاومة الفدائيين ، وكان مقر هذه اللجنة هو سجن البلدية. وعلى الرغم من اشتراك الجيش والشرطة فى عضويتها، لكن بالنظر إلى رئاسة پرويز ثابتى (المسئول الأمنى والأساسى فى جهاز السافاك لها) فقد وقعت بشكل عملى فى يد السافاك .

(٧) لمزيد من المعلومات حول تشكيل ، ونشاط ومعتقدات هذه الجماعة ، انظر : أسد الله بادامچيان ، على بنايى : «هيئتهاى مؤتلفه إسلامى» ، انتشارات أوج ، تهران ١٣٦٣هـ . ش . مهدى عراقى : «ناگفته ها» - خاطرات شهيد حاج مهدى عراقى ، پاريس ، پاييز ١٣٥٧هـ . ش - ١٩٧٨م ، به كوشش محمود مقدسى ، مسعود دهشور وحميد رضا شيرازى ، مؤسسه خدمات فرهنگى رسا ، تهران ١٣٧٠هـ . ش .

(٨) لمزيد من المعلومات حول جماعة «حزب ملل إسلامى» ، انظر مقالة «حزب ملل إسلامى» بروايت سيد محمد كاظم بجنوردى . «تاريخ وفرهنگ معاصر» ، مجلد أول ، مركز بررسى هاى إسلامى ، قم ١٣٧٠هـ.ش ، ص ١٨٢: ص ٢٠٠ . بيژن جزنى «تاريخ سى ساله ..» بخش دوم، بدون تاريخ ، ص ١٣٩ : ص ١٤٥ .

(٩) يقع مسجد هدايت فى منطقة «چهار راه لاله زار» بطهران ، وكان مركزًا لتجمع العناصر الوطنية والدينية المعارضة للنظام ، توزع من خلاله العديد من البيانات ، وتذاع عن طريقه آخر الأنباء المتصلة بالثورات أو المقاومات . كان معظم المترددين عليه من طلاب الجامعة وأهل السوق المعارضين للنظام ، وتولى المرحوم آية الله طالقانى مقام الإمامة فيه، فضلاً عن اعتلاء بعد الشخصيات الأخرى منبره ، من أمثال : الأستاذ مطهرى والدكتور بهشتى والدكتور مفتح (رحمة الله عليهم) . وقد استحدث مسجد هدايت تقليداً جديداً تابعته فيه المساجد الأخرى ، فقد فتح المرحوم طالقانى أبواب المسجد لاستقبال الخطاب من غير رجال الدين ، وكان بإمكانهم - كأى رجل دين - إلقاء الخطب فى المسجد ، وكان يمثلهم فى الغالب المهندس بازركان ود. سحابى ، إلا أن المسجد فقد رونقه فى أعقاب القبض على رؤساء جماعة «نهضت آزادى» - وكان من بينهم المرحوم طالقانى - فى عام ١٣٤١هـ . ش (١٩٦٢م) وتم إغلاقه فى النهاية .

(١٠) انظر ، «اقتصادبه زبان ساده» بقلم محمود عسگرى - أحد الزعماء الأوائل لمنظمة المجاهدين - وهذا المؤلف جزء من تعاليم المنظمة فى علم الاقتصاد .

(١١) فى النهاية وضع الباقون من المجاهدين الماركسيين الأساس لمنظمة جديدة فى عام ١٣٥٧هـ . ش (١٩٧٨م) باسم «پيكاردرراه آزادى طبقهء كارگر» - أى النضال فى سبيل تحرير طبقة العمال - والتى عرفت باسم «پيكار» .

(١٢) كار ، أرگان سازمان چريك هاى فدايى خلق إيران ، ويژه سياهكل وقيام پرشكوه خلق ، ١٩ بهمن ١٣٥٨هـ . ش ، ص ٦ .

(١٣) نفسه .

(١٤) نفسه .

(١٥) نفسه .

(١٦) المرجع السابق ، ص ٧.

(١٧) مجاهد ، أرگان سازمان مجاهدين خلق إيران ، سال أول ، شمارهء ١٣ ، آذر ١٣٥٨هـ.ش .

(١٨) مجاهد ، سال أول ، فوق العاده شمارهء ٥ ، ٢١ بهمن ١٣٥٨هـ . ش ، ص ٢ .

(١٩) نفسه .

(٢٠) نفسه.

(٢١) نفسه .

(٢٢) المرجع السابق .

(٢٣) مجاهد ، سال أول ، شمارهء ٢٢ ، ١٦ بهمن ١٣٥٨هـ . ش ، ص ٦ .

(٢٤) مجاهد ، سال أول ، فوق العاده شمارهء ٥ ، ٢١ بهمن ١٣٥٨هـ . ش ، ص ٣ .

(٢٥) المرجع السابق ، ص ٥ .

(٢٦) مجاهد ، سال أول ، شمارهء ٢٢ ، ١٦ بهمن ١٣٥٨هـ . ش ، ص ٨ .

(٢٧) مجاهد ، سال أول، فوق العادة شمارة ٥ ، ٢١ بهمن ١٣٥٨هـ . ش ، ص ١ .

(٢٨) كار ، سال أول ، شمارهء ١٧ ، ص ١ ، ص ٧ .

(٢٩) يقصد زعماء المنظمة الماركسيين .

(٣٠) مجاهد ، سال أول ، فوق العادة شمارة ٥ ، ٢١ بهمن ١٣٥٨هـ . ش ، ص ١ .

(٣١) مجاهد ، سال أول ، شمارة ١٨ ، دى ١٣٥٨هـ . ش ، ص ١١ .

(٣٢) كار ، ويژه سياهكل وقيام پرشكوه خلق ، ١٩ بهمن ١٣٥٨هـ . ش ، ص ٧ .

(٣٣) إعلامية ها وبيانيه هاى سازمان چريك هاى فدايى خلق درسال ١٣٥٧هـ . ش ، انتشارات سازمان چريك هاى فدايى خلق .

(٣٤) انظر الفصل الأول ، ص ٥٦ : ص ٥٨ .

(٣٥) النموذج البارز لمثل هذه العناصر هو المرحوم محمد رضا سعيدى إمام مسجد غياثى بطهران ، حيث تم القبض عليه عام ١٣٤٩هـ . ش (١٩٧٠م) بسبب تأييده للإمام والهجوم على النظام ، ونال الشهادة فى السجن .

(٣٦) لمزيد من المعلومات حول كيفية ظهور الاتحاد ، انظر : حديث مهدى خانبابا طهرانى، حميد شوكت تحت عنوان «روايت أزسرگذشت كنفدارسيون»، «مطالعات سياسى»، كتاب أول، پاييز ١٣٧٠هـ . ش مؤسسة مطالعات وپژوهشهاى سياسى، ص ٩٣، ص ١٢٣ .

(٣٧) تم اختيار هذا اليوم لتخليد يوم ١٦ آذر من عام ١٣٣٢هـ . ش (١٩٥٣م) ، وفيه قدم ريتشارد نيكسون نائب الرئيس الأمريكى للقاء الشاه ، وخلال الاعتراضات التى تمت فى جامعة طهران بسبب قدومه إلى إيران ، وبسبب دور أمريكا فى انقلاب ٢٨ مرداد من نفس العام ، تم قتل ثلاثة طلاب من الكلية الفنية بيد القوات العسكرية فى ممر الكلية . وهؤلاء الطلاب هم : مصطفى بزرگ نيا ، وآذرشريعتى رضوى وناصر قندچى .

(٣٨) يعد پرويز نيكخواه أحد زعماء الاتحاد النشطين فى فترة دراسته بجامعة مانشستر بإنجلترا (٣٨ - ١٣٤٣هـ . ش ، ٥٩ - ١٩٦٤م) وكان ماركسيا مدافعًا بشدة عن خط ماو . وبعد عودته إلى إيران ، داوم نشاطه السياسى بشكل سرى . وفى أعقاب حادث الاغتيال الذى تم فى قصر مرمر فى شهر فروردين من عام ١٣٤٤هـ . ش (١٩٦٥م) - حيث حاول أحد أتباع نيكخواه ويدعى رضا شمسى آبادى إطلاق النار على أحد جنود حرس الشاه على مقربة من الشاه - تم القبض على نيكخواه وجميع أعضاء جماعته، وأدين بالسجن لمدة عشرة أعوام ، وتم نقله عام ١٣٤٦هـ . ش (١٩٦٧م) إلى سجن بروجرد ، إلا أنه أبدى ندمًا ، وتم إطلاق سراحه فى النهاية عام ١٣٥١هـ . ش (١٩٧٢م) ، وعمل بعد ذلك كمحلل سياسى بالإذاعة والتليفزيون، وفى الشهور المواكبة للثورة (١٣٥٦هـ. ش - ١٩٧٧م) نشر مقالات ضد معارضى النظام فى صحيفة رستاخيز .

كما أبدى كذلك كورش لاشايى - أحد زعماء الاتحاد - ندمه على نشاطه السابق بعد عودته إلى إيران عام ١٣٥٣هـ . ش (١٩٧٤م) وتولى رئاسة «فريق خادمى الإنسان» . ولم يكن كل من أمير طاهرى ود. منوچهر گنجى فى مكانة نيكخواه أو لاشايى داخل تشكيلات الاتحاد ، إلا أنهما التحقا أيضًا بالعمل فى نظام الشاه بعد عودتهما إلى إيران ، وتولى الأول رئاسة تحرير صحيفة كيهان ، أما الثانى - الذى كان أحد أعضاء حزب رستاخيز- فقد تقلد منصب وزير التربية والتعليم فى حكومات هويدا (فى العامين الآخرين لها) ، وجمشيد آموزگار وشريف إمامى . وكلاهما الآن من مؤيدى الحكم .

(٣٩) انظر الفصل الأول ، ص ٣٦ : ص ٦٦ .

(٤٠) Abrahamian ,op . cit,p.463.

ثالثاً

هوامش المترجم

هوامش المترجم

[١] كان رأى السفير الأمريكى سوليڤان صائبًا إلى حد بعيد ، فقد ورد فى أحد تقارير اللجنة الدائمة للمخابرات فى الكونجرس الأمريكى مايفيد بعدم وصول أى تقرير معتمد من قبل C.I.A فيما يتعلق بنشاط المعارضين الدينيين فى إيران خلال عامى ٧٥ - ١٩٧٦م ، وأن تقارير مسئولى السفارة الأمريكية فى طهران فيما يختص باتصالهم بالمعارضة ضئيلة للغاية ، ومرد ذلك هو أمران ، أولهما : اعتماد الولايات المتحدة إلى حد كبير على أعضاء جهاز الساواك فيما يتعلق بالمعلومات الخاصة عن إيران . والآخر : وجهة نظر الرئيس الأمريكى كارتر فى عدم اتصال الحكومة الأمريكية بالمعارضة فى إيران ؛ لأن ذلك مما يدعمها ويساعد على استمرارها ويؤدى إلى ضربة قاصمة للشاه ، لذا كانت المعلومات حول أزمة إيران غير دقيقة ومتناقضة . ففى الخامس والعشرين من يوليه عام ١٩٧٦م ، أرسل السفير الأمريكى فى طهران تقريراً إلى واشنطن يحذر فيه من مغبة نشاط طبقة المثقفين ورجال الدين المعارضين للشاه ، وفى تقييم ورد عن جهاز مخابرات وزارة الدفاع الأمريكية فى الثامن والعشرين من سبتمبر عام ١٩٧٨م - والأزمة على أشدها - تم التنبؤ ببقاء الشاه على أريكة الحكم لمدة عشرة أعوام تالية . ودفع هذا التناقض حول تقييم أزمة إيران الرئيس الأمريكى إلى تشكيل لجنة خاصة للبحث فى أسباب فشل الأجهزة المخابراتية الأمريكية فى تقييم أوضاع إيران .

[غلام رضا نجاتى: تاريخ بيست وپنج سالة إيران، ج٢ ، ص٤١٠ ، ص٤١١].

[٢] إشارة إلى بعض الأحداث التى تمت بعد نجاح ثورة الخمينى وإعلان الجمهورية الإسلامية ، حيث تم الكشف عن مؤامرة دبرت لها أمريكا بمشاركة كل من

صادق قطب زاده - الذى تولى وزارة الخارجية بعد عزل بنى صدر وآية الله شريعتمدارى الموالى للنظام السابق والذى كان يتظاهر بتضامنه مع الشعب إلا أنه كان على اتصال سرى ببعض رجال السافاك ، وبعد الثورة قام بتأسيس حزب المسلمين الجمهورى وأبدى معارضته لدستور الجمهورية الإسلامية ، خاصة فيما يتصل بمبدأ ولاية الفقيه ، وقد سعى عملاء أمريكا للاتصال بكل منهما للإطاحة بالخمينى على أن يتولى قطب زاده مقاليد الحكم، ويصبح شريعتمدارى مرجع التقليد وزعيم الدولة الدينى ، لكن سرعان ماتم الكشف عن أعضاء هذه الشبكة وأحبطت محاولة الانقلاب . أما حادث طبس ، فكان نتاج احتلال أربعمائة طالب إيرانى لمبنى السفارة الأمريكية بطهران فى ٤ نوفمبر من عام ١٩٧٩م احتجاجًا على مساندة أمريكا للشاه ، ولإسماع أصواتهم إلى شعوب العالم ، وبعدما يئست الحكومة الأمريكية من حل مشكلة الرهائن الأمريكيين بالطرق السلمية أقدمت على اعتداء عسكرى على صحراء طبس فى غضون عام ١٩٨٠م للإطاحة بالنظام الإسلامى وإنقاذ الرهائن المحتجزين داخل السفارة ، إلا أنها منيت بالفشل .

أما عن مسألة الحرب العراقية الإيرانية فقد تبلورت فكرتها بعد فشل أمريكا فى الإطاحة بالجمهورية الإسلامية عبر الطرق السالفة الذكر وغيرها من قبيل الحصار الاقتصادى والسياسى ، وكان الحل من وجهة نظرها يكمن فى القيام بإجراء عسكرى ضد إيران ، لكن نظرًا لتعاطف العديد من الدول الغربية مع الإمام وثورة شعب إيران، وحرصًا على صورة أمريكا أمام الرأى العام العالمى، وقع الاختيار على العراق ليبدأ بالهجوم على الجمهورية الإسلامية نظرًا لقوته العسكرية وثرواته النفطية حيث لن تتحمل أمريكا نفقات باهظة بشكل مباشر ولن يقع عليها عبء إرسال جنود أمريكيين إلى المنطقة . كما أن هذا الاعتداء يعود بالنفع على أمريكا لأسباب عديدة ، منها :

١ - محاصرة ثورة إيران الإسلامية والحيلولة دون نفاذها إلى المناطق المحيطة.

٢ - إحكام التواجد الصهيونى والاعتراف بدولة إسرائيل من قبل الدول العربية.

٣ – بيع الأسلحة بأسعار باهظة إلى الدول العربية .

٤ – ميل بعض الدول العربية إلى أمريكا حرصاً على مصالحها الإستراتيجية (كالسعودية ، والكويت ، والإمارات) .

٥ – إيجاد نوع من التضامن والاتحاد القومى بين العرب ضد إيران وحركة الشيعة فى المنطقة ، مما يسفر عن تحويل مسار هذا الاتحاد عن جبهتى إسرائيل والغرب .

٦ – تحويل أنظار العالم عن مسألتى لبنان وفلسطين .

وإذا كانت هذه هى دوافع الولايات المتحدة الأمريكية لنشوب الحرب بين العراق وإيران، فثمة دافع آخر حث الجانب العراقى على اتخاذ هذه الخطوة ، ألا وهو الخشية من ثورة الشيعة فى العراق وتصدير الثورة إليها .

[منوچهر محمدى: تحليلى برانقلاب إسلامى، ص ١٨٢ ، ص ١٩٨: ص ٢٠٠ ، حسين فردوست : ظهور وسقوط سلطنت پهلوى ، ج١ ، ص ٥٥٩] .

[٣] ره : اختصار رحمه الله .

[٤] راج فى تلك الآونة استخدام مصطلحين ، هما :

" الرجعية السوداء " : وكان يطلق على رجال الدين المعارضين لنظام الشاه ،

"والرجعية الحمراء" : وكان يطلق على الاتحاد السوڤيتى السابق .

[٥] من الأسباب الرئيسية التى جلبت على الشاه المتاعب قيامه فى ٣١ يوليو من عام ١٩٧٣م بإصدار قانون ألغى به اتفاق الكونسورتيوم – اتحاد شركات النفط – كما وضع قانوناً لبيع وشراء النفط والغاز الطبيعى بما يضمن لإيران سيادتها على مصادرها. وحاول تكريس استقلاله فاتبع إستراتيجية تقوم على التعاون الاقتصادى مع فرنسا وألمانيا الغربية ، ثم قام بتزويد الاتحاد السوڤيتى السابق بالغاز الطبيعى وتوسيع آفاق التعاون الاقتصادى بين إيران والاتحاد السوڤيتى، وعليه بدأت الحرب من قبل المخابرات البريطانية ضد الشاه ، ولعبت الإذاعة البريطانية الناطقة باللغة الفارسية دوراً فعالاً حيث كانت المنسق للثورة وأوصلت صوت الخمينى وأتباعه إلى أبعد نقطة فى إيران ، كما بدأت إذاعة الـ B.B.C فى

إذاعة إشاعات الحرب النفسية ، مثل التقارير التى ادعت أن الشاه قد هرب خارج البلاد ، أو أنه تخلى عن العرش لابنه ، أو أنه قد جن ، أو أنه قد تعرض لمحاولة اغتيال ، مما دعا وزير الإعلام الإيرانى (طهرانى) إلى اتهام الإذاعة البريطانية فى ديسمبر من عام ١٩٧٨م بتحريض عمال النفط على الإضراب وقام بطرد مراسل كل من الـ B.B.C ووكالة اليونايتدبرس الدولية، وأعلنت حكومة إيران أن إذاعة الـ B.B.C تعد العدو رقم ١ لإيران .

[جان . دى . استمپل : درون انقلاب إسلامى ، ص ١٠٤ ، ص ١٤٩] .

[٦] فى الحادى والعشرين من أغسطس عام ١٩٧٧م أصدرت الحكومة الإيرانية أوامرها بهدم عدد من المنازل التى شيدت خارج حدود طهران دون ترخيص ، وحينما بدأت بلدوزرات الدولة بالقيام بعملية الهدم فى اليوم الأول تم قتل خمسة أفراد من أصحاب هذه المنازل ممن تصدوا لعمليات الهدم ، وفى اليوم التالى وقع عراك بين قوات الشرطة وأكثر من ألف شخص من قاطنى المنازل التى دمرت ، وأسفر العراك عن مقتل اثنى عشر شخصاً وجرح مايربو عن المائة . وفى اليوم الثالث هاجم الآلاف من الأهالى عدة مقار للشرطة مما أدى إلى تدخل الجيش لإخماد الفتنة .

[جان . دى . استمپل : درون انقلاب إسلامى ، ص ١٢٥] .

[٧] منذ الثانى من ديسمبر من عام ١٩٧٨م ، وبعد تصعيد نشاط المعارضة ضد حكومة المارشال أزهرى ، تكررت الشائعات ثانية بتنازل الشاه عن العرش لابنه على أن يتكون مجلس للوصاية يشرف على إعداد ولى العهد لتسلم الحكومة عند بلوغه السن القانونية . وفى السابع من ديسمبر بعث السفير الأمريكى بطهران إلى حكومته فى واشنطن بتقرير مفاده ضرورة تنحى الشاه والرحيل عن إيران فى أقرب فرصة . أثناء ذلك كلف الشاه شاهپور بختيار بتشكيل وزارة ائتلافية جديدة فى الحادى والثلاثين من ديسمبر ، وبعد ثمانية أيام أعلن وزير الخارجية الأمريكى فى واشنطن أن الشاه سيغادر إيران فى إجازة قصيرة . وماتم فى غضون الثمانية أيام تلك ، وتحديداً فى الرابع من يناير عام ١٩٧٩م هو اجتماع

كل من الرئيس الأمريكى چيمى كارتر ، والرئيس الفرنسى ديستان ، ورئيس الوزراء البريطانى جيم كالاهان ورئيس الوزراء الألمانى هيلموت شميث بشكل غير رسمى فى جزيرة جواديلوب - الواقعة على البحر الكاريبى ، وكانت تحت السيطرة الفرنسية آنذاك - وتناولت المباحثات : أزمة إيران ، حرب كامبوديا ، أحداث العنف الدائر فى جنوب أفريقيا ، نفوذ السوڤيت المتنامى فى منطقة الخليج ، ثورة أفغانستان والتوتر فى تركيا . وأنهى المؤتمر أعماله فى السابع من يناير ، وبثت وكالات الإعلام الغربية ماتم الاتفاق عليه فى هذا الاجتماع فيما يتعلق بإيران ومصير الشاه ، حيث أعلنت وكالة يونايتد برس العالمية فى ٨ يناير عام ١٩٧٩م :

" إن شاه إيران يجب أن يعقد العزم على أمرين ، إما البقاء فى إيران ، أو - إن أمكن - إنهاء حكمه والرحيل عنها ، وأن أمريكا لن تقوم بمساندته بعد ذلك بسبب المعارضات المتنامية المتعددة الأطراف من قبل الشعب الإيرانى ضده " .

وتشير المستندات والمذكرات السياسية للمشتركين فى هذا الاجتماع أن هذه القرارات قد اتخذت من قبل فى جلسات مجلس الأمن القومى بالبيت الأبيض فى ٢٨ ديسمبر عام ١٩٧٨م ، ٣ يناير عام ١٩٧٩م ، وتم إبلاغها للشاه بوساطة السفير الأمريكى فى طهران ، وعليه تم عرضها أثناء المؤتمر والموافقة عليها . [انظر ظهور وسقوط سلطنت پهلوى لحسين فردوست ، ج ١، ص ٥٩٨ ، ص٥٩٩ ، غلام رضا نجاتى: تاريخ سياسى بيست وپنج سالة إيران ، جلددوم، ص ٢١٣] .

[٨] فى شهر أبريل من عام ١٩٧٨م تم الإطاحة بحكومة محمد داود - رئيس جمهورية أفغانستان - بواسطة محمد نور تراقى سكرتير عام حزب الشعب الديمقراطى الموالى للشيوعية ، وهذا الحدث أفضى إلى زيادة قلق الشاه على مكانته ونظامه ، فأبرق إلى الرئيس الأمريكى چيمى كارتر يطالبه بضرورة تزويد إيران باحتياجاتها من المعدات العسكرية لتأمين جبهتها الدفاعية .

[غلام رضا نجاتى : تاريخ بيست وپنج سالة إيران ، ج٢ ، ص ٧٦] .

[٩] خلال احتدام الأزمة الإيرانية وتدهور الأوضاع السياسية الناجمة عن الاختلاف الشديد فى وجهات النظر بين مستوى وزارة الخارجية الأمريكية ومجلس الأمن القومى ، أرسل برجنيف - رئيس الاتحاد السوفيتى السابق - رسالة إلى الرئيس الأمريكى جيمى كارتر فى الثامن عشر من نوفمبر عام ١٩٧٨م يتهم فيها الحكومة الأمريكية بإعداد خطة التدخل العسكرى فى إيران ، وضمن إظهار قلقه تجاه الأوضاع الأمنية على الحدود السوفيتية الإيرانية ، حذر واشنطن من التدخل فى الشئون السياسية لإيران .

[المرجع السابق ، ص ١٧٢] .

[١٠] تعد السياسة المناهضة للإسلام التى انتهجها محمد رضا شاه امتداداً طبيعيا لسياسة أبيه فى هذا المضمار ، حيث انتخب الأخير له لقب "پهلوى" فور اعتلائه عرش إيران ، وكان هذا بمثابة الخطوة الأولى له فى طريق العودة إلى التراث الفارسى القديم وترجيحه على كل ماهو إسلامى . ومما يدعم صحة هذه الفكرة قيامه ببعض الإجراءات ، من قبيل: حثه للنساء على خلع النقاب والعباءة واقتدائهن بنمط الزى الغربى ، وإصداره الأوامر بعدم سماح بإقامة مراسم العزاء أو قراءة الروضة .

واقتداءً بالأب صار الابن ، وقام بإجراءات أفضت إلى جرح المشاعر الدينية للشعب الإيرانى ، منها على سبيل المثال لا الحصر : إقامته مدينة الخيام المكيفة الهواء على مساحة ٤٠٠ فدانًا في مدينة پرسيپولس (تخت جمشيد) لاستقبال نحو عشرين ألف شخص كانت الطائرات تحضر لهم كافة الأطعمة والمشروبات من مطاعم مكسيم الشهيرة فى باريس للاحتفال بذكرى مرور ٢٥٠٠ سنة على تأسيس الإمبراطورية الشاهنشاهية ، وكان ذلك فى غضون عام ١٩٧١م . واستمر الحفل قرابة الأسبوع بتكلفة قدرت آنذاك بنحو ٢٠٠ مليون دولار فى الوقت الذى كان يعيش فيه آلاف الفقراء فى القرى الإيرانية محرومين من أبسط حقوقهم الاجتماعية .

ومضى الشاه قدماً نحو كل مايتنافى ومبادئ الشريعة الإسلامية ، فقام بافتتاح إحدى دور القمار فى جزيرة "كيش" الواقعة على خليج فارس ، كما قام بدعوة

عدد من الفنانين والفنانات من شتى بقاع العالم لإقامة العروض الفنية والموسيقية فى مدينة شيراز ، مما كان له شديد الأثر فى نفوس أهالى تلك المنطقة الذين يتسمون بشدة التدين. وفى عام ١٩٧٥م جعل الشاه بداية الحكم الإمبراطورى الشاهنشاهى فى إيران منذ ٢٥٠٠ سنة كبداية للتقويم الإيرانى الحديث بدلاً من التقويم الهجرى الإسلامى الذى كان معمولاً به فى إيران حتى هذا التاريخ ، وهذا ما أثار ضده الجماعات الدينية أكثر من ذى قبل .

وقد بلغت عملية محو الشخصية الإيرانية أشدها حينما حول الشاه الإعلام الإيرانى إلى مغير على التراث الثقافى المحلى ، حيث اكتظت الأسواق بأسماء المحال الأوروبية ، ودور السينما والنشر بأفلام وكتب الجنس دون أية رقابة ، والمجلات بقصص الحب والمطاردات البوليسية وآخر ماتوصلت إليه الموضة الحديثة ، وغالباً ماكانت صور الغلاف لها لنساء شبه عاريات ، وبلغ الأمر مداه حين خفضت المواد الدينية المقررة فى مراحل التعليم المختلفة ، وقل عدد المساجد إما لإغلاقها أو لتحويلها إلى متاحف ، كما تعمد النظام تشويه صورة رجال الدين ورميهم دوماً بالجهل والرجعية والنفاق والازدواجية .

[انظر ، تحليلى برانقلاب إسلامى ، د. منوچهر محمدى ، ص ٦٩ . تاريخ بيست وپنج سالة إيران ، ج١ ، ص ٣٤٨ : ص ٣٥١ . خاطرات منصور رفيع زاده ، ص ٣١٥ ، ص ٣١٦ ، ص ٣١٩ . الثورة الإيرانية (الصراع ، الملحمة ، النصر) ، إبراهيم الدسوقى شتا ، ص ٧٦ ، ص ٧٧] .

[١١] هو آية الله العظمى الحاج سيد حسين بروجردى ، ولد عام ١٢٩٢ هـ. ق - ١٨٧٤م فى محلة بروجرد ، وتوجه إلى أصفهان فى سن الثامنة عشرة لاستكمال دراسته ، وبعد عشرة أعوام توجه إلى النجف الأشرف ، ودرس على يد آية الله خراسانى ، وبعد عودته إلى بروجرد هاجر إلى قم ونال مقام المرجعية ، وحظى بقبول الجميع فى الداخل والخارج ، وكان مقلدوه يمدونه بالأموال لإنفاقها فى الأمور الشرعية كبناء المساجد والتوسع فى الحوزات العلمية . وكان بروجردى ينتمى إلى الجناح التقليدى المحافظ الذى يؤيد الشاه . والدستور إلا أنه يعارض تسلط الشاه واستبداده ، ويعتبر برامجه الإصلاحية

فى المجالين الزراعى والاجتماعى تتنافى ومبادئ الشريعة الإسلامية . هذا وقد وافته المنية فى عام ١٩٦١م .

[سيد جلال مدنى : تاريخ سياسى معاصر إيران، ج١ ، ص ٣٦٢: ص ٣٦٤ . غلام رضا نجاتى : تاريخ بيست وپنج سالة إيران ، ج١ ، ص ٢١٧] .

[١٢] رغب الشاه فى استمالة جناح العمال والفلاحين لاحتواء موقف المعارضة المتنامى ضده، فقدم بنود ثورته البيضاء إلى استفتاء عام فى السادس والعشرين من يناير عام ١٩٦٣م (٦ بهمن ١٣٤١ش) بيد أن الإصلاح الزراعى - على عكس ماكان يدعيه الشاه - لم يساهم فى زيادة الدخل القومى الإيرانى بأكثر من ١٥٪ ، وذلك بعد أن طغى تأثير الثروة النفطية الباهظة والتى ضاع الجزء الأعظم منها فى خدمة طموح الشاه وتلبية رغباته الجامحة فى تسليح إيران وإمدادها بأحدث ماتوصلت إليه تكنولوچيا الصناعات الحربية أنذاك ؛ نتيجة لذلك حكم على الثورة الزراعية بالفشل ، فحينما حاول القضاء على الإقطاع وإسقاطه ، حرم فى الوقت نفسه المزارعين من المساندة المالية التى كانوا يتلقونها من الإقطاعيين من جهة ، ومن شبكة التسويق - التى كان يسيطر عليها الإقطاعيون - من جهة أخرى ، وفشل فى تلبية احتياجاتهم من الأسمدة أو خلق نظام بديل للتسويق ، وهذا ما أدى إلى نزوح سكان القرى إلى المدن حيث كان التصنيع ومشاريع البناء فى القطاعين الخاص والعام يوفران فرص عمل لبعضهم ، بينما ظل الباقون يبحثون عن عمل دون جدوى ، وكانت النتيجة تفاقم المشاكل من جهتين ، فقاطنو المدن جوبهوا بزيادة كبيرة فى التعداد ، حيث أضيف إلى مجتمع طهران خلال خمس سنوات ٢,٧٠٠,٠٠٠ نسمة ، وإلى مجتمع مشهد ٥٠٠,٠٠٠ نسمة ، وإلى مجتمع أصفهان ٥٠٠,٠٠٠ ، وإلى مجتمع شيراز ٣٠٠,٠٠٠ نسمة ، هذا من جهة ومن جهة أخرى ، ظل أغلب المهاجرين فى المدن والعاصمة بلا مأوى أو عمل أو خدمات ، وعليه تكاثرت المناطق المتخلفة وضاع تماسك المجتمعات الريفية وأصبحوا يستجيبون لدعوات قادتهم الدينيين المعادين للشاه ، وتحولوا فى النهاية إلى احتياطى للثورة القادمة .

[أحمد مهابة : إيران بين التاج والعمامة ، ص ١٠٩ ، ص ١١٠ . حسين فردوست : ظهور وسقوط سلطنت پهلوى ، ج١ ، ص ٢٧٤] .

[١٣] إن السوق فى المجتمع الإيرانى لايقتصر على كونه أحد المؤسسات التجارية الصغيرة كغيره فى المجتمعات الأخرى ، بل يتسم بسمة أخرى يغلب عليها طابع الترابط وإحكام العلاقات الاجتماعية بين أفراده . وتمتع أهل السوق بنفوذ واسع بين طبقة التجار فى إيران ، لكن أخذ نجمهم فى الأفول فى أواسط الستينيات مع طرح الشاه لبرنامجه الصناعى وماتبع ذلك من قيام مؤسسات تجارية جديدة ، وازدياد نفوذ أصحاب البنوك والمصانع والمصدرين والمستوردين . وكان مجتمع السوق من أوائل القوى التى لبت نداء الحركة الوطنية ومناهضة النظام باتخاذه بعض الإجراءات التى ساهمت فى تدعيم جبهة المعارضة وإضعاف النظام الحاكم ، من قبيل تشكيل لجنة السوق – كمتية بازار – بوساطة الحاج حسن شمشيرى ، وحسن مير محمد صادق والحاج محمد تقى الأنوارى، وكانت تتولى مهمة إغلاق الأسواق عند اندلاع المظاهرات ، وتمويل المعتصمين بالأموال اللازمة ، والتعاون مع رجال الدين ومدهم بالأموال اللازمة لدعم المتضررين من الإضرابات العامة فى المصالح الحكومية والمصانع الإنتاجية . ومع التطور الاقتصادى الذى شهدته إيران فى عهد حكومة عباس هويدا (٧٤-١٩٧٧م) وزيادة الدخل السنوى للنفط وماتبع ذلك من تحسين واجهة السوق الإيرانى وملأ المتاجر العامة بالسلع الكمالية والاستهلاكية ، واتخام السوق الإيرانية بالسيولة النقدية وبالاستثمارات الضخمة ، نجد أن معدل التضخم قد بلغ ٤٠٪ وهى أعلى نسبة تضخم على مستوى العالم ، مما أدى إلى ارتفاع الأسعار بصورة خيالية ولتخفيف حدة التضخم عزمت الدولة على محاربة الغلاء ، وأعلنت الحرب ضد التجار المغالين ، وقامت بتعيين مراقبين من أعضاء حزب رستاخيز – النهضة – للإشراف على الأسعار ومتابعتها ، وتم القبض على مايقرب من ثمانية آلاف تاجر بتهمة الغلاء . وتزامنت تلك الأحداث مع قيام محافظ خراسان بهدم سوق مشهد لإقامة سوق جديدة على النمط الغربى ، وتأجير المحال بأثمان باهظة . وكانت هذه الإجراءات سبباً فى ازدياد الاستياء من قبل مجتمع السوق تجاه النظام الحاكم ، فزاد تعاونهم مع طبقة رجال الدين ، وقاموا بتأمين مايقرب من ٨٠٪ من نفقات الحوزات العلمية ،

وشاركوا فى جميع المظاهرات التى اندلعت ضد النظام بداية من عام ١٩٦٣م وحتى مسيرات تاسوعاء وعاشوراء عام ١٩٧٨م .

[جان – دى – استمپل : درون انقلاب إسلامى ، ص ٢٦، ص ٧١ ، ص٧٢ .
غلام رضا نجانى : تاريخ بيست وپنج سالة إيران ، ج١ ، ص ١٠٨] .

[١٤] ترجع زعامة رجال الدين فى إيران لحركات النضال السياسى إلى أبعد من ذلك، وتحديداً إلى عام ١٨٧٢م حينما منح ناصر الدين شاه امتياز الغابات ومد الطرق الحديدية إلى إحدى الشركات البريطانية "رويتر"، فأبرق إليه رجال الدين يحذرونه من مغبة تدخل الأجانب فى شئون الدولة ، وأن تواجدهم فى إيران سيفضى إلى ضياع مكانة العلماء والقضاء على استقلال الدولة . وفى ٨ مارس عام ١٨٩٠م منح ناصر الدين شاه امتيازاً آخر لاحتكار تجارة الدخان نظير مبالغ زهيدة لشركة "تالبوت" البريطانية ، فأصدر حسن الشيرازى – أحد كبار المجتهدين الشيعة – فتوى بتحريم الدخان ، الأمر الذى ترتب عليه ثورة الأهالى فى شيراز وأصفهان وطهران وتبريز ، وفى النهاية تم إلغاء الامتياز . بعد ذلك بما يقرب من خمسة عشر عاماً طالب علماء الدين مظفر الدين شاه بنظام يقوم على أساس الشورى الإسلامية وسيادة الدستور ، وقاموا بالاعتصام فى مسجد "شاه عبدالعظيم" بالرى بزعامة اثنين من كبار رجال الدين، هما : سيد محمد طبا طبائى وسيد عبدالله بهبهانى ، وهو ماعرف باسم (الهجرة الصغرى) ، وتكرر ذلك فى غضون عام ١٩٠٦م بما عرف باسم (الهجرة الكبرى) ، وأصروا على تأسيس مجلس نيابى ينضوى تحت لوائه نواب الحكومة والشعب والعلماء ، الأمر الذى رضخ له الشاه وانتهى بصدور الدستور فى نفس العام .

وخلال التغييرات الناجمة عن الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤م وقيام الثورة الشيوعية فى روسيا عام ١٩١٧م ، والنفوذ المتنامى للدول الأجنبية فى إيران ، وضعف الحكومة المركزية ، عانت حكومة إيران من مشاكل سياسية واقتصادية مهدت الطريق لإبرام اتفاقية عام ١٩١٩م ، منحت إيران بمقتضاها الحكومة البريطانية امتياز طرق شوسة ومد الطرق الحديدية ، وفى المقابل حصلت

الحكومة الإيرانية على قرض يتم بمقتضاه وضع الأمور المالية والعسكرية فى الدولة تحت إشراف المستشارين الإنجليز ، وهنا قام الزعيم الدينى الشيخ محمد خيابانى لحث الأهالى على شجب المعاهدة ، وتزعم حركة المعارضة ضد الاتفاقية حتى تم قتله عام ١٩٢٠م .

كذلك فإن جميع المناورات السياسية التى انتهت باستيلاء رضاخان على السلطة فى إيران ،كانت بتوجيه من رجال الدين الذين كان لهم الفضل فى تأييد استمرار النظام الملكى فى إيران رافضين الاقتداء بتجربة كمال أتاتورك فى تركيا لإقامة جمهورية علمانية .

ولاننسى كذلك دور سيد حسن مدرس فى الدورة الرابعة للمجلس وتصديه للنفوذ الأجنبى ، وسعيه لاستقلال الدولة ، ودوره فى إلغاء اتفاقية ١٩١٩م . كذلك قيام بعض الحركات الثورية مثل ثورة " كوتشك خان" فى جيلان ، وثورة «الدشتستانيين والتنكستانيين فى الجنوب ، وثورة " محمد تقى پسيان" فى خراسان ، ونضال آية الله كاشانى ضد النفوذ الأجنبى ، وسعيه لإثبات أحقية إيران فى نفطها ، ورفض الاتفاقيات المفروضة عليها .

وكان تأييده لجبهة الحركة الوطنية بزعامة الدكتور مصدق مما أدى إلى انضمام حشد كبير من العناصر الدينية إلى هذه الحركة . ولايفوتنا كذلك الإشارة إلى حركة "فدائيان إسلام " بزعامة سيد مجتبى نواب صفوى الذى سعى لإصلاح المجتمع عن طريق تنفيذ الأحكام الإسلامية منتخبًا فى ذلك استخدام الحل العسكرى ، وتعاونه مع آية الله كاشانى ود.مصدق أثناء تأجج الحركة الوطنية لتأمين النفط ، ثم جاء بعد ذلك دور "حركة تحرير إيران " التى تألفت من جماعة من الطلاب الإسلاميين ، ودخلت ساحة النضال السياسى ضد حكومة إقبال ، وأعلنت عن وجودها بشكل رسمى فى عام ١٩٦١م ، ويرجع إليها الفضل فى تأسيس " الجمعية الإيرانية للدفاع عن حقوق الإنسان" .

[أحمد كسروى تبريزى : تاريخ مشروطة إيران، چاپ دهم ، تهران ١٣٥٣ ش. ص١٧ . ناظم الإسلام كرمانى : تاريخ بيدارى إيرانيان ، تهران ١٣٦٣ش ،

ص ٢٨٦ , سيد جلال مدنى : تاريخ سياسى معاصر إيران ، ج١ ، ص ٨٣ ومابعدها] .

[١٥] ولد الخمينى فى العشرين من جمادى الآخرة عام ١٣٢٠هـ. ق - ٢٤ سبتمبر عام ١٩٠٢م فى محافظة خمين من أسرة اتسمت بالعلم والتقوى، درس فى فترة طفولته وشبابه العلوم المتداولة آنذاك ، كالأدب العربى والمنطق والفقه والأصول على يد ميرزا رضا نجفى الخمينى ، والشيخ على محمد البروجردى ، والشيخ محمد كلپايكانى ، وآية الله سيد مرتضى وغيرهم ، ثم توجه إلى الحوزة العلمية بآراك عام ١٩١٩م ، وبعد ثلاثة أعوام اتجه إلى الحوزة العلمية بقم ، وتتلمذ على يد أساتذة عظام ، من أمثال : آية الله سيد محمد تقى خوانسارى والحاج الشيخ عبد الكريم حائرى اليزدى ودرس العلوم الدينية والعرفانية والعروض والقوافى والفلسفة الإسلامية والغربية ، وصار من المجتهدين الذين تمتعوا بالرأى السديد فى الفقه والأصول والعرفان ، كما اشتغل بالتدريس فى مسجد فيضية ، والمسجد الأعظم ، ومسجد محمديه ، ومدرسة الحاج ملا صادق ، ومسجد سلماس ، وكذلك فى الحوزة العلمية بالنجف وهناك تحدث للمرة الأولى عن الأسس النظرية للحكومة الإسلامية فى حلقات دروسه حول ولاية الفقيه .

وكان الخمينى يستاء بشدة لما آل إليه الحال فى إيران فى ظل نظام الشاه ، وبدأ نضاله ضد النظام الحاكم بشكل علنى مع الاستفتاء الذى قدمه الشاه حول برنامج الانتخابات الخاص بالجمعيات المحلية عام ١٩٦١م .

[حميد أنصارى : حديث بيدارى ، ص ١٤ ومابعدها] .

[١٦] يمنح هذا اللقب لنائب الإمام ، ونيابة الإمام هنا تعنى الاستمرار فى طريق الإمام والحفاظ على تراث الإمامة والنبوة . ولايستطيع العالم الشيعى أن يصل إلى مرتبة " آية الله" إلا إذا أثبت باعًا واسعًا فى الاجتهاد ، وعليه أن يطور المذهب فى كل مايمكن أن يعن للمسلم فى حياته اليومية على أن يكون فهمه متناسبًا مع الزمان والعصر واحتياجات الناس ، وعلى آية الله أن يبصر الشيعى بمسئولياته ، ومن أهمها : أن يقول للباطل "لا" حتى وإن كلفه الأمر

حياته ، وأن يعتنق العدالة كنظرة شاملة للحياة ، وأن يؤمن بالكتاب والسنة كدستور عمل ، وأن يعيش كعلى فقيرًا مجاهدًا عادلاً مقاومًا للظلم والطغيان ، وعليه قبل كل شيء أن يضرب المثل من نفسه، فإن كان جديرًا ، اكتسبت آراؤه قوة الإلزام الشرعي لأتباعه .

[إبراهيم الدسوقي شتا : الثورة الإيرانية (الجذور الأيديولوچية) ، ص ٤٤ ، ص ٤٥].

[١٧] جذبت الماركسية اهتمام القوى الثورية الراديكالية إليها بعد انتصار ثورة أكتوبر الشيوعية ١٩١٧م في روسيا ، وكان تأثيرها أقوى في إيران بسبب قرب الجوار بينها وبين روسيا السوڤيتية ، وسعت الحركة إلى تحقيق أهدافها في تغيير نظام المجتمع الإيراني وإقرار نظام اجتماعي آخر عن طريق الدعاية وإيجاد التشكيلات السرية والعلنية الموالية لها ، وكان حزب "توده" أحد تجلياتها . بيد أن هذه الحركة لم يحالفها التوفيق في إيران على الرغم من نشاطها الواسع لعاملين رئيسيين ، هما :

١ – تعارض ماهيتها الإلحادية وأساسها المادي مع طبيعة المجتمع الإيراني ومعتقداته .

٢ – مع ملاحظة العلاقات التاريخية المريرة بين إيران وروسيا ، وارتباط الماركسيين بموسكو ، عرفت هذه الحركة بانتمائها للأجانب وتنفيذها لسياسات تخدم المصالح السوڤيتية .

وعليه لم تحظ بالقبول الجماهيري المنشود ، ولم تنجح في إيجاد قاعدة شعبية عريضة لها داخل إيران .

[منوچهر محمدي : تحليلي بر انقلاب إسلامي ، ص ١٢٣] .

[١٨] تأسست منظمة "فدائيان إسلام" – أي فدائيو الإسلام – عام ١٩٤٥م على يد سيد مجتبى نواب صفوى الذي سعى لإصلاح المجتمع الإيراني عن طريق تطبيق الأحكام الإسلامية ، وكان يسوؤه منافسة القوى الأجنبية في إيران ،

فاختار طريق المقاومة المسلحة لتحقيق أهدافه الإسلامية . وقد تحالف نواب صفوى مع الزعيم الدينى آية الله كاشانى وتعاون معه فى أحداث تأميم النفط ، إلا أن هذا التحالف وذلك التعاون لم يكن يعنى اتفاق الشخصيتين فى المنهج الفكرى . فكان كاشانى يسعى فى إطار النظام النيابى والدستور بينما كسر نواب صفوى هذه القوالب واختار الحل العسكرى بديلاً عن الحل القانونى . وفى غضون عام ١٩٥٠م قام نواب صفوى بطبع ونشر أهدافه السياسية وبرنامج حكومته الإسلامية تحت عنوان " راهنماى حقايق " - أى دليل الحقائق - ومع تولى حكومة مصدق اتخذت المنظمة سياسة الصبر والانتظار ، لكن سرعان ما أحبطت حكومة مصدق آمالهم، فطالبه نواب صفوى بالتنحى عن رئاسة الوزراء، مما أدى إلى القبض عليه والزج به فى السجن لمدة عشرين شهراً ، هذا وقد قام أعضاء المنظمة بتنفيذ سلسلة من الاغتيالات تجاه عدد من الشخصيات البارزة فى الدولة كان أشهرها عملية اغتيال المؤرخ الإيرانى الشهير أحمد كسروى تبريزى سنة ١٩٤٦م. أما اللجان المؤتلفة - هيئت هاى مؤتلفة - فقد تأسست عام ١٩٦٣م على يد: مهدى عراقى ، وصادق أمانى ، وحبيب الله عسكر أولادى، وأسد الله اللاجوردى وغيرهم ممن كان يجمعهم فكر سياسى واحد وتقليد كامل للزعيم الدينى آية الله الخمينى ، وكانوا على اتصال بجماعة «روحانيت مبارز" - رجال الدين المناضلون - ويؤمنون بضرورة إقامة حكومة إسلامية . هذا وقد تألفت هذه الجماعة من ست لجان : لجنتان ممن تبقوا من منظمة «فدائيان إسلام» ومؤيديهم، لجنتان من مؤيدى آية الله كاشانى، ولجنتان من المؤيدين السابقين للجبهة الوطنية ود. مصدق . وبعد نجاح الثورة الإسلامية كانت هذه اللجان أحد أجنحة الحزب الجمهورى فى إيران .

[عباس على عميد زنجانى : انقلاب إسلامى وريشة هاى آن ، ص ١٩٤ ، ص ١٩٥ . غلام رضا نجاتى : تاريخ بيست وپنج سالة إيران ، ج١ ، ص ٣٧٤، ص ٣٧٥ (حاشية)] .

[١٩] المقصود هنا حكومة قوام السلطنة التى لم تدم أكثر من أربعة أيام فبعد أن ضيق الشاه الخناق على د. مصدق ، اضطر إلى تقديم استقالته من رئاسة

الوزراء فى ١٦ يوليو ١٩٥٢م (٢٥ تير ١٣٣١ ش) وتولى قوام رئاسة الوزراء ، ومنحه الشاه سلطات واسعة لإعادة الأمن والاستقرار فى البلاد ، فاستخدم القوة العسكرية لإخماد ثورة الأهالى ، وبينما كان قوام مدعوماً بالشاه والجيش والقوى الأجنبية (أمريكا وإنجلترا) كانت الحركة التى هبت بقيادة الزعيم الدينى آية الله كاشانى الذى أعلن اتهامه لقوام بالخيانة والعمالة ، وطالب بتنحيته عن رئاسة الوزراء وإعادة د. مصدق ، أعقب إعلان كاشانى غلق الأسواق فى طهران واندلاع المظاهرات فى عبدان وأصفهان مطالبة بسقوط حكومة قوام وعودة مصدق . ومع حلول يوم ٢١ يوليو - ٣٠ تير ، عزم المتظاهرون على التوجه إلى قصر بهارستان حاملين أكفانهم مرددين هتافات " الموت لقوام" و"الحياة لمصدق" ، فصدرت الأوامر للقوات العسكرية بالتصدى للأهالى إلا أنها لم تفلح ، وأجبرت الإرادة الشعبية حكومة قوام على التنحى وعودة مصدق إلى رئاسة الوزراء .

[انظر ، تاريخ سياسى معاصر إيران ، ج١ ، لسيد جلال مدنى ، ص ٢٤٢ : ص ٢٤٦] .

[٢٠] مُهْرة : بمعنى شذرات الحجر أو المعدن أو الخشب أو الزجاج ، خرزة ، مطرقة ، نوع من الصدف يستخدم فى صقل الورق وتقسيمه، فقرة من الفقرات العظمية، قطع اللعب فى الشطرنج أو النرد أو أى نوع آخر من الألعاب ، مقامر . والمقصود هنا الشخصية السياسية التى تسعى القوى العظمى لبلوغها سدة الحكم فى دولة ما لتكون أداة لها تعينها على تحقيق مآربها فى تلك الدولة .

[٢١] إشارة إلى الضغوط التى تمت من قبل قوات الحلفاء لحث رضا شاه على الاستقالة وذلك بعد إبداء ميله المفرط إلى ألمانيا - إحدى دول المحور - حيث توسع معها فى علاقاته التجارية والصناعية ، وبالغ فى استقدام المهندسين والاستشاريين الألمان إلى إيران خلال الحرب العالمية الثانية مما أثار حفيظة إنجلترا ، فطالبت الحكومة الإيرانية بطرد ستمائة خبير ألمانى من إيران لإثبات حسن نوايا الشاه تجاه الحلفاء ، كما قدم الحلفاء مذكرة إلى الحكومة الإيرانية

يطالبون فيها بإغلاق سفارات كل من ألمانيا وإيطاليا والمجر ورومانيا، ومنحوها مهلة ثمانية وأربعين ساعة وإلا تقدموا صوب طهران لاحتلالها . وعلى الرغم من قيام الشاه بإخراج الألمان من إيران عبر تركيا خلال أربعة وعشرين ساعة من الإنذار إلا أن قوات الحلفاء تقدمت بمذكرة أخرى إلى حكومة على منصور تحيطه علمًا برغبة أمريكا فى تزويد الاتحاد السوفيتى بالسلاح مما يتطلب استخدام خطوط المواصلات والطرق الحديدية الإيرانية ، فوافق رضا شاه ، بل وأمعن فى الخنوع حينما أعلن عن استعداده لتأمين تلك الخطوط لصالح قوات التحالف ، إلا أن قوات التحالف تقدمت لمحاصرة طهران وأدرك رضا شاه مدى عزمها على عزله من منصبه ، فقدم استقالته فى السادس عشر من سبتمبر عام ١٩٤١م وتوجه إلى جزيرة موريشيس ، وبذلك مهد الطريق لابنه محمد رضا ليتولى عرش إيران ، وليدين بالولاء إلى قوات التحالف التى مكنته من العرش .

[پيتر آورى : تاريخ معاصر إيران، ترجمة محمد رفيعى مهر آبادى ، جلددوم ، ص ٢٢٠ . سيد جلال مدنى: تاريخ سياسى معاصر إيران، ج١ ، ص ١٢٦] .

[٢٢] تعد الأحداث التى أدت إلى انقلاب ١٩ أغسطس ١٩٥٣م – ٢٨ مرداد ١٣٣٢ش من الأمور التى ساعدت على تقوية شعور محمد رضا شاه بالولاء أكثر من ذى قبل تجاه كل من أمريكا وإنجلترا اللتين استشعرتا خطر د. مصدق على مصالحهما فى إيران وذلك بعد أحداث تأميم النفط الإيرانى – فى ٢٠ مارس ١٩٥١م – فضلاً عن توطيد علاقاته مع حزب «توده» الشيوعى ، وهذا ماكان يؤكد عليه المسئولون الإنجليز دومًا لحث الأمريكيين على الإطاحة بحكومة مصدق . وبعد أن أخفقت مساعى الإنجليز والأمريكيين فى تسوية الأزمة بين إيران وبريطانيا حول النزاع المنظور أمام محكمة العدل الدولية بشأن الاستفادة من النفط الإيرانى ، حذر الرئيس الأمريكى أيزنهاور د. مصدق بتجميد أمريكا معوناتها لإيران إلا أن مصدق رد عليه بتحذير مماثل بأن هذا التصرف من قبل أمريكا سيدفعه أكثر نحو الشيوعية والاتحاد السوفيتى . فى الوقت نفسه قام مصدق بطرد البريطانيين من إيران فى خريف عام ١٩٥٢م ، وحل المجلس فى أغسطس من عام ١٩٥٣م ، فحث الإنجليز والأمريكيون الشاه على عزله وتعيين

وحل زاهدي محله، وامتنع مصدق عن تنفيذ قرار الشاه، وأعلن الانقلاب ضده مما أفضى إلى عزم الشاه على الرحيل عن إيران وتوجه إلى العراق ومنها إلى روما، وحدثت حالة من الفوضى في الشارع الإيراني وجند الحزب الشيوعي (توده) علانية لمصدق – بتحريض من الإنجليز – وقاموا بلصق منشورات التي تنادي بالموت للإسلام وبدولة المجتمع الشيوعي على الجدران، ومزقوا صور الشاه وأبيه، ووضعوا محلها صور لنبي معالم الاشتراكية – وفق قولهم – وعليه هرع الأمريكيون آمرهم لتنفيذ مخطط لقلب حكومة مصدق بوساطة كرميت روزفلت أحد الأعضاء البارزين في جهاز مخابرات الإنجليزي، وعاد الشاه إلى إيران وتم القبض على مصدق وأدانته بالسجن ثلاث سنوات، وتولى زاهدي رئاسة الوزراء في ١٩ أغسطس ١٩٥٣م، وبدأ بإعلان الحكومة العسكرية فور توليه منصبه في محاولة منه للسيطرة على الأوضاع المتردية في الدولة.

[انظر: خاطرات منصور رفيع زاده، ص ١٠٠، ص ١٠٦؛ منوچهر محمدي: تحليلي بر انقلاب إسلامي، ص ٧٥، ص ٧٦].

[٢٣] ولد علم في شهر أغسطس عام ١٩١٩م من أسرة المشهورة بنفوذها الواسع في الأقاليم الجنوبية الشرقية والأقاليم الشرقية لإيران، عين محافظا على سيستان وبلوجستان في أوائل عام ١٩٤٥م، وفي عام ١٩٥٠م تولى وزارة الداخلية، وفي السادس والعشرين من يوليو عام ١٩٦٢م تولى رئاسة الوزراء، وساعد الشاه على نشر مبادئ ثورة البيضاء، وحقق معارضيه بوحشية ثورات الشعب، وفي عام ١٩٦٦م عينه الشاه رئيسا للبلاط وظل في هذا المنصب حتى طالبه الشاه بتقديم استقالته عام ١٩٧٧م نظرا لإصابته بمرض السرطان، وهنا فقد الشاه شخصية علم خلال المراحل السابقة بالولاء المطلق للشاه.

[انظر أسد الله علم: الشاه وأنا، إعداد: علي نقي عالي خاني، تعريب فريق من الفيروز لاري، تحت إشراف وتقديم: د. ... الطبعة الأولى، مكتبة مدبولي، القاهرة ١٩٩٣م، ص ١٥، ص ٣٦]

[٢٤] اتسمت شخصيته بالطموح الشديد والتطلع إلى المناصب المرموقة ، تولى وزارة الصحة فى حكومة قوام السلطنة ، كما شارك فى معظم الحكومات التالية إلى أن تولى رئاسة الوزراء فى الفترة من ٥٧ : ١٩٦٠م ، وتمكن خلالها من تأسيس حزب "مليون دولتى" – وطنيو الدولة – وعمل على الحد من سلطة الجهاز القضائى وزيادة سلطة المحاكم العسكرية . كما تولى إدارة انتخابات الدورة العشرين للمجلس عام ١٩٦٠م ، فخصص أغلبية المقاعد لحزبه مستخدمًا الضغط والتهديد والتزوير ، مستعينًا بقوات الشرطة والجيش مما أدى إلى استياء الأهالى فاندلعت المظاهرات فى المدن وعطلت الأسواق والمراكز التعليمية مما اضطر معه إلى تقديم الاستقالة فى صيف عام ١٩٦٠م تحت ضغط الرأى العام ، ليحل محله شريف إمامى فى رئاسة الوزراء .

[سيد جلال مدنى : تاريخ سياسى معاصر إيران ، ج١ ، ص ٣٤٠،ص٣٤٧] .

[٢٥] يتميز موقع إيران الجغرافى بخصائص فريدة ، ففى الوسط توجد هضبة صحراوية كبرى تمثل ٥٠٪ من مساحة البلاد ، تحيط بها مجموعة من الجبال متفاوتة الارتفاع والمناخ على هيئة عدد من السلاسل ، حيث جبال البرز من الشمال الغربى إلى نواحى الجنوب الشرقى والمرتفعات الشرقية من الشرق (نجستان) . وتبلغ مساحة إ يران مايقرب من ٦٢٧,٠٠٠ ميل مربع ، وأطول حدودها هى حدودها فى الشمال مع الاتحاد السوفيتى وفى الغرب مع العراق ، لكنها تشترك أيضًا فى حدودها مع تركيا فى الشمال الغربى ومع أفغانستان وباكستان فى الشرق ، أما حدود إيران الجنوبية فتسير بمحازاة الخليج . وقد أثار هذا الموقع الجغرافى الفريد على امتداد حقب تاريخية متعاقبة أطماع المحيطين بها لتأثيره على أمن المنطقة ككل ، وعلى حرية الحركة والملاحة فى هذا الجزء من العالم المؤدى إلى المحيط الهندى .

[Donald, N.wilber, IRAN Past and present, princeton University press princeton, New Jersey, Ninth, Edition, 1981, PP .3 - 73]

[٢٦] لم تكن العلاقات الإيرانية السوفيتية فى عهد محمد رضا شاه تسير على وتيرة واحدة، بل كان يكتنفها الهدوء والتصالح حينًا والتوتر والقلاقل حينًا آخر، فمثلاً نجد مساعى الحكومة السوفيتية لتوطيد العلاقات بينها وبين إيران بعد انقلاب ١٩ أغسطس ١٩٥٣م (٢٨ مرداد ١٣٣٢ ش) حتى انتهى الأمر إلى عقد معاهدة فى الثانى من ديسمبر عام ١٩٥٤م بهدف إنهاء المشاكل الحدودية والمالية بين الجانبين ، وتنازلت إيران بمقتضاها عن جميع الدعاوى المالية الخاصة بفترة احتلال الجيش السوفيتى الأراضى الإيرانية خلال الحرب العالمية الثانية . وفى أبريل من عام ١٩٥٧م تم عقد اتفاقية أخرى بين البلدين فى مجال تبادل السلع وكيفية الاستفادة من نهرى إرس واترك الواقعين على المناطق الحدودية بينهما إلا أن العلاقات بين البلدين اتخذت طابعًا آخر فى أواخر عام ١٩٥٨م بعدما عقدت إيران اتفاقية للتحالف العسكرى فى ٣١ أكتوبر من نفس العام مع الولايات المتحدة الأمريكية ، حيث رأت الحكومة السوفيتية أن هذه الاتفاقية تتعارض ومصالح الأمن والاستقرار فى منطقة الشرق الأوسط، وأنها ذات أثر سلبى على طبيعة العلاقات بينها وبين إيران ؛ لذا بدأت فى نشر دعاية واسعة النطاق ضد إيران ، فما كان من الحكومة الإيرانية سوى محاولة استرضائها ، فدعت إلى عقد مباحثات بين الطرفين وتم توقيع تحالف صداقة وعدم تعرض أى منهما للآخر فى يناير – فبراير عام ١٩٥٩م لكن مع ذيوع نبأ توقيع إيران اتفاقية أخرى للتحالف العسكرى مع أمريكا فى مارس عام ١٩٥٩م، توترت العلاقات ثانية بين الاتحاد السوفيتى وإيران واستمر هذا التوتر قرابة الثلاثة أعوام حتى تولى أسد الله علم رئاسة الوزراء – فى ٢١ يوليو ١٩٦٢م – وعمل على استئناف العلاقات ثانية مع الاتحاد السوفيتى . وفى الخامس عشر من ديسمبر عام ١٩٦٢م أبلغت الحكومة الإيرانية السوفيت بأنها لن تسمح بأن تكون أرض إيران تحت إمرة أية دولة أجنبية لإنشاء قاعدة عسكرية بها . وفى ٢٧ يونيه عام ١٩٦٣م تم توقيع معاهدة للتعاون الفنى والاقتصادى بين إيران والاتحاد السوفيتى أعقبتها اتفاقيات أخرى تختص بإنشاء مصانع لصهر الحديد وصناعة السيارات فى إيران ومد خطوط أنابيب الغاز من جنوب إيران

حتى أستارا . وفى عام ١٩٦٥م تم توقيع أول معاهدة التحالف العسكرى بين البلدين يتم بمقتضاها تزويد الاتحاد السوفيتى إيران بناقلات أفراد ومدرعات ومدافع مضادة للطائرات . وفى السنوات الأخيرة من حكم الشاه نجده يسعى لإيجاد نوع من التوازن فى علاقاته الخارجية بين الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتى ، وتمت مفاوضات سرية بين حكومته والحكومة السوفيتية يتم بمقتضاها قيام الاتحاد السوفيتى بإنشاء أضخم مشروع للتنقيب عن البترول فى المناطق الإيرانية الواقعة على بحر الخزر، كما أقنع الشاه منظمة الأوبك بقبول رغبة الاتحاد السوفيتى فى الحصول على النفط من دول الأوبك . وبالغ الشاه فى حرصه على إرضاء الاتحاد السوفيتى إلى حد مخالفته التقاليد السياسية والاعتبارات الإنسانية فى حالة اللجوء السياسى وذلك برفضه طلب أحد الطيارين السوفيت عام ١٩٧٦م تمكينه من اللجوء السياسى إلى الولايات المتحدة الأمريكية وإعادته إلى بلاده ليلقى مصيره المحتوم . وعندما بلغت الأحداث المناهضة للشاه ذروتها خلال عام ١٩٧٨م لم يكن قلب نظام الحكم فى إيران ضمن الأهداف التى سعى إليها السوفيت من خلال مشاركة حزب توده فى أحداث تبريز ، إنما كان ذلك من باب الضغط عليه . والحقيقة أن ثمة نقطة ماكانت تحكم العلاقات بين الاتحاد السوفيتى وإيران ، فقد كانت سياسة الشاه فى قمع الإسلام والحركات الإسلامية خير ضمان لروسيا لاستقرار الأمور فى الجمهوريات الإسلامية المحتلة فى الاتحاد السوفيتى . فى المقابل ، كان الشاه يرغب فى مساهمة الاتحاد السوفيتى فى العديد من المشروعات الخاصة بخطته فى التنمية ، وإحداث نوع من التوازن فى علاقاته مع الدول العظمى . إلا أن هذا التقارب السوفيتى - الإيرانى تبعه استياء شديد من قبل الولايات المتحدة الأمريكية ، وعدته أحد سلبيات الشاه فى سياسته الخارجية .

[غلام رضا نجاتى: تاريخ بيست وپنج سالة إيران، ج١، ص ٢٠٣، ص ٢٠٤ . أحمد مهابة ، إيران بين التاج والعمامة، ص ٣٣ ، ص ٣٤ . جان . دى . استمپل : درون انقلاب إسلامى ، ص ١٠٤] .

[٢٧] جاءت ثورة الضباط الأحرار فى مصر فى ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢م بنظام كان يمكن أن يكون حليفًا حقيقيا لإيران ، إلا أن التطورات التى شهدتها الأخيرة (انقلاب ٢٨ مرداد ١٣٣٢ ش - ١٩ أغسطس ١٩٥٣م) أضاع هذه الفرصة ، لاسيما وأن الزعيم الجديد لمصر - جمال عبد الناصر - وجد نفسه أمام نظام قام بدعم القوى الأجنبية بعد أن تنحى د. مصدق عن السلطة فى إيران ، كما كان للتطورات المتزامنة على الصعيد الدولى دور كبير فى توتر العلاقات بين الجانبين ، إذ أن قيام الحرب الباردة أدى إلى ظهور التكتلات الأيديولوچية والفكرية والسياسية فى محورى الشرق والغرب وكان طبيعيا أن تتحول منطقة الشرق الأوسط بسبب أهميتها الاقتصادية وحساسيتها الإستراتيچية إلى ساحة مواجهة لهذه الحرب بين الرأسمالية والاشتراكية ، وعلى الرغم من مساعى أمريكا وبريطانيا منذ عام ١٩٥٢م لإيجاد نوع من التحالفات الإقليمية ضد الشيوعية فى الشرق الأوسط ، فإن رفض إيران (فى مرحلة د. مصدق) ومصر (فى حكومة الضباط الأحرار) دفع باقى الدول فى المنطقة إلى رفض مثل هذه المقترحات ولم يتغير الوضع إلا بعد سقوط مصدق .

وقد ساهم عدد من التطورات ، بداية من عام ١٩٥٤م فى تفاقم حدة التوتر بين مصر وإيران ، منها على سبيل المثال : قيام حلف بغداد عام ١٩٥٥م ، تأميم قناة السويس عام ١٩٥٦م ، العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦م ، الوحدة بين مصر وسوريا عام ١٩٥٨م والعلاقات بين إيران وإسرائيل فى أواخر الخمسينيات . كما قام جمال عبد الناصر بخطوات عدت بأنها ضد إيران مثل : تبديل اسم الخليج الفارسى إلى الخليج العربى فى اجتماع الجامعة العربية عام ١٩٦٣م ، واعتبار خوزستان جزءًا من عربستان من جانب مؤتمر الحقوقيين العرب عام ١٩٦٤م . كما عمد جمال عبد الناصر إلى دعم القوى المعارضة للشاه وسمح لها بالتدريب على قتال الشوارع فى معسكرات مصرية وذلك خلال عامى ٦٥ ، ١٩٦٦م .

إلا أن الخلافات قد خفت حدتها فى أعقاب هزيمة يونيو عام ١٩٦٧م حيث انشغلت مصر بإعادة الإعمار اقتصاديا وعسكريا وبدأت إيران تدعم موقف

مصر والعرب حيال إسرائيل، وطالبت بانسحابها من الضفة الغربية وقطاع غزة مما مهد إلى استئناف العلاقات ثانية بين مصر وإيران فى أغسطس عام ١٩٧٠م . ومع وصول السادات للحكم فى مصر لم يكن ثمة خلاف بينه وبين الشاه حول خريطة القوة فى النظام الدولى ، فضلاً عن أن صداقة الشاه مع السادات أثرت فى تغيير رؤية الأخير للاتحاد السوفيتى مما أدى إلى طرد مصر المستشارين العسكريين السوفيت من أراضيها عام ١٩٧٢م ، كما عزف السادات عن دعم مواقف حزب البعث العراقى ضد إيران ، وردت إيران بإمداده خلال حرب أكتوبر ١٩٧٣م بكميات من النفط لتمويل الطائرات وتشغيل الفرق الآلية ، وتكفلت المستشفيات الإيرانية بعلاج جرحى الحرب المصريين ، وسمح الشاه لطائرات النقل السوفيتية ببناء جسر جوى بين موسكو ودمشق عبر الأجواء الشمالية الغربية لإيران ، كما وضع القيادة الجوية الإيرانية للنقل العسكرى فى أقصى درجات التأهب تحسباً لنقل قوات إلى سوريا إذا مادعت الضرورة .

وقد بلغ من إيجابية هذه العلاقة الخاصة بين الشاه والسادات أن حاول الشاه أن يقوم بدور مهم لإجراء حوار مباشر بين الرئيس السادات والإسرائيليين ، ودعمت إيران مبادرة السادات فى وقف إطلاق النار مع إسرائيل وعقد معاهدة لإنهاء النزاعات ، كما كانت أحد الأطراف المؤيدة لمحاولات كيسنجر للمصالحة بين مصر وإسرائيل ، وهكذا تحولت إ يران فى السبعينيات إلى إحدى الدول الداعمة لمصر ، وقامت بتنفيذ مشاريع صناعية وزراعية مشتركة ومنح قروض . وفى المقابل سمحت مصر لإيران بالاستفادة من موانئها على ساحل البحر الأبيض المتوسط فى عملياتها التجارية مع تلك المنطقة .

[عبد الرضا هوشنگ مهدوى : سياست خارجى إيران در دورة پهلوى ، تهران ١٣٧٣ش ، ص ٩٣ ، ص ٣٦٨ . حميد أحمدى : العلاقات الإيرانية المصرية والنظام الدولى المعاصر ، مقال فى فصلية إيران والعرب ، العدد الرابع ، السنة الثانية ، ربيع عام ٢٠٠٣م ، ص ٤٧ : ص ٥٥] .

[٢٨] كانت العلاقات بين بغداد وطهران يسودها التوتر خلال فترة حكم محمد رضا شاه ، فقد أعلنت العراق فى أوائل عام ١٩٦٩م ملكيتها لشط العرب ، وهددت باستخدام القوة العسكرية للحيلولة دون عبور البارجات الإيرانية ، وعدت إيران هذا من موقفها خرقًا للاتفاقية المبرمة بين الدولتين منذ ثلاثين عامًا ، وتتولى الدولتان بموجبها إدارة شط العرب ، فما كان من النظام العراقى إلا أن قام بطرد عشرات الآلاف من الإيرانيين المقيمين فى الأراضى العراقية . وفى أكتوبر من عام ١٩٧١م استولت القوات الإيرانية على جزر «أبو موسى وطنب الكبرى وطنب الصغرى» ، فزادت حدة التوتر بين الدول العربية وإيران، وقطعت الحكومة العراقية علاقتها مع إيران ، ووقعت اتفاقية صداقة وتحالف عسكرى مع الاتحاد السوڤيتى ، مما دفع الحكومة الأمريكية – برئاسة نيكسون– على حث الأكراد فى العراق للقيام بثورة ، وتعاون الشاه مع الأكراد ، ودعمت إسرائيل هذا التعاون . وبدأ تدفق العون المادى والعسكرى على الأكراد بهدف إضعاف البنية العسكرية للعراق كرد فعل لتعاونها مع السوڤيت ، وأنهك نشاط الأكراد الحكومة المركزية فى العراق حيث تكبدت خسائر فادحة فى الأسلحة والأفراد، فتوسط الرئيس الجزائرى – هوارى بومدين – لحل الخلاف القائم بين إيران والعراق ، ونجح فى عقد جلستين فى حضور محمد رضا شاه وصدام حسين – نائب الرئيس العراقى آنذاك – وفى مارس من عام ١٩٧٥م وافق الطرفان على إنهاء الخلافات بينهما والاعتراف بأن منطقة "طالوج" فى شط العرب هى الحد الفاصل بين الدولتين ، واتفقا على تأمين الحدود بما يحول دون وقوع أى خلل لأى من البلدين ، وتم ترحيل ٩٠ ألف كردى من العراق إلى إيران لإنهاء أزمة الأكراد ، وتعهدت أمريكا خلال المباحثات بالكف عن دعمها للأكراد .

[غلام رضا نجاتى : تاريخ بيست وپنج سالة إيران ، ج١ ، ص٣٥٤ : ٣٥٧ . حسين فردوست : ظهور وسقوط سلطنت پهلوى ، ج١ ، ص ٥٥٧] .

[٢٩] كان الحاج آقا مصطفى يعيش فى منفاه مع والده بالعراق ، وكان موته أحد العوامل التى استغلت لبلورة حركة المعارضة الدينية والشعبية ضد حكم الشاه ، فقد زعم أنصار الخمينى أن عملية القتل كانت من تدبير عملاء الساواك

بالتواطؤ مع المخابرات العراقية حينما لقى مصرعه فى حادث سيارة غامض ، بينما زعم البعض الآخر أنه مات مسموماً وذلك طبقًا لتقرير الطبيب الشرعى الذى قام بالكشف عليه عند نقله إلى المستشفى ، كما زعموا أن الطبيب قد اعتقل من جانب السلطات العراقية مما يؤكد وجهة نظرهم بضلوع المخابرات العراقية فى الحادث . والجانب الأخير من جانب أنصار الخمينى فيه جانب من الصحة وذلك طبقًا لشهادة شهود العيان الذين أكدوا على ظهور علامات التسمم على السيد مصطفى ، وكذلك رد الخمينى نفسه على سؤال أحد الصحفيين بأن ابنه كان فى صحة جيدة قبل وفاته بيوم واحد ، وأن أشخاصًا مشبوهين كانوا قد زاروا ابنه فى داره عشية اليوم الذى لقى حتفه فى صبيحته . ولم تكن هذه الحادثة المريعة لتفوت على القوى الدينية التحررية فى قم ، فقد استمرت حفلات التأبين ومجالس العزاء لفترة طويلة كان يحضرها ممثلون عن الحركة الإسلامية فى كل أنحاء إيران وأصدروا بيانًا يتضمن عشرة نقاط من أهمها عودة الخمينى من منفاه ، وإعادة فتح المدرسة الفيضية ، وحل حزب رستاخيز . ولم يجد النظام من حيلة سوى قيامه بحملة اعتقالات جديدة ونفى كبار المشتركين فى مجلس العزاء إلى مناطق نائية فى إيران .

[أحمد مهابة : إيران بين التاج والعمامة ، ص ٢٢٢ . إبراهيم الدسوقى شتا : الثورة الإيرانية (الصراع ، الملحمة ، النصر) ، ص٢٤٦ ، ص ٢٤٧] .

[٣٠] فى السابع من يناير عام ١٩٧٨م نشرت صحيفة "اطلاعات" فى صفحتها السابعة مقالاً تحت عنوان "إيران والاستعمار الأحمر والأسود" – إيران واستعمار سرخ وسياه – بقلم أحمد رشيدى مطلق أشار فيه إلى إصلاحات الشاه التى يقف الشعب كله مؤيداً لها اللهم إلا آية الله الخمينى عميل الاستعمار عديم الإيمان ، وشكك فى وطنيته وفى أصالة نسبه كإيرانى ، حيث قال : إن الخمينى ينحدر من أصل هندى وإنه كان يكتب شعراً فى شبابه فى الغزل يذيله بتوقيع "هندى" ، وبعد الهجوم والتعرض الصارخ بالإمام طالب الكاتب النظام بأن يواصل مسيرته نحو التقدم والرقى ، وألا يلقى بالاً إلى الأصوات المنفردة التى تحاول أن تعرقل المسيرة .

وأحدث نشر المقال جلبة فى المجتمع الإيرانى ، ودارت الاستفسارات حول كاتبه وأسبابه من وراء ذلك ، وعد البعض كاتبه هو داريوش همايون وزير الإعلام آنذاك ، إلا أنه نفى ذلك فى خواطره مؤكداً أن المقال تم إعداده فى مكتب رئيس الوزراء عباس هويدا وبأوامر منه . وهذا هو الأقرب إلى الصواب ، فلابد وأن النظام كان يرغب فى أن يوضح للعالم الغربى وأمريكا أن حركة المعارضة فى إيران ذات جانب دينى خالص ، وأن معارضى النظام ماهم إلا حفنة من رجال الدين الرجعيين المتعصبين ، وأن منح الحريات فى مثل هذه الظروف سيفضى إلى مزيد من الفوضى فى البلاد ، وسيلقى بأمن المنطقة ومصادر البترول ورؤوس الأموال الغربية فى الخطر .

وعلى أية حال ، فقد جوبه نشر المقال بردود أفعال عنيفة فى المحافل الدينية بمدينة قم ، فقد توقفت الدراسة فى الحوزات العلمية ، واندلعت المظاهرات فى الشوارع وحمل المتظاهرون شعارات مؤيدة للخمينى مناهضة الحكومة ، وعطلت الأسواق ، وهاجم الأهالى مقر حزب رستاخيز مما أدى إلى تصدى رجال الشرطة لهم ، وتم قتل أربعة عشر شخصاً وجرح عدد كبير ، كما تم القبض على عدد من رجال الدين ونفى بعضهم إلى مناطق نائية ، وعلى أثر مذبحة قم ثار الأهالى فى المدن الأخرى كتبريز وأصفهان ومشهد ، وارتكب جند الشاه جرائم أخرى ضد الأهالى ، وأبرقت الجمعية الإيرانية للدفاع عن حقوق الإنسان إلى رئيس الوزراء الإيرانى وأيضاً إلى السكرتير العام للأمم المتحدة تحتج على نشر المقال وعلى ماورد فيه من إلحاق الإهانة بالإمام والتعريض به ، وطالبت الحكومة الإيرانية بالقبض على كاتب المقال والمسئولين عن المذابح وأخذهم بالعقاب ، كما توالت المظاهرات فى كل من طهران ، ويزد ، ومشهد ، وخمين ، ونجف آباد ، وميانه ورضائية مع إقامة مراسم الأربعين لشهداء قم وتبريز ، وكان رجال الشرطة يتصدون للأهالى دوماً بالعنف مما أسفر عن سقوط المزيد من القتلى والجرحى .

[انظر ، تاريخ بيست وپنج سالة إيران ، لغلا مرضا نجاتى ، ج٢ ، ص ٦١ : ص ٧٣ . منوچهر محمدى : تحليلى برانقلاب إسلامى ، ص ١٤٧] .

[٣١] توالت المظاهرات العارمة من قبل جموع الشعب على مختلف طبقاته كرد فعل طبيعى إزاء نشر مقال صحيفة "اطلاعات" فى السابع من يناير عام ١٩٧٨م وعم الإضراب كل الجامعات الإيرانية ، وتصاعدت حدة المظاهرات الطلابية خاصة فى جامعة آريامهر الصناعية مما اضطر معه الحكومة إلى إغلاقها ، ولما لم يؤد هذا الحل إلى نتيجة ، أصدرت قرارًا بنقل الجامعة إلى أصفهان وتحويل مقرها فى طهران إلى ثكنة عسكرية ، ورفض أساتذة الجامعة تنفيذ هذا الأمر ، فأوقفت الحكومة صرف رواتبهم وهنا قام تجار السوق بفتح حساب اكتتابى فى أحد البنوك لصرف رواتب الأساتذة ، فلم تجد الحكومة بدا من العدول عن قرارها بنقل الجامعة .

[إبراهيم الدسوقى شتا: الثورة الإيرانية (الصراع، الملحمة، النصر)، ص ٢٦٥].

[٣٢] من القضايا المشهورة فى إيران قضية أزمة الطاقة التى حدثت فى النصف الثانى من عام ١٩٧٧م للخلل الفنى نتيجة الدراسة الخاطئة لأحد السدود التى قام بها أحد بيوت الخبرة الأمريكية ، وأرغمت إحدى الشركات الفرنسية على تنفيذها رغم اعتراضها عليها ، فتسبب الخلل الفنى فى السد فى عجز كبير فى الطاقة الكهربائية واضطرت الحكومة إلى إغلاق مائة وثمانين مصنعًا وإعطاء عمالها عطلة لمدة شهرين ، بالإضافة إلى الخسارة التى سجلها تسعمائة مصنعًا طبقًا للبيانات الرسمية التى نشرت آنذاك وأدت إلى خسارة قدرها ٤٠٪ من الإنتاج العام للدولة ، واضطرت الحكومة إلى قطع التيار الكهربائى لمدة خمس ساعات يوميا بالتناوب فى كافة أنحاء إيران .

[أحمد مهابة : إيران بين التاج والعمامة ، ص ١١٢] .

[٣٣] تتمثل مبادئ الحزب الثلاثة فى :-

١- النظام الإمبراطورى .

٢- الدستور .

٣- ثورة الشاه والشعب .

[٣٤] ولد بيژن جزنى فى مدينة طهران عام ١٩٣٧م من أسرة ينتمى غالبية أفرادها إلى حزب توده ؛ لذا انضم جزنى وهو فى العاشرة من عمره إلى لجنة الشباب التابعة للحزب ، وتم اعتقاله بعد انقلاب مصدق عام ١٩٥٣م وظل فى السجن لمدة عامين تعرف خلالها على بعض عناصر المقاومة وتمكن من تشكيل اتحاد أو جماعة قوية مناهضة للنظام فى محاولة منه لإعادة الحياة ثانية إلى حزب توده . هذا وقد درس جزنى الفلسفة فى كلية الآداب - جامعة طهران فى الفترة من ٦٠ : ١٩٦٣م كان مسئولاً خلالها عن الدعاية لنشاط جماعته داخل مجتمع الجامعة ، ونظراً لدماثة خلقه وحسن سمعته وشعبيته العريضة تمكن من استمالة عدد لابأس به من الطلاب إلى جماعته ، وقد اعتقل أكثر من مرة بسبب حثه للطلاب على القيام بأعمال التظاهر والاعتصام .

هذا وقد حصل جزنى على درجة الدكتوراه بتقدير امتياز فى موضوع "نيروهاى انقلاب مشروطيت إيران" - أى قوى ثورة إيران الدستورية - وفى نفس العام مالت جماعته إلى المقاومة المسلحة حتى تم القبض عليه فى عام ١٩٦٧م . ومن أشهر مؤلفاته : "چگونه مبارزة مسلحانة توده أى مى شود"؟ - كيف تصبح المقاومة المسلحة شعبية ؟ - ، "نبرد باديكتاتورى" - مناهضة الديكتاتورية - بالإضافة إلى مجموعة من المقالات فى السياسة والاقتصاد. أما عباس السوركى فهو من مواليد مازندران، درس العلوم السياسية فى جامعة طهران ، وكان عضواً فى حزب توده واشترك مع جزنى فى نشاط المقاومة ضد النظام الحاكم ، واعتقل معه فى عام ١٩٦٧م وتعرض لأعمال التعذيب الجسدى والنفسى داخل السجن للإدلاء بأية معلومات حول أسرار جماعته إلا أنه أبدى مقاومة وصموداً مما أدى إلى حبسه فى زنزانة انفرادية .

[غلام رضا نجاتى: تاريخ بيست وپنج سالة إيران ، ج١ ، ص٢٨٠ : ص ٢٨٣، حاشية. سيد حميد روحانى : نهضت إمام خمينى ، ج٣ ، ص ٢٨٥ حاشية] .

[٣٥] تنسب هذه الثورة إلى ميرزا كوچك خان الذى كون هو ورفيقه ميرزا على خان ديوسالار لجنة باسم "لجنة اتحاد الإسلام" فى عام ١٩١٥م انضم إليها عدد كبير من الفلاحين ، وبدأت الحركة فى تنظيم بعض القوات مستعينة ببعض

الضباط الأتراك والألمان والنمساويين . وفى عام ١٩١٨م تمكنت الحركة من السيطرة التامة على منطقة جيلان ، وامتد نشاطها إلى مازندران واستر آباد . وفى عام ١٩١٩م كون كوچك خان حزب الغابة "جنگل" وبتوسع الحركة لم يعد للحكومة المركزية فى شمال إيران سوى الاسم فقط ، ومع أول صدام بين قوات الغابة وقوات الحكومة لجأ ميرزا كوچك خان إلى أعماق الغابة ، وكانت الفرصة مواتية للشيوعيين لاستغلال الحركة التى بدأت إسلامية ثم اتسمت من بعد بالازدواجية بين الإسلام والماركسية .

[سيد جلال مدنى : تاريخ سياسى معاصر إيران ، ج١ ، ص ٨٣] .

[٣٦] ولد فى مدينة مشهد عام ١٩٤٦م ، انضم إلى الجبهة الوطنية وهو فى المرحلة الثانوية ، كما كان عضواً نشطاً فى الجمعيات الإسلامية ، ظهر ميله إلى الماركسية أثناء دراسته فى كلية الآداب - جامعة طهران ، وكان من المتأثرين بأفكار فيدل كاسترو - فى كوبا- وغيره من ثوار أمريكا اللاتينية .

[غلام رضا نجاتى : تاريخ بيست پنج سالة إيران ، ج١ ، ص ٣٨٣] .

[٣٧] ينتمى إلى إحدى الأسر الشهيرة فى مشهد فى مجال مناهضة النظام البهلوى منذ عهد رضا شاه ، ومارست نشاطها السياسى من خلال تعاونها مع د. مصدق ثم حركة تحرير إيران . هذا وقد أسس أحمد زاده جمعية من التلاميذ المسلمين أثناء دراسته فى المدرسة الثانوية ، وضمن انتمائه للجبهة الوطنية كان يشارك فى المظاهرات المناهضة للنظام وبعد قدومه إلى طهران التحق بالكلية الصناعية بجامعة آريامهر ، ومنذ ذلك الحين بدأ يميل إلى الاتجاه الماركسى واطلع على آثار الثوريين فى أمريكا اللاتينية وكذلك على آثار الأديب الفرنسى الثورى رجيس ديبراى .

[المرجع السابق ، نفس الصفحة] .

[٣٨] حميد أشرف : من مواليد عام ١٩٤٦م، كان طالباً بالكلية الفنية جامعة طهران ، مارس نشاطه السياسى فى البداية من خلال حزب كادحى شعب إيران - زحمتكشان ملت إيران - ثم انضم إلى جماعة جزنى .

[غلام رضا نجاتى : تاريخ بيست وپنج سالة إيران ، ج١ ، ص ٢٨٣ حاشية] .

[٣٩] المائوئية : نسبة إلى زعيم الصين ماوتوسى تونج .

[٤٠] المعنى وفقًا للترتيب : النجم الأحمر ، هدف الشعب ، جبهة تحرير الشعب الإيرانى وكتيبة فلسطين .

[٤١] ولد الأول فى مدينة تبريز عام ١٩٣٨م من أسرة متوسطة الحال تنتمى إلى مجتمع السوق ، انضم فى البداية إلى الجبهة الوطنية وجماعة الطلاب الإسلامية ثم إلى حركة التحرير. تم القبض عليه فى مظاهرات الطلاب فى بهمن عام ١٣٤١ش (١٩٦٢م) وقضى سبعة أعوام فى السجن . وفى عام ١٩٦٣م أنهى دراسته فى فرع هندسة الآلات الزراعية ثم التحق بالخدمة العسكرية . وفى تلك الفترة اهتم هو ورفيقاه سعيد محسن وعلى أصغر بالاطلاع والبحث والدراسة بهدف تكوين منظمة سرية وإعداد المجال للمقاومة المسلحة ، وأثمر هذا التعاون عن تشكيل منظمة مجاهدى الشعب .

أما الثانى فقد ولد فى مدينة زنجان عام ١٩٣٩م من أسرة متدينة متوسطة الحال، وأثناء دراسته فى الكلية الفنية بجامعة طهران فيما بين عامى ٦٠ : ١٩٦٣م قام بنشاط واسع فى الجبهة الوطنية وحركة التحرير وتم اعتقاله عدة مرات كان آخرها فى عام ١٩٧١م .

أما على أصغر فهو من مواليد مدينة أصفهان عام ١٩٣٨م ، أمضى فترة دراسته الثانوية فى طهران ثم التحق بالكلية الفنية وبعد إنهاء دراسته التحق بالخدمة العسكرية ثم عمل فى مجال صناعة الأسلحة . وفى عام ١٩٧٠م بعثت به المنظمة إلى فلسطين ليقوم بالتدريب على العمليات الفدائية فى قواعد منظمة "فتح" ، ثم عاد سرا إلى إيران وبحوزته كمية من الأسلحة ، وظل من أنشط زعماء المنظمة حتى تم اعتقاله فى عام ١٩٧١م .

[غلام رضا نجاتي: تاريخ بيست وپنج سالة إيران، ج١ ، ص٢٩٣ ، ص٢٩٤] .

[٤٢] ردا على عمليات الاعتقال الموسعة من قبل جهاز السافاك إزاء أعضاء منظمة المجاهدين، قام المجاهدون بمهاجمة أحد مخافر الشرطة فى طهران فى أوائل عام ١٩٧٢م ، كما قاموا بتدمير مقر مجلة "اين هفته" – هذا الأسبوع – لاتهامها بنشر الثقافة الإمبريالية والعمل على إفساد أخلاقيات المجتمع .

وفى ٣١ مايو ١٩٧٢م، وبمناسبة زيارة الرئيس الأمريكى - ريتشارد نيكسون - إلى إيران قام المجاهدون بتدمير مقر جمعية إيران وأمريكا ، ومكتب إدارة الاستخبارات الأمريكية ، وفندق أنترناشيونال ، ومكاتب شركة جنرال موتورز وشركة بيبسى كولا، ومقر شركة النفط البحرية . وبعد قدوم الرئيس الأمريكى إلى طهران بخمس وعشرين دقيقة وقع انفجار آخر فى ضريح رضا شاه ، كما تم إطلاق النيران على سيارة رئيس الهيئة الاستشارية الأمريكية - هارولد برايس - وبرر المجاهدون عملياتهم بسبب تواجد ستة آلاف مستشار أمريكى فى إيران وجهود الولايات المتحدة الأمريكية فى ڤيتنام وفلسطين وعمان لقمع الحركات الثورية فى تلك المناطق .

وفى ٣ أغسطس عام ١٩٧٢م ، وأثناء زيارة الملك حسين إلى إيران ألقى المجاهدون قنبلة على مقر سفارة الأردن فى طهران احتجاجًا على هجوم الجيش الأردنى على الفلسطينيين فى سبتمبر من عام ١٩٧٠م . وبعد عشرة أيام تم اغتيال القائد طاهرى - رئيس مكتب الشرطة - بذريعة مسئوليته عن أحداث القتل العام التى تمت فى مدينة قم فى ١٥ خرداد ١٣٤٢ش (١٩٦٣م) وفى أواخر عام ١٩٧٢م ، قام المجاهدون بسلسلة من التفجيرات فى مقار : النادى الشاهنشاهى ، ومؤسسة الدفاع المدنى ، ومحال قورش والفردوسى ، ومخزن ذخيرة شرطة قم ومعرض الصناعات العسكرية . وشددوا من عملياتهم المسلحة فيما بين عامى ٧٣ : ١٩٧٥م ، فقاموا بحرب الشوارع وتشابكوا مع رجال الشرطة ، وقاموا بتفجير عشرة مبانٍ ضخمة ، منها مقار : إدارة التخطيط ، وشركة الخطوط الجوية الأمريكية ، وشركة شل النفطية ، وسينما راديوسيتى ، وأحد مكاتب الأمن بجامعة طهران وبعض شركات التصدير التى شاع تعاملها مع إسرائيل .

كما قام المجاهدون بتنفيذ سلسلة من الاغتيالات لشخصيات أجنبية وإيرانية مهمة ، مثل: الجنرال لويس هاوكينز نائب اللجنة الاستشارية العسكرية الأمريكية ، والعقيد سرجرد زندى پور المسئول عن سجن "كميته" ، وأحد ضباط القوات الجوية الإيرانية .

[غلام رضا نجاتى : تاريخ بيست وپنج سالة إيران ، ج١ ، ص٤١١ : ٤١٤] .

[٤٣] بعد سقوط النظام الشاهنشاهى وقيام الجمهورية الإسلامية نجد أن المجتمع الإيرانى كان ينقسم إلى أربع طوائف ، هى :

١ – طائفة الثوريين من طبقة رجال الدين المؤمنين بالأيديولوچية الإسلامية وزعامة الخمينى ، وقد أطلق عليهم من بعد جماعة «حزب الله» .

٢ – طائفة الليبراليين الوطنيين ، وكانت ضمن معارضتها لنظام الشاه تعارض أيضًا استخدام أسلوب المقاومة المسلحة ، وتؤمن بأحقيتها فى تولى زمام الأمور فى الدولة.

٣ – طائفة اليساريين المعارضين لنظام الشاه، المعارضين لإقامة نظام إسلامى، وسرعان ما انضموا إلى الصفوف المعارضة للجمهورية الإسلامية ، ويمثل هذه الطائفة مجاهدو الشعب وفدائيو الشعب .

٤ – الطائفة المؤيدة لنظام الشاه ، وكانت تتألف من رجال جهاز السافاك ، وأتباع الماسونية ، وبعض قادة الجيش ورؤساء الإدارات الحكومية ، وقامت بمجهودات عديدة للحيلولة دون إقامة نظام إسلامى فى إيران .

وكان لأتباع كل طائفة أيديولوچيتهم الخاصة وأهدافهم التى يرمون إليها ، وتباينت وجهات نظرهم فيما يتعلق بمستقبل إيران ، فعلى سبيل المثال نجد طبقة رجال الدين تسعى لإيجاد جمهورية إسلامية ، وترفض تحديث إيران وفق برامج الشاه ، وتصر على إنهاء التواجد الأمريكى فى الأراضى الإيرانية ، بينما يرى الوطنيون ضرورة الاستمرار فى برامج التحديث وعدم خروج أمريكا من الساحة الإيرانية بشكل فجائى وقاطع لمايترتب على ذلك من اضطرابات داخل الدولة . أما اليساريون ، فقد قام نضالهم الثورى على أساس استخدام السلاح والتوسع فى حرب المدن ، وكانوا يرفضون إقامة نظام إسلامى ، ويطالبون بإقامة نظام ديمقراطى على غرار نظام "كاسترو" فى كوبا .
أما الطائفة الموالية للنظام السابق فكانت ترغب فى السلطة ، وتسعى للحيلولة دون وجود نظام إسلامى .

واتحدت هذه القوى ذات الاتجاهات المتباينة تحت لواء الثورة الإسلامية ، إلا أن هذا الاتحاد لم يدم طويلاً بسبب الاختلاف الجذرى فى وجهات نظر كل منها ، وكثف الفدائيون من نشاطهم ضد الجمهورية الإسلامية منذ العام الأول لقيامها، وأعدوا عدتهم لما أسموه بـ «الثورة الثانية» ، وكانت حيلتهم السياسية فى البداية تقوم على تأليب الأقليات ضد الحكومة المركزية وحثها على إقامة حكم ذاتى ، وهذا ما حدث مع الأكراد فى الشمال الغربى لإيران فى شهر ديسمبر من عام ١٩٧٩م حيث هب الفدائيون لتأييد حركة الأكراد ومدها بالأسلحة لإضعاف قوة الحكومة المركزية .

وفى عام ١٩٨١م ، وفى أعقاب حملة الاغتيالات الموسعة التى قامت بها الحكومة الإسلامية ضد معارضيها من رجال النظام السابق ، أصدر المجاهدون بياناً يدينون فيه مثل هذا الإجراء ، ويطالبون بتشكيل محكمة شعبية علنية تضم نواباً من طبقات الشعب المختلفة ، كما طالبوا بحل الجيش وتجديد المؤسسة العسكرية ، وبمزيد من الحرية للمجاهدين لما أبدوه من مقاومة على المدى الطويل ضد نظام الشاه ، إلا أنهم لم يكتفوا بإصدار هذا البيان ، بل شرعوا فى تفجير مقر الحزب الجمهورى الإسلامى ، ودمروه على من فيه من رجال الثورة الإسلامية ، مما أفضى إلى قيام الحكومة بتشكيل الجهاز الأمنى (الساواما) لتعقب الخلايا السرية للفدائيين والمجاهدين والقضاء عليهم .

[منوچهر محمدى: تحليلى برانقلاب إسلامى، ص ١٥٦، ص ١٥٧ . جان. دى. استمپل : درون انقلاب إيران ، ص ٢٧١ ، ص٢٧٢ ، ص٢٨٩ ، ص٢٩٠ . أكبر خليلى : گام به گام باانقلاب ، جلدوم ، انشارات سوره ، تهران ١٣٧٧ ش ، ص٦١].

ثبت بأسماء المصادر والمراجع

أولاً - المصدر :

صادق زيبا كلام (دكتور) : مقدمة برانقلاب إسلامى ، انتشارات روزنة، چاپ سوم ، ١٣٧٨ ش .

ثانياً - المراجع الفارسية :

١ - إبراهيم سنجر : نفوذ أمريكا درإيران، انتشارات خوشة، تهران ١٣٦٨ش.

٢ - إبراهيم اليزدى : بررسى أوضاع كنونى إيران ، نشر مجموعة ١٧ ، شهر يور - بهمن ١٣٥٧ش .

٣ - أحمد كسروى تبريزى : تاريخ مشروطة إيران ، جلد أول ، چاپ دهم، تهران ١٣٥٣ش .

٤ - أكبر خليلى : گام به گام باانقلاب ، جلد دوم ، انتشارات سوره ، تهران ١٣٧٧ش .

٥ - پيترآورى : تاريخ معاصر إيران أزتاسيس سلسلة پهلوى تاكودتاى مرداد ١٣٣٢ش ، ترجمة محمد رفيعى مهر آبادى ، جلد دوم ، چاپ دوم ، تهران .

٦ - حسين فردوست : ظهور وسقوط سلطنت پهلوى، جلد أول، انتشارات اطلاعات ، تهران ١٣٧٤ش .

٧ - حميد أنصارى : حديث بيدارى ، نگاهى به زند گينامة آرمانى ، علمى وسياسى إمام خمينى أز تولد تا رحلت ، مؤسسة نظم ونشر آثار إمام خمينى ، چاپ هفتم، ١٣٧٨ش .

٨ - خمینی : صحیفة نور ، مجموعة رهنمود های إمام با مقدمة أزجناب آقای سید علی خامنه أی ، جلد أول ، انتشارات سهامی، بهمن ۱۳٦۱ش .

٩ - سید جلال مدنی : تاریخ معاصر إیران ، جلد أول ، تهران ۱۳٦۱ ش .

۱۰ - سید حمید روحانی : نهضت إمام خمینی ، جلد أول ، انتشارات واحد فرهنگی بنیاد شهید ، خرداد ۱۳٦٤ ش .

۱۱ - سید حمید روحانی : نهضت إمام خمینی ، جلد سوم ، مرکز إسناد انقلاب إسلامی ، چاپ أول ، ۱۳۷۲ش .

۱۲- عباس علی حمید زنجانی : انقلاب إسلامی وریشة های آن، کتاب طوبی ، چاپ دوازدهم ، تهران ۱۳۷۷ش .

۱۳- عبد الرضا هوشنگ مهدوی : سیاست خارجی إیران دردورة پهلوی، تهران ۱۳۷۳ش .

١٤ - علی أصغر حاج سید جوادی : نامه ها ، انتشارات تندر ، چاپ دوم ، ۱۳٥۷ ش .

۱٥- غلام رضا نجاتی : تاریخ سیاسی بیست وپنج سالة إیران ، دو جلد، انتشارات رسا ، چاپ چهارم ، تهران ۱۳۷۳ش.

۱٦- کلربریر ، پیربلانشه : إیران، انقلاب به نام خدا ، ترجمة قاسم صنعوی ، انتشارات سحاب ، ۱۳٥۸ ش .

۱۷ - منصور رفیع زاده (آخرین رئیس سابق ساواك در آمریکا) : خاطرات، ترجمة وحید أیمن بعنوان "شاهد از شاه تا دخالتهای آشکار أمریکا درإیران ، چاپ أول ، تهران ۱۳۷۷ ش .

۱۸ - منوچهر محمدی (دکتور) : تحلیلی بر انقلاب إسلامی ، انتشارات أمیر کبیر ، تهران ۱۳۷۷ ش .

۱۹ - ناظم الإسلام کرمانی : تاریخ بیداری إیرانیان ، تهران ۱۳٦۳ ش .

ثالثاً - المراجع العربية :

١ - إبراهيم الدسوقى شتا (دكتور) : الثورة الإيرانية ، الصراع ، الملحمة، النصر ، الزهراء للإعلام العربى ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٨٦م .

٢ - إبراهيم الدسوقى شتا : الثورة الإيرانية ، الجذور ، الأيديولوجية ، الزهراء للإعلام العربى ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٨٨م .

٣ - أبو الحسن بنى صدر : إيران غربة السياسة والثروة ، الترجمة العربية لدار الكلمة ، بيروت ١٩٧٩م .

٤ - أحمد مهابة : إيران بين التاج والعمامة ، دار الحرية للطباعة والنشر ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٩م .

٥ - أسد الله علم : الشاه وأنا ، إعداد على ناغى على خانى ، تعريب فريق من الخبراء العرب إشراف وتقديم د. رفعت سيد أحمد ، مكتبة مدبولى ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٩٣م .

٦- حميد أحمدى : العلاقات الإيرانية المصرية والنظام الدولى المعاصر ، مقال فى فصلية إيران والعرب ، العدد الرابع ، السنة الثانية ، بيروت ٢٠٠٣م .

٧ - على رشيدى (دكتور) : التنمية الصناعية فى إيران ، مقال فى فصلية إيران والعرب ، العدد الأول ، السنة الأولى ، بيروت ، ٢٠٠٢م .

٨ - محمد حسنين هيكل : إيران فوق بركان ، القاهرة ، ١٩٥١م .

٩ - محمد السعيد عبد المؤمن (دكتور) : الثورة الإيرانية ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٨١م .

رابعاً – المراجع الأجنبية :

1- Barry Rubin: Pavd with good intention, the American Experience and Iran, Peguin books, 1987.

2- Donald, N. wilber : Iran past and present, princeton university press princeton, New York, Ninth, Edition, 1981.

3- Robert Graham : Iran . The Illusion of power, st. Martin's press, New York, 1980.

4- Syrus Vance : Hard choices, Critical years in American policy, Simon and schuster, New York, 1983.

المؤلف فى سطور :

صادق زيبا كلام

- أستاذ بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة طهران .

- اهتم بالثورة الإسلامية فى إيران ، وحرص على عرض أسبابها دون أدنى تحيز أو تعصب لطبقة دون أخرى أو لطائفة دون غيرها ؛ حيث عرض الاتجاهات والرؤى المتباينة داخل إيران وخارجها .

المترجمة فى سطور :

الاسم : هويدا عزت محمد

المؤهل الدراسى :

ليسانس آداب - جامعة عين شمس بتقدير إمتياز (١٩٨٤م) .

ماجستير فى الأدب الفارسى - جامعة عين شمس بتقدير إمتياز (١٩٩٢م) .

دكتوراه فى اللغة والأدب الفارسى - جامعة عين شمس بمرتبة الشرف الأولى (١٩٩٦م).

الوظيفة : قائم بعمل رئيس قسم اللغات الشرقية - كلية الآداب - جامعة المنوفية.

المؤلفات :

١ - العلاقات الإيرانية الألمانية فى العصر الحديث وأثرها على الأدب الفارسى ١٩٩٨ .

٢ - اتجاهات فى إصلاح اللغة الفارسية فى القرن العشرين ١٩٩٩م .

٣ - صورة مصر فى الأدب الفارسى الحديث والمعاصر ٢٠٠٠م .

٤ - المسرح الإيرانى فى الربع الأول من القرن العشرين ٢٠٠٠م .

٥ - صورة المرأة فى الأدب الفارسى الحديث والمعاصر ٢٠٠٠م .

٦ - رواية لا تنسى "لمريم الجعفرى" . دراسة نقدية تحليلية مع الترجمة ٢٠٠١م .

٧ - منطق الطير لفريد الدين العطار وتوارى الظلال فى الشمس لباربرا فريشموت . دراسة مقارنة ٢٠٠٢م .

٨ - يهود إيران منذ أقدم العصور حتى الآن ٢٠٠٤م .

٩ - الثورة الإسلامية فى إيران ، الأسباب والمقدمات ٢٠٠٤م .

١٠ - "فاطمة الزهراء" للدكتور على شريعتى ، ترجمة إلى العربية ٢٠٠٥م .

١١ - البنية الفنية فى المجموعة القصصية "إمرأة فى مهب الريح" ٢٠٠٥م .